موسوعة العلامة البلاغي

الجزء الرابع

الهدى

إلى دين المصطفى

(المجلد الثاني)

مركز العلوم والثقافة الإسلامية
قسم إحياء التراث الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

موسوعة
العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

الهدى
إلى دين المصطفى / ج ٢

تحقيق: أسعد الطيّب

الجزء الرابع

المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة
مركز إحياء التراث الإسلامي

المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة

الجزء الرابع

موسوعة العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

مجموعة من المحقّقين

إشراف: **علي أوسط الناطقي**

إعداد: مركز إحياء التراث الإسلامي

الطباعة: مطبعة الباقري

الطبعة الثانية: ١٤٣١ق / ٢٠١٠م

الكمّيّة: ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

العنوان: قم، ساحة الشهداء، المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلاميّة

الهاتف: ٧٨٣٢٨٣٣ـ٠٢٥١

الفاكس: ٧٨٣٢٨٣٤

ص. ب: ٣٧١٨٥/٣٨٥٨

وب سايت: www.isca.ac.ir

البريد الالكتروني: nashr@isca.ac.ir

موسوعة العلّامة البلاغي / [تحقيق] مجموعة من المحقّقين؛ [إعداد] المركز العالي للعلوم والثقافة الإسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. ـ قم: دفتر تبليغات اسلامى، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامى، ١٣٨٦.

٩ ج.

ISBN: 978-964-2636-30-3
ISBN: 978-964-2636-31-0
ISBN: 978-964-2636-32-7
ISBN: 978-964-2636-33-4
ISBN: 978-964-2636-34-1
ISBN: 978-964-2636-35-8
ISBN: 978-964-2636-36-5
ISBN: 978-964-2636-37-2
ISBN: 978-964-2636-38-9
ISBN: 978-964-2636-39-6

فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.

كتابنامه.

مندرجات: ج صفر. المدخل، حياة العلّامة الشيخ محمّدجواد البلاغي. ج١ـ٢. آلاء الرحمن في تفسير القرآن. ج٣ـ٤. الهدى إلى دين المصطفى. ج٥. الرحلة المدرسيّة. ج٦. الرسائل الكلامية. ج٧. الرسائل الفقهية. ج٨. رسائل متفرقة. الفهارس العامّة.

١. اسلام ـ مجموعه‌ها. ٢. بلاغى، محمد جواد، ١٢٨٣ ـ ١٣٥٢ق. ٣. كلام شيعه اماميه ـ مجموعه‌ها. الف. المركز العالي للعلوم والثقافة الاسلامية، مركز إحياء التراث الإسلامي. ب. عنوان.

٢٩٧/٠٨ BP/٦/٤م٨

١٣٨٦

دليل
موسوعة العلّامة البلاغي

المدخل

حياة العلّامة الشيخ محمّد جواد البلاغي

الجزء الأوّل والثاني

١. آلاء الرحمن في تفسير القرآن / ج ١ و٢

الجزء الثالث والرابع

٢. الهدى إلى دين المصطفى / ج ١ و٢

الجزء الخامس

٣. الرحلة المدرسيّة والمدرسة السيّارة

الجزء السادس = الرسائل الكلاميّة

٤. أنوار الهدى

٥. البلاغ المبين

٦. مسألة في البداء

٧. التوحيد والتثليث

٨. أعاجيب الأكاذيب

٩. دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى

١٠. الردّ على الوهّابيّة

١١. نَسَماتُ الهُدى ونَفَحاتُ المَهْديِّ

١٢. نصائح الهدى

الجزء السابع = الرسائل الفقهيّة

١٣ ـ ١٧. العقود المفصّلة:

١. عقد في قاعدة على اليد ؛

٢. عقد في تنجيس المتنجّس ؛

٣. عقد في بعض مسائل العلم الإجمالي ؛

٤. عقد في مسألة الصلاة في اللباس المشكوك فيه ؛

٥. عقد في إلزام غير الإمامي بأحكام نحلته .

١٨. تعليقة على بيع المكاسب

١٩. رسالة حرمة حلق اللحية

الجزء الثامن

رسائل متفرّقة:

٢٠. رسالة في شأن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام

٢١. مراسلاته

٢٢. شعره

الفهارس العامّة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة الثالثة عشرة

في دفع الاعتراضات على قدس القرآن الكريم

وفيها فصول

الفصل الأوّل

في الاعتراضات عليه من حيث العربيّة

وقد وسوس بها الضلال لأهواء شرذمة غرَّها الجهل، وأغرتها العصبيّة، فشطّت عن القصد، وعكفت على الشطط، فكشفت عن مغطّاها. وفَضَحها نَضْحُها [1]؛ ليعتبر المتبصِّر، ويبصر المتدبّر، كيف مُنِي الحقّ وابتليت الحقائق، واستفحل الجهل وقلّ الحياء وجمح الغرور. فكم من بادرة يجب التستّر بها حتّى في المستراح، قد سامها [2] الجهلُ في سُوق الأدب سَوم العِلق [3] الثمين، فسوّد بها وجوه الصحف، وشوّه به صورة العلم. فهل كان يلوح للخيال ويتراءى للوهم أنّ واحداً من الناس تستفزّه العصبيّة ويُمَنِّيه الضلال، ويُغرِيه الجهل بأن يتعرّض بطبيعته الجعليّة وقريحته الهمجيَّة، إلى الاعتراض على القرآن الكريم بالعربيّة. وقد علم الشرقي والغربي والعربي والعجمي والفاهم والغبيّ بأنّه لؤلؤ بحرها، وقلادة نَحْرها، وعقدها الفريد، وبكرها الوحيد، قد أَقْعَتْ [4] لباهرِهِ البُلَغاء،

١. النضح: الرشح، ونضح الإناء كعَرَق الإنسان. ويريد المؤلّف هنا أنّ إناء الماء ينضح ماءً وإناء النجاسة ينضح نجاسة. راجع الصحاح ١: ٤١١، «ن ض ح».

٢. السوم: هو تبايع السلعة، كلّ من البائع والمشتري يقدّر لتلك السلعة ثمناً. والسلعة النفيسة سومها غالٍ والرخيصة سومها واطئ. راجع الصحاح ٤: ١٩٥٦، «س و م».

٣. العِلق: النفيس من كلّ شيء. الصحاح ٤: ١٥٣٠، «ع ل ق».

٤. الإقعاء: نوع من أنواع الجِلسة. راجع: القاموس المحيط ٤: ٣٨٢، «ق ع و». والمؤلّف يريد أنّ البلغاء جلسوا مبوهتين لعلوّ بلاغة القرآن الكريم.

وسجدت لهيبته الفصحاء، وخضعت لسلطانه الخطباء، ففقأعين الحاسد، وأرغم أنف الشانئ[١]، ولم يُبقِ للعرب معلّقةً إلّا حطّها، ولا شاردة إلّا عَقَرها. حيث استقلّ من العربيّة بصدر النادي، ومحتبى الدست[٢]، ومَرَفّ اللواء[٣]، وذِروة المنبر. وصار موردها المستعذب ومنهلها المورود، ورَوضَها المرتاد، وإمامها المقدَّم، وقاضيها المحكَّم، فراج به سُوقها، وأزهر به رَوضها، وأشرق به وجهها، إلى أن أسفر صبح الإسلام على الأُمم، واتّحدت في هداه العرب والعجم، وتداخلت اللغات، وأُهجنت الألسن[٤]. فارفضّ نظام العربيّة[٥] وأشكلت مناهجها، والتبست مقاصدها وكتمت أسرارها، وتَعَاصى عرفانها، وأنِفَت دُرَرُها من سَوم الفَحّام، ونفرت أوانِسُها من غرائب الطبائع، وعزفت من هجائن القرائح.

وإذ علم المسلمون وغيرهم بالعلم اليقين أنّ القرآن الكريم ـ الذي هو أساس الدين، ومنار الهدى ومناط الحجّة، وأُنموذج الإعجاز ـ قد استولى من العربيّة على أفلاذ[٦] كَبِدها، وفرائد[٧] لآليها، ومفاتح كنوزها، فلا يوصل إليه إلّا من سبيلها، ولا تُقرَع بابه إلّا بيدها.

فلأجل ذلك نهض للتدرّب فيها، وللالتقاط من سقط مائدتها، والمَصّ من

---

١. الشانئ: المبغض. الصحاح ١: ٥٧، «ش ن أ».

٢. الدست: صدر المجلس راجع القاموس المحيط ١: ١٥٣، «د س ت». والاحتباء: نوع من الجلوس. ولا يكون صدر المجلس إلّا للرئيس.

٣. مَرَفّ اللواء: المكان الذي يرفّ فيه اللواء. وهو كذلك مكان الرئيس.

٤. أُهجنت الألسن: أُفسدت بما دخلها من اللحن، ويريد ضياع العربيّة الفصحى سليقةً بعد اختلط العرب بغيرهم من الأُمم.

٥. ارفضّ: تفرّق. الصحاح ٣: ١٠٧٨، «ر ف ض». النظام: ما به تماسك الشيء. قال في الصحاح ٥: ٢٠٤١، «ن ظ م»: النظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. يريد المؤلّف أنّ اللغة العربيّة السليقيّة ذهبت حين اختلط العرب بغيرهم من الأُمم.

٦. الأفلاذ: جمع فلذة، وهي القطعة. الصحاح ٢: ٥٦٨، «ف ل ذ». والمؤلّف يريد أنّ القرآن الكريم استولى على أنفس ما في العربيّة، فإنّ أفلاذ الكبد من أنفس ما في الجسد.

٧. فرائد اللؤلؤ: كباره. الصحاح ٢: ٥١٨، «ف ر د».

وَشَلِها[١]، فئة من الأجانب عنها، والمتطفّلين في معرفتها، فلم يدركوا من كلام العرب شيئاً إلّا بطفيف النقل، ولم يقرعوا منه أبواب أسرارها إلّا بالتظنّي فأسّسوا من بسيطها قواعد يتوكّؤون عليها في ترعرعهم فيها، وقد فاتهم منها يَتائِم درر[٢] لم تنتظمها قواعدها، ووقف دونها جدّهم، فلا يحظى ببعضها إلّا الغائص المتعمّق والقانص المترصّد. إذا أسعَد جدَّهما حسنُ الفطنة وصفاء القريحة، وتوقُّد الذكاء ومجانبة التقليد.

ثمّ إنّ الناس إذ ذاك على اختلافهم في البضاعة والإضاعة، توجّهوا بقواعدهم المذكورة إلى اكتشاف أسرار القرآن الكريم، وفهم نكاته في مقاصده، التي جرى فيها على النحو الأرفع من مراقي البلاغة وفذلكات العربيّة، فاختلف في ذلك وِردهم وصَدرهم، وقاموا وقعدوا، وتردّدوا بين صواب وخطإ، وسَداد ووهن، ووجدوا في القرآن الكريم موارد قد ذِيدَت[٣] عنها قواعدُهم، أوقصرت عنها منقولاتهم، أو عَشَت[٤] عنها أفهامهم، فتفاوضوا فيها تَفاوُضَ الحيران. ولا جَرَم فما كلّ زاد مبلّغ، ولا كلّ ظهرٍ مُوصِل، ولا كلّ عِدَة تجدي، ولا كلّ من سار وصل، ولا كلّ من استنجع[٥] ورد، ولا كلّ من طلب أدرك، ولا كلّ من سمع وعى.

والمتعرّب قد نكصت به العصبيّة في قهقرة جُعَل[٦]، وصار يطالب جلالة القرآن الكريم بالقواعد التي لأجل فهمه لفَّقها المولّدون بعد اللتيّا والتي، من وشل كلام العرب البسيط، ونَزْر شعرهِم الساذج، وبعد تعثّر الأفهام واضطراب الأوهام، وشذوذ الأفكار وتلجج القرائح، وطويل معترك في الخطأ والتَخطِئَة،

---

١. الوشل: الماء القليل. الصحاح ٥: ١٨٤١، «و ش ل».

٢. يتائم: جمع يتيمة، والدرّة اليتيمة: التي يعزّ نظيرها. انظر الصحاح ٥: ٢٠٦٤، «ي ت م».

٣. ذاد الشيء: طرده وأبعده. الصحاح ٢: ٤٧١، «ذ و د».

٤. العشا: سوء البصر بالليل والنهار. لسان العرب ١٥: ٥٦، «ع ش ا».

٥. استنجع: طلب مساقط المطر. لسان العرب ٨: ٣٤٧، «ن ج ع».

٦. القهقرة: الرجوع إلى خلف. لسان العرب ٥: ١٢١، «ق هـ ق ر». والجعل حشرة سوداء تطير، وهو من نوع الخنفساء، ولا تراه إلّا وهو حامل كرة من خرء الحيوان يدفعها برجليه إلى الوراء.

وتَرَدُّد مقالات في التَقريض والتَغليط، فقال:

ثمّ إنّ للفصاحة في العربيّة قواعد وأُصولاً وضعوها هم أنفسهم، وعدّوا في جملتها سلامة الكلام من ضعف التأليف ومن الغرابة والتنافر ومخالفة القياس. وسترى أنّ في القرآن ما يخالف قواعدهم، ونحن لا نذكر لك منه إلّا ما كانت المخالفة فيه بيّنة لا تحتمل التأوّل، على علم منّا أنّ المفسّرين قد تمحّلوا لكلّ من غلطاته تأوّلاً، وعزب عنهم أنّ مجرّد احتياجه إلى ذلك هو حجّة عليه. ولو سلّمنا بما حاولوه من الحذف والتقدير، لستر غلطه تارة، وكشف معناه أُخرى، لم يبق ثَمّ من داعٍ لوضع ما وضعوه من القواعد، ولأصبح كلّ لحن وتأوُّله بل عدُّه من أنواع البديع ممكن[1] على طريقتهم[2].

هذا كلامه.

ولا تستعجل التسجيل على مفردات شططه، ومكرّرات لَغَطِه، فإنّ مباحثنا الآتية إن شاء الله لزعيمة بذلك، تُوقِفُك على هفواته، وتأخذ بيدك في مَداحِض زَلَلِه. فلنقصر التعرّض هاهنا على تمويهه بمولّدات القواعد السطحيّة، ومستطرفات الأُصول التابعة، وقاصر القياس المجعول، واعتراضه بالحذف والتقدير.

وإنّا نسألك يا من يعاف المُباهَتَة[3]، ويأنف من لَغَط الهذيان، هل مهّد هذه القواعد قحطان، أم هل عنونها عدنان، أو شعراء البادية، أو خطباء الحاضرة؟ وهل تفاوَضُوا[4] فيها في سوق عكاظ، أو تآمروا[5] عليها في دار الندوة[6]، أو عقدوا عليها حلف

١. هكذا في الأصل فحكيناه على مابه من الرفع وحقّه النصب؛ لأنّه خبر لـ«أصبح».

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٢.

٣. البهتان: الافتراء والكذب. لسان العرب ٢: ١٢، «ب ه ت».

٤. تفاوضوا: تجارَوا في إظهار الرأي، مثل تشاوروا. راجع القاموس المحيط ٢: ٣٥٣، «ف و ض».

٥. تآمروا: تشاوروا. لسان العرب ٤: ٢٩، «أ م ر».

٦. دار الندوة: كانت بلصق المسجد الحرام، يتشاور فيها من قريش من بلغ الأربعين من عمره لأُمورهم المهمّة، بناها قصيّ بن كلاب، ودخلها النبيّ الكريم ﷺ قبل سنّ الأربعين لما رأوا من رأيه وعقله.

الفضول؟[١] وهل انعقدت عليها للعرب المجامعُ، أم أوجبت الآباء أن يجري القرآن على البساطة السطحيّة، أو حجرت عليه أن يتجاوز في فذلكاته وبديع الإشارة في مقاصده عن مبلغ نظر الأخفش ونضيج قريحة المبرّد؟

أفلا يعلم كلّ من له أدنى إلمام بتأريخ هذه القواعد والأُصول، وسبب وضعها ومأخذ قياسها، أنّها حادثة التشكيل، متعبّدة باللغة العربيّة، تابعة لها منقادة لنفوذ مأثورها، خاضعة لسلطان القرآن الكريم الذي تسالمت العرب العرباء على تقدُّمه وإمامته في لغتهم، حتّى خضعوا ـ وهم العتاة ـ لإعجازه، واعترفوا ـ وهم الخصوم اللُّدِ ـ بعلوّ مقامه.

وإنّا لنسألك بذمّة الحقائق وحرمة الصواب، أن تُحضِرَ المتعرّب بين شهود يَحتَشِمُهم في شططه، ويتستّر عنهم من تزويره، ولا يطمع بمخادعتهم، وسله:

متى جاء القرآن الكريم؟

ومن الذي جاء به؟

وما يكون من العرب؟

وما حال القرآن مع العرب، وما حالهم معه؟

ومتى وضعت فنون العربيّة ولُفِّقت أُصولها وخُمِّنَت أقيستها؟

ومن الذي وضعها؟

وكيف وضعها؟

وعمّن أخذها؟

ولماذا وضعها؟

وهل كان أبا العرب؟ أو واضع لغتهم أو قدوتهم فيها؟ أو المسيطر على غرائزهم وقرائحهم فيها؟

وسله أيضاً من هم الذين يقول فيهم: «هم. وهم أنفسهم»؟ أو ليسوا هم الذين

---

١. حلف الفضول: كان بين بني هاشم وبني المطّلب وبني أسد بن عبد العزّى وبني زهرة وبني تيم، تعاقدوا على أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلّا قاموا معه. سيرة ابن هشام ١: ١٤١.

يتكافحون في فهم العربيّة بالتخطئة والتغليط، ويقومون في تفهُّمِهما وَ يَقَعُون، تستهويهم الغفلة ويخذلهم الفهم[١]؟ ولا غرو فإنّ الغفلة من عوائد الإنسان، والعلم كلّه في العالم كلّه. وكم وكم أكدى[٢] السعي وضلّت الأفهام وزلّت الأقدام، ولا سيّما إذا تَزَبَّب الحصرم[٣]، وتمشيخ الصبيّ. ولا سيّما إذا أحكم الجهل والغفلة والتقليد في الذهن مقدّمة تحول بين الفكر وبين الحقيقة، وتسدّ عنه باب الصواب.

فلك العبرة بجماعة من النصارى يعدّون أنفسهم ـ ويعدّهم أصحابهم ـ من أهل العلم والوصول، فإنّهم قد وقعوا في مخالفة اعتقادهم وجماعتهم وجامعتهم من حيث لا يشعرون، وارتبكوا في الشطط على كتابهم وذهبت بهم الوساوس أنّى شاءت. ولنقتصر من شواهد ذلك على موارد:

الأوّل والثاني: قال البستاني في الجزء الخامس من دائرة المعارف:

وبعض مفسّري الكتاب المقدّس المدقّقين ذهب إلى أنّ قصّة بلعام المدرجة في سفر العدد ص ٢٢ ـ ٢٤ دخيلة. وذهب آخرون إلى أنّ كلام الأتان عبارة عن

١. فلو أنّ واحداً من أبلغ خطباء الإنكليز وأحذقهم في صناعة الإنشاء، كتب في أوائل القرن الثامن عشر كتاباً في شريعة المملكة وآدابها، وتعلّق غرضه بأن يكتبه على أبلغ أساليب الإنكليزيّة، في مراعاته لمزايا محاوراتها وفذلكاتها في مقاصدها، فاحتفلت به المملكة، وسلّم باستحسانه العدوّ والصديق من أهل اللسان، وأذعنت عرفاؤهم باحتوائه على خصائص اللسان الإنكليزي في محاوراته وبدائع فذلكاته ولطيف إشاراته، وجعلوه أُنموذج خطابتهم وإمام إنشائهم.

ثمّ قام بعد مائة سنة أو أكثر جماعة من هنود الشرق، فحاولوا أن يفهموا شريعة المملكة وطقوسها و آدابها من ذلك الكتاب، فاستعانوا على ذلك بأن استنبطوا بتخمينهم من أشتات ما وصل إليهم من بسيط اللغة الإنكليزيّة وسطحيّها، قواعد وأُصولاً يتفهّمون بها ذلك الكتاب.

فهل ترى مع هذا أنّ واحداً يعرف قدره ويحافظ على شرفه، يعترض على ذلك الكتاب في مزاياه في لغته وفذلكاتها في مقاصده، وينتقد عليه بما أخطأه البسيط السطحي من تلك القواعد التي لفّقها أُولئك الأجانب؟ كلّا. ولكن داء الحمق داء عضال، ولا صادّ بعد خلع العذار.

٢. أكدى: أصلها إذا حضر الحافر البئر فوصل إلى صخرة لا يعمل فيها الحديد. انظر الصحاح ٦: ٢٤٧١، «ك د ى». والمراد كلل الأفهام وعدم وصولها إلى المراد.

٣. الزبيب: العنب الناضج المجفّف. راجع لسان العرب ١: ٤٤٥، «ز ب ب». والحصرم: أوّل ما يبدو ثمر شجرة العنب وهو حامض ولا يكون زبيباً أبداً. والمراد به الجاهل يدّعي العلم راجع القاموس المحيط ٤: ٩٨، «ح ص ر م».

رؤياً ظنّ بلعام أنّه رأى فيها ملاكاً وتوهّم أنّه سمع الأتان[١].

فأنكر بعضهم الملاك وكلام الأتانة، وجعل ذلك من الظنّ والوهم، وخالف صراحة العهدين أقبح مخالفة. وذلك لمقدّمات فاسدة استحوذت على أفكارهم، إذ سوّلت لهم امتناع كلام الأتانة وعاقليّتها لمثل هذه الأُمور، وإن اقتضت القدرة الإلهيّة ذلك. وما هذا إلّا من عدوى مجاورة الملحدين، ولكن هذا الإنكار تفضحه صراحة التوراة بوقوف مَلاك الربّ في الطريق ليقاوم بلعام، ورؤية الأتان له، ثمّ وقوفه في الخندق، ثمّ اجتيازه ووقوفه في مكان ضيق، ورؤية الأتان له في هذه الحالات قبل أن يراه بلعام. وأنّ الله فتح فم الأتانة وترادّت الكلام مع بلعام مرّتين، وكشف الله عن عيني بلعام فأبصر الملاك واقفاً وسيفه مسلول، وتراجع في الكلام مع بلعام مرّتين، ووقفا على قرار وموعد تعليم[٢].

ولاجل ذلك أقدم بعض المفسّرين المدقّقين على أن ينكروا كون قصّة بلعام من التوراة، فحكموا بأنّ ثلاثة فصول من سفر العدد هي مدسوسة ودخيلة في التوراة. كلّ ذلك ستراً على اعتقادهم الفاسد، ومكافحة صراحة التوراة له. ولا ينفعهم ذلك حتّى ينكروا صراحة العهد الجديد بتكلّم الأتانة ونطقها بصوت إنسان[٣]. وإشارته إلى قصّة بلعام المذكورة في التوراة[٤]. وهل تراهم بعد هذا أبقوا حيثيّة لسند العهدين؟ والبستاني مع ذلك يصفهم بالمفسّرين المدقّقين.

الثالث: نقل إظهار الحقّ في حقيقة الاعتقاد بالأرواح النجسة ـ مردة الجنّ ـ شيئاً من كلام بيلي، وهو من علماء البروتستنت. وحاصله أنّ تسلّط الأرواح النجسة وحديثها في العهد الجديد، وإيراد كثير منه في معجزات المسيح، إنّما كان رأياً غلطاً، ولكنّه لكونه رأياً عامّاً في ذلك الزمان وقع فيه مؤلّفو الأناجيل. وإصلاح رأي

---

١. دائرة المعارف، للبستاني ٥: ٥٦٣.

٢. انظر سفر العدد ٢٢: ٢٢ ـ ٣٦.

٣. رسالة بطرس الثانية ٢: ١٦.

٤. رسالة بطرس الثانية ٢: ١٥؛ رسالة يهوذا: ١١.

الناس في ذلك ليس جزءاً من الرسالة[1].

والمتكلّف وإن خالف إظهار الحقّ في ترجمة كلام بيلي إلّا أنّه أوضح فيه أنّ بيلي شاكّ في هذه الحقيقة، وأنّ الفصل فيها فوق طاقته، وأنّ جماعة من النصارى ينكرونها، ولهم على إنكارها أدلّة[2].

وإنّك إذا نظرت إلى حديث الأرواح النجسة في الأناجيل تجده يقارب ما ذكرته من تعاليم المسيح أو يزيد، ومع ذلك جاء قوم من متّبعي الإنجيل فجعلوه غلطاً لاأصل له، وماذاك إلّا لوسوسة عرضت لهم، وما منشؤها ومبدؤها إلّا العدوى بداء الطبيعة والإلحاد، والتعصّب على القرآن الكريم بإنكار الجنّ. فجرّهم هذا الضلال إلى أن يقولوا ما يرجع حاصله إلى أن مؤلّفي الأناجيل قد لفّقوا للمسيح أكاذيب معجزات مأخوذةمن أغاليط الآراء العامّة؛ ليداهنوا بذلك أصحاب تلك الآراء فيروّجوا بين العامّة أمر التثليث الذي يعترفون بأنّه وراء عقولهم، ويشدّد الأساقفة في المنع عن التفكّر في تعقّله. ويوجبون على الناس أن يطووه على غرّه ويقبلوه على البساطة. والحاصل أنّ هؤلاء المنكرين من النصارى لحقيقة الأرواح النجسة والشاكّين فيها، لم يعدوا أن جعلوا أناجيلهم أخسّ من كتاب كليلة ودمنة[3].

الرابع: حكى إظهار الحقّ أنّ لوطر ـ إمام فرقة البروتستنت ـ يقول في حقّ رسالة يعقوب: إنّها كلا. يعني لا اعتداد بها[4].

ونقل عن وارد كاتلك أنّ بومرن من علماء البروتستنت وتلميذ لوطر يقول:

إنّ يعقوب يَتمّ رسالته في الواهيات. وأنّ وائي تس الواعظ في نرم برك قال: إنّا تركنا قصداً مشاهدات يوحنّا ورسالة يعقوب. ثمّ ندّد برسالة يعقوب. وأنّ مكدي برجن سنتيورس قال: إنّ رسالة يعقوب تنفرد عن مسائل الحواريّين في موضع

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٣٧٤.

٢. الهداية ٣: ١١٧.

٣. هو كتاب حكم وضعت على شكل قصص فيها محاورات بين الحيوانات وأصله هندي. وهو مطبوع باللغة العربيّة. انظر الذريعة ١٨: ١٣٥، الرقم ١٠٨٢.

٤. إظهار الحقّ ٢: ٣٧١.

يقول: إنّ النجاة ليست موقوفة على الإيمان فقط، بل هي موقوفة على الأعمال أيضاً. وفي موضع يقول: إنّ التوراة قانون الحرّيّة[١]. انتهى كلامهم.

والمنشأ لأقوالهم هذه هو ما علق بأوهامهم وأحكمته فيها أهواؤهم من التعليم المنسوب لبولس بكفاية الإيمان في النجاة، كما جاهرت وأكّدت به رسالة العبرانيّين. فنقموا على رسالة يعقوب اعتبارها الأعمال في النجاة أيضاً. وحقّ لأهوائهم ذلك، فإنّ الأعمال الصالحة قيود باهظة للهوى المردي والنفس الأمّارة. وهب أنّها لازمة لحقيقة الإيمان، ومظهر صدقه، ومفتاح بابه، ورابطة دوامه، وثمرات غرسه، ولكنّ الهوى المطاع لمّا اضطرّته العادة إلى اسم الإيمان يقول: آمن بالثالوث فقط، وما عليك من هرج الأعمال الصالحة ومرجها.

ولمّا استشعروا من الكلمات المنسوبة لبولس أنّ معنى الحرّيّة هو الإباق عن الشريعة والتمرّد على أحكامها، بزعم الفداء بذبيحة الفادي الكريم وتعليقه على الخشبة، أنكر الأخير في الذكر على رسالة يعقوب قولها: إنّ التوراة قانون الحرّيّة، ولم يتدبّر صوابها في ذلك؛ لأنّ حقيقة الحرّيّة هو التخلّص من عبوديّة الهوى والشيطان، وإنّما يكون ذلك بالتمسّك بأدب الشريعة، والتقدّس باتّباع نواميسها الإلهيّة.

الخامس: قد ذكرنا في مبحث الختان من النسخ عن رسالة الكندي زعمه أنّ شريعة الختان لإبراهيم والمؤمنين، إنّما كان سببها علم الله بتغرّبهم إلى مصر وميلهم إلى الزنى، فوسمهم بهذه العلامة المشوّهة لتنفر منهم الزواني المصريّات فيكون ذلك عصمة لهم من الزنى[٢].

وليس المنشأ في هذا الشطط إلّا أنّ هذا الرجل أُشرب في قلبه وهواه رفع النصارى لشريعة الختان، مصانعةً لأهواء الأُمم الذين لايختتنون. ولم يبال بأنّ كلامه هذا يرجع إلى تغليط موسى ويوشع والأنبياء الإسرائيليّين والمسيح في إبقائهم لشريعته، بل وكذا

١. إظهار الحقّ ٢: ٣٧٢.
٢. تقدّم في ج ١، ص ٣٠٩.

رسل العهد الجديد إلى زمان الاجتماع للمشورة في أمره ورفعه مصانعةً للأُمم وقد مرّ هذا كلّه فراجعه.

السادس: زعم سايل وكذا الكندي أنّ الله تساهل مع اليهود فأعطاهم وصايا غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها[١].

وما المنشأ لهذا الشطط إلّا موافقة إطلاق النصرانيّة الرائجة وراحتها لأهوائهما، فسوّل لهما ذلك عيب الشريعة والخضوع لنواميسها، فاجترءا على الذمّ لشريعة موسى عليه السلام اقتفاءً للكلمات المنسوبة إلى بولس، وتوهّماً من كلام في حزقيال[٢]، مع أنّ ظاهر سَوقه ينادي بأنّ المراد منه أنّ اليهود لمّا تمرّدوا على شريعة الحقّ، وتمادت ارتداداتهم عنها، ابتلاهم الله بالذلّ بين الأُمم فخضعوا لشرائعهم الباطلة.

وممّا يوضح غلطهما في هذا الكلام هو أنّ العهد القديم وخصوص كتاب حزقيال، قد كثر فيه بيان منّة الله على الأُمّة اليهوديّة إذ أعطاهم شريعة حقّ عادلة وفرائض صالحة، وأحكاماً إن عمل بها الإنسان يحيا بها.

وقد ذكرنا ذلك في المثال الرابع والأربعين من النسخ[٣].

السابع: زعم سايل ـ وليس وحده ـ في قصاص الجراح والأطراف المذكور في التوراة، أنّ المقصود منه قَودٌ مّا أو عقاب يفي بالجناية، لامقابلة المثل بالمثل فعلاً. وأنّ أُسلوب قول التوراة في ذلك قد جرى مجرى الأمثال، ولا يُعنَى به سوى أنّ القاضي يقتصّ من الجاني بحسب أهمّيّة الجناية[٤]. انتهى.

وما المنشأ في توهّمه هذا وتقوّله على التوراة بماتكافحه صراحتها، إلّا أنّهم رأوا أنّ الإنجيل الرائج قد ألغى أحكام السياسة والقصاص المذكورة في التوراة، وجعلها من

---

١. مقالة في الإسلام: ٢٢٦.

٢. سفر حزقيال ٢٠: ٢٥.

٣. تقدّم في ج ١، ص ٣١٨.

٤. مقالة في الإسلام: ٢٥٧.

مقاومة الشرّ[١]. ثمّ رأوا أنّ إهمال السياسة إلى هذا الحدّ ممّا يقصم ظهور النظام ويشوّه وجه المدنيّة والعمران، فجعلوا من أنفسهم في هذا المقام شريعة المصادرات والتعزيرات بحسب ما تتقلّب فيه آراؤهم. وكأنّهم تخيّلوا أو خيّلوا أنّ ذلك لا يمسّ التوراة والإنجيل بمخالفة في العمل، ومراغمة لصراحتهما بالتأويل.

فأين سايل وأشباهه عن صراحة التوراة في قولها:

وإن حصلت أذيّة تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسنّاً بسنّ ويداً بيد ورجلاً برجل وكيّاً بكيّ وجرحاً بجرح ورضّاً برض[٢]. وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً، فكما فعل كذلك يفعل به، كسر بكسر وعين بعين وسنّ بسنّ، كما أحدث عيباً في الإنسان كذلك يحدث فيه[٣].

لاتشفق عينك نفس بنفس عين بعين سنّ بسنّ يد بيد رجل برجل؟

وهلمّ الخطب في المتعرّب، فمع أنّه لا يستطيع أن يجرّ ذيل تمويهه الواهي على مثل هذه التأويلات المرغمة للصراحة، والتي تكشف بمخائلها وشمائلها عن عدوى داء الإلحاد، ونفوذ القول بالطبيعة العمياء. ومع أنّه قد شوّه وجه بصيرته جذامُ هذا الداء، صار يندّد ويتهكّم على مفسّري المسلمين في وصولهم إلى مقاصد القرآن الكريم، في بارع أُسلوبه الجاري على محاسن اللغة العربيّة، وبدائع فذلكاتها في البلاغة، من حيث الحذف لما تهدي إليه نورانيّة المقام، وتحكم بحذفه براعة الكلام. وسيحلو لذوقك إذ يجلو لك البيان إن شاء الله عنه صدأ الشبهات والمغالطات.

عدم الفهم لما يلزم تفهّمه

ولك العبرة أيضاً في عدم التدبّر للمسموع، والتساهل في التثبّت في فهمه كما ينبغي. ولندرج لك من ذلك ما وقع فيه خواصّ النصارى ونذكره في موردين:

---

١. إنجيل متّى ٥: ٣٨ ـ ٤١.

٢. سفر الخروج ٢١: ٢٣ ـ ٢٦.

٣. سفر اللاويّين ٢٤: ١٩و ٢٠.

الأوّل: ذكر إنجيلهم والتأريخ أنّه قد شاع بين التلاميذ ونصارى عصرهم أنّ يوحنّا ابن زبدي الإنجيلي لا يموت. وذلك لعدم تثبّتهم في فهم ماحُكي لهم عن المسيح[١]. ولعلّ المنشأ في ذلك هو أنّ الضلال قد أشاع في تلك الأيّام ما قرف به إنجيل يوحنّا[٢] قدسَ المسيح، بأنّه كان يحبّ يوحنّا بحيث يجلسه في حضنه، ويبوح له بأسراره، ويتوسّل التلاميذ إليه به، وإذا خاطب المسيح يتّكئ على صدره، فتوهّموا بهذه الوسوسة أنّ المسيح منحه الحياة الدائمة كما كان مشغوفاً به.

الثاني: ذكر الإنجيل كثيراً أنّ التلاميذ لم يفهموا كلام المسيح معهم، وذهبت بهم الأوهام مذاهبها، مع أنّهم أتباعه الملازمون له، ومقتضى القاعدة أن يكونوا يعرفون محاوراته وكناياته وإشاراته، وقرائن أحواله ومقارنات مشافهاته. وإن لم يفهموها فمن عسى أن يفهمها من أهل عصرهم وغيرهم[٣].

[اشتباهات بعض اللغويّين والمفسّرين]

ولك العبرة أيضاً باشتباه كثير من لغويّي المسلمين ومفسّريهم في أُمور لغويّة التبست عليهم موارد استعمالها أو اختلجت فيها الخيالات.

ولنذكر لك من ذلك ثلاثة موارد:

الأوّل: خلط جماعة منهم في معنيي «اللمس، والمسّ» ففي القاموس فسّر المسّ باللمس[٤]، ثمّ فسّر اللمس بالمسّ باليد[٥].

وفي المصباح: «مسسته أفضيت إليه بيدي من دون حائل هكذا قيّدوه»[٦]. وقال:

---

١. انظر إنجيل يوحنّا ٢١: ٢٠ ـ ٢٤.

٢. إنجيل يوحنّا ١٣: ٢٣ ـ ٢٦.

٣. انظر إنجيل متّى ١٦: ٥ ـ ١٠؛ إنجيل مرقس ٨: ١٣ ـ ١٩؛ إنجيل يوحنّا ٢: ١٨ ـ ٢٣ و ٤: ٣٢ ـ ٣٤ و ١١: ١١ ـ ١٤ و ١٢: ١٦ و ١٦: ١٧ و ١٨.

٤. القاموس المحيط ٢: ٢٥٩، «ل م س».

٥. المصدر: ٢٦٠، «م س س».

٦. المصباح المنير: ٥٧٢، «م س س».

«لمسه أفضى إليه بيده هكذا فسّروه». وفيه أيضاً عن التهذيب عن ابن الأعرابي: «المسّ مسّك الشيء بيدك، وقد قال: اللمس يكون مسّ الشيء» وعن ابن دريد «اللمس باليد، وقال: لمست: مسست وكلّ ماسّ لامس». ثمّ استغرب في المصباح على هذا تفرقة الفقهاء بين المسّ واللمس في المعنى. ومال إلى قول الفقهاء؛ لكونهم أدقّ نظراً وأوصل فهماً[١].

ولا يخفى وضوح الفرق بين معنيي المسّ واللمس قديماً وحديثاً، بحكم التبادر وشهادة موارد الاستعمال، ولا أظنّه يخفى على العارف؛ فإن المسّ هو مطلق الإصابة بالبدن، واللمس هو مطلق الإصابة بمابه الإحساس من البدن بقصد إحساس الملموس. نعم، قد يكون الغالب في موارد استعماله هو اللمس باليد؛ لكونها أقوى الجوارح إحساساً في الغالب. وهذا كلّه ممّا تحكم به بديهة المحاورات على نحو يقطع معه بعدم النقل.

الثاني: اشتباه بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى في سورة النجم: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢].

وإنّ جماعة من محقّقي المفسّرين كصاحب الكشّاف وأمثاله فسّروا «القاب» فيه بالقدر وقالوا: إنّ المعنى قَدْر قوسين[٣].

واتّفق اللغويّون على تفسير «القاب» بالقدر كالقيب والقاد والقيد[٤]. وقال ابن [أبي] ربيعة المخزومي في شأن ناقته:

قَصَرْتُ لها من جانِبِ الحَوضِ مَنْشَأً ... جَدِيداً كقابِ الشبرِ أو هُوَ أصْغَرُ[٥]

وقال آخر:

ولكــن تَنَحّى جَنْبَةً بعدَ مادنا ... فكانَ كقابِ القَوسِ أو هُوَ أنْفَسُ[٦]

---

١. المصباح المنير: ٥٥٨، «ل م س».

٢. النجم (٥٣): ٩.

٣. الكشّاف ٤: ٤١٩، ذيل الآية.

٤. الصحاح ١: ٢٠٧؛ لسان العرب ١: ٦٩٣؛ القاموس المحيط ١: ١٤٢، «ق و ب».

٥. ديوان عمر بن أبي ربيعة ١: ١١١.

٦. أساس البلاغة: ٤٦٧، «ن ف س».

نعم، زاد بعض اللغويّين في معنى القاب، وذكر أنّه يقال لمابين مقبض القوس وسيته، فلكلّ قوس على هذا المعنى قابان[١]. فأوقع ذلك جماعة من المفسّرين بالاشتباه، فحملوا عليه قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. والتجؤوا في تكلّفهم هذا إلى دعوى القلب وقالوا: إنّ المراد قابيْ قَوْس، فأقلقوا اللفظ وتقلّبوا في المعنى وشذّوا عن النهج، من دون حاجة تلجئهم ولا دليل يساعدهم. ولو تحرّوا رشداً لتركوا اللفظ على رِسْلِه[٢]، والمعنى على مرماه. ولو أنّ لهم قلوباً، لما استهواهم الاشتباه إلى دعوى القلب، مع أنّ المعنى المستقيم قد ذكره اللغويّون في غرّة ذكرهم لمعنى القاب.

ولكنّ المتعرّب اغتنم اشتباه هذه الشرذمة فرصةً في الاعتراض على القرآن الكريم، وأوهم في كلامه أنّه قول المفسّرين ـ بل المسلمين جميعاً ـ كما أوهم في كلامه أنّه لا معنى للقاب إلّا مايلزم منه أن يكون للقوس قابان. وقال في الآية الكريمة: «الوجه قابي قوس»[٣]. انظر [ذيل مقالة في الإسلام] شاهت الوجوه التي مابلّها الحياء.

الثالث: اشتباه جماعة من المفسّرين في تفسير قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٤] فقالوا: إنّ «وراء» فيها بمعنى «أمام» و «قدّام»[٥]. واستشهدوا لذلك بقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٦]، وقوله تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾[٧].

والمتعرّب اغتنم هذا الاشتباه فرصةً في الاعتراض على القرآن الكريم، فأعاب استعمال لفظة وراء بمعنى أمام وقدّام، وأنكر كون ذلك من معانيها[٨].

---

١. الصحاح ١: ٢٠٧، «ق و ب».

٢. على رسله: أي على هَيْنَته، وعلى تُؤَدَتِه، وعلى مجراه. الصحاح ٤: ١٧٠٨، «ر س ل».

٣. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٣.

٤. الكهف (١٨): ٧٩.

٥. تفسير الطبري ١٦: ٢ ـ ٣؛ الكشّاف ٢: ٧٤٠، ذيل الآية ٧٩ من الكهف.

٦. المؤمنون (٢٣): ١٠٠.

٧. البروج (٨٥): ٢٠.

٨. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٣.

فأقول: وقد جاء على مثل هذا الاستعمال قول لبيد بن ربيعة:

أليسَ وَرائِـي إنْ تَـراخَتْ مَـنِيَّتي لُزُوم العَصا تُحْنىَ عَلَيها الأَصابِعُ[١]

و قول عبيد:

أليسَ وَرائِـي إنْ تَـرَاخَتْ مَـنِيَّتي أدبُّ مَعَ الوِلْدانِ أَزْحَفُ كـالنَسْرِ[٢]

و قول المرقش:

ليسَ على طُـولِ الحـياةِ نَـدَمْ ومِـن وَراءِ المَـرْءِ مَـالاَ يَـعْلَم[٣]

وهذه الأبيات وأمثالها لو طويناها على غرِّها، لكانت على كلّ حال شاهدة بكثرة استعمال العرب للفظة «وراء» في المعنى الذي نحاه القرآن الكريم؛ فإنّ وجه الاستعمال فيها وفي القرآن الكريم واحد؛ لأنّ ما جُعِل الوراء ظرفاً له في الشعر لم يقع في الزمان الماضي ليكون وراء بالمعنى المعروف، وإنّما هو مترقَّب في المستقبل فهو أمام وقدّام.

والتحقيق الذي توحي به كلّ فطرة سليمة، ويشاهده كلّ فـهم مسـتقيم، هـو أنّ «وراء» في الآيات والشعر مستعملة في معناها المعروف، كنايةً عـن كـون مـظروفها طالباً مستولياً، كاستيلاء الطالب وقدرته على أخذ المطلوب إذا كان من ورائه، قـال تأبّط شرّاً:

ووراءَ الثأرِ مِنّي ابـنُ أُخْتٍ مَـصِعٌ عُـقْدَتُهُ لاتُـحَلّ[٤]

ولا يُسلَّم للآيات الكريمة والشعر المتقدم هذا البيانُ البارع لهذا الغرض العالي، لو عُبّر بلفظة «أمام»، ولتنازل الكلام إلى البساطة.

وقد جاء كثير من كلام العرب ما قد أخذ بمجامع البلاغة والبراعة، وأوحى أُسلوبه الخاصّ وصورته البهيّة، بأسرار بديعة ومقاصد عالية ونكات شـريفة، لا يـحيط بـها الكلام البسيط إلّا بتطويل مملّ. ولكن أصحاب صناعة النحو اضطرّوا في تطبيقه على

١. ديوان لبيد بن ربيعة: ١٧٠.
٢. الكشّاف ٣: ٥١٠، ذيل الآية ٩ من الجاثية.
٣. العين ٧: ١٣٠، «ص ل م».
٤. ديوان ثابت بن جابر: ٢٤٨.

صناعتهم التابعة للسان العرب لا المتبوعة، والتجؤوا اعتلالاً إلى التقدير، وتوصّلاً إلى الإلمام بفهمه باسم التوسّع. مع أنّا نجد أنّه لو أظهرنا ما يقدّرونه فيه لفات الغرض وانحلّ نظام الكلام، فقد قال امرؤ القيس:

اليوم خمر وغداً أمر[1].

وقال النابغة الجعدي:

كأنّ عذيرهم[2] بجنوب سِلّى ... نعامٌ قاق في بلد قِفار[3]

وقال الحطيئة:

وشرُّ المنايا ميّتٌ وسط أهله ... كهلك الفتى قد أسلم الحيّ حاضره[4]

وقالت الخنساء:

ترتع ما رتعت حتّى إذا ادّكرت ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبارٌ[5]

وقال متمّم بن نويرة:

لعمري وما دهري بتأبين[6] هالكٍ ... ولا جَزِعٍ ممّا أصاب فأوجعا[7]

وإنّ من أُعطي حظّاً من فهم محاورات العرب، ليجد أنّ إظهار ما يُقَدِّره النحويّون في مثل هذه المواضع، ممّا يهدم على الشاعر غرضَه ويمحو نكتَتَه. فمن هذا النحو ما يَخرُج الكلام به من صورة الفرض الذي لا يهمّ في الغرض إلى صورة الوقوع المقصود، فيخرج الكلام بحسن بيانه من نحو الدعوى إلى ناحية العيان، ومن المصادرَة إلى صورة البرهان. وعلى ذلك جاء قول الحارث بن حلّزة اليشكري:

والعيش خير في ظلا ... ل النوك ممّن عاش كدا[8]

---

١. خزانة الأدب ١: ٣٣٢، و٨: ٣٥٦.

٢. العذير الصوت. وسلى اسم موضع.

٣. ديوان النابغة الجعدي: ٩٧.

٤. ديوان الحطيئة: ٢٦١.

٥. ديوان الخنساء: ٣٨٣.

٦. التأبين مدح الميّت. راجع القاموس المحيط ٤: ١٩٦، «أ ب ن».

٧. ديوان مالك ومتمّم: ١٠٦.

٨. ديوان الحارث بن حلّزة: ٥٢.

ألا ترى أنّه لو أظهر ما يُقدِّره أهلُ الصناعة وقال: خيرٌ من عَيشٍ مَن عَاش كدّاً، لم يتحمّل كلامه إلّا بيان التفاضل بين العيشين. وهذا من الواضحات التي لا يهمّه بيانها، ولا يتعلّق بها غرضه، وإنّما غرضه بيان ابتلائه بالعيش الصعب المتعب، على نحو يفضّل فيه على عيشه عيشَ الحَمِق، المقرون غالباً من تعس الوقت بالرفاهية والسعة.

فإذا عرفت هذا عرفت البراعة وعلوّ الشأن في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١].

وفهمت أنّ الغرض من الآية الكريمة ليس هو بيان الفروض والأمثال، وإنّما الغرض فيها المقابلة بين الأفعال الواقعة من الغواة والمهتدين، وإيضاح المفاضلة فيما بينَهما وفيما بين فاعليها، والتنويه بمحاسن أفعال المهتدين والتمجيد لهم بها، والتبكيت للغواة وأفعالهم. فتعرّض القرآن لعوائدهم القشريّة التي ألصقوها بنسب العبادة وموّهوها باسم البرّ، وليس فيها إلّا الحركات البدنيّة التي لا تتعب، من دون علاقة لها مع القلب، ولا ارتباط لها بالإخلاص والإقبال، ولم يتزيّنوا معها بزينة رغبة الإيمان ولا رهبة العرفان.

وحاصل ما يستنير به الفهم من معنى الآية الكريمة هو أنّه ليس البرّ ملاعبكم المعتادة، وأن تولّوا وجوهكم إلى مشرق الشمس أو مغربها صورة بلا روح وخيالاً بلا معنى وعوائد بلا مستند. فلا تتبجّحوا ولا تَتَبرَّرُوا بها، فلستم بفعلها من البرّ في شيء. ولكن انظروا واعتبروا بأولياء الله وخاصّة عباده الأبرار، الذين آمنوا بالله فانقادت نفوسهم وجوارحهم إلى تقواه، وأقبلت في حبّه على طلب رضاه، وأرخصوا لذلك كلّ عزيز، واستسهلوا في سبيله كلّ صعب. وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من عظيم الثواب، فأقبلوا على العمل لأجله راغبين. وما فيه من أليم العقاب، فتحذّروا عمّا فيه بأشدّ

---

١. البقرة (٢): ١٧٧.

الرهبة. وآمنوا بالملائكة وأنزلوهم منازلهم، وبالكتاب المنزل من الله فاتّبعوا هداه، وبالنبيّين فأذعنوا بأنّهم رسل الله الهداة البررة المعصومون، ففازوا بهداهم والاقتداء بهم، ولم يستبدلوا عن اتّباع شريعتهم بالغلوّ فيهم، ولم يفرّطوا بوصمهم بالنقائص التي لا تُرتَضى لسائر البشر. بل عرفوا جليل قدرهم، وانشرحت صدورهم لما بلّغوه عن الله، ولم يعيبوه ولم ينتقصوه، ولم يحملهم التمرّد على الفرار إلى اختراع عبادة لا تبهظ الأهواء، ولا تعارض الشحّ، ولا تُقَرِّب من الله، ولا تُؤازِر جامعة الحقّ. بل طردوا أهواءهم والشحّ خاسئةً مدحورةً، فآتوا المال راغبين متطوّعين لأجل حبّهم لله، وواسوا به ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن سبيل والسائلين، وخلّصوا به العبيد العانين من أوزار الرقّ ومذلّة العبوديّة. وأقبلوا على الله فأقاموا الصلاة بحدودها الشرعيّة، ووظائفها العرفانيّة، وآدابها الأخلاقيّة. وآتوا الزكاة في محالّها طائعين راغبين، لإقامة أمر الدين ومهمّات الملّة. ولم تتلاعب أهواؤهم بعهودهم، بل هم الموفون إذا عاهدوا. ولم يكونوا من الذين جعلوا الدين ونصره لَعَقاً على ألسنتهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديّانون، بل كانوا الصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس، وهناك تبلى السرائر وتُختبر الرجال، ويعرف الصادق من المـاذِق[1]. فأُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون.

هذي المكارمُ لاقَعْبانِ مِن لَبَنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا[2]

ولو أنّا ذكرنا في الآية الشريفة ما يزعم أهل الصناعةِ التابعةِ تقديرَه، لخرج الكلام إلى محض التفاضل الفرضي بين الفعل الحسن وغيره، وهو أمر ساقط الفائدة؛ لأنّه من إيضاح الواضحات. فيضيع الغرض الحميد والمعنى السامي، وهو الإطراء بالهداة والمفاخرة بكمالاتهم والاحتجاج بهم، كما يدلّ عليه حسن الختام بقوله جلّت عظمته: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3].

---

١. المـاذق: الكاذب، وغير المخلص. لسان العرب ١٠: ٣٣٩، «م ذ ق».

٢. ديوان أُميّة بن أبي الصلت: ٢٢٠.

٣. البقرة (٢): ١٧٧.

ولك العبرة بأنّ جماعة من أهل الصناعة قد قالوا: إنّ التقدير في الآيـة الكـريمة «ولكنّ البرَّ برُّ من آمن بالله»[١] الآية. وهو اشتباه واضح؛ فإنّ المقام ليس مسوقاً لبيان أنّ البرّ برّ هؤلاء على إجماله، ومن حيث هو برّ. بل هو مسوق لبيان أنّ الذي يستحقّ أن يسمّى برّاً إنّما هو مانوّهت به الآية الكَريمة من صفات هؤلاء الصفوة، الذيـن كـانوا بفضيلتها هم الذين صدقوا والمتَّقين حقّاً. ومرجع الأمر بعد ماتوحي به براعة الأُسلوب إلى أنّ البرّ إنّما هو أوصاف هؤلاء المنوّه بها.

وبما ذكرنا بعضه من الفوائد والشواهد تعرف شطط المتعرّب؛ إذ سمع مـن أهـل الصناعة شيئاً ذكروه لاطّراد قواعدهم التي لفّقوها لأجل الوصول إلى عـربيّة القـرآن الكريم ومقاصده، فصار يعترض به على القرآن الكريم[٢].

ومن براعة العرب نصبهم الاسمَ على المدح، وذلك لينبّهوا الذهن إلى ما يـريدون امتيازه عند السامع، ليلتفت إلى مزيّته وخصوصيّته بنفسه، لتكون إحالة الالتفات إليها على معرفته بها من نفسه أوكد في المدح والتنويه من البيان الصريح، فـيتنبّه الذهـن بتغيير سياق الإعراب بحركة واحدة إلى مالايتنبّه له بدونه، ولا يكفي في التنبيه عليه كثيرٌ من الكلام. وهذا باب واسع نصّ عليه النحويُّون، وأوردوا فيه الشواهد. ومن ذلك قول الخرنق بنت عفّان من بني قيس:

لا يَبْعَدَنْ قَومي الذين هُمُ		سُمُّ العـداةِ وآفـةُ الجُـزرِ
النـــازلين بكـلّ مُـعتَرَكٍ		والطـيّبونَ مـعاقِد الأُزرِ[٣]

وعلى ذلك جاء في الآية الكَريمة نصب ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾. وذلك لأجل التنبيه على امتياز المتحلّين بهذه الصفة، التي عليها ابتنى الثبات على الدين، والإخلاص في العبادة، والدوام على الطاعة، والإقدام في نـصرة الحـقّ، والإقبال على الله، والبعد عن التمرّد، والسلامة من الضلال، والعـصمة مـن الارتـداد.

---

١. تفسير الطبري ٢: ٥٥ ـ ٥٦، ذيل الآية.

٢. انظر ذيل مقالة في الإسلام: ٧٣.

٣. ديوان الخرنق: ٤٣، وفيه: «النازلون. والطيّبين».

فأُولئك هم أعلام الهدى، وحماة الدين، ودعاة الحقّ. فللّه صبرهم ما أحلى ثَمَره! وما أحسن في التوحيد أَثَره! وما أبهى في الإسلام عاقبتَه!

وهذا السَنا الوَضّاحُ مِن ذلك السَنا وهذا لشَذا الفَيّاح من ذلك الوَادِي[١]

وقال المتعرّب:

ولا أدري لماذا استحقّ الصابرون هذا المدح، ولم يستحقّه الموفون بعهدهم، مع أنّهم مقدّمون في النسق على أُولئك، ومع أنّ السورة نفسها متقدّمة في النزول على سورة براءة التي سُنّ فيها نبذ العهد، وعلى سورة التحريم التي أُحلّ فيها الحنث بالأيمان[٢].

أقول: قد نبّهناك على علوّ مقام الصابرين المذكورين في الآية، ولا يخفى عليك عظيم أثرهم في الدعوة والدين. وقد روى في المجازات النبويّة قوله ﷺ: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قَيّمه، واللين أخوه، والرفق والده، والصبر أمير جنوده»[٣] أي هو الذي يدبّر أمرها ويثبّتها عند محاربة الهوى والشيطان. وروى في ربيع الأبرار عن مستودَع علم الرسول عليّ ﷺ أنّه قال: «الحياء زينة، والتقى كرم، وخير المركب الصبر»[٤] وقال ﷺ: «الصبر مطيّة لاتكبو»[٥].

ولكن أتدري لماذا يجحد المتعرّب فضيلة الصابرين؟ لأنّهم هم الذين قاموا بنصرة التوحيد، ولم يثنهم عن عزمهم تضايق الشدائد وأهوال الملاحم ومِحكّ الامتحان، حتّى أشرقوا[٦] الشرك بالرِيق، وأرغموا أنف الضلال.

وأيضاً لا يسمح المتعرّب بأن تتوجّه الأذهان إلى فضيلة الصبر والصابرين، وذلك

---

١. لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يديّ.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٣.

٣. المجازات النبويّة: ١٩٥، ح ١٥٢.

٤. ربيع الأبرار ٢: ٥١٣.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٢٠٣، و ٢٠: ٢٥٦.

٦. الشَرَق: الغُصّة. وشَرِق بريقه: غصّ. الصحاح ٤: ١٥٠١، «ش ر ق». والمراد أنّ المسلمين الصابرين ضيّقوا على الشرك وأهله أشدّ الضيق.

ليستر ما ذكره إنجيلهم في شأن التلاميذ، الذين هم بزعمه عطيّة الله للمسيح[١]، وخيرة العالم[٢]، ونورُه[٣]، وملح الأرض[٤]. فقد ذكر في شأن الأحد عشر منهم عن قول المسيح: بأنّهم كلّهم يتفرّقون عنه في ساعة الامتحان كلّ واحد إلى خاصّته ويتركونه وحده. ويشكّون أو يعثرون فيه، حينما ينتقدهم الاختبار. وطلب منهم المواساة بسهر ليلة فلم يتركهم الوهن والخور ليسمحوا. ولمّا هجم اليهود تركه الجميع وهربوا[٥].

ولعلّ المتعرّب مع ذلك يقول ليست الفضيلة بالصبر عند الشدائد على امتثال الواجب، ونصرة الدين والثبات على الإيمان، بل الفضيلة كلّ الفضيلة أن يجتمعوا ويرتؤوا لاستجلاب الناس للإيمان بالثالوث، ولو بطمس رسوم الشريعة، ومصانعة المشركين بعوائدهم، والتقرّب بالثالوث إلى شركهم، ومداهنة أهل الشريعة بالرياء.

وأمّا اعتراض المتعرّب على تمييز الصابرين المذكور في الآية على الموفين بعهدهم، فليس لأنّه يجهله، لكن ليتوصّل به في المغالطة إلى ضلالة التعريض بالقرآن والرسولﷺ؛ فإنّ كلّ أحد يعلم أنّ الوفاء بالعهد وإن كان خُلقاً حسناً، إلّا أنّه يتّصف به المؤمن والمشرك والشجاع والجبان، ولكنّ الصبر المذكور في الآية، لا يتّصف به إلّا خاصّة الأبرار وعيون الرجال.

وأمّا تعريضه بنبذ العهد في سورة براءة، فإنّ كلّ من له أدنى إلمام بتأريخ الإسلام، لا يجهل أنّه قد وقعت الموادعة في عام الحديبيّة بين رسول الله وبين قريش وأحلافهم، وتصالحوا على ترك الحرب مدّة بشروط وروابط. منها عدم التعرّض للإسلام والمسلمين ومن دخل في عهد رسول الله. ودخلت خزاعة في عهد رسول اللهﷺ. ودخلت بكر في عهد قريش. ثمّ غدرت بكر وظاهَرَتْهم قريش، فنقضوا الصلح

---

١. إنجيل يوحنّا ١٧: ٢٤.

٢. إنجيل يوحنّا ١٥: ١٦.

٣. إنجيل متّى ٥: ١٤.

٤. إنجيل متّى ٥: ١٣.

٥. إنجيل مرقس ١٤: ٢٧ ـ ٥١.

والموادعة وَعَدَوا على خزاعة فقتلوهم، فقدم مستغيث خزاعة على رسول الله، وقال فيما قال:

لَاهُمَّ إنّي ناشِدٌ مَحَمَّدا ... حِلفَ أبِيناوأبِيكَ ٱلأتْلَدا
إنَّ قُرَيْشاً أخْلَفُوكَ المَوْعِدَا ... ونَقَضُوا ذِمامَكَ المُؤَكَّدا
هُمْ بَيَّتُونا بِالحَطِيمِ هُجَّدا ... وَقَتَلُونا رُكَّعاً وَسُجَّدا[1]

وقد ترجم المتعرّب هذه الوقائع من نقل سايل لها[2].

فكان هذا النكث من المشركين موجباً لا نحلال عُقدة الموادعة مع الناكثين عرفاً وشرعاً، فإنّ كلّ متعاقِدَين على شروط وروابط، قد تبانيا في عقدهما على أنّ نكث أحدهما حالٌّ للعقد ومحلّل للآخر من ذمّته، ولولا ذلك لما كان معنىً لجعل الشروط والروابط في المعاهدات.

وإن كنت في شكّ من ذلك فانظر إلى طريقة الملوك والسُوقة في معاهداتهم. وانظر إلى ما يذكره العهد القديم في معاهدات الله مع بني إسرائيل[3]، ومع داود في مملكته[4]. وانظر إلى نبذ هذه العهود[5]؛ فإنّ هذا كلّه إنّما يصحّ على ما ذكرناه.

ولا نطالب المتعرّب بما ذكره العهد القديم عن ميثاق الله لفينحاس[6].

نعم، لنا عليه المطالبة بما يذكره العهد الجديد عن عهد بطرس الذي أيسر مدحه في الإنجيل أنّ المسيح فوّض إليه بناء الكنيسة، وأعطاه مفاتيح ملكوت السماوات، وأناط الحلّ والربط فيها بحلّه وربطه على الأرض[7]، وجعل إليه رعاية الأُمّة[8]. فإنّه قد كان

---

١. السيرة لابن هشام ٤: ٣٦ـ٣٧.
٢. مقالة في الإسلام: ١٠٣و١٠٧.
٣. سفر الخروج ٣: ١٧و ٩: ٥و٦.
٤. سفر صموئيل الثاني ٧: ١٦؛ سفر الخروج ٨٩: ٢٨ ـ ٣٧.
٥. سفر العدد ١٤: ٢١ ـ ٢٤؛ سفر المزامير ٩٩: ٣٨ ـ ٤٥؛ سفر إرميا ٧: ٢٣ ـ ٣٠و ١١: ٢ ـ ٩و ١٤: ٢١.
٦. سفر العدد ٢٥: ١٢و١٣.
٧. إنجيل متّى ١٦: ١٨و ١٩.
٨. إنجيل يوحنّا ٢١: ١٥ ـ ١٨.

عاهد المسيح نبيّه ـ وبزعم المتعرّب وأستغفر الله، إلهه ـ معاهدة بأكثر تشديد على أن لا ينكره ولو اضطرّ إلى الموت[١]، وأنّه مستعدّ لأن يمضي معه حتّى إلى السجن وإلى الموت[٢]. ولم تمضِ من هذا العهد سويعات حتّى جعل عهده المشدّد تحت قدميه، وكثر منه الحلف بأنّه لا يعرف المسيح، وصار يحلف ويلعن[٣]. ولمن تظنّ يلعن؟ وإنّ المتحلّي بأقلّ قليل من الصبر الذي نوّهت به الآية، لا يستهويه الشيطان في مثل هذا الخَوَر[٤]. وإنّي لأُحاشي بطرس من هذه الوصمة، ولكنّ المتعرّب لا يحاشيه.

ثمّ اعلم أنّ سورة براءة هي التي تُعلم بالوفاء بالعهد والدوام عليه مع غير الفجرة الغادرين الناقضين للعهد، فقد قال الله ـ جلّ اسمه ـ فيها بعد أن برئ من أُولئك الناقضين للعهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥] الموفين بعهودهم مع من لم يغدر بنقضها.

فإن قلت: أفما كان من المعروف أن يتمّ العهد للناقضين وإن غدروا وفجروا؟

قلت: هذا سؤال من لم يعرف من المعروف إلّا اسمه. وأُحاشيك من ذلك؛ إذ لا يخفى عليك أنّه لولا أنّ إقامة الحجّة ومصلحة دين الحقّ وسياسة ترقّيه اقتضت الموادعة معهم مدّة من الزمان، لما حسن الإبقاء على الشرك وعوائد الضلال ومكالبات الجور والعدوان. أفيقول موحّد بأنّه يحسن الإبقاء على الشرك والمشركين الفجرة وضلالهم، بعد جرأتهم على الغدر ونكث العهد، الذي فتحوا به باب التكالُب على مقاومة التوحيد والموحّدين، وراموا به تجرئة العرب على نقضهم لعهد رسول الله والنهوض لنصرة شركهم وضلالاتهم؟ كلّا، بل إنّ الإغضاء عن هؤلاء إنّما هو من الوهن

١. إنجيل متّى ٢٦: ٣٥؛ إنجيل مرقس ١٤: ٣١.

٢. إنجيل لوقا ٢٢: ٣٣.

٣. إنجيل متّى ٢٦: ٧٠ ـ ٧٥.

٤. الخَوَر: الضَعف. الصحاح ٢: ٦٥١، «خ و ر».

٥. براءة ـ التوبة ـ (٩): ٤.

والفشل، والتقاعد عن نصرة الحقّ والقيام بواجب الدين القويم. ولولا أنّ شوكة الحقّ تفقأ أعينهم، لَكَثُر الهرج والمرج في مضايقة التوحيد والموحّدين.

وأمّا تحلّة الأيمان الواردة بقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١] فإنّ تعريض المتعرّب بها في كلامه السابق وتسميتها حِنثاً، لَمِن قبيح التعصّب. كيف لا، وإنّ تحلّة اليمين لها معنيان:

أحدهما: الاستثناء بقول الحالف: إن شاء الله. وتسمية هذا الاستثناء بالتحلّة تؤخذ تارة من الحلّ، كقولهم: حلّاً أبيت اللعن[٢].

وقول عمر بن معديكرب: حلّاً يا أميرالمؤمنين فيما تقول[٣].

وقول أبي بكر: حلّاً أُمَّ فلان[٤].

وذلك باعتبار أنّ هذا التعليق على مشيئة الله يحلّ عقدة اليمين الجازمة لو كانت على رسلها.

وتؤخذ تارة من التحليل، كقول امرئ القيس في معلّقته:

وَ يَوماً على ظهرِ الكَثِيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَلَيَّ وآلَتْ حلفَةً لَمْ تحلّل[٥]

وذلك باعتبار أنّ تعليقها على المشيئة سبب للتحلّل من تحريمها البتّي.

وثانيهما: هو برّ اليمين والوفاء بها، قال قبيصة ابن النصراني الجرميّ من طيّئ:

لم أرَخَيلاً مِثلَها يَومَ أدْرَكَتْ ... بَنِي شَمَجَى خَلْفَ اللُّهَيْمِ على ظَهرِ
أبَرَّ بأيمانٍ وأجْرَأ مُقَدّماً ... وأنْقَضَ مِنّا للذي كان من وِتْرِ
عَشِيّةَ قَطَّعنا قَرائِنَ بَيننا ... بِأسْيافِنا والشاهِدُونَ بَنُو بَدْرِ
فَأَصْبَحْت قد حَلَّتْ يَميني وأدْرَكَتْ ... بَنُو ثُعَلٍ تَبْلِي وراجَعَنِي شِعرِي[٦]

---

١. التحريم (٦٦): ٢.

٢. أبيت اللعن: من تحيّات الملوك في الجاهليّة. وحِلّاً: تحلّل من يمينك.

٣. النهاية ١: ٤٣٠، «ح ل ل».

٤. المصدر.

٥. ديوان امرئ القيس: ١٢.

٦. هذه القطعة حماسيّة. شرح الحماسة للمرزوقي ٢: ٦١٠ ـ ٦١٢، ق ١٩٩.

فيتحلّل الحالفُ وتحلّ اليمين بالوفاء بها، ولو بفعل شيء ممّا حلف على فعله، لتكون اليمين به مبرورة، فيتحلّل به الحالف منها، ويبرأ من ذمّتها. كما إذا حلف على ضرب ولده مثلاً، فإنّه يبرّ يمينه بضربة واحدة، ويتحلّل منها ويتخلّص بذلك من إثم الحنث بالترك الكلّي. وقد ضربت العرب بذلك مثلاً في القلّة، قال كعب بن زهير يصف الناقة:

تخدي على يسرات وَهْيَ لاهِيَةٌ　　ذوابل وقعهن الأرض تَحْلِيلُ[1]

وقال ذوالرمّة:

قَلِيلاً كتحليل الأُلى[2]

ومنه ما تكرّر في الحديث من قوله ﷺ: «لا تمسّه النارُ إلّا تحلّةَ القَسَم»[3].

ويحتمل أن يكون منه قول امرئ القيس المتقدّم[4] على وجه بعيد في السياق.

فالمولى العليم الحكيم شرع بلطفه لعباده أن يستثنوا في أيمانهم بمشيئة الله، لئلّا يورّطَهم الشيطان في إثم الحنث إذا عقدوها على البتّ. أو أنّه جلّ شأنه بيّن لهم في الشريعة أنّهم يتحلّلون من أيمانهم ويبرّونها إذا فعلوا شيئاً ممّا حلفوا على فعله، كما يقتضيه اللفظ.

ولعلّ المتعرّب سمع من بعض المفسّرين تفسيرهم لتحلّة الأيمان بالكفّارة. وهو اشتباه بيّن، فإنّ الكفّارة إنّما هي عقوبة على الحنث، واليمين على حالها لم تحلّلها الكفّارة أصلاً. نعم غاية ما يقال في الكفّارة أنّها عقوبة معجّلة تدرأ شيئاً من عقوبة الآخرة، ولا أثر لها في تحليل الحرام لا لغة ولا شرعاً. فانظر في حال كفّارات الإحرام والصيام.

تتمّة: قال الله تعالى قبل هذه الآية في السورة المذكورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ

---

١. ديوان كعب بن زهير: ١٣.

٢. ديوان ذي‌الرمّة ٢: ٢٥٣.

٣. الموطّأ ١: ٢٣٥، باب الحسبة في المصيبة، ح ٣٨.

٤. أي قوله: اليوم خمر وغداً أمر.

أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[١] الآية.

وقد اضطربت الرواية في سبب نزول الآية الأُولى؛ فروي أنّ النبيّ خلا بأَمته مارية في يوم عائشة، فعلمت بذلك حفصة، فقال لها: «اكتمي وقد حرّمت مارية على نفسي»[٢].

وروي أنّه ﷺ خلا بمارية في يوم حفصة، فاسترضاها بتحريم مارية على نفسه[٣].

وروي أنّه شرب العسل في بيت زينب، فقال بعض نسائه شيئاً فحرّمه على نفسه[٤].

وروي أنّه شربه في بيت حفصة[٥].

وروي في بيت أُمّ سلمة[٦].

وحاصل الأمر أنّ النبيّ ﷺ عزم على الامتناع عن شيء استصلاحاً لعائلته، فإنّ التحريم هو المنع. ولكن شاء الله أنّ يخفّف عن رسوله ثقل هذا القيد، ويتولّى إصلاح عائلته بتأديب الوحي، فأنكر عليه أن يُلقِي على نفسه الشريفة ثقلَ القيود والامتناع عن الحلال.

والمتعرّب من خبطه وتعصّبه جعل الآية الثانية من تتمّة مضمون الآية الأُولى ومرتبطة بحكم واقعتها، وأنّ المعنى فيها تحليل الحنث بيمين تضمّنها بزعمه التحريم. ولم يشعر أنّ تغيير الأُسلوب في الآيتين يقطع علاقة الارتباط بينهما؛ فإنّ الآية الأُولى خطاب للنبيّ، والثانية خطاب للأُمّة. مضافاً إلى أنّ غالب الروايات الواردة في واقعة التحريم ليس فيها ذكر لليمين.

---

١. التحريم (٦٦): ١ ـ ٢.
٢. الدرّ المنثور ٨: ٢١٥، ذيل الآية ١ ـ ٢ من سورة التحريم (٦٦).
٣. أسباب النزول: ٤٥٩.
٤. فيض القدير ٥: ٢٨١، ح ٧٠٥٣.
٥. أسباب النزول: ٤٦٠.
٦. الدرّ المنثور ٨: ٢١٤، ذيل الآية ١ ـ ٢ من التحريم.

ولو كان في الواقعة يمين، لما أمكن تعلّق الآية الثانية به وكونها تبيح مخالفته؛ لأنّه إن قلنا: إنّ التحلّة المشروعة هو التعليق على مشيئة الله، فإنّما ذلك شريعة وتعليم بالنسبة إلى الأيمان المستقبلة، ولا ربط لها بيمين قد مضى.

وإن قلنا: إنّ التحلّة هو التحلّل من اليمين بفعل شيء من المحلوف على فعله، فلا يمكن ارتباطها بواقعة التحريم؛ لأنّها لوكان فيها يمين، لكان على النفي لاعلى الفعل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] وهذا بعض الوفاء لما وعدناك به.

عود إلى النصب على المدح والتعظيم

وقد جاء أيضاً في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

فنصب «المقيمين» على المدح للغرض الذي أشرنا إليه في نصب «الصابرين».

فإنّ المراد من المقيمين الصلاة غير الذين يصلّونها بِسَوق الوجوب، وحثّ الوعيد، وتوصّلاً إلى الدعاء للزخارف الدنيويّة؛ فإنّها حينئذٍ إذا عوفيت من وباء الرياء وتشويه العُجب، لم تعدُ أن تكون جسماً بلا روح وشجرة بلاثمر.

بل إنّهم هم الذين يرتاحون إليها، ويعدّون وقتها أسعد أوقاتهم وأفضل أعمارهم، فيغتنمون فيه الأُنس بمناجاة مولاهم وفضيلة المثول في حضرته، فيقيمونها بالإقبال والعرفان والأُنس والهيبة والرغبة والرهبة والنشاط والخشوع، على حدود شريعتها وآداب سنّتها وشروط إخلاصها ووظائف التعبّد بها. فهذا هو إقامة الصلاة، وأُولئك قادة المؤمنين وسادة الموحّدين. وإن تشرّف من هو دونهم ببعض مراتب الإيمان بالله واليوم الآخر، فالقرآن الكريم نبّه الذهن بأيسر تغيير في الأُسلوب إلى حقيقة إقامة الصلاة، وامتياز مقيميها عن سائر المصلّين والمؤمنين.

---

١. النساء (٤): ٨٢.

٢. النساء (٤): ١٦٢.

وبهذا تعرف شطط المتعرّب في إنكاره لامتياز هؤلاء على سائر المؤمنين[١].

وأمّا ضلال المتعرّب في تعريضه بقوله:

وقصارى ما يقدرون عليه ـ يعني من يزعم أنّهم مؤمنون بالله واليوم الآخر ـ هو أنّهم إذا رأوا واحداً منهم يغدر ويخون وينهب ويقتل الأسرى حتّى يثخن في الأرض، ساغ لهم أن يرتابوا في صحّة إيمانه بالله واليوم الآخر[٢].

فإنّه يكفي في إزهاقه ما ذكرناه[٣]؛ فراجعه.

ولكنّ القلم الغيران للحقّ أبى إلّا أن يقف للمتعرّب موقف الاستفصال وقول الفصل، فقال للمتعرّب: إنّ الإيمان الذي عندنا والإيمان الذي عندك قد تباينا إلى حيث لا ملتقى؛ فإنّ الإيمان عندنا بمقتضى هدى العقل ونور الكتاب وإرشاد الشريعة، هو الإيمان بأنّ إله الحقّ هو الله الواحد الأحد القادر القاهر العزيز الجبّار القدّوس الحيّ الذي لايموت، لم يلد ولم يولد ولم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، جلّ وتعالى عن المثل والمكان، لا يتجزّأ ولا يتعدّد ولا يتجسّد. قداصطفى بعلمه وحكمته ولطفه من عباده رسلاً أطهاراً بررةً، معصومين من الذنوب مبرّئين من العيوب، دائبين على طاعة الله، صادعين بأمره، ليس لقائل فيهم مغمز. ومن عِدادِهم المسيح عبدالله المقرّب ورسوله المنتجب، خلقه بقدرته وأودعه في رحم أُمّه الطاهرة العذراء من غير نطفة فحل، ثمّ ابتعثه رسولاً هادياً مهديّاً، وأنزل عليه الإنجيل نوراً وهدى. وأنّ الحواريّين أنصار المسيح إلى الله.

وأمّا الإيمان بحسب عقيدتك واقتضاء كتابك ومجامعك، هو الإيمان بأنّ الله روح ومحبّة، واحد هو ثلاثة، وثلاثة هم واحد، الأب والابن والروح القدس. فتجسّد الابن في الأرض، وبعد مدّة نزل عليه الروح القدس بشكل حمامة جسميّة، ثمّ قاده الروح إلى البرّيّة وبقي فيها أربعين يوماً، وإبليس يحاول إغواءه ويتصرّف به وينقله من مكان

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٤.

٢. المصدر.

٣. تقدّم في ص ٤١٥.

إلى مكان، ويطمعه بممالك المسكونة ليسجد له. وبقي الأب في السماء، وبقي الابن ـ أي الإله المتجسّد ـ على الأرض يعاني الاضطهاد، إلى أن دنا الوقت فحزن، وبكى وألحّ في السؤال من الأب أن يجيز عنه كأس المنيّة، فلم يشأ الأب، بل أسلمه للهوان والصلب، فمات ودفن في الأرض، وبعد ثلاثة أيّام أقامه الله من الموت، وجلس عن يمين الأب.

ولمّا كان هذا الإله على الأرض كان من رأفته قد ميّز من تلاميذه بفرط الحبّ غلاماً يافعاً يجلسه في حضنه، ويفضي إليه بسرّه، ويتركه يتغنّج عليه ويتّكئ على صدره وأنّ الزانية يكون إيمانها الكامل إذا ثنت عطفها عليه، وهو ابن نيّف وثلاثين سنة، وجعلت تقبّل قدميه، وتبلّها بالدموع، وتمسحها بشعر رأسها.

وأنّ رسل هذا الإله المتجسّد الذين هم خيرة العالم ونوره وملح الأرض، منهم من يجلس في حضن إلهه المتجسّد ويتغنّج عليه، ومنهم من يغتاظ عليه، ومنهم من ينكره وينقض عهده، وكلّهم قد شكّوا فيه، وتركوه في الشدّة وهربوا عنه. ثمّ أنتجت مشورتهم أن يلاشوا الشريعة بالكلّيّة، ويطلقوا الأهواء من قيدها ببشارة الفداء.

وكانت الأنبياء قبل ذلك: منهم من يَكذِب، ومنهم من يستلب البركة بالمخادعة والتزوير، ومنهم من يستعفي من الرسالة بخشن الكلام وينسب إلى الله الإساءة ويستهزئ بوعده ويفرط بشفتيه، ومنهم من يصنع وثناً وينادي لعبادته، ومنهم من يزني بالمحصنة ويسعى في قتل زوجها ويغضي عن المناكير في بيته، ومنهم من يذهب وراء آلهة أُخرى ويبني لها المرتفعات مع أنّه الابن المختار، ومنهم من يدعو الله ـ جلّ شأنه ـ خدّاعاً.

فيا أيّها المتعرّب، إن كنت تعني بالمؤمنين بالله واليوم الآخر من كان على مثل إيماننا، فإنّهم لينادون كما يعتقدون ـ وهو الحقّ اليقين ـ بأنّه ماهدى إلى حقيقة التوحيد وحقّ الإيمان وحقائق العرفان، ولا أوضح محجّة الحقّ وأقام حجّته وأعلى كلمته، إلّا رسول الله الصادع بأمر الله.

وإن كنت تعني بالمؤمنين من كان على مثل إيمانك، فمن الغلط والشطط أن يشكّوا في إيمان رسول الله، بل لا يسعهم إلّا القطع بأنّ رسول الله مستمسك بوثقى عروة الكفر، بمثل ما تقول به أنت في إيمانك.

ومن لغة العرب رفع المعطوف على المنصوب[١]. ومنه رفع المعطوف في الصورة على اسم «أنّ» قال بشر بن أبي حازم الأسديّ يخاطب بني طيّئ:

إذا جُزَّتْ نَواصِـي آلِ بَـدْرٍ فَأَدُّوها وأَسْرَى في الوَثاقِ
وإلّا فَـاعْلَمُوا أنّـا وأنـتُم بُغاةٌ ما بَـقِينا فـي شِـقاقِ[٢]

وقال الحارث بن ضابئ البرجمي:

ومَن يَكُ أمْسَـى بِـالمدينةِ رَحْـلُهُ فـإنّي وَقَـيّارٌ بِـها لَـغَرِيبُ[٣]

وقال آخر:

خَلِيلَيَّ هَـل طبّ فـإنّي وأنـتما وإن لم تَـبُوحا بـالهَوَى دَنِـفانِ[٤]

وقال عنتر يرثي مالكاً:

وكان إذا ما كـانَ يـوم كَـرِيهَةٍ فَقَد عَلِمُوا إنّـي وَهُـوْ فَـتَيانِ[٥]

وقال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦] فرفع لفظ «الصابئون» تمييزاً لهم من النَسَق، وتنبيهاً على أنّ الصابئين ـ وإن كانوا أبعد من اليهود والنصارى عن صورة التوحيد ـ إلّا أنّهم مثل اليهود والنصارى في أنّ من آمن منهم وعمل صالحاً فهو آمن.

ولا حاجة إلى هذه الفذلكة في الآية التاسعة والخمسين من سورة البقرة، وذلك لأجل أنّ التنازل في الترتيب فيها كافٍ في الإشارة إلى هذه النكتة. فالآيتان معاً دالّتان عليها، ولكن كلّ واحدة بنحو من الأُسلوب.

وأمّا الآية السابعة عشرة من سورة الحجّ فلا محلّ لهذه النكتة فيها.

---

١. انظر شواهده في كتاب سيبويه ١: ١٧٣ وغيره من كتب النحو.
٢. ديوان بشر بن أبي حازم: ١٦٥.
٣. طبقات فحول الشعراء ١: ١٧٢.
٤. مغني اللبيب ٢: ٤٧٥.
٥. لسان العرب ١٥: ٤٧٨، «ها».
٦. المائدة (٥): ٦٩.

ولنستطرد الكلام في الحذف: ولا يخفى عليك أنّه قد شاع في كلام العرب في الشعر والنثر، اكتفاءً بدلالة المقام، وتوصّلاً في بعض الموارد إلى غرض ونكتة لا تحصل بدونه، فيخرج الكلام به كالذهب المصفّى والجوهر المجلوّ. وقد جروا في الحذف على أنحاء:

أحدها: أنّهم التزموا بالحذف فيما إذا كانت دلالة المقام لازمة، وجعله النحويّون من الحذف الواجب في العربيّة. فمن ذلك خبر المبتدأ قبل جواب «لو» نحو: لولا البعد لَزُرتُكَ. وقبل جواب القسم الصريح نحو: لَعَمْرِي لأفعلنّ ولا يحتاج هذا إلى ذكر الشواهد. وكذا في نحو: أخطَبُ ما يكُون الأمير قائماً. وضربي زيداً قائماً. وكلّ رجل وضيعته. ومن هذا النحو ما يلتزم النحويّون بتقديره في الظرف والجارّ والمجرور المستقرّين.

وثانيها: أنّهم اطّرد عندهم الحذف في موارد جعل لها النحويّون ضابطاً. منها حذف الضمير المنصوب أو المجرور العائد على الموصول. ومنها حذف حرف الجرّ قبل «أن» المصدريّة.

وثالثها: مالا ينحصر بعنوان عامّ إلّا بدلالة المقام، وهو كثير لا يحصى. فلنذكر من ذلك شيئاً من شعر مشاهير الشعراء في العرب، ممّن طرقوا باب البلاغة وشهد لهم بالتقدّم. قال امرؤ القيس في معلّقته:

فـيالَكَ مِـن لَـيلٍ كَأنَّ نُـجُومَهُ   بِأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ[1]

أي كأنّ نجومه شُدّت.

وقال طرفة بن العبد في معلّقته يصف ذنب ناقته:

فَطَوْراً بِه خَـلفَ الزمـيلِ وتـارةً   على حَشِفٍ كالشَنِّ ذاوٍ مـجدَّدِ[2]

أي فطوراً تضرب به.

وقال أيضاً:

ألا أيُّـهذا اللائِـمي أشْـهَد الوَغَـى   وأن أحْضرَ اللذّاتِ هَل أنتَ مُخْلِدي[3]

١. ديوان امرئ القيس: ١٩.

٢. ديوان طرفة بن العبد: ١٥.

٣. المصدر: ٣١.

أي على أن أشهد.

وقال أيضاً:

وإنْ يَلتقِ الحَـيُّ الجـميعُ تُـلاقِني ... إلى ذروةِ البيتِ الكريم المُـصمَّدِ[1]

وقال يزيد بن الحكم الكلابي:

مَسَسْنا من الآبـاءِ شـيئاً فكـلُّنا ... إلى حَسَبٍ في قومِهِ غيرِ واضعِ[2]

أي انتمى. وننتمي إلى.

وقال أوس بن حجر:

حـتّى إذا الكَـلّابُ قـال لَـها ... كـاليومِ مَـطْلُوباً ولا طَـلَبا[3]

أي ليس كاليوم.

وقال النمر بن تولب:

وَ قَولي إذا ما أطْـلَقُوا عَـن بَـعيرِهِمْ ... تُـلاقُونَه حَـتّى يَـؤُوبَ المُـنَخَّلُ[4]

أي لا تلاقونه.

وقال امرؤ القيس:

فَـقُلتُ يَـمينَ اللهِ أبْـرَحُ قـاعِداً ... وإن قَطّعوا رَأسِي لَدَيكِ و أوصالي[5]

أي لا أبرح.

وقال آخر:

تَـنْفَكُّ تَسْـمَعُ مـاحَيِيـ ... ـتَ بهالِكٍ حَتّى تَكُونَهْ[6]

أي لا تنفكّ.

١. المصدر: ٢٩.

٢. الحماسة بشرح التبريزي ١: ٧٨.

٣. ديوان أوس بن حجر: ٣.

٤. خزانة الأدب ١٠: ٩٩.

٥. ديوان امرئ القيس: ٣٢.

٦. خزانة الأدب ٩: ٢٤٢.

وبهذا ونحوه تعرف شطط المتعرّب[١] في اعتراضه على قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾[٢].

وقد أفحش المتعرّب في الغلط؛ إذ قال في اعتراضه: «والوجه لاتفتؤ؛ لأنّ فَتِئَ وما جرى مجراها لا يستعمل إلّا منفيّة».

فقل له: أتقول إنّ «تفتؤ» في الآية مستعملة في الإثبات؟

ومن الحذف في كلامهم وشعرهم ما يعرّفك المقامُ والأُسلوب أنّه كان لأجل نكتة لطيفة وغرض سامٍ لا ينال بذكر المحذوف، والقرآن الكريم قد تأنّق في هذه البراعة ماشاء إعجازه فانتقى يَتائمها، واستولى على غايتها.

قال امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو   يساقون العشيّة يقتلونا
فلو في يوم معركة أُصيبوا   ولكن في ديار بني مرينا[٣]

وقال أيضاً:

فلوأنّها نفس تموت سويّة   ولكنّها نفس تساقِطُ أنفسا[٤]

فإنّ التقدير في جواب «لو» في البيتين «لهان الخطب». أو «سهل» وما يجري مجرى ذلك. ولكنّه لم يسمح في هذا المقام أن يصرّح بذكر الهوان ونحوه، فأبدع في الأُسلوب وطوى ذكر ما لا يحبّ ذكره، فأوحاه إلى الفهم بطرف خفيّ وبيان شجيّ.

وقال عبد مناف الهذليّ في آخر قصيدته:

حتّى إذا أسْلَكُوهُم في قُتائِدَةٍ   شَلّاً كما تَطْرُدُ الجَمّالةُ الشُرُدا[٥]

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٢.

٢. يوسف (١٢): ٨٥.

٣. ديوان امرئ القيس: ٢٠٠.

٤. المصدر: ١٠٧.

٥. ديوان الهذليّين ٢: ٤٢.

فطوى ذكر الحال بعد ذلك، ولم يات بجواب «إذا» ليوكل الأمر إلى رجم الظنون.

وقال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

فطوى القرآن الكريم من حال يوسف وإخوته ـ في تلك الساعة ـ ذكرَ ما يتوزّع السامع بين الشَجَى المُبَرِّح والغيظ المُهَيِّج، فلم يتعرّض لما يلزم في تلك الحال من تذلّل يوسف بين يدي إخوته، وتوسّله بهم واستعطافه لهم، ولواذه بواحد واحد منهم، ومناشدته لهم بالله والرحم، بطرف خاشع، وعين عَبْرَى، وقلب مُرَوَّع، يسترحم لشبابه، ويستبقيهم على مهجته، بلين الخطاب وشجيّ البيان.

ومن قسوة إخوته وغلظتهم، وما جرى لهم معه في تلك الحال من الكلام القاسي والأحوال الفظّة، فما ظنّك بالغلام اليافع، ربيب التَرَف والدلال، إذا شاهد تلك الحال المدهشة، كيف يفعل؟ وكيف يتوسّل بمن يمتّ إليه بالأُخوّة، ويرجو فيه الرقّة، ويستثير منه العواطف؟ أفلا يُقَرِّح قلبك شرحُ حاله؟ أم لا يُورِي غيظك ما يجري معه إذ ذاك من نكاية القسوة وبوادر الغلظة؟

فالقرآن الكريم راعى في هذا المقام كلّ جانب تنبغي مراعاته، فطوى الكلام بأحسن طيّ، وأشار إلى الحال بأجمل إجمال وألطف تنبيه. فكأنّما أوقفك عليه بفكرك ومَثَّله لوجدانك. ولكنّه قبل أن يقرع الفكر بالشَجَى قلبك، عجّل لك البشارة على النَسَق، بأنّ الله جلّ شأنه قد سلّى يوسف بالوحي وبشّره بالنجاة والرفعة التي ينبئ فيها إخوته بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

فالقرآن الكريم لأنّه كلام الله لم يُدمِج القصّة كما أدمجتها التوراة الرائجة[2]. وجلّ عن أن يُغرِق في حكايات الحالات المستبشعة السمجة، كما زعمت الأناجيل الرائجة أنّ اليهود وبيلاطس وعسكره فعلوه مع المسيح، وحاشا[3].

---

١. يوسف (١٢): ١٥.

٢. سفر التكوين ٣٧: ٢٣ و ٢٤.

٣. انظر أقلّاً إنجيل متّى ٢٦: ٦٧ و٢٧: ٢٦ ـ ٣٢.

وقال الحارث بن حلّزة اليشكري في معلّقته:

لا تــخلنا عــلى غـراتك أنّـا   قبل ما قد وشى بنا الأعداء[1]

فلم يذكر خبر «أنّا» ليترقّى الذهن في محتملاته إلى أشدّ الحماسة وعدم المبالاة بالملك.

وقال عبيد بن الأبرص يخاطب امرأ القيس:

نَـحْنُ الأُولى فَـاجْمَعْ جُـمُو   عَك ثــمّ وَجِّــهْهُمْ إلَــيْنا[2]

ولم يذكر صلة «الأُولى» ليترقّى الذهن في محتملاتها أيضاً إلى أشدّ الحماسة والتهويل.

وقال الله تعالى في سورة الحجّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[3] فلم يذكر خبر «إنَّ» تهويلاً بما يستحقّه هؤلاء الكفَرَة المَرَدَة من عظيم النكال والعذاب، أو بما يستحقّونه من القـذع والذمّ على كفرهم وعتوّهم، فيبلغ الذهن في ذلك مالا يبلغه البيان اللفظي. وإنّ المقام لجدير بذلك، ومقتضى الحال لا يليق بغيره.

ولعلّك لا يخفى عليك جهل المتعرّب في اعتراضه[4] على الآية بـعطف «يـصدّون» المضارع على «كفروا» الماضي؛ فإنّه لا ينبغي أن يخفى على غير المتعرّب أنّ الغرض هو التسجيل والتشنيع عليهم، بتماديهم على الغيّ والصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام. ولا تحصل هذه الفائدة إلّا بالفعل المضارع الدالّ على الثبوت. ولم يكن الغـرض هـو التشنيع عليهم بما فعلوه من الصدّ في الماضي فقط.

تتمّة: وتتمّة الآية المتقدّمة قوله تعالى في ذكر المسجد الحرام: ﴿وَمَـن يُـرِدْ فِـيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُـلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5].

---

١. شرح القصائد العشر: ٢٩٩.

٢. ديوان عبيد بن الأبرص: ١٤٢.

٣. الحجّ (٢٢): ٢٥.

٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٧.

٥. الحجّ (٢٢): ٢٥.

فقال المتعرّب:

فهذا أيضاً كلام ناقص؛ لأنّه جاء فيه بفعل متعدّ وهو «يُرِد» ولم يأت بمفعوله، ثمّ قال: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكان المقام يقتضي العذاب الأليم، أو عذاباً أليماً [١].

قلت: لا يخفى على كلّ من يميّز بعد الطفوليّة كيف يتكلّم، سواء كان يتكلّم باللغة العربيّة أم بغيرها من لغات الدنيا، ولا يلتبس عليه أنّ الفعل المتعدّي تارةً يُقصَد بالإتيان به بيان وقوعه على المفعول فقط، ولأجل ذلك يُعرِض المتكلّم عن بيان الفاعل ويبني الفعل في اللغة العربيّة للمفعول. وتارةً يُقصَد به محض وقوعه من الفاعل، فلا يُذكَر المفعول ولا يُقَدَّر في الصناعة. ولذا قالوا: إنّ المفعول فضلة، أي يصحّ الاستغناء عنه في الكلام ومرمى الإسناد.

فالآية الكريمة لم يتعلّق فيها الغرض بالمفعول بل إنّما تعلّق الغرض فيها بمحض صدور الفعل القبيح من الفاعل المتمرّد على الجهة الخاصّة والباعث الخاصّ، فإنّ قبح الإرادة بالإلحاد والظلم في المسجد الحرام، لا ارتباط له بتعلّق الإرادة بالإلحاد والظلم بمفعول خاصّ. بل هو مسجد الحرام سواء العاكف فيه والبادي. فهو كقول الملك: مَن يضرب بشقاوة بظلم نعذّبه، فليس في الآية الكريمة شيء من الحذف.

وممّا ذكرناه تعرف غلط المتعرّب في اعتراضه [٢] على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [٣] وذلك لأنّ المقام غنيّ عن بيان أنّ المقدَّس هو الله. وإنّما المهمّ في التقديس بيان كونه لله خالصاً مخلَصاً في قصد القربة الذي هو روح العبادة.

وأمّا قوله تعالى: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٤] فلأنّ الظالم بإلحاد وإنكار للمعاد والعقاب، يكفي في وعيده بيان خيبته في اغتراره واطمئنانه، وتهديده بأنّه لا مناص له عن سوء المنقلب الذي أنكره بإلحاده.

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٧ و٧٨.

٢. المصدر: ٩٠.

٣. البقرة (٢): ٣٠.

٤. الحجّ (٢٢): ٢٥.

والنكتة التي اقتضت التعبير بقوله تعالى ﴿نُذِقْهُ﴾ لابدّ معها من التعبير بقوله تعالى ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ فإنّ الذوق إنّما هو لبعض الشيء. هذا مضافاً إلى أنّه لم يقل: نذقه بعض ما يستحقّه. بل بعضَ العذاب المعدّ عندالله للأشرار؛ فإنّ كلّ معذَّب ـ شخصاً كان أو صنفاً ـ إنّما يُعذَّب ببعض العذاب ويُعذَّب غيره ببعض آخر. أعاذنا الله من ذلك ببركة الإيمان والإخلاص في توحيده وتقديسه.

وبهذا تعرف إن شاء الله أنّ المتعرّب يَعِيبُ المِسكَ بِرَيّاه[1].

وقال لبيد بن ربيعة العامري:

قالت غَداةَ انْتَجَيْنا عِندَ جارَتِها   أنتَ الذي كُنتَ لَولا الشيبوالكبر[2]

فحذف خبر «كنت» لنكتة آثرها.

وقال آخر:

إذا قِيلَ سِيرُوا إنّ لَيلَى لَعَلَّها   جَرى دُونَ لَيلى مائِلُ القرنِ أَعْضَبُ[3]

فحذف خبر «لعلّ» لنكتة آثرها أيضاً.

وقال مساور بن هند بن قيس:

زَعَمْتُم أنَّ إِخْوَتَكُم قُرَيشٌ   لَهُم إلْفٌ ولَيسَ لَكُم إلافُ

أُولئك أُومِنوا خَوفاً وجُوعاً   وقد جاعَت بَنُو أَسَدٍ وخافُوا[4]

فاكتفى عن ذكر تكذيبهم بالحجّة عليه.

وممّا ذكرناه تعرف الحُسنَ والبراعة في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[5] فإنّه طوى ذكر المستدرك بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن﴾ لأجل تلألؤ المقام به وإشراقه على

---

١. الريّا: الريح الطيّبة. لسان العرب ١٤: ٣٥٠، «روى». والمسك من أُصول العطور ذات الريح الطيّبة، ولا يعيبه بريحه هذه إلّا مريض الشمّ.

٢. ديوان لبيد: ٦٢.

٣. مجمع البيان ٣: ١٩٧، ذيل الآية ١١ من سورة هود (١١).

٤. شرح الحماسة، للمرزوقي ٣: ١٤٤٩.

٥. القصص (٢٨): ٤٦.

أرجائه. وتركه ليستعذبه الفهم من المَوردِ نهلاً وعَلّاً، ويقتبسه من مشكاة البرهان، ويكون هو الزعيم باستنتاجه والمستأنس ببرهانه، لا كما يُلقَى عليه باللفظ ثقلاً على وساوسه.

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] فقد ألقى حياة المقتول إلى الفهم بسبب ضربه ببعض البقرة السابق ذكرها، ولقّنه بها من سَوق المورد وحججه بأحسن ممّا يلقيها إليه بفضول اللفظ. كما لا يخفى إلّا على تعصّب المتعرّب، فانظر إلى شططه[2].

كما تعرف البراعة وعلوّ الشأن في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[3].

فإنّه بعد أن فتح عين الفهم بضرب المثل، ودلّه على مغزاه، أوقفه على ربوة[4] التنبّه وموعد الانتظار، وكفاه بُعدَ المسافة، ومعثرةَ التطويل وملل التكرار، وناوله تتمّة المثل ونتيجة التمثيل بيد واحدة من مكان قريب، قد راعى في أُسلوبه أولويّة الكافرين بصفة المثل، وأن يَرُوع الذهن بهول حقيقتها قبل أن يألف بفرض مثالها.

ولو أجرى الكلام على السذاجة المبتذلة، لتباعدت أطرافه، وتشتّتت معانيه وانحلّ نظامها، واضمحلّت خواصّ مقاصده، ولم ينجح في طوله المملّ بطائل. واستوضح ذلك من تفكيكه وتطويله حسب ما يقترحه البسطاء. واتل لمن ينكر نورانيّة إعجازه بهذا الأُسلوب الخاصّ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآية والتي بعدها.

وممّا ذكرنا تعرف أنّه لا حاجة إلى أن نجعل «الذي» بمعنى «الذين» فإنّ هذا التقدير ـ زيادة على وهنه ـ يذهب برونق السياق وفرائد الفوائد.

---

١. البقرة (٢): ٧٢ ـ ٧٣.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٩١و٩٢.

٣. البقرة (٢): ١٧.

٤. الربوة: ما ارتفع من الأرض. الصحاح ٦: ٢٣٤٩ ـ ٢٣٥٠، «ر ب ا».

والمتعرّب يعدّ هذه الآيات من الكلام المبتور الذي يتحيّر فيه السامع، زاعماً في تمويهه أنّ هذه الأساليب مخلّة بالبلاغة، لعدم الدلالة فيها على المحذوف[١].

وقد ذكرنا لك ما يحتمله الاختصار من شعر العرب الذي يوقفك على أسرار البلاغة وتفنّن البلغاء في كلامهم حسب مقتضى الحال. على أنّك لوقسته بالآيات المذكورة لوجدته كالمصباح مع الشمس والصبابة[٢] مع النهر.

أم يريد المتعرّب أن يكون القرآن الكريم في التطويل المضجر والتكرار الفارغ، كالتوراة الرائجة في صنعة المسكن وثياب هارون[٣].

أو يريد أن تكون أمثال القرآن الكريم كأمثال الإنجيل الرائج التي شوّه التطويل صورتها، وشردت بها الفضول الفارغة عن مطابقة الممثّل، حتّى كانت النتائج بعدها أجنبيّة. مضافاً إلى أنّها قد اشتملت على فقرات إن كانت داخلة في غرض المثل، لزم منها الكفر ونسبة الظلم إلى الله جلّ شأنه. والمعاملة مع عباده بالمحاباة والمجازفة ـ وإن لم تكن داخلة في ضرب المثل ـ كانت لغواً ومعثرة[٤].

ويا عجباً أنّ التعاليم المنسوبة في الإنجيل للمسيح لا تبلغ أن تملأ جريدة أُسبوعيّة أو يوميّة، ومع ذلك كان ما في الإنجيل الرائج ككتابة صحافي ضايقته وظيفة الوقت، فصار يملأ أعمدة الجريدة بسفاسف التطويل.

أهذه تعاليم المسيح كلمة الله؟ حاشا وكلّا.

وإن أراد المتعرّب أن يعرف الكلام المبتور الذي لم يقف الفهم فيه على محصّل ما، ولم يستشمّ منه رائحة الفائدة، فلينظر إلى ما تذكره التوراة الرائجة في شأن العلامة لإبراهيم على أنّه يرث أرض الكنعانيّين. كما ذكرناه[٥]. ولينظر إلى قول العهد القديم:

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٧ ـ ٧٩.
٢. الصُبابة: بقيّة من الماء تبقى في الإناء. الصحاح ١: ١٦١، «ص ب ب».
٣. فانظر سفر الخروج ٢٥ و ٣١. انظر أيضاً سفر الخروج ٣٥ و ٤٠.
٤. فانظر إلى إنجيل متّى ٢٠: ١ ـ ١٧ و ٢١: ٢٨ ـ ٤٥ و ٢٢: ١ ـ ٤ و ٢٥: ١ ـ ٣١.
٥. تقدّم في ج ١، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

«إن نسيتُك يا أُورشليم تنس يميني. ليلصق لساني بحنكي إن لم أذكـرك»[١]. وقـوله: «من منكم من كلّ شعبه الربّ إلهه معه ويصعد»[٢]. وقوله: «ويكون إذا سمعتم صوت الربّ إلهكم»[٣].

وقد جاء في لغة العرب حروف كثيرة تفيد في الكلام فوائد لا تحصل بدونها، وهي مثل «من» و«الباء» الجارّتين في مثل قولك: ما فيها من أحد. وما زيد بقائم.

و«إنْ» في مثل قولك: ما إن فعلت.

و«كان» في مثل قول المتعجّب: ما كان أحسنها!

و«ما» بعد «إذا. وأيّ».

و«لا» قبل القسم.

والشواهد لذلك لا تكاد تُحصَى في شعر العرب فضلاً عن نثرهم. ولكن لمّـا رأى أهل الصناعة أنّ الكلام يمكن أن يتألّف بدونها إذا لم تقصد فيه فائدتها، جعلوا تـلك الكلمات زائدة. ولمّا لم يصلوا إلى حقيقة فوائدها بعنوان من عناوينهم، أدمجوا أمرها وقالوا: إنّها للتأكيد.

وبعض المفسّرين جعل بعض الحروف في القرآن الكريم مـن هـذا النـحو. فـصار المتعرّب يعترض عليه ويقول: «إنّه زائد فهو إذاً لغو»[٤]. ولو أنّها كانت كما زعم هؤلاء البعض، لقبح من المتعرّب أن يشطّ بزعمه: إنّها لغو.

فمن ذلك قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[٥].

وليس كما حسب المتعرّب وتوهّم، فإنّ الحقائق النيّرة لا يحجبها غبار القيل والقال.

---

١. سفر المزامير ١٣٧: ٥و٦.

٢. سفر الأيّام الثاني ٣٦: ٢٣.

٣. سفر زكريّا ٦: ١٥.

٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٩.

٥. القيامة (٧٥): ١ ـ ٣.

فإنّ «لا» في الآية وأمثالها للنفي، وجيء بها لإعظام القَسَم والمحلوف به.

كما يرشد إلى ذلك ويدلّ عليه قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

ويرشد إلى ذلك أيضاً شائع الاستعمال العرفي، فإنّ المخبر المؤكّد لخبره، قد يجمع بين التعريض بالقسم وإعظامه بإنشاء واحد، فيقول: لا أحلف برأس أبيك، قد كان الأمر كذا. وهو أُسلوب لطيف وغرض حميد.

وإنّ صاحب الكشّاف قد تنبّه في تفسير سورة القيامة لهذا الوجه الواضح، فجزم به في التفسير، واحتجّ لتقريبه بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[2] وإن كان عند تفسيره لسورة الواقعة، قد اتّبع في هذه الآية قول بعض المفسّرين، فقال: إنّ «لا» صلة، أي زائدة[3].

فإن قال قائل: إذا كان ذلك جامعاً بحسن أُسلوبه بين التعريض بالقسم وإعظامه، فأين الخبر الذي عرض بالقسم لأجل تأكيده؟

قلنا: أفلا يسمع النداء بيوم القيامة وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[4]؟ أم يريد أن لا يجري القرآن على خصائص اللغة العربيّة ومحاسنها؟

وقال الله تعالى في سورة الحديد بعد ذكر الذين اتّبعوا المسيح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[5].

---

١. الواقعة (٥٦): ٧٥ـ٧٦.

٢. الكشّاف ٤: ٦٥٨، ذيل الآية ١ من القيامة.

٣. المصدر: ٤٦٨، ذيل الآية ٧٥ من الواقعة.

٤. القيامة (٧٥): ٣ـ٦.

٥. الحديد (٥٧): ٢٨ـ٢٩.

فذهب جماعة إلى أنّ «لا» في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة، وتشبّث المتعرّب[1] بكلامهم ليعترض على القرآن الكريم بزيادتها.

ولكنّ الصواب قد أخذ بيد جماعة، ففهموا من الآيات أنّ «لا» غير زائدة. وأنّ الضمير في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ يعود على المؤمنين المخاطبين في الآية المتقدّمة، على نحو الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. ويكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ معطوفاً على المجرور بلام التعليل في ﴿لِّئَلَّا﴾. أي يتفضّل على المؤمنين حقّ الإيمان بالهدى والثروة والشوكة، لكيلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدر المؤمنون على شيء من ذلك؛ ولأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

والسبب المقتضي للالتفات هو أنّ التعليل المذكور في الآية الثانية، غير داخل في الوعد بالجزاء المذكور في الآية السابقة، وإنّما هو حكمة في الجزاء ووجهه. فراعى القرآن بيان ذلك بتغيير الأُسلوب بالالتفات؛ لئلّا يُوهم النَسق أنّه غاية داخلة في الجزاء والامتنان.

ولكنّ المتعرّب لأنّه يتعذّر عليه الالتفات إلى الحقّ، صار يعترض على ماجاء من الالتفات في القرآن الكريم. مع أنّ الالتفات يعدّ من محاسن اللغة العربيّة، ولم يجئ في القرآن إلّا لنكتة شريفة، وإن عَشِي عنها من عَشِي.

قال عمرو بن كلثوم في معلّقته:

بِأيِّ مَشيئة عَمْرو بن هِندٍ ... تُطِيعُ بنا الوُشاةَ فَتَزْدَرِينا
تهَدَّدَنا وأوَعدنَا رُوَيْداً ... مَتَى كُنّا لأُمِّكَ مُقْتَوِينا[2]

فالتفت من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب.

وقال امرؤ القيس في معلّقته:

إلى مثلِها يَرْنُو الحليمُ صَبابةً ... إذا ما اسْبَكَرَّتْ بَينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ
تسلَّت عَماياتُ الرجالِ عن الصِّبا ... وليس فُؤادي عَن هَواكِ بِمُنْسَلي[3]

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٠.
٢. ديوان عمرو بن كلثوم: ١٤١ ـ ١٤٢.
٣. ديوان امرئ القيس: ١٨.

وقال عنترة في معلّقته:

حـلّت بأرضِ الزائـرين فأصـبَحَتْ		عسـر عَـلَيَّ طـلابك ابـنةَ مـحرمِ[١]

ثمّ التفت إلى الغيبة في البيت الذي بعده، ثمّ إلى الخطاب فيما بعده، ثمّ إلى الغيبة، ثمّ إلى الخطاب، ثمّ إلى الغيبة. وقد تنقّل بالالتفات في ستّة أبيات على النسق.

وقال قيس بن جروة الطائي:

أيُـوعِدُني والرَمْـلُ بَـيْنِي وَبَـينَه		تَبَيَّنْ رُوَيْداً ما أُمامَةُ مِـن هِـندِ[٢]

وقد جاء الالتفات أيضاً في التوراة الرائجة العبرانيّة[٣].

تتمّة: واعترض المتعرّب أيضاً على قوله تعالى في الآية المتقدّمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾[٤] فقال:

إنّهم إن كانوا حقيقة قد آمنوا كما دعاهم، فـقد اتّـقوا الله وآمـنوا بـرسوله. وإلّا فماهم بمؤمنين[٥].

قلنا: ممّا لا يخفى ولا يستر أنّ عموم النـصارى ـ عـلى سـعة شـريعتهم الفـعليّة وإطلاقها وقلّة تكاليفها ـ غير معصومين عن مخالفة التقوى. ولا نذكر شيئاً ممّا يشهد به العيان والتأريخ القطعي، بل نقول: إنّ ملوكهم وحكّامهم قد بذلوا غاية جهدهم في كسر سورة الظلم وطغيان الفساد، وقرّروا بينهم في ذلك مؤكّدات الروابط والمعاهدات. وإنّك لترى مع ذلك ما يحدث في العالم من النكال ببعض المقصّرين الذين عرف أمرهم ولم يُحابِهم الوقت. وترى ما يحدث مـن مـخالفة التـعاليم النـبويّة، والآداب العـقليّة والنواميس الروحيّة، التي قد اتّفق هتافها ونجواها في الحثّ على الوداعـة والصـفاء

---

١. ديوان عنترة: ١٦.
٢. شرح الحماسة، للمرزوقي ٣: ١٤٦٦.
٣. انظر سفر اللاويّين ٢: ٨.
٤. الحديد (٥٧): ٢٨.
٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٠.

والسلام. وترى من المخالفة المذكورة ما يكاد أن يأتي على رمق المدنيّة والإنصاف، ويدفنهما في رمس العواطف البالي. ولو تركنا القلم وجَرْيَه، لقال: ضع يدك على من شئت، مستشهداً بشواهده مدلياً بحججه، أفترى المتكلّف يقول في أهل نحلته: إنّهم ماهم بمؤمنين، أو يغالط وجدانك ويقول: كلّهم فائقون في العصمة والتقوى على أنبياء العهدين اللذين نسبا إليهم عظائم الذنوب وقبائح الأحوال؟ كما ذكرناه لاقتضاء المقام وعزّ علينا ذكره[١].

ولعلّك تسأل أنّ المتعرّب لماذا لم يعرف أنّ للإيمان معارج ومراقي: أوّلها التحلّي بفضيلة الإقرار بالإله الصانع، والتطهّر من رجاسة الشرك، فلا يخالس به التوحيد أو يسرّ حسواً بارتغاء[٢]، ثمّ يترقّى في معارجه بالعمل الصالح والتقوى، والصبر والتوكّل والعرفان والتسليم، والتهيّؤ لطاعة الرسول فيما يبلغه عن الله؟

فنقول: دع عنك المتعرّب، إذ وصلت بسؤالك إلى أنّ الله جلّ شأنه أمر المؤمنين في الآية بالترقّي في معارج الإيمان ببركة التقوى والإيمان بالرسول، ليقوم بذلك نظام الشريعة والمدنيّة وتنال به سعادة الدنيا والآخرة.

فأمّا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[٣] فإنّ المعدود فيه محذوف يهدي إليه المقام، أي اثنتي عشرة قبيلة حال كونهم أسباطاً وأُمماً. والمتعرّب توهّم أن السبط في اللغة العربيّة بمعنى القبيلة، كما توهّمه مترجمو التوراة إلى العربيّة. ولم يدر أنّ السبط هو الشخص الواحد، وأمّا القبيلة فهي أسباط متعدّدون لاسبط واحد.

وأمّا قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَ ٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَ ٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٨٣.

٢. مجمع الأمثال ٣: ٥٢٥.

٣. الأعراف (٧): ١٦٠.

يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[١].

فجزم ﴿أَكُنْ﴾ لأجل التنبيه على أنّ الكون من الصالحين أولى بأن يكون جزاءً للطلب بـ﴿لَوْلَآ﴾ وغايةً للتأخير، ليتدارك به الخسران الحاصل بسبب اللهو بفتنة الأموال والأولاد عن تقوى الله، ونسيانه بفعل المعاصي، ولو لم يجزمه بل تركه على النسق لضاعت هذه المزيّة الشريفة والتنبيه البارع. بل وكذا لو قدّمه في النسق. ومن هذا النحو قال خارجة بن الحجّاج الإيادي:

فَأَبْلُوني بَلِيَّتَكُم[٢] لَعَلِّي أُصالِحكُم وأَسْتَدْرِجْ نَوَيّا[٣]

فجزم «أستدرج» لينبّه على أنّه أولى بكونه جزاءً للطلب.

وأمّا قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] فقال جلّ شأنه في مقام الاحتجاج بالتمثيل ﴿فَيَكُونُ﴾ بالفعل المضارع الدالّ على الثبوت. وذلك لبيان الملازمةالدائمة بين قوله تعالى ﴿كُنْ﴾ وبين أنّ الشيء يكون بهذا الأمر لا محالة. وبهذه القدرة التامّة والملازمة الدائمة خلق عيسى من غير فحل، إذ قال له: ﴿كُنْ﴾.

ولا تقوم الحجّة بهذا التمثيل، ولا يحصل المراد منه في الاحتجاج، إلّا ببيان الملازمة. بخلاف ما لوقيل: كن فكان؛ لأنَّ هذا الأُسلوب لا يفيد إلَّا أنَّ آدم كان، سواء كان ذلك باتّفاق أو بملازمة خاصّة بذلك الكون أو عامّة. وهو أمر معلوم لا فائدة في بيانه ولا حجّة فيه على خلق عيسى من غير فحل، فلا يكون التفريع لوقيل: «كن فكان» إلّا لغواً في كلام متهافت.

وبما ذكرناه تعرف غلط المتعرّب[٥] وأنّه يعيب المسك بِرَيَّاه.

---

١. المنافقون (٦٣): ٩ ـ ١٠.

٢. البليّة: ناقة كانت الجاهليّة تعقلها عند قبر الميّت حتّى تموت عطشاً وجوعاً، يزعمون أنّ الميّت يركبها، يقول: اصنعوا لي البليّة لعلّي أُصالحكم وأُقرّب بركوبها نواي. راجع لسان العرب ١٤: ٨٥ ـ ٨٦، «ب ل ى».

٣. لم نعثر عليه.

٤. آل عمران (٣): ٥٩.

٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٥.

كما غلط أيضاً في اعتراضه على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] حيث قال:

ثمّ إنّ قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ظاهره أنّه جواب لجملة سقطت فيما سقط. ولو قال: «فيتوب» مكان «فتاب» لكان الكلام أصحّ[2].

قلت: تعساً لغرور العصبيّة. أفلا يعلم الناظر في خطاب الله لبني إسرائيل في سورة البقرة ٣٨ ـ ٨٨ أنّه إنّما كان خطاباً لبني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ لا المعاصرين لموسى، فاستوضح ذلك من الآية ٣٨ـ٤٤ ومن أنّه لا يصحّ خطاب الأموات الذين صاروا رميماً بمثل هذا الخطاب، بل قد خاطب الله الموجودين وامتنّ عليهم ووعظهم بأحوال آبائهم وشؤونهم، فأسندها إليهم كماهو المتعارف في خطاب القبائل والفرق. وبذلك تعرف أنّ التوبة ماضية بالنسبة للخطاب وعصر المخاطبين.

فإن **قال قائل:** كيف يخاطَب الموجودون بأحوال الماضين؟

قلنا: هذا نهج متعارف في خطاب القبائل والفرق. فإن أبى الإذعان بذلك من المحاورات فلينظر إلى العهدين، فإنّ التوراة الرائجة صريحة بأنّ بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر وحضروا طور سيناء، لم يبق منهم إلى السنة الأربعين لخروجهم من مصر أحد حيّ، بل ماتوا كلّهم في الفقر قبل أن يَقتُلوا مِديان ويغنموهم. ولم يبق من ذلك الجيل إلّا موسى ويوشع وكالب[3].

وقد جاء في التوراة أيضاً أنّ موسى في أواخر السنة الأربعين بعد سبي مِديان، خاطب بني إسرائيل الموجودين بشؤون آبائهم وقال لهم: «وكلّمتكم في ذلك اليوم ـ أي في حُوريِب ـ فأجبتموني وقلتم»[4].

فكلّمكم الربّ من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ـ وأخبركم بعهده ـ لم تروا

---

١. البقرة (٢): ٥٤.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٩١.

٣. انظر أقلاً سفر العدد ٢٦: ٦٤و ٦٥.

٤. سفر التثنية ١: ٩و ١٤.

صورةً ما يوم كلّمكم في حوريب[١].

كما جاء نحو ذلك عن خطاب المسيح لمعاصريه من الكَتَبة والفرّيسيّين[٢].

تتمّة: واعترض المتعرّب في هذا المقام على امتنان الله على بني إسرائيل بشأن أمره لهم بذبح البقرة، مع تمرّدهم في مراجعة السؤال عن المسارعة إلى الامتثال بمقتضى إطلاق اللفظ[٣] وعلى امتنانه جلّت آلاؤه على النَسَق بشأن إحياء المقتول بضربه ببعضها[٤] فقال: «إنّه كلام في غاية المعاياة ولا يقدر أحد أن يفهم معناه»[٥].

وكان يقترح أن تكون آيات الامتنان الأوّل حشواً في آيتي الامتنان الثاني، توهّماً منه ـ أو إيهاماً ـ بأنّ القرآن الكريم في صدد أن يذكر قصّة البقرة حكاية تأريخيّة لقوم بسطاء، كحكاية بنتي لوط[٦]، أو صناعة المسكَن وثياب هارون[٧]، أو كحكايات الأناجيل الرائجة[٨].

ولم يفهم أنّ القرآن الكريم إنّما هو في مقام الامتنان على بني إسرائيل بتعداد نعم الله عليهم وألطافه بهم، على ما هم عليه من الغلظة. فذكر أوّلاً منّته عليهم في شأن أمره لهم بذبح البقرة، ومجاراته بلطفه لهم على جهلهم وتمرّدهم في تكرير السؤال. وذكر ثانياً منّته عليهم بفصل القضاء المعجز بإحياء الميّت وإخماد الفتنة وفضيحة العادي.

ولقد أبهر القرآن الكريم بإعجازه هاهنا ولا بِدْعَ، فقدّم الامتنان الأوّل توطئة لبيان الامتنان الثاني على وجهه وخصوصيّات حاله. حيث إنّه بعد أن ملأ السمع والقلب

---

١. سفر التثنية ٤: ١٢ ـ ١٦، وانظر أيضاً سفر التثنية ٥: ٢٣ ـ ٢٨.

٢. إنجيل متّى ٢٣: ٣٥.

٣. انظر البقرة (٢): ٦٦ ـ ٧١.

٤. انظر البقرة (٢): ٧٢ ـ ٧٣.

٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٩١.

٦. سفر التكوين ١٩: ٣١ ـ ٣٨.

٧. سفر الخروج ٢٥ و ٤٠.

٨. إنجيل متّى ٤: ١ ـ ١١؛ إنجيل لوقا ٧: ٣٦ ـ ٥٠؛ إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١١ و ١٣: ٢١ ـ ٣١.

بحال الامتنان الأوّل قال في الامتنان الثاني: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[1] أي تلك البقرة التي تقدّم ذكرها، فنظم البيان نظم العقد، وأوحى إلى الفهم بواسطة الضمير في قوله ﴿بِبَعْضِهَا﴾ جميع خصوصيّات القصّة. من دون أن ينحلّ نظام البيان، وتتباعد أطراف الكلام، وتبعد مسافته على الفهم، بل جلا القصّة مع المحافظة على عناوين الامتنان أحسن جلوة، ونوّع الامتنان أحسن تنويع.

وما ظنّك لو أقحم الامتنان الأوّل في أثناء الامتنان الثاني؟ أفلا يتشتّت شمل البيان، وتندمج بيّنات الامتنان، ويعود الكلام بيداء ماحلة تأتي على الفهم بطول المسافة، بعد أن كان روضة زاهرةً يرتاح إليها ويتمتّع بشذاها؟

ولئن استهزأ المتعرّب بالقرآن الكريم والراسخين في العلم، فإنّا لا نستهزئ بالمغمورين بالتعصّب، المفضوحين بالجهل والضلال ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2].

وأمّا قوله تعالى في سورة الصافّات: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾[3] بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4] فذلك لأنّ هذا الرسول لاسمه العبراني في اللغة العربيّة تعريبان «إلياس» و«إلْياسِين» كما أنّ اسمه في العبرانيّة جاء في العهد القديم على وضعين: أحدهما: «الياه» بإشباع فتحة الياء وإسكان الهاء بعدها[5].

وثانيهما: «الياهُوّ» بضمّ الهاء وتشديد الواو[6].

وأمّا قوله تعالى في سورة التين: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[7] فلأنّ لهذا المسمّى في العربيّة اسمين «سيناء. وسينين» كما أنّه يسمّى في العبرانيّة في العهد القديم مرّة «سِينَيْ» بفتح

١. البقرة (٢): ٧٣.
٢. البقرة (٢): ١٥.
٣. الصافّات (٣٧): ١٣٠.
٤. الصافّات (٣٧): ١٢٣.
٥. انظر سفر الملوك الثاني ١: ٣ و٤ و٨ و١٢.
٦. انظر سفر الملوك الثاني ١: ١٠ و١٥ و١٧.
٧. التين (٩٥): ٢.

النون بالفتحة الخالصة، وإسكان الياء بعدها[١]. ونصّ في حاشية هذا المزمور على ذلك فضلاً عن رسم الإعراب. ويسمّى مرّة أُخرى «سيناي» بفتح النون بالفتحة المشالة إلى الألف[٢]. هذا كلّه مع قطع النظر عن رموز النغمة المصطلحة عند اليهود في قراءة العهد القديم.

وبهذا تعرف بعضاً من مبلغ عصبيّة المتعرّب وجهله في كلامه[٣]. وكأنّه إذا ألصق نفسه بالعرب، حسب أنّه صار الحَكَم المُحَكَّم في العربيّة. ولكنّه من أين يتورّع عن مثل هذه الاقتحامات؟ وفي كتاب إلهامه: «لأنّ هاجَرَ جبلُ سِيناءَ في العربيّة»[٤]. فيالهفاه على العربيّة!

وأمّا قوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾[٥] فثنّى فيه في الأوّلين باعتبار أنّ الخصومة على طرفين وبين فريقين، وهما الذين كفروا، والذين آمنوا. وجمع في الأخيرين باعتبار كثرة المتخاصمين من الفريقين. فلو جمع في الأوّلين، لما دلّ الكلام على أنّ الخصومة على طرفين وبين فريقين. ولو ثنّى في الآخرين، لمادلّ على كثرة المتخاصمين. فلو غيّر الأُسلوب الموجود في الآية، لخرج الكلام إلى ضدّ حقيقته.

وأمّا قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[٦] فقد جمع في قوله: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ باعتبار أنّ القتال يقع بين آحاد الطائفتين الكثيرين، وثنّى في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ فلبيان أنّ الواجب هو الصلح بين الطائفتين. ولا يحصل امتثال الواجب أصلاً إذا أصلحوا بين بعض أفراد الطائفتين وإن كانوا جمعاً كثيراً.

---

١. انظر سفر الخروج ١٩: ٢ و١٨؛ سفر المزامير ٦٨: ٩.

٢. انظر سفر الخروج ١٩: ١؛ سفر اللاويّين ٢٧: ٣٤.

٣. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٦.

٤. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٤: ٢٥.

٥. الحجّ (٢٢): ١٩.

٦. الحجرات (٤٩): ٩.

وأيضاً فإنّ قرار الصلح وروابطه لا يقع غالباً بين جميع المقتَتِلين، وإنّما يقع بين عنوان الطائفتين ورابطتي رئاستيهما. فلو غيّر الأُسلوب الموجود في الآية أيضاً، لخرج الكلام إلى غير المراد منه.

وأمّا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ﴾[1] فإنّ الغرض فيه إسناد الفعل إلى اللاعبين اللاهية قلوبهم ـ كما سبق ـ فأسند إلى ضميرهم شرحاً لذميم حالهم، وتسجيلاً عليهم بقبيح تماديهم في الغيّ. ثمّ جاء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَـلَمُواْ﴾ بدلاً من الضمير ـ أو منصوباً على الاختصاص والذمّ ـ إعلاماً بظلمهم في إسرارهم النجوى بجحد الرسالة بالذكر، وتسميته سحراً، واحتجاجهم الفاسد بكون الرسول بشراً. ولو أسند الفعل رأساً إلى الذين ظلموا، لانحلّ ارتباط الكلام، ولم يدلّ على المراد منه، كما ذكرنا.

وبما ذكرناه تعرف شطط المتعرّب في كلامه[2].

وأمّا اعتراضه على القرآن الكريم[3] بخرافة جمع القلّة والكثرة، فهل عدا فيه أن اتّبع به الأصمعي وأمثاله، على غير هدى ولا كتاب منير. ولو أنّ القرآن الكريم كان كلام واحد من سائر العرب، لقبح الاعتراض عليه بعثرات أوهام الأصمعي وأمثاله، بل كان هو الحاكم عليهم والمقيم لأوَدِهم.

أولم يصدّ المتعرّب عن غلطه صادّ؟ ولا أقلّ ممّا عرّبه من كلام سايل حيث قال في شأن القرآن العظيم: «وممّا لا خلاف فيه أيضاً أنّه ـ أي القرآن ـ الحجّة التي يرجع إليها في العربيّة»[4].

وقد توغّل المتعرّب في شطط التعصّب، فصار يدّعي أنّ القرآن الكريم يستعمل الألفاظ العربيّة في غير ماوضعت له ـ أي خطأً واشتباهاً ـ وعدَّ من ذلك قول القرآن عن

---

١. الأنبياء (٢١): ٣.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٦ و ٧٧.

٣. المصدر.

٤. مقالة في الإسلام: ١١٩ س ٤.

دين إبراهيم: «إنّه حنيف». وزعم أنّ العرب تسمّي عابد الوثن حنيفاً، وأنّ الحنيف عندهم الملتوي الضالّ والخبّ الخدّاع[١].

والذي ورّط المتعرّب هاهنا بهذا الافتراء هو ما ذكر في أوائل الرسالة المنسوبة لعبد المسيح، فنسي مانصّ عليه قبل[٢] من أنّ العرب سئمت الوثنيّة، وقد أدرك منها محمّداً رسول اللهﷺ رجال كثيرون يُدعون بالحنفاء. وإنّما دُعوا بذلك لحنفهم، أي ميلهم عن الوثنيّة. فكانوا يحرّضون قومهم على اطّراح عبادة الأصنام، ويدعونهم إلى التديّن بدين لا شرك فيه.

فاسأل المتعرّب: لماذا تناقض كلامه؟ فهل هو على المثل الفارسي «دروغگو حافظه ندارد» أي الكذّاب لا حافظة له؟ أم يقول: دع هذا، فإنّ لكل مقام مقالاً؟ أو لم يتّعظ بمافضح الله به صاحب الرسالة المذكورة في هذا الافتراء، حيث أظهر عليه كذبه ومخالفته لصراحة العهدين، مع أنّه نصرانيّ يزعم أنّهما كتب إلهيّة؟

أو لم يعتبر به إذ قال في أوّل رسالته:

> فقد علمنا الآن أنّ إبراهيم كان منذ ولد إلى أن أتت عليه تسعون سنة حنيفاً عابد صنم يعبد الصنم المعروف بالعزّى مع آبائه وأهل بيته وهو بحرَّان.

مع أنّ التوراة لم تذكر أنّ إبراهيم عبد صنماً، لا يوماً ولا تسعين سنة، بل تذكر أنّه حينما خرج من حاران عن أمر الله وبركته له في خطابه كان ابن خمس وسبعين سنة[٣].

ويقول العهد الجديد:

> إنّ الله ظهر لإبراهيم وهو ما في بين النهرين قبل ماسكن حاران وأمره بالخروج... فخرج حينئذٍ بأمر الله ووحيه من أرض الكلدانيّين وسكن في حاران[٤].

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨١.

٢. المصدر: ٢٥.

٣. سفر التكوين ١٢: ١ـ ٤.

٤. أعمال الرسل ٧: ١ـ ٥.

وعلى هذا فلابدّ أن يكون عمره الشريف حينما ظهر الله وأوحى إليه بالهجرة أقلّ من خمس وسبعين سنة بمقدار سكناه في حاران وزيادة. وبالإيمان لما دُعِيَ أطاع أن يخرج[١].

ويكفي من صراحة ماذكرناه عن العهد الجديد أنّه يلزم منه أن يكون إبراهيم مؤمناً بالله نبيّاً موحى إليه قبلما يأتي إلى حاران. وإنّك لتعلم من هذا أنّ مَثَلَ صاحب الرسالة في جرأته على خليل الله ومخالفته لكتب دينه، ليروّج أضاليله وأباطيله، كمثل كلب الأكراد يعضّ الضيف وصاحب المنزل.

وكيف كان، فالحنيف في العربيّة هو من كان على حقيقة التوحيد وعبادة الحقّ.

قال الجارود بن بشر من عبد القيس، وكان نصرانيّاً فأسلم طوعاً:

فَأَبْلِغْ رَسُولَ اللهِ مِنِّي رِسالةً　　بأنّي حَنِيفٌ حيثُ كنتُ مِن الأرْضِ[٢]

وقال حسّان بن ثابت يخاطب أباسفيان:

هَجَوْتَ مُحمّداً بَرّاً حَنيفاً　　أمينَ اللهِ شِيْمَتُهُ الوَفاءُ[٣]

وأمّا استشهاد المتعرّب[٤] بحكاية قول بسطام النصراني لأخيه: «إن كرّرت يا بجاد فأنا حنيف»، فلا شهادة فيه وإن صحّت الحكاية؛ فإنّ مراد بسطام تهديد أخيه بترك النصرانيّة وتثليثها، والقول بتوحيد الحنفاء، فإنّهم كانوا يقاومون التثليث والسجود للأيقونات والصور، كما يقاومون الوثنيّة الصريحة.

وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٥].

فاعترض عليه المتعرّب[٦] ـ حيث قال بعض المفسّرين: إنّ «هل» بمعنى «قد» ـ

---

١. الرسالة إلى العبرانيّين ١١: ٨.

٢. لم أجد هذا البيت في المصادر المتوفّرة لدينا.

٣. ديوان حسّان: ٦١.

٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٨١ س ١٤.

٥. الدهر ـ الإنسان ـ (٧٦): ١ ـ ٢.

٦. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٢.

فقال: «إنّا لا نجد لها هذا المعنى في شيء من كلام العرب». و قال قبل ذلك: «إنّ المتبادر إلى الذهن من هذا أنّه سؤال مُنكِر».

فنقول أوّلاً: إنّ حقيقة الاستفهام هو طلب الفهم. وإنّما يعرف كونه استفهام تقريرٍ أو إنكارٍ إذا دلّ الحال أو المقال على ذلك. فمن أفحش الغلط قول المتعرّب: إنّ المتبادر إلى الذهن كونه في الآية سؤال مُنكِر، أي استفهام إنكار. مع اعترافه بأنّ القرآن لم يرد منه إلّا الإثبات، ومع العلم بأنّ حال رسول الله ومقاله ومقال القرآن في هذا المقام وغيره، يناضل ويحامي أشدّ المحاماة عن هذه الحقيقة، التي هي العمدة والأصل من أساسيّات دعوته وتعليمه، بوجود الصانع الواحد العليم.

وثانياً: قد جاء مثل سَوق الآية الكريمة في قول زهير في معلّقته:

ألا أبلغ الأحلافَ عَنِّي رِسالةً وذُبْيان هَلْ أقسَمْتُمُ كُلَّ مقسمِ[1]

وقول الحارث بن حلّزة اليشكري في معلّقته مفتخراً ومحتجّاً:

هل عَلِمْتُمْ أيّامَ ينتهب الناس غواراً لكلِّ حَيٍّ عواءُ[2]

وقول زيد الخيل:

سائِلْ فَوارِسَ يَرْبُوعٍ بِشَدَّتِنا أَهَلْ رَأَونا بِسَفْحِ القفِّ ذِي الأكمِ[3]

ومن الواضح أنّ الشعراء المذكورين لايريدون حقيقة الاستفهام؛ لأنّهم عالمون بما بعد «هل» ولا ينكرونه؛ لأنّه يوافق غرضهم، بل لا يريدون منه إلّا الإثبات والاحتجاج به. فإن كانت «هل» في الشعر بمعنى «قد» فالشعر شاهد لذلك. وإن كانت للتقرير والتسجيل عليهم بالاحتجاج؛ فإنّ «هل» في الآية الكريمة كذلك، وهو الأصحّ الذي ذهب إليه المحقّقون من المفسّرين.

ثمّ اعترض على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[4] فقال:

---

١. ديوان زهير: ٤٢.

٢. ديوان الحارث بن حلّزة: ٢٩.

٣. البحر المحيط ٥: ٣٧٩، ذيل الآية ١٦ من الرعد.

٤. البقرة (٢): ٢٢٩.

«إنّ المقام يأباه وإنّه يلزم أن يعدّى «تعتدوا» بـ«على» لا بنفسه»[١].

فنقول: إنّ من له أدنى تمييز يعرف من اللغة وموارد الاستعمال أنّ الاعتداء والتعدّي، إنّما هما بمعنى واحد، و كلاهما بمعنى التجاوز، فقولك: اعتدى عليه، وتعدّى عليه، بمعنى واحد، والمراد منهما: اعتدى الحدّ، وتعدّى الحدّ عليه. نعم يختصّ التعدّي المذموم بلفظ الاعتداء، فالاعتداء هو تعدّي الحدّ حيث لا ينبغي.

ثمّ اعترض أيضاً على قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[٢] فقال:

الوجه لتنوء بها العصبة، أي تنهض على تثاقل؛ فالعصبة هي التي تنوء بالمفاتح لا المفاتح بالعصبة[٣].

فأقول: جاء في النوع السادس والثلاثين من إتقان السيوطي أنّ سائلاً سأل عن قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ فأجاب المجيب بقوله: [التثقل] أما سمعت قول امرئ القيس:

تَـمْشِي فَـتُثْقِلُها عَـجِيزَتُها مَشْيَ الضَعيفِ يَنُوءُ بِالوَسْقِ[٤]

والظاهر أنّ سؤال السائل كان عن مجيء ذات اللفظة في العربيّة، لا عن معناها الخاصّ في الآية الكريمة، فاكتفى المجيب بذكر ما يدلّ على وجودها، وإن كان مخالفاً لمعناها في الآية.

وأحتمل أنّ المتعرّب رأى ذلك في الإتقان، فتوهّم أنّ السؤال كان عن مجيء «تنوء» على المعنى الذي في الآية، فاستشعر من مخالفة الجواب أنّ المجيب لم يجد شاهداً على ما في الآية.

وأحتمل أيضاً أنّ المتعرّب جرى على عادته في إقدامه على الاعتراضات الباطلة، تمويهاً بتعصّبه وترويجاً لباطله.

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٢.

٢. القصص (٢٨): ٧٦.

٣. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٢ و٨٣.

٤. الإتقان ١: ١٣٢؛ ديوان امرئ القيس: ٤٦٦.

ومهما يكن من ذلك فلا يخفى أنّ اللغويّين اتّفقوا على قولهم: ناء بالحمل: نهض به على تثاقل. وناء الحمل به: أثقله وأجهده. وأنّ العرب تسند بعض الألفاظ إلى أُمور متقابلة، قال امرؤ القيس في معلّقته:

كُمَيْت يَزِلّ السَرْجُ عن حالِ مَتْنِهِ كـما زَلَّت الصَـفْواءُ بِـالمُتَنَزِّلِ[1]

فأسند الزلل في صدر البيت إلى السرج المتحوّل. وأسنده في العجز إلى الصفواء المتحوّل عنها المطر. ومن ذلك «ناءينوء» فإنّها تسند تارة إلى المثقَل المجهود، كقوله: «ينوء بالوسق». وتارة إلى الثقيل المجهد، كمافي الآية الكريمة، وقول عمرو بن كلثوم في معلّقته:

ومتني لدنة سمقت وطالت روادفها تنوء بما ولينا[2]

فأسند «تنوء» إلى الروادف الثقيلة التي تجهد ماوَلِيَتْه بثقلها.

وأنشد اللغويون في ذلك أيضاً:

إلّا عصا ارزن طارَتْ برايتُها تَنُوءُ ضَرْبَتُها بالكفِّ والعَضُدِ[3]

وأمّا «المفاتح» في الآية الكريمة، فهو جمع «مفتح» وهو ذات الكنز، لا المفتاح الذي هو آلة الغلق.

واعترض المتعرّب أيضاً على قوله جلّ شأنه في سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[4] فقال: «والوجه استطعماهم»[5].

وذلك لتوهّمه أنّ قوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ جواب «إذا» ولم يفهم أنّه وصف للقرية وجواب «إذا» إنّما هو قوله تعالى في آخر الآية: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ وحينئذٍ لو قيل:

---

١. ديوان امرئ القيس: ٢٠.

٢. ديوان عمرو بن كلثوم: ١٣٢.

٣. لسان العرب ١: ١٧٥، «ن و أ».

٤. الكهف (١٨): ٧٧.

٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٥.

«استطعماهم» لخلت جملة الصفة من ضمير الموصوف.

وأيضاً إنّ الإتيان في الآية لجميع أهل القرية باعتبار الدخول إلى قريتهم، والاستطعام لم يكن لجميعهم وإنّما كان لمن هو لائق للضيافة. ولو قيل: «استطعماهم» لأوهم الكلام أنّ الاستطعام كان لجميع أهل القرية. فلأجل ذلك كرّر ذكر الأهل، لئلّا يمتنع انصرافه إلى المتعارف، بخلاف الضمير العائد إلى مايراد منه العموم.

واعترض أيضاً [١] على العدول عن الإضمار إلى تكرار الظاهر في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [٢].

فماذا تقول في اعتراضه هذا، هو محض تمويه وتعصّب؟ أم أنّه لا يفهم من المحاورات فوائد تكرار الظاهر فيها؟ لكي يفهم أنّ تكرار الظاهر هاهنا لأجل التسجيل بالصراحة فيما هو العنوان للحجّة والقصّة، فلم يطوه بغمغمة الإضمار؟ وإنّ الفوائد التي أشرنا إليها لمعتنى بها في البلاغة، فقد قال عنتر في معلّقته:

يادار عبلة بالجواء تكلّمي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي [٣]

وقال سوادة بن عدي:

لا أرَى الموتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ ... نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفَقِيرا [٤]

وذكرنا لك قول امرئ القيس:

فَلَو أنّها نفسٌ تَمُوتُ سَوِيّةً ... ولكنّها نَفْسٌ تَساقَطُ أنْفُسا [٥]

وقول الآخر:

إذا قِيلَ سِيرُوا إنَّ لَيلَى لَعَلَّها ... جَرَى دُونَ لَيلَى مائِلُ القَرْنِ أعْضَبُ [٦]

---

١. المصدر.

٢. البقرة (٢): ٣٣.

٣. شرح القصائد العشر: ٢١١.

٤. شرح الحماسة للمرزوقي ١: ٣٦.

٥. ديوان امرئ القيس: ١٠٧.

٦. مجمع البيان ٣: ١٩٧، ذيل الآية ١١ من هود.

ومن هذا الوجه مجيء التكرار في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِى﴾ في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾[1].

والمتعرّب ضجر من تكرار هذه الكلمة لأمر لايُحَيِّر بيانه[2].

ولا يخفى عليك أنّ القرآن الكريم لمّا كان متجرّداً لتثبيت حقيقة التوحيد، منابذاً لما يجاهرها أو يخالسها بالشرك، فلا جرم أن كانت له العناية التامّة في تكرار البيان أو تأكيده، بأنّ أفعال المسيح العجيبة لم تكن بقدرته كما شَتّت[3] به المزاعم، وإنّما هي بإذن الواحد القادر القاهر وبقدرته. وإنّ الحال ليوجب أن يتكرّر قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِى﴾ في هذه الموارد وأمثالها، وإن بلغ تعدادها ألفاً، وإن غاظ المتعرّب تكرارها المرغم لأهوائه في ثالوثه.

ومن الظرائف أنّ المتعرب موّه تألّمه من مباهظتها لهواه، وأبدى أنّ إنكاره لها لأنّ أوّلها مثل «إذ». ولعلّه أبغض «إذ» لأنّها مثل أوّل «بإذني» وإلّا فماذا يبهظه من تكرار «إذ» إذا اقتضى الحال به تسجيل الامتنان بعظائم النعم وعوائد مزيدها في ظروفها، تسجيلاً لازماً في البيان في مقام الامتنان والتذكير، لا يحصل لوخُلّي السَوق ونَسق العطف بدون التسجيل بالظرف. فاعرف ذلك من مراجعة الآية التي قبل هذه.

وممّا يستظرف نقله أنّ المتعرّب قد أخذته الرقّة على «حين» فتألّم من القرآن إذ لم تذكر فيه إلّا سبع عشرة مرّة. وأحمشه[4] الحسد لـ«إذ» حيث ذكرت في القرآن مائتين وأربعاً وثلاثين مرّة، فحقد ذلك عليه. وماذا على المتكلّم البليغ إذا استعمل الألفاظ التي

١. المائدة (٥): ١١٠.

٢. أي لا يشكل بيانه، لأنّ هذه الكلمة «بإذني» تنفي اُلوهيّة عيسى عليه السلام.

٣. شتّت: تفرّقت. الصحاح ١: ٢٥٤، «ش ت ت».

٤. أحمشه: أحرقه.

هي أدخل بمقاصده ممّا يقاربها في المعنى، فقد قال الحارث بن حلّزة اليشكري في معلّقته:

ما جزعنا تحت العجاجة إذ و ... لّوا شـلالاً وإذ تـلظى الصـلاء
واقـدناه ربّ غسّـان بـالمنـ ... ذر كـرها إذ لا تكـال الدمـاء[1]

وقالت الخنساء:

كَأَنْ لم يَكُـونُوا حِـمَىً يُـتَّقى ... إذِ النـاسُ إذ ذاكَ مَـن عَـزَّبز[2]

وقال الأخطل:

كـانَت مَـنازِلُ أُلّافٍ عَـهِدْتُهُمُ ... إذ نَحنُ إذ ذاكَ دُونَ الناسِ إخْوانا[3]

ولعلّ الزمان سيرينا من مخبّآته من يعترض على القرآن الكريم بأنّ الفاته أكثر من ثاآته وظاآته!

ولماذا يتضجّر المتعرّب من التكرار؟ فإنّ التكرار رفيقه في أناجيله؛ فقد تكـرّرت «لما» تسع مرّات في الأصحاح الثاني وربع الأوّل من متّى. وجاء في أوّل يوحنّا: في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عندالله، وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عندالله، كلّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء ممّا كان فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه، لم يكن هو النور بل ليشهد للنور كان النور الحقيقي الذي يبرّر كلّ الناس آتياً إلى العالم كان في العالم وكوّن العالم به ولم يعرفه العالم.

وكم وكم ترى في إنجيل يوحنّا مثل هذا التكرار وأكثر!

وإن قيل: إنّ الإنجيل لم يكن مبنيّاً على البلاغة، والقرآن المبنيّ على البلاغة قد جاء فيه التكرار الكثير.

قلنا أوّلاً: حاصل هذا الكلام أنّ التكرار الفارغ لا يضرّ في الإنجيل؛ لأنّه غير مبنيّ على البلاغة.

وثانياً: إنّه لم يتكرّر في القرآن الكريم إلّا ما كان مقتضى الحال موجباً لتكراره.

---

١. شرح القصائد العشر: ٣٢٥ و ٣٢٦، بيتان، الأوّل مؤخّر والثاني مقدّم.

٢. ديوان الخنساء: ٢٧٤.

٣. ديوان الأخطل: ٣٩٩.

فكيف ترى التكرار الذي اعترض عليه المتعرّب[1]؟ و ذلك في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّ أَحْسَنُواْ﴾[2].

فإنّ نفي الجناح في المطعوم وعدم لحوق الوبال منه، إنّما يتمّ بالنسبة إلى هـؤلاء الثابتين الدائبين على الإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان.

فكم من مؤمن عمل صالحاً، ثمّ جرّه الشَرَهُ والانهماك في الطعام إلى سوء الظنّ بالله وعدم التوكّل عليه، ومنّته نفسه الأمّارة وحرصه أن يستزيد رزقه بتدبيره.

وكم من مؤمن عمل صالحاً، ثمّ جرّه الشَرَه إلى مخالفة التقوى والورع، بالإغماض والتساهل في مطالب رزقه.

وكم من مؤمن عمل صالحاً واتّقى مدّة، ثمّ جرّه الشَرَه والاعتياد على ملاذّ المطعم إلى الإقدام على كسب الحرام.

وكم من مؤمن عمل صالحاً واتّقى، قد أدّى به الشَرَه والانهماك بلذّة المـطعم إلى العجز والتثاقل عن العبادة والعمل الصالح واكتساب الفضائل الروحانيّة. فإن تكلّف شيئاً من ذلك جاء به صورة مشوّهة وجسماً بلا روح.

وكم من هؤلاء من جرّه الشَرَه إلى الإسراف المحرّم والإكثار المضرّ ببدنه فضلاً عن دينه.

وكم وكم جرّهم الشَرَه إلى الشحّ وذمائم الأخلاق والتعطّل من زينة الإحسان. ولكنّ أغلب الناس يقولون: لسنا من هؤلاء والحمدلله.

فلا يسلم الطاعم من الجناح والوبال إلّا إذا تأدّب بأدب الآية الكريمة ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[3].

ولا يحسن نفي الجناح إلّا مع هذا التأكيد في الثبات والدوام على الإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان، فإنّ القرآن الكريم لم تجرِ تعاليمه على الفِداء والمـغالطة بكفاية اسم الإيمان.

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٥.

٢. المائدة (٥): ٩٣.

٣. ص (٣٨): ٢٤.

فإن قيل: إنّ القرآن قد كرّر في سورة القمر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[١] أربع مرّات. وكذا قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[٢] وكرّر في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٣] إحدى وثلاثين مرّة. وكرّر في سورة المرسلات قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[٤] عشر مرّات. فما الوجه في هذا التكرار في السورة الواحدة؟

قلت: إنّ للتكرار في الخطابة ومناهج البلاغة لمقاماً يتنافس فيه البلغاء، وغايةً يتسابقون إليها، فيكرّرون ما يعنيهم أمره ويهمّهم تثبيته في القلوب، ويجلونه بالتكرار ليفتحوا به المسامع ويملؤوا به القلوب، تنويهاً بشأنه وحياطة للغرض المهمّ فيه، فيتفاوتون في الإحسان به كما يتفاوت في الجودة والمناسبة واقتضاء الحال. قال الحارث بن عباد في قصيدة لما قتل مهلهل ابنه بجيراً:

قَرِّبا مَربطَ النعامةِ مِنّي لقحت حَرْبُ وائلٍ عَن حِيالِ[٥]

فكرّر صدر البيت في أربعة وأربعين بيتاً إلى قوله:

قَرِّبا مَربطَ النَعامَةِ مِنّي لبجير فداهُ عَمِّي وخالِي

وقال مهلهل في قصيدة:

على أن ليسَ عَدْلاً من كُلَيبٍ إذا خافَ المغار من المغير

فكرّر صدر البيت سبع عشرة مرّة إلى قوله:

على أن ليس عدلاً من كُلَيبٍ إذا هَتَفَ المثوّب بالعشير[٦]

---

١. القمر (٥٤): ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

٢. القمر (٥٤): ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠.

٣. الرحمن (٥٥): ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧.

٤. المرسلات (٧٧): ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

٥. خزانة الأدب ١: ٤٧٢.

٦. ديوان مهلهل: ٤٠ ـ ٤١.

وكرّر قوله:

قرّبا مربط المُشَهَّر منّي[١].

في صدور أبيات كثيرة.

وكرّر عمرو بن كلثوم في معلّقته قوله:

بأيِّ مشيئةٍ عمر بن هند[٢].

في صدرَي بيتين.

وكرّرت ليلى الأخيليّة في رثاء توبة قولها في قصيدة:

فنعم الفتى ياتوب كنت إذا التقت[٣].

في صدور ستّة أبيات.

وقولها منها:

لعمري لأنت المرء أبكي لفقده[٤].

في صدور أربعة أبيات.

وقولها منها:

فلا يبعدنّك الله ياتوب[٥].

في صدور أربعة أبيات.

وهكذا حسّان بن ثابت في شعره قبل الإسلام جواباً لقيس بن الحطيم، فكرّر قوله في قصيدة:

ويثرب تعلم[٦].

في صدور أربعة أبيات.

وما هو من هذا النحو كثير، وغير مختصّ باللغة العربيّة، بل يوجد في خطابة كثير

١. المصدر: ٧٢ ـ ٧٤.

٢. ديوان عمرو بن كلثوم: ١٤١ ـ ١٤٢.

٣ ـ ٥. ديوان ليلى الأخيليّة: ٧٢ و٧٣.

٦. هذا جزء من صدر بيت، ولم أجده في ديوان حسّان.

من اللغات وكلامها الذي يتسامى إلى البراعة ومراعاة مقتضى الحال.

حتّى أنّ المزامير الرائجة، لمّا كان أُسلوبها طامحاً إلى البلاغة، جاء فيها كثير من ذلك، فقد جاء في المزمور التسعين: «وعمل أيدينا ثبّت علينا وعمل أيدينا ثبّته»[١].

وتكرّر في المزمور السابع والخمسين قوله: «ثابت قلبي» مرّتين[٢].

وفي أوّل الرابع والتسعين: «يا إله النقمات»[٣] مرّتين.

وفي المائة والخامس عشر: «اتّكلوا على الربّ»[٤] ثلاث مرّات.

وفي المائة والثامن عشر: «احمدوا الربّ لأنّه صالح إلى الأبد رحمته»[٥] مرّتين، «إنّ إلى الأبد رحمته»[٦] ثلاث مرّات.

وفي المائة والرابع والعشرين: «لولا الربّ الذي كان لنا»[٧] مرّتين.

وفي المائة والسادس والثلاثين: «لأنّ إلى الأبد رحمته»[٨] ستّاً وعشرين مرّة. على أنّ هذا المزمور لايبلغ النصف من سورة الرحمن.

وأيضاً قد تكرّر في العشرين من القضاة «بين رجليها انطرح سقط»[٩] مرّتين.

وفي الأربعين من إشَعْياء: «يبس العشب ذبل الزهر»[١٠] مرّتين.

وفي العشرين من حزقيال: «التي إن عملها إنسان يحيا بها»[١١] ثلاث مرّات.

---

١. سفر المزامير ٩٠: ١.

٢. سفر المزامير ٥٧: ٧.

٣. سفر المزامير ٩٤: ١.

٤. سفر المزامير ١١٥: ٩، ١٠، ١١.

٥. سفر المزامير ١١٨: ١، ٢٩.

٦. سفر المزامير ١١٨: ١، ٢، ٣.

٧. سفر المزامير ١٢٤: ١، ٢.

٨. سفر المزامير ١٣٦: ١ ـ ٢٦.

٩. سفر القضاة ٥: ٢٧.

١٠. سفر إشعياء ٤٠: ٧، ٨.

١١. سفر حزقيال ٢٠: ١١، ١٣، ١٦.

وأيضاً تكرّر في سابع متّى عن قول المسيح: «من ثمارهم تعرفونهم»[1] مرّتين. كما في الثالث عشر منه أيضاً عن خطابٍ واحد للمسيح مع تلاميذه قوله: «هناك يكون البكاء وصرير الأسنان»[2].

وفي هذا المقدار من العهدين كفاية، وإن كان فيه أكثر من ذلك.

وإنّك إذا نظرت إلى مكرّرات القرآن في مواردها، وجدتَها ممّا لامساغ لغرض البليغ في تركها. كيف لا، وهي في مقام الامتنان بتيسير القرآن للذكر، والحثّ على الادّكار للاتّعاظ بما جرى على الكفرة المتمرّدين من عظيم النكال. وفي مقام التهديد والتهويل بذلك البطش الشديد حيث تمّت عليهم الحجّة بالنذر. وفي مقام التنويه بآلاء الله وبيان أنّه لا مجال في التكذيب بها. وفي مقام التهديد والوعيد بالويل في يوم القيامة للمكذّبين بالمعاد والجزاء.

وإنّك لترى أنّ هذه المقامات هي الرأس والعمدة في الإصلاح والتكميل ونظام المدنيّة، والهدى إلى الإيمان والسعادة. فراجع مواردها فإنّها توردك بتوفيق الله من زلالها العذب نهلاً وعللاً[3].

وأمّا تكرار القرآن لقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[4] خمس مرّات؛ فذلك لأجل أنّه حكاية لكلام خمسة من الأنبياء في خمسة مواقع، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، حيث احتجّ كلّ واحد منهم على قومه، بأنّه لا يريد في إنذاره لهم إلّا النصح والهدى، ولا يرجو فيه طمعاً ولا يسألهم عليه أجراً.

وأمّا ما تكرّر في مجموع القرآن، فما عسى أن يكون إذا اقتضاه الحال! أو لم يتكرّر

---

١. إنجيل متّى ٧: ١٦، ١٩.
٢. إنجيل متّى ١٣: ٤٢، ٥٠.
٣. النهل: الشرب الأوّل. الصحاح ٥: ١٨٣٧، «ن هـ ل».
العلل: الشرب الثاني، وهو الشرب الذي يروى به العطشان من الناس والحيوان. انظر الصحاح ٥: ١٧٧٣، «ع ل ل».
٤. الشعراء (٢٦): ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

في متّى عن قول المسيح: «هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» ستّ مرّات، مع أنّ الكلمات المنسوبة فيه إلى المسيح لا تقارب واحدة من كبار سور القرآن؟ هذا فضلاً عن التكرار في كتب العهدين.

وبما ذكرناه تعرف شطط المتعرّب[1] وتحامله بضلاله على القرآن الكريم.

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

والمراد منه أنّ الذين كفروا تجري ألسنتهم في كفرهم بما لا يعقلون غلطه ولا يتدبّرون شططه، فكأنّهم ليس لهم أسماع يسمعون بها ضلال أقوالهم وقبيح فلتاتهم، فإنّها قد بلغت من الغلط والضلال حدّاً لا ينبغي أن لا يعقله إلّا من لم يسمعها. أفيقول من لم يوقر الغيّ أُذنيه: لا أتّبع ما أنزل الله، بل أتّبع ما ألفيت عليه آبائي؟ أفلا يسمع ما يقوله من الغلط والضلال؟ فمثل الذين كفروا في ضلال أقوالهم هذه كمثل الأصمّ الذي ينعق[3] بما لا يسمعه، ولا يميّز من مداليل كلماته إلّا الصوت والدعاء والنداء. فكلامهم الغلط الفاسد إنّما هو بالنسبة إلى غباوتهم عمّا فيه، كنعيق من لا يسمع.

والمتعرّب سمع من بعض المفسّرين أنّهم يقدّرون في الآية: مثَل واعظِ الذين كفروا. ويجعلون سَوق الآية لتشبيه وعظ الواعظين بالنعيق، والذين كفروا بالأنعام التي ينعق بها[4]. فقال المتعرّب:

> هذا التمثيل لا معنى له، وكان الوجه أن يقول: ومثل الذي يعظ الكفّار أو يدعوهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع[5].

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٧٦ و ٨٤.

٢. البقرة (٢): ١٧٠ ـ ١٧١.

٣. النعيق: صوت الراعي بغنمه. الصحاح ٤: ١٥٥٩، «ن ع ق». ويريد المؤلّف عدم فائدة هذا النعيق.

٤. حكاه أبوحيّان في البحر المحيط ١: ٦٥٧، ذيل الآية ١٧١ من البقرة.

٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٩٣.

ولا ألوم المتعرّب إذ لم يعقل المراد من الآية، ولم يدر ما يلزم في تقديره من الفساد. أفلا يتدبّر أنّه حاشالله وبلاغة القرآن أن يصف وعظ الواعظ الهادي وإرشاده الشافي بالنعيق المهمل، ويعيب إرشاده بعيب غيره؟ بل حاشا كلّ من يعرف مواقع الكلام من ذلك.

هب ذلك، ولكنّ المثل الشريف حينئذٍ يخطئ مرماه ويلغو معناه، فإنّ الناعق بالأنعام طالما ينجح بنعيقه بها، ويندر أن لا تجيبه بإقبالها وانزجارها، وإن كان نعيقه مهملاً. وأين ذلك من خيبة واعظ الكفّار الذين حرنوا[١] على اتّباع ماألفوا عليه آباءهم!

وأمّا اعتراض المتعرّب على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٢] حيث قال: «وكان الوجه أن يقول إنّما الربا مثل البيع»[٣].

فيكفي في ردّه أنّ القرآن كلام الله الصادق قد حكى ما قاله آكلوا الربا على وجهه. لا كالأناجيل التي تتقلّب في نقلها للواقعة الواحدة حسبما تقتضيه الغفلة وغيرها. كما ذكرنا بعضه[٤]. ولا كالعهدين اللذين يختلف منهما الحاكي والمحكيّ اختلافاً فاحشاً، كما سنذكر بعضه إن شاء الله في أوائل الجزء الثاني.

ولا علينا أن نقول: إنّ اعتراضهم إنّما هو النقض على الشريعة بحلّ البيع، لتوهّمهم أنّ العلّة في تحريم الربا موجودة فيه، فهو مثل الربا، فلماذا أُحِلَّ مع تحريم الربا؟ وهذا النحو من الاعتراض يستلزم هذا التعبير.

وأمّا اعتراض المتعرّب على عربيّة القرآن باستعماله بعض الألفاظ التي يدّعي أنّها عجميّة في الأصل: كالسندس، والإستبرق، والأباريق، والنمارق، والقسطاس، والفردوس.

فنقول: إنّ من المعروف في جميع اللغات أنّها قد تتداخل وتنقل اللفظة من لغة إلى

---

١. حرنت الدابّة: وقفت، لاتنقاد ولاتنساق. الصحاح ٥: ٢٠٩٧، «ح ر ن». والمراد ثبتوا على ما ورثوهم من عقائد آبائهم.

٢. البقرة (٢): ٢٧٥.

٣. ذيل مقالة في الإسلام: ٩٣.

٤. تقدّم في ج ١، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٩.

لغة أُخرى، فتكون بهذا الأخذ في اللغة الثانية كسائر موضوعاتها الخاصّة، وقد كثر ذلك في الأسماء في كلّ لغة. فالذي ينقل من لغة إلى اللغة العربيّة يسمّى معرّباً، أي صار عربيّاً بعد أن كان غير عربي، وذلك كغالب أسماء الأنبياء. فلا يلزم بعد ذلك في فصيح العربيّة اجتنابها، بل إنّ الألفاظ المعترض بها لامناص في الفصاحة والبلاغة وحسن البيان عن استعمالها؛ لأنّك تعلم أنّ مثل السندس والإستبرق والنمارق والقسطاس، الذي هو ميزان خاصّ مبنيّ على الدقّة. كلّ هذه لم تكن من صناعة العرب ولا متداولة عندهم ليضعوا لها الأسماء من لغتهم ابتداءً، بل لم يكن يستعملها إلّا ملوك الحاضرة ومترفوهم، فاكتفوا في تسميتها في لغتهم بتعريب أسمائها، فلا يمكن البيان عن حقائق مسمّياتها إلّا بأسمائها. ولو عُدل عن أسمائها المذكورة إلى نحو آخر من التعبير، لما تيسّر بيان المسمّيات على ما ينبغي، ولو بطول الكلام الفارغ.

فاعتبر بما إذا جاء في بليغ الكلام الإنكليزي «سلدين» أي «صلاح الدين» و «جبر لتار» أي «جبل طارق» و «أرابيك» أي «عربي» فهل ترى مميّزاً يعترض على إنكليزيّة ذلك الكَلام بوجود هذه الألفاظ المأخوذة من العربيّة؟ أو يقول: كان يلزم في بيان معانيها ومسمّياتها أن تستعمل الألفاظ الإنكليزيّة الأصل وإن أدّى ذلك إلى التطويل والهذر؟ كلّا.

وأمّا دعوى المتعرّب أنّ الملّة والسكينة والمثاني والمائدة، مأخوذة من اللغة العبرانيّة، فهي دعوىً ناشئة من فلتات الجهل وبوادر العصبيّة.

وأمّا اعتراضه[1] على القرآن الكريم بأنّه يوجد فيه كثير ممّا تنافرت حروفه نحو: «فسبّحه». و«من يسمعها». و«من يكرههنّ». و«إذ سمعتموه». و«إذ زاغت».

فقد تلقّن دعوى التنافر فيه من أعاجم يعسر عليهم النطق بالحاء والعين والذال وما أشبهها، بل تراهم يتلكّؤون في النطق بالكلمات العربيّة وإن كانت حروفها متداولة بينهم. وقد تكلّفوا الكلام باللغة العربيّة وتردّدوا في النطق بحروفها بين إفراط وتفريط.

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٥.

فإمّا أن يقلبوا الحاء هاءً، والذال زاءً، والعين ألفاً. وإمّا أن ينطقوا بالحاء على وجه يكاد أن يجرح الحلقوم. وبالعين على وجه يكاد أن يخنق. ووضع لهم أرباب الصناعة ـ وهم منهم ـ حدوداً للحروف لا تنفكّ أن تخرجهم من التفريط إلى الإفراط، وهو تفريط أيضاً. فإن كان هذا هو الميزان في التنافر، فكلّ اللغة العربيّة متنافرة الحروف بالنسبة إلى غير العرب، بل كلّ لغة متنافرة بالنسبة إلى غير أهلها.

الفصل الثاني

في أوهام الاعتراضات على القرآن الكريم من حيث وضع الأرض

قال الله جلّ شأنه في سورة يوسف في قصّة الجدب والخصب: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1] فقال المتعرّب:

ويترتّب عليه أنّ خصب مصر مسبّب عن المطر، وهذا خلاف الواقع، فالمطر قلّما يقع في ذلك القطر ولا دخل له في خصبه، بل ذلك مسبّب عن فيض النيل، وهذا لا يجهله أحد من أهل البلاد النازحة عن مصر فضلاً عن العرب المتاخمين لها[2].

قلت: أترى هذا النصراني المتصدّي للأُمور الدينيّة والمباحث العلميّة، كيف أدّى به العناد والتمرّد على الله ورسوله، إلى أن فضح نفسه بالجهل، بصراحة التوراة التي هي كتاب ديانته، وبمبادئ الجغرافيّة التي لا يجهلها أطفال المكاتب الابتدائيّة في هذه القرون.

أمّا التوراة فإنّها تقول بصراحتها: «إنّ القحط قد عمّ مصر وأرض كنعان، وكلّ وجه الأرض»[3].

---

١. يوسف (١٢): ٤٩.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٥١.

٣. انظر سفر التكوين ٤١: ٥٤ ـ ٥٧ و ٤٢: ١و٢ و ٤٣: ١ و٢ و٨ و ٤٥: ٤ ـ ٨؛ انظر أيضاً سفر المزامير ١٠٥: ١٦ و١٧؛ أعمال الرسل ٧: ١١.

هذا، وإنّ الوجدان شاهد بأنّ الخصب في أرض كنعان لا يكون إلّا بالغيث من المعصرات.

وإنّ الجغرافيّة الشائعة في المكاتب الابتدائيّة قد فهّمت الأطفال أنّ خصب مصر وزيادة نيلها إنّما هما من نزول الغيث من المعصرات، وقد حدّدت ابتداء زيادة النيل بابتداء المطر في حوضه وانتهاءها بانتهائه. وعيّنت موقع حوض النيل الذي يمدّه بماء المطر الواقع فيه، وعيّنت مساحة الحوض أيضاً.

وإنّ المتعرّب قد حقّق بآخر كلامه هذا كون القرآن الكريم من الله علّام الغيوب، فإنّه لو كان من الناس لأسند خصب مصر إلى فيض النيل، جرياً على ماهو المعروف في تلك القرون التي لم تكتشف فيها مواقع البلاد وطبيعيّات الأرض وحياض الأنهار.

وما ظنّك بجرأة المتعرّب لو جاء في القرآن الكريم مثل ماجاء في توراته، بأنّه كان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنّة، وهناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حدّاقل ـ أي دجلة ـ وهو الجاري شرقي آشور والنهر الرابع الفرات[١]. أفتراه لا يقول: إنّ جيحون وأرض كوش في أفريقيا، ومبدأ الفرات من أرمينية، ومبدأ الدجلة من كردستان ومنتهاهما خليج فارس؟ فأين هذا؟ وأين عدن؟ وأين هذا من العلم بتوقيع البلدان؟

ومن نحو هذا الفصل اعتراض المتكلّف والمتعرّب على القرآن الكريم إذ سمّى صانع العجل لبني إسرائيل بـ«السامري» وقد أوضحنا لك حقيقة الحال ومقدار جهلهما[٢]؛ فراجع.

وقال الله تعالى في أوّل سورة الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[٣].

فاعترض المتعرّب على ذلك[٤] بأنّ المسجد الأقصى ـ الذي هو الهيكل السليماني ـ

---

١. سفر التكوين ٢: ١٠ ـ ١٥.

٢. تقدّم في ج ١، ص ١٢٨.

٣. الإسراء (١٧): ١.

٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٥١.

كان قد خرب وانمحت آثاره منذ خمسمائة وخمسين سنة.

قلنا: لا يخفى أنّ المسجد لا يخرج عن فضيلة المسجديّة وشرفها وعنوانها وإن صار خربة وانمحت آثاره منذ آلاف من السنين. وعلى ذلك عمل اليهود والنصارى، فإنّهم يعظّمون بيت المقدس بناءً على مسجديّته السابقة على خرابه.

وأمّا اعتراضه باعتبار الرواية فساقط؛ لما قدّمناه في المقدّمة السابعة[1].

وقال الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2] ونحوه في سورة الأنبياء[3] وسورة لقمان[4].

فنقل المتكلّف[5] أقوال بعض المفسّرين الظاهرة في دعواهم أنّ الجبال بثقلها تمنع الأرض عن أن تتحرّك كرتها على الاستدارة ونحوها[6]. فصار بمقتضى هذه الأقوال يغلّط بضلاله القرآن الكريم، مدّعياً أنّ الأرض متحرّكة.

أفتراه لم يشعر بأنّ ما نقله إنّما هو قول بعض المفسّرين الذين لا نصيب لهم بشيء من التحقيق، ولم يفوزوا إلّا بكثرة الحفظ، ولم يكن همّهم إلّا رسم التفسير من المسموعات بدون تحقيق. ويكفي في بطلان هذا التفسير أنّ التضاريس في الكرة والدولاب أدعى لحركتهما على الاستدارة بواسطة مايصادم التضاريس من القوى. ثمّ إذا كانت الكرة على عِظَم حجمها قابلة للحركة إلى فوق أو إلى اليمين ونحو ذلك، فهل ترى التضاريس الجزئيّة ـ التي هي من طبيعتها ـ تمنعها عن الحركة.

وممّا يوضح فساد هذا التفسير وأنّه تقوُّل على القرآن بدون علم، هو أنّ المَيَدان لغةً وعرفاً ليس من نحو تحرّك الكُرَة على الاستدارة أو الاستقامة، وإنّما هو حركات

١. تقدّم في ج ١، ص ٦١ ـ ٦٣.

٢. النحل (١٦): ١٥.

٣. الأنبياء (٢١): ٣١.

٤. لقمان (٣١): ١٠.

٥. الهداية ٢: ٨٤.

٦. التفسير الكبير، للفخر الرازي ٢٠: ١٠.

متضادّة إلى جهات مختلفة على التتابع بواسطة القاسر العنيف، كالزلزال والرجيف.

وهب أنّ القرآن الكريم كلام واحد من الناس، فهل يحسن ولا يقبح لك أن تعترض عليه بتفسير غيره؟ أو إنّما يحسن لك أن تأخذ تفسيره من ذات المتكلّم، أو من الحقائق المنطبقة عليه؟ ولكنّ المتكلّف رأى أنّ الهيئة الجديدة رائجة، حتّى أنّ غالب المعاصرين يعدّونها زعيمة ببيان الحقائق على ماهي عليه، ويعدّون مخالفتها من الغلط. فصار يحاول أن يموّه على الناس أنّ فلسفة القرآن الكريم مخالفة لها. ولمّا كان القرآن الكريم يصادمه، والحقائق البيّنة تجبهه، التجأ إلى التمويه بقول بعض المفسّرين.

وهاك دلالة القرآن وبيان الحقائق، لكي تعلم أنّ فلسفة القرآن لا يمكن أن تصدر من مثل رسول الله ﷺ بغير الوحي الإلهي. فاعلم أنّ المَيَدان ليس هو الحركة مطلقاً، وإنّما هو التزلزل والتزعزع بالحركات المتفاوتة إلى جهات مختلفة على التتابع بواسطة القاسر، فهو غير الحركة الطبيعيّة التي تثبتها الهيئة الجديدة للأرض. ولكن لمّا اقتضت الحكمة الإلهيّة إيداع الحرارة المتحرّكة وأبخرة البحار في جوف الأرض ـ لكي تتولّد بسببها المعادن والفلزّات، وتتصعّد بها مجاري العيون لعمارة المسكونة ـ جعل لها منافذ مرتفعة عن السطح المعمور، وفتح فيها بحكمته أفواه البراكين ومنافذ الينابيع، وتعاهد بالمطر ودوام الثلج عليها فتْحَ مسامّها.

كلّ ذلك لكي تتوجّه إليها بسبب ارتفاعها وانفتاح منافذها تلك القوى الناريّة السيّارة في جوف الأرض، لتنفذ من خلالها بدون أن تصدم بعاديتها شيئاً من المعمور. ولولا ذلك لاستدام الزلزال في السهل المعمور واستمرّ المَيَدان، وسُلب القرار بسبب ميل القوى الناريّة إلى الخروج من الأرض بحدّتها العنيفة. فيعمّ الضرر في المعمور وساكنيه بشيوع الزلزال. فالجبال من أجل هذه الحكمة البالغة هي المانعة من شيوع الزلزال في الأرض، والحافظة لها من أن تكون مائدة. ألا ترى القوى الناريّة مع هذه المنافذ لها في الجبال، كيف تزلزل سطح المعمور وتميده إذا اقتضت الحكمة خروجها منه، بل قد يستتبع خروجها منه الخسف والانفجار الناري والمائي.

ولعلّ الحكمة في ذلك إرهاب الخلق به لئلّا يأمنوا بطش الله فيطغوا ويبغوا،

وإشعارهم بالنعمة عليهم بخلق الجبال وحكمتها البديعة، في كونها حافظة للمعمور من هذا البلاء العظيم، كما صرّح بذلك القرآن الكريم. فأظهر الله حكمته ورحمته، وامتنّ على الناس بحفظهم من مَيَدان الأرض المزعج المخرّب، فضلاً عن الخسف والانفجار.

بل قد تساعد الفلسفة والاعتبار على أن نقول: إنّ الجبال بطبعها موجبة لميل القوى الناريّة إليها والخروج منها وإن كانت صخريّة ليس فيها براكين ولا ينابيع. وقد امتنّ الله أيضاً على عباده بجعل الجبال راسية في مواطنها؛ لإجراء حكمتها ودوام النعمة بوجودها، فلا تزعزعها القوى الناريّة كما تزعزع سطح الأرض. ولولا القوّة التي أودعها الله فيها لاقتضى نفوذ القوى الناريّة منها على الدوام أن يحلّلها ويزعزعها ويلاشيها. جلّت حكمة الله وعظمت آلاؤه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وقال الله تعالى في سورة الحجر وسورة ق: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾[2] وفي سورة نوح: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[3]. والمراد من ذلك أنّه جلّ اسمه وعظمت نعمته جعل الأرض ذات أرجاء واسعة ممتدّة وسهول منبسطة رحيبة، فلم يضق رَحبُها ولم تَستَوعِر[4] كلّها على ساكنيها بتضاريس الحُزُون[5] وأسنِمَة الجبال. وإنّ مدّ الأرض وبسطها بهذا المعنى لا ينافي كُرَوِيّتها التي لا تدرَك إلّا بدقّة الرصد وكلفة البرهان.

وقد جاء في العهد القديم: «الباسط الأرض على المياه»[6]. «باسط الأرض»[7]. «هل أدركت عرض الأرض أخبرني إن عرفته كلّه»[8]. «وبعد هذا رأيت أربعة ملائكة واقفين على أربع زوايا الأرض»[9]. وهذا يقتضي كون الأرض مسطّحة مربّعة ذات زوايا أربع.

---

١. إبراهيم (١٤): ٣٤؛ النحل (١٦): ١٨.

٢. الحجر (١٥): ١٩؛ ق (٥٠): ٧.

٣. نوح (٧١): ١٩.

٤. تستوعر: من وَعُر الطريق، إذا صعب سلوكه لكثرة حجارته وكثرة العواثر فيه. انظر الصحاح ٢: ٨٤٦، «وع ر».

٥. الحزون: جمع حَزْن، وهو الجبل الوعر. الصحاح ٥: ٢٠٩٨، «ح ز ن».

٦. سفر المزامير ١٣٦: ٦.

٧. سفر إشَعْياء ٤٢: ٥و٤٤: ٢٤.

٨. سفر أيّوب ٣٨: ١٨.

٩. رؤيا يوحنّا ٧: ١ و ٢٠: ٨.

وأظنّ أنّ هذا الكلام هو الذي دعا جماعة كثيرين من قدماء المسيحيّين إلى تكفير من يقول بكرويّة الأرض.

ومع هذا كلّه يُقدِم المتكلّف[١] بقبيح جرأته على القرآن الكريم فيما ذكرنا، ويعترض عليه بأنّ مضمونه منافٍ لكرويّة الأرض. وقد عرفت أنّه ليس فيه شيء من المنافاة، وأنّ ما في العهدين أولى بالمنافاة.

وليت شعري إنّ الذي لا يفهم الكلام ولا يدري بما في كتب دينه، لماذا يقتحم مهالك البحث فيقع في فضيحة الجهل، فضلاً عن ضلال الكفر؟ ولماذا لم يكتف بالأكل من أرزاق الجمعيّات كسائر المبشّرين؟ فإن حاول التقرّب إلى الجمعيّات بالتمويه والتلبيس، فإنّها لا تجبره على ذلك، وإنّما تتوقّع منه مايرفع ذكرها، لاما ينبّه الغافلين على جهل المبشّرين بكتب دينهم، وعدم تماسكهم في أمرهم إلّا بالتزوير والتمويه[٢].

---

١. الهداية ٢: ٨٤.

٢. إلى هنا تمّ الجزء الأوّل من الطبعة الأُولى، وقد كتب المصنّف في إنهاء هذه الطبعة:

وقد عنّ لنا أن نختم الجزء الأوّل تعجيلاً لإنجاز مطبوعه، حامدين لله على آلائه، شاكرين له على أن هدانا بلطفه للحقّ، ووفّقنا بفضله لنصرته، متوسّلين إليه بحرمة أنبيائه وأصفيائه عليهم الصلاة والسلام أن يوفّق عباده للأخذ بحظّهم في رشدهم، والنظر في أمرهم، ويجمعهم على كلمة الحقّ وجامعة الصواب، إنّه وليّ التوفيق وهو أرحم الراحمين.

وإنّ ضرورة التنبيه على شطط الأضاليل، وغفلات الجهل، وفلتات التعصّب، وقبائح الجرأة، قد ألجأت القلم الغَيرانَ للحقّ إلى ما نملك منعه عنه ابتداءً، ولنا عنه في بيان الهدى أحسن مندوحة، نتجافى فيها عن التعرّض للنِحَل. ولكنّ القلم جرى ولسان حاله يقول: إنّ الإغضاء عن العادي على الحقّ خَوَرٌ ووهن، وتخلية سبيل المضلّين خذلان للدين القيّم، ومعاونة على الضلال والإثم والعدوان، وعقوق للإخوان من البشر، وقعود عن نصرتهم على عادية الشبهات ووساوس الغواية. وذلك ممّا يأباه الدين والعواطف، ويحظره العقل والشرع، وما في إحقاق الحقّ من غضاضة وإنْ غِيظ المضلّ على أهلها جنت براقش [مجمع الأمثال ٢: ٣٣٧]، والحديث شجون [المستقصى ١: ٢١٠].

سَقَوْنِي وقالُوا لاتُغَنِّ ولو سَقَوا جِبالَ شَرَوْرَى ماسَقَوني لَغَنَّتِ

﴿وَ مَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود (١١): ٨٨].

وسيأتي إن شاء الله تمام المقدّمة الثالثة عشرة في أوائل الجزء الثاني في ضمن فصول. «وَاللهُ المُسْتَعَانُ. وهو حَسْبِي».

قال الله ـ تعالى شأنه ـ في شأن ذي القرنين في سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١].

فاعترض المتكلّف على ذلك وجعله من الجهل بمبادئ علم الفلك[٢].

قلت: لا يخفى أنّ المغرب أمر مبهم إضافي، وأنّ لكلّ ناحية مغرباً، وهو ما تغيب فيه الشمس عن تلك الناحية. والمغرب العمومي للمعمور القديم ـ وهو آسيا وأفريقيا وأُوروبا ـ إنّما هو البحر المحيط، فالشمس لا تغرب عن المعمور المعتدّ به من هذه القطع الثلاث إلّا ويكون تمام غروبها أو بعضه في البحر المحيط.

والآية الكريمة تعرّضت لسرّ الغيب الذي أظهره الاكتشاف بعد قرون عديدة. وجرى التعبير في الآية عن البحر بالعين مجازاً، كما جرى التعبير في بليغ الكلام عن الفرات بالنطفة[٣] وهي القطرة من الماء ونحوها، وهو من محاسن المجازات في مقامها. وبوصف هذه العين بكونها حمئة ذات طين قد أُشير إلى غيب أمريكا؛ لأنّه لا يكون تخصيص هذا البحر ووصفه بكونه ذا طين إلّا باعتبار الإشارة إلى أمريكا. فلا تحسب أنّ وصف البحر بكونه ذا طين كان باعتبار وجود الطين في قراره أو حافّاته وشواطئه؛ لأنّ كلّ بحر وكلّ نهر وكلّ عين لا بدّ أن يكون في حافاته وقراره طين، فلا بدّ أن يكون المراد هو الطين الذي في وسطه.

ومقتضى المناسبة في وصف المحيط العظيم بأنّ في وسطه طيناً لابدّ أن يكون المراد منه قطعة أمريكا. ألا ترى أنّ أقلّ الأقطار لهذا المحيط يبلغ مائةً وثمانين درجةً، كما في ناحية الدرجة السادسة والستّين وما قاربها من العرض الشمالي. فماظنّك بالطين المناسب لوصف هذا البحر به، أتراه يناسب أن يكون غير أمريكا؟

١. الكهف (١٨): ٨٦.

٢. الهداية ٢: ٩١.

٣. الذي عبّر عن الفرات بالنطفة هو أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حيث قال في الخوارج: «مصارعهم دون النطفة». نهج البلاغة: ٩٥، الخطبة ٥٩.

فإن قلت: إذن فلماذا عدل عن إيضاح هذه الحقيقة بالصراحة إلى الإشارة إليها بهذه الإشارة وهذه العبارة؟

قلنا: إنّ حكمة الوحي في دعوته إلى الهدى ودين الحقّ، لتقتضي أن لا يلقي على أذهان الناس شيئاً يثقل عليها بمخالفته لقطعيّاتهم الوقتيّة، إلّا أن يكون في أمر الدين وتعليم الشريعة. فإنّ الدين المدعوّ إليه أثقل ما يكون على الأهواء والجهالات المألوفة. فلا يصحّ في الحكمة أن يلقى أيضاً على أذهان الناس صراحة ينكرونها بجهالاتهم، مع أنّها لا يهمّ أمرها في الدين الذي هو الغرض من الدعوة، فإنّ ذلك معثرة في سبيل الهدى، وناقض للغرض من الدعوة.

ألا ترى أنّه قد ذهب قوم في الأعصار القديمة إلى أنّ الأرض كشكل السفينة الطافئة على الماء، وذهب آخرون إلى تكفير من يقول بكرويّتها. أفترى يحسن مع ذلك في حكمة الوحي أن يضادّ أذهانهم بالصراحة بوجود أمريكا؟ ألم تسمع أنّ كولمبيوس لمّا عرض على الدول أفكاره في اكتشاف الطريق البحري من أوروبا إلى الصين، لم يحتفلوا برأيه إلّا بالتسفيه؟ وإنّما أسعفته ملكة أسبانيا من خالص مالها التزاماً بوعدها، فأسعده الجدّ بالعثور على أمريكا من حيث لا يحتسب.

هذا، مع أنّ كرويّة الأرض ـ المقتضية لتصحيح أفكاره وتصويب مشروعه ـ كانت مقرّرة مسلّمة في ذلك الوقت.

والحاصل: أنّ الحكمة اقتضت للقرآن الكريم أن يشير إلى حقيقة أمريكا في البحر المحيط بنحو لا يصادم الجهل، بل بإشارة يسطع نورها ويتّضح مرادها عند انكشاف الحقائق للحسّ في الأعصر التي يترك فيها التقليد للأسلاف في الطبيعيّات. ونسأل الله برحمته ولطفه أن يوفّق عباده لترك التقليد في معارف الدين، وهو القائل جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

ولك العبرة في حسن هذا المجاز في هذه الإشارة ولطف أسلوبه ومناسباته، وجريانه على مقتضى الحكمة في الإشارة الغيبيّة في ذلك العصر؛ فإنّه يظهر ذلك كلّه عند

١. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

المقايسة بما يذكره الإنجيل الرائج عن قول المسيح في خطاب اليهود: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيّام أُقيمه». فأنكر اليهود ذلك أشدّ الإنكار. والإنجيل يقول: «إنّه قال ذلك عن هيكل جسده. ولمّا قام من الأموات تذكّر تلاميذه أنّه قال هذا»[١]. وبقي هذا الكلام مجهولاً حتّى جعله اليهود باعتبار ظاهره من الذنوب التي تشبّثوا بها في حادثة الصليب[٢].

هذا، وزعم الإنجيل أيضاً أنّ المسيح خاطب التلاميذ في مقام التعليم المضيّق وقته بقوله: «تحرّزوا من خمير الفرّيسيّين والصدوقيّين». وهو يريد بذلك تعليم الفرّيسيّين والصدوقيّين بعدوى أخلاقهم برذيلة الرياء والأخلاق الذميمة. فنسب إلى المسيح أنّه أتى في مقام التعليم الديني المضيّق بمجاز لا مناسبة له، ولا يخطر المراد منه على البال، حتّى تحيّر التلاميذ فيه وصاروا يتفكّرون ويتحاورون في أوهامهم[٣]. مع أنّ التعليم الديني هو أولى المقامات بالصراحة والبيان الشافي.

الفصل الثالث

في [دفع الاعتراض على القرآن الكريم من حيث خلق] السماوات

قال الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٤]. وفي سورة الطلاق: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[٥].

فتشبّث المتكلّف بالهيئة الجديدة لجرأته بالاعتراض على القرآن الكريم في هذا المقام[٦].

وإنّ الهيئة الجديدة لو طابقت الواقع، لما خالفت القرآن الكريم.

---

١. إنجيل يوحنّا ٢: ١٩ ـ ٢٢.

٢. إنجيل متّى ٢٦: ٦١ و ٢٧: ٤٠.

٣. انظر إنجيل متّى ١٦: ٦ ـ ١٢؛ إنجيل مرقس ٨: ١٥ ـ ٢١.

٤. المؤمنون (٢٣): ٨٦.

٥. الطلاق (٦٥): ١٢.

٦. فانظر الهداية ٢: ٢٦.

فاعلم أنّ أصحاب فنّ الهيئة وجدوا كواكب مرئيّة بعضها ساكن أوشبيه بالساكن، وبعضها له حركات على الاستدارة موزونة متناسبة في تكرارها. فحاولوا أن يجعلوا لتلك المتحرّكات أوضاعاً تناسب تلك الحركات وتنطبق عليها، ولا تخرج عمّا عندهم من المقدّمات، ليجعلوا من ذلك ميزاناً لبيان تلك الحركات ومقاديرها و آثارها، وأحوال تلك الكواكب المتحرّكة بعضها مع بعض من حيث المحلّ والقرب والبعد.

فالمتقدّمون استخرجوا وضعاً للمتحرّكات مناسباً لتلك الحركات، وبنوه على الحدس من مقدّمات حسابيّة وهندسيّة واستحسانيّة، وملاحظة الكاسف والمنكسف، واقتضاء الحركات والتحريك، وامتناع الخلاء والخرق والالتئام في الفلك، وعدم الفضل في الأفلاك. ولو أدّت بهم المقدّمات التي عندهم إلى وضع آخر مناسب، لما امتنعوا عنه؛ إذ لم يشاهدوا تلك الأوضاع التي بنوا عليها، ولا يستندون في ذات الوضع إلى الحسّ.

والمتأخّرون منعوا كثيراً من مقدّمات المتقدّمين، فتوجّهوا بما عندهم من المقدّمات والاستعداد إلى استخراج وضع آخر يناسب الحركات المذكورة. ولا تحسب أنّ نظّاراتهم دلّتهم على الوضع الذي يقولون به، وإنّما أدّت بهم إلى توسعة دائرة الاحتمال والتخمين في أحوال ذات الكواكب، فانظر إلى مقالاتهم ومباحثاتهم في هذا الفنّ. نعم استخرجوا بها كواكب خفيّة، ومن جملتها ثلاث سيّارات سمّوها «فلكان» و«أورانوس» و«نبطون»، فأثبتوا لها ثلاثة أفلاك.

ثمّ إنّهم بتخمينهم جعلوا الكواكب أُكَرَ قائمةٍ بنفسها في الخلاء، وإنّما الأفلاك عبارة عن دوائر متوهّمة من استدارتها في الخلاء. وجعلوا الشمس هي المركز لأفلاك الكواكب السيّارة، كما جعلوا الأرض من السيّارات حول الشمس، وجعلوا القمر ـ أو الأقمار ـ ليست بسيّارات مستقلّة، وإنّما هي توابع لسيّارات أُخر تدور عليها كما تدور بمدارها. ولا تنفكّ مقدّماتهم فيما ذهبوا إليه عن الحدس والتخمين، كما تعرفه من مباحثهم ومباحثاتهم في ذلك. مع أنّ من مقدّماتهم ما هو قابل للمنع، أو غير مستلزم للمدّعى.

وإنّا وإن منعنا على القدماء حكمهم بامتناع الخلاء، فإنّ جوازه لايستلزم كون الأفلاك عبارة عن دوائر خلائيّة يفرضها الوهم في مدار السيّارات، بل يجوز أن تكون

الأفلاك أجراماً شفّافةً لا تحجب ماوراءها، ولطيفةً لا لون لها ولا تتلوّن بغيرها، ويجوز في طبيعتها الخرق والالتئام. بل إنّ سعادة التوفيق للاعتقاد بوجود الإله القادر الحكيم، ممّا يوضّح فساد القول بامتناع الخرق والالتئام.

والحاصل: أنّ كلّاً من وضعي الهيئة القديمة والهيئة الجديدة ممكن من حيث انطباق الحركات المحسوسة عليه، ولكنّه يمكن أن يتعدّاه التحقيق والبحث في المقدّمات إلى وضع ثالث ورابع وهكذا، فلا يحسن الجزم بأحد الوضعين المذكورين بجميع تفاصيله المدوّنة إلّا بالمشاهدة التفصيليّة للجزئي والكلّي، أو بالتفصيل من صراحة الوحي ولكنّ الحكمة الإلهيّة لم تقتض أن يتولّى الوحي بصراحته تفصيل ذلك بجميع أنحائه جزئيّاً وكلّيّاً، بل مقتضى الحكمة الإلهيّة واللطف في حصول الغرض من الدعوة، هو أن لا يبيّن حقيقة ذلك على الدقّة والتفصيل؛ لئلّا يتمرّد على الدين ـ الذي هو الغرض ـ من سوّلت له أوهامه وقطعيّات وقته خلافَ ما يذكره الوحي، فيكون بيان غير المهمّ معثرةً في سبيل المهمّ. ولا يسع المقام للمناقشة في المقدّمات التي استندوا إليها في كلّ من الهيئتين.

ومع هذا كلّه فالقرآن الكريم لم يصرّح بخلافهما؛ لئلّا يجترئ المغرور بإحداهما على الاعتراض بجهله وإلحاده على كلام الله، فتكون الصراحة معثرةً في سبيل الإيمان.

وإنّ قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾ و﴿السَّمٰواتِ السَّبْعِ﴾ لا يمتنع انطباقه على كلّ واحدة من الهيئتين، أعني القديمة والجديدة. فيمكن أن يقال على الهيئة القديمة: إنّ السماوات السبع هي أفلاك السيّارات السبع. وأنّ فلك الثوابت هو الكرسيّ في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1]. وأنّ الفلك الأطلس المدير على ما زعموا هو العرش في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

---

١. البقرة (٢): ٢٥٥.

٢. المؤمنون (٢٣): ٨٦.

ويمكن أن يقال على الهيئة الجديدة: إنّ السماوات السبع هي أفلاك خمس من السيّارات مع فلكي الأرض وفلكان. والعرش والكرسيّ هما فلكا نبطون وأُورانوس. وأمّا الشمس فهي مركز الأفلاك. والقمر تابع للأرض وفلكه جزء من فلكها.

هذا كلّه في مقابلة من أُشرب في قلبه إحدى الهيئتين. والله أعلم بحقيقة الحال.

وأمّا الأرض فلم تذكر في القرآن الكريم إلّا مفردة. نعم قال جلّ اسمه: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[١]. وهو يحتمل وجوهاً ثلاثة:

الأوّل: أن يراد مثلهنّ في الطبقات، باعتبار اختلاف طبقات الأرض في بدائع الحكم والآثار.

الثاني: أن يراد مثلهنّ في عدد القطع والمواضع المعتدّ بها، كآسيا وأُوروبا وأفريقيا وأمريكا الشماليّة وأمريكا الجنوبيّة وأُستراليا. وأرض لم تكتشف بعد، أولاشتها الحوادث البحريّة بالكليّة، أو بقي منها ما لا يعتدّ به، أو هي ما تحت القطب الجنوبي على ما يظنّ البعض.

الثالث: أن يراد بالمماثل للسماوات هو غير أرضنا بل ما هو من نوعها، فيراد منه ذات السيّارات على الهيئة الجديدة، أو ماهو مسكون من الكواكب ولم يظهر للاكتشاف. والله أعلم بحقيقته.

وبما ذكرناه يظهر لك غلط المعترض على القرآن الكريم بالهيئة.

ولئن صحّ الاعتراض بالهيئة، فإنّ العهدين الرائجين هما المخالفان للهيئة القديمة والجديدة. فقد جاء في التوراة:

> وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماءً[٢].

وبهذا الكلام صرّحت بمخالفة الهيئة القديمة حيث حكمت بأنّ السماوات فوقها

---

١. الطلاق (٦٥): ١٢.

٢. سفر التكوين ١: ٦ـ٨.

مياه. وأنّها فاصلة بين المياه التي فوقها والمياه التي تحتها. وكذا قول المزامير: «يا أيّتها المياه التي فوق السماوات»[١].

وخالفت الهيئة الجديدة حيث قالت في أصل العبراني بدل الجلد: «رقيع» وهو الشيء المبسوط[٢]. وعلى ذلك جاء قوله: «الذي ينشر السماوات كسُرادِق أو يبسطها كخيمةٍ للسكن»[٣]. وعلى ذلك أيضاً جاء: «إنّ السماوات تلتفّ كدرج»[٤]. وكالدخان تضمحلّ[٥]. وتنحل ملتهبة[٦]. وهي والأرض تبيد وكلّها كثوب تبلى كرداء تتغيّر[٧]. وأنّها انفتحت[٨]. وانشقّت[٩]. وانفلقت كدرج ملتفّ[١٠].

وهذه السماوات المذكورة هي التي جعلوها في الهيئة الجديدة عبارة عن المدارات الموهومة لسيّارات في الخلاء، فلا يصحّ وصفها بالأوصاف المذكورة في العهدين.

وجاء في المزامير:

إنّ الشمس مثل الختن ـ أي العريس ـ الخارج من حجلته. تبتهج مثل الجبّار للسباق في الطريق. من أقصى السماوات خروجها ومدارها إلى أقاصيها[١١].

وهذا مخالف للهيئة القديمة؛ فإنّ المقرّر عند أصحابها أنّ الشمس ومدارها في السماء الرابعة، لا في أقصى السماوات، ولا إلى أقاصيها. ومخالف للهيئة الجديدة أيضاً؛ لأنّ الشمس عند أصحابها مركز للسماوات لا تدور، وليس مدارها إلى أقصى

---

١. سفر المزامير ١٤٨: ٤.
٢. انظر في الأصل العبراني سفر المزامير ١٣٦: ٦؛ سفر إشَعْياء ٤٢: ٥ و ٤٤: ٢٤.
٣. سفر إشَعْياء ٤٠: ٢٢.
٤. سفر إشَعْياء ٣٤: ٤.
٥. سفر إشَعْياء ٥١: ٦.
٦. رسالة بطرس الثانية ٣: ١٢.
٧. سفر المزامير ١٠٢: ٢٥ ـ ٢٦.
٨. إنجيل متّى ٣: ١٦.
٩. إنجيل مرقس ١: ١٠.
١٠. رؤيا يوحنّا ٦: ١٤.
١١. سفر المزامير ١٩: ٥ ـ ٦.

السماوات، بل السيّارات تدور عليها، بخلاف قول العهد القديم: «الشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق»[١].

فإن قلت: إنّ المتكلّف يزعم أنّ الهيئة الجديدة، مبيّنة للحقائق الواقعيّة وزعيمة بالصواب. ويزعم أنّ كتب العهدين الرائجين كلام الله السميع العليم. فماذا يصنع إذن في هذه الاختلافات الصريحة؟

قلت: إنّما يتحيّر في ذلك من يتكلّم بميزان، وأمّا من لا يبالي فلا يعسر عليه أن يقول: وعلى كلّ حال فلا مخالفة، كما لهج في مبحث النسخ بقوله: «وعلى كلّ حال فلا ناسخ ولا منسوخ».

الفصل الرابع

في دفع أوهام الاعتراض على قصص القرآن الكريم وتأريخه

صدر وتمهيد

اعلم أنّ أكثر اعتراضات المتكلّف في هذا المقام، يتشبّث فيها بخلوّ العهدين الرائجين ممّا يذكره القرآن الكريم، أو بمخالفته لهما. فاقتضى ذلك أن نذكّرك قبل الشروع في ردّ شططه، ونعيد على ذهنك إجمالاً ماذكرناه في المقدّمة الخامسة عن كتب العهد القديم، من ارتدادات بني إسرائيل ويهوذا وملوكهم في الشرك، حتّى أنّ مملكة بني إسرائيل كادت أن تتمحّض للوثنيّة. ومملكة يهوذا يكاد نور التوحيد فيهم أن يتلاشى، ثمّ تبدو منه ذبالة تخفق بها الأهواء. ومن جملة شؤونهم في ذلك أن هدموا بيت المقدس، وصيّروا كلّ أقداسه للبعليم ـ أصنام ـ ثمّ عادوا بعد ترميمه فاغلقوا أبوابه وأبواب الرواق وأطفؤوا السُرُج، ولم يوقدوا بخوراً ولم يصعدوا محرقة، وجعلوا الآلهة الغريبة في بيت المقدس.

---

١. سفر الجامعة ١: ٥.

وعكفوا على ضلالات المشركين وعوائدهم القبيحة، حتّى كان فيهم مأبونون يسمّيهم العهد القديم: «قدّيسيم. قدّيسين» وهم ذكوريندرون أنفسهم للأوثان لكي يلاط بهم. واستمرّت هذه العادة القبيحة تتفاحش وتقلّ من أيّام رحبعام بن سليمان[1]، إلى أيّام يوشيّا، حتّى جعلوا بيوتهم عند بيت المقدس فهدمها يوشيّا[2].

ومضت لبني إسرائيل أيّام كثيرة بلا إله حقّ، ولا كاهن معلّم، ولا توراة. وبيت المقدس بينهم عرضة للنهب، والتخريب، والتنجيس، وجعل الأوثان فيه حتّى إذا مضت ثمان سنين من ملك يوشيّا وطهّر بيت المقدس وأراد ترميمه، جاء حلقيا الكاهن بكتاب يزعم أنّه سفر التوراة، وقد وجده، فقرأ فيه يوشيّا ما لم يكن يعرفه ولا يعهده، فطار به فرحاً، واحتفل به هو وبنو إسرائيل احتفالاً عظيماً؛ إذ سمعوا منه مالم يكونوا يعرفونه و لا يعهدونه. مع أنّ العادة والاعتبار الصحيح يمنعان أن يكون حلقيا وجده في المكان الذي زعم أنّه وجده فيه، فمن ذلك الزمان تكون توراة بني إسرائيل هي بنت حلقيا المولودة في حجره.

ثمّ تمادى بنو إسرائيل بعد ذلك في تقلّباتهم في الشرك إلى أن سباهم بخت نُصّر إلى بابل، فقضى ذلك عليهم أن أثكلهم توراة حلقيا أيضاً. حتّى أنّهم لمّا رجعوا من السبي بعد دهر طويل فزعوا في إعادة ذكرها وتجديد اسمها إلى «عزرا»، فصار يقرأ عليهم جميعاً ما لا يعرفونه و لا عهد لواحد منهم به، فلبس اسمها ثوب الوجود بعد العدم أيضاً.

وقد ذكرنا هذا كلّه مفصّلاً، وذكرنا مكابرات المتكلّف فيه وبيّنّا شططها في الجزء الأوّل[3].

ونذكّرك أيضاً بما ذكرناه في المقدّمة السادسة من وجوه الخلل، وخصوص شهادة إرميا النبيّ على بني إسرائيل بتحريف كلام الله، وتحويلهم توراة الله إلى الكذب بكذب قلم الكتبة، واستغاثة إشَعْياء النبيّ من تحريف اليهود واستعظامه لذلك، وخصوص ما

---

١. سفر الملوك الأوّل ١٤: ٢٤.

٢. سفر الملوك الثاني ٢٣: ٧.

٣. تقدّم في ج ١، ص ٤٣ و ما بعدها.

ذكرناه من تحريف المطابع والتراجم، فراجع الجزء الأوّل[١].

ونذكّرك أيضاً بما مرّ في متفرّقات الكتاب ممّا يمتنع من كتب العهد القديم أن يكون من الوحي الإلهي كما أوضحه البرهان ونستلفت نظرك إلى ما يأتي من هذا القبيل.

ونذكّرك أيضاً بما حكينا في الجزء الأوّل[٢] عن بعض المفسّرين المدقّقين في حكمهم، بأنّ قصّة بلعام المذكورة في سفر العدد[٣] هي دخيلة في التوراة، أي ليست منها وانّما أدخلها عبث الكذب.

ونستلفت نظرك إلى ما نقله إظهار الحقّ[٤] في الباب الثاني عن مفسّري النصارى، في حكمهم بزيادات كثير من فقرات العهدين، ووجود كثير من السقط والتحريف. فراجعه.

نتيجة

ومن هذا كلّه أو بعضه تحصل لك شهادة قاطعة من ذات العهد القديم ومعاملة متّبعيه معه، بأنّ العهد القديم أجنبيّ عن النسبة إلى الوحي، بعيد العهد به، قد استولى عليه التلفيق والخلل والتحريف والخطأ، واشتماله على ما لا يعقل أو يؤول إلى الكفر، على وجه لا يترك لعاقل عليه اعتماد، ولا يتداركه مغالطة مكابر.

التنبيه المقصود هاهنا

ونزيدك هاهنا على أن ننبّهك على أُمور داخليّة في العهد القديم تكشف لبصيرتك حقّ اليقين، وهو أنّ أصله العبراني الرائج إنّما هو مأخوذ من نسخة وحيدة لا ثانية لها، وهي مملوءة بالغلط والسقط. ولكنّهم لا ملجأ لهم سواها، بل اغتنموا وجودها بعد العدم الكلّي تجديداً للأثر الدارس، وتعبّدوا باتّباعها في وضعها ورسمها وغلطها الفاحش والأُمور العرضيّة الخالية عن الفائدة في وضع الكتابة.

ومع الالتفات إلى هذا كلّه أو بعضه لا يمكن للذهن الصافي من الشوائب أن لا يتيقّن

١. تقدّم في ج ١، ص ٥٦.

٢. تقدّم في ص ٣٩٨ من الجزء الثاني على حسب تجزئتنا.

٣. الأصحاح ٢٢ ـ ٢٤.

٤. إظهار الحقّ ٢: ٤٢٩ فما بعد.

بأنّ الرائج من التوراة العبرانيّة ليس مأخوذاً عن النسخة التي كتبها موسى وسلّمها للكهنة وشيوخ بني إسرائيل، وأمر بوضعها بجانب التابوت[١]، ولا ممّا يشابه هذه النسخة؛ إذ لا يعقل أنّ ما كتبه موسى ـ أو كتب بمراقبته ـ يشتمل على هذه الأغلاط الفاحشة. وكذا الكلام في باقي العهد القديم، فإنّه لا يمكن أن تكون كتابات الأنبياء ـ أو ما يكتب بمراقبتهم ـ تشتمل على مثل هذه الأغلاط الفاحشة.

بل يحصل لك اليقين بأنّ بني إسرائيل حينما حرصوا على اتّباع هذه النسخة، وتعبّدوا بصورتها المشوّهة، لم يكونوا يجدون غيرها، بل حينما ظفروا بها اغتنموا بها تجديد الاسم لما اندرس من آثار سلفهم، فأكرموا وحدتها بالتعبّد بصورتها، لكي يتداركوا بإفراطهم في الجمود تفريط أسلافهم في التقلّب والتلوّن في الديانة، حتّى استأثر العدمُ بكتب الوحي وعادت نسياً منسيّاً. ولم يتعرّضوا لتلك الأغلاط إلّا بالإشارة إلى صحيحها في الحواشي، وتركوا المتن على سقمه. ولكنّ المترجمين أعرضوا عن مراعاة المتن وطابقوا بتراجمهم تصحيح الحواشي. فطابق أنت بين الأصل العبراني والتراجم لكي يتّضح لك الحال. ولا تغترّ وتحسب أنّ الأصل على ما هو موجود في التراجم.

ولنذكر لك ذلك في موارد:

المورد الأوّل: أنّ الحواشي ذكرت نقصان الحرف في الأصل العبراني من العهد القديم في أكثر من ستّة وأربعين موضعاً. منها في خصوص التوراة أحد عشر موضعاً. وأشاروا إلى ذلك في الحاشية بذكر الحرف ولفظ «حسر».

المورد الثاني: ذكروا زيادة الحرف غلطاً في مائتين وثلاثة عشر موضعاً. أربعة منها في خصوص التوراة. وأشاروا إلى ذلك بذكر الزائد ولفظ «يتّير».

المورد الثالث: أنّهم وجدوا بعض الكلمات أو الحروف منقوطاً عليها بغير النقط التي هي علامات الحركات والسكنات المسمّاة في العبرانيّة «طعميم». وذلك إمّا علامة المحو والضرب على الكلمة أو الحرف، وإمّا أن تكون لغواً من غلط الكاتب. وذلك في

---

١. سفر التثنية ٣١: ٩ و ٢٤: ٢٧.

أحد عشر موضعاً في العهد القديم، سبعة منها في خصوص التوراة. وقد أشاروا إلى ذلك في الحاشية بذكر المنقوط عليه ولفظ «نقود».

المورد الرابع: أنّهم وجدوا في المتن حروفاً هي أكبر من أخواتها، بلا خصوصيّة ولا إشارة، فتعبّدوا برسمها كبيرة. وذلك في ثلاثة وثلاثين موضعاً، خمسة عشر منها في خصوص التوراة. فأشاروا في الحاشية برسم الحرف الكبير ولفظ «رباتي».

المورد الخامس: أنّهم وجدوا أيضاً، بعض الحروف أصغر من أخواتها، بلا خصوصيّة ولا إشارة أيضاً، فتعبّدوا برسمها صغيرة. وذلك في سبعة وعشرين موضعاً، ستّة منها في خصوص التوراة. وأشاروا إلى ذلك برسم الحرف ولفظ «زعيرا».

المورد السادس: قد ذكروا في حاشية الأصل العبراني أكثر من ألف موضع تكون فيه القراءة على خلاف المكتوب في المتن وذلك يرجع إلى تصحيح الأغلاط الواقعة في المتن من حيث التذكير والتأنيث، والإفراد والتثنية والجمع، وإبدال بعض الحروف ببعض غلطاً، وسقوط بعض الحروف وتقديم بعضها على بعض غلطاً. وأشاروا إلى ذلك في الحاشية بذكر القراءة الصحيحة، ولفظ «ق» أو «قرى». وقد وقع من ذلك في خصوص التوراة ما يزيد على سبعة وسبعين موضعاً.

ولأجل شهادة الحال وسوق الكلام ومعلومات اللغة على غلط المتن، جرت التراجم على طبق الحواشي إلّا نادراً وهذا من المترجمين أيضاً شهادة وتصديق على غلط الأصل العبراني.

أُنموذج هذا المورد: ولنذكر لك من هذا المورد أُنموذجاً من التوراة وسائر العهد القديم في مواضع:

١. اختلاف حروف الكلمة وإسقاط بعضها. فقد جاء في التوراة اسم بلدة من البلاد مرّةً «صبيم» بباء مضمومة وياء واحدة[١]. وسمّيت مرّةً أُخرى: «صبييم» بباء مضمومة وياءين[٢]. والذي عليه التراجم وتصحيح القراءة في الحاشية هو إثبات الواو بعد الباء.

---

١. سفر التكوين ١٠: ١٩.

٢. سفر التكوين ١٤: ٢ و ٨.

وأيضاً تسمّى الأُمّة: «جوي» والأُمَم «جوييم»[١]. ثمّ جاء فيها «جيم» بإسقاط الواو وضمّ الياء الأُولى[٢]. وصحّح في الحاشية بلفظ «جويم» بالواو وياء واحدة.

وأيضاً كتبت «يسجدون» المسند للجماعة مرّةً «يشتحوو» بواوين مع تشديد الأخيرة. ومرّةً «يشتحو» بواو واحدة[٣]. وصحّحت الأخيرة في الحاشية بواو ثانية.

٢. زيادة لفظ «لو» بحيث لا معنى لوجودها[٤].

٣. إبدال الواو التي هي ضمير المذكّر الغائب بالألف فتكون «لو» بمعنى «له» «لا» فينعكس المعنى وينقلب المراد انقلاباً فاحشاً[٥]. وصحّحت في الحواشي، وجرت التراجم على مقتضى التصحيح.

ثمّ لنستدرك على الحواشي بعض الأغلاط التي أُهملت تصحيحها، ونقتصر في ذلك على أسماء الأعلام. وذلك أنّ التوراة ذكرت اسم واحد من أبناء «شمعون» ابن «يعقوب» فكتبت اسمه «يموئيل» بالياء في أوّله[٦]. ثمّ كتبته «نموئيل» بالنون بدل الياء[٧].

وكتبت اسم واحد من أبناء «جاد» ابن يعقوب «صفيون» بالياء قبل الواو[٨]. ثمّ كتبته «صفون» بإسقاط الياء[٩].

وكتبت اسم واحد من أبناء «بنيامين» ابن يعقوب «مفيم»[١٠]. ثمّ كتبته «شفوفام» بفاءين و«شوفام» بإسقاط الفاء الأُولى[١١].

---

١. انظر سفر التكوين ١٤: ١ و ٩ و ١٥.

٢. سفر التكوين ٢٥: ٢٣.

٣. انظر سفر التكوين ٢٧: ٢٩.

٤. سفر التكوين ٢٩: ٢٨.

٥. انظر سفر الخروج ٢١: ٨؛ سفر اللاويّين ١١: ٢١ و ٢٥: ٣٠.

٦. سفر التكوين ٤٦: ١٠.

٧. سفر العدد ٢٦: ١٢.

٨. سفر التكوين ٤٦: ١٦.

٩. سفر العدد ٢٦: ١٥.

١٠. سفر التكوين ٤٦: ٢١.

١١. انظر سفر العدد ٢٦: ٣٩.

وكتبت واحداً من أبناء «بنيامين» أيضاً «نعمان» بنونين من أوّله وآخره. ثمّ كتبته بإسقاط النون من آخره[١].

وبعكس هذا كتبت واحداً من أبناء «يهوذا» «شيلاه» بالهاء في آخره. وكتبت واحداً من أبناء «يساكر» «فوّاه» بالهاء أيضاً. ثمّ كتبتهما بحذف الهاء منهما وزيادة النون بدلها[٢].

وكتبت واحداً من أولاد «يعقوب» «شمعون» بالواو قبل النون، ثمّ كتبته بإسقاط الواو[٣].

وبعكس هذا كتبت واحداً من أولاد «روابين» «حصرن»، ثمّ كتبته بزيادة الواو قبل النون[٤].

وفي هذا القليل كفاية؛ فإنّ التطويل يؤدّي إلى السأم والملل.

ومن أُنموذج هذا المورد في العهد القديم كتابة «لو» أي «له» «لا» فينقلب المعنى من الإثبات إلى النفي[٥].

ومنه التقلّب في كتابة «دمشق» فتارةً تكتب هكذا[٦]. وتارةً تكتب «درمشق» بزيادة الراء بعد الدالّ[٧]. وتارةً تكتب «دوّمشق» بزيادة الواو المشدّدة بعد الدالّ[٨].

وكتب فيه من أسماء الأعلام «عخان» بالنون في آخره[٩]. ثمّ كتبه أيضاً «عاخار» بإبدال النون بالراء وزيادة المدّ[١٠].

---

١. انظر سفر العدد ٢٦: ٤٠.

٢. انظر سفر العدد ٢٦: ٢٠ و ٢٣.

٣. انظر سفر العدد ٢٦: ١٢ و ١٤.

٤. سفر العدد ٢٦: ٥.

٥. سفر إشَعْياء ٤٩: ٥ و ٦٣: ٩.

٦. سفر التكوين ١٤: ١٥؛ سفر الملوك الثاني ٨: ٧، وغير ذلك.

٧. سفر الأيّام الأوّل ١٨: ٦؛ سفر الملوك الثاني ١٤: ٢٨.

٨. سفر الملوك الثاني ١٦: ١٠.

٩. سفر يشوع ٧: ١٨.

١٠. سفر الأيّام الأوّل ٢: ٧.

وكتب «داود» بكسر الواو و«يورام»[١]، ثمّ كتبهما «داويد» بزيادة الياء و«هدورام»[٢].

وربما يقع التعرّض لكثير من ذلك إن شاء الله، فلنقتصر في الأُنموذج على هذا المقدار.

المورد السابع: قد أشارت الحواشي إلى أنّ سبع كلمات في العهد القديم قد زيدت فيه غلطاً، حيث نصّت على أنّها كتبت وهي لا تقرأ، وذلك لاختلال المعنى بوجودها كما هو ظاهر. وهي هذه:

١ـ ٤ «ام»[٣].

٥ «ات»[٤].

٦ «يدرك»[٥].

٧ «حمش»[٦].

المورد الثامن: وأشارت أيضاً إلى أنّ عشر كلمات فيه قدسقطت منه غلطاً، حيث نصّت على أنّها تقرأ وهي غير مكتوبة. وهي هذه:

١ «بني»[٧].

٢ «الفرات»[٨].

٣ «ايش»[٩].

٤ «كن»[١٠].

---

١. سفر صموئيل الثاني ٨: ١٠.

٢. سفر الأيّام الأوّل ١٨: ١٠.

٣. سفر صموئيل الثاني ١٣: ٣٣ و ١٥: ٢١؛ سفر إرميا ٣٩: ١٢؛ سفر راعوث ٣: ١٢.

٤. سفر إرميا ٣٨: ١٦.

٥. سفر إرميا ٥١: ٣.

٦. سفر حزقيال ٤٨: ١٦.

٧. سفر القضاة ٢٠: ٣.

٨. سفر صموئيل الثاني ٨: ٣.

٩. سفر صموئيل الثاني ١٧: ٢٣.

١٠. سفر صموئيل الثاني ١٨: ٢٠.

٥ «صيبائوت»[١].

٦ «بنيو» أي ابنا[٢].

٧ «بآئيم»[٣].

٨ «له» أي لها[٤].

٩ ـ ١٠ «اليّ»[٥].

المورد التاسع: قد استدركت الحواشي على الموجود في الأصحاح الحادي والعشرين من سفر يشوع عددين محلّهما بين الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من المتن، ونصّ معرّبهما: «ومن سبط روابين باصرو مسرحها ويهصة ومسرحها. وقد يموت ومسرحها وميفعة ومسرحها أربع مدن» والتراجم الموجودة أدخلت هذا في نفس المتن. وهذا بعينه موجود في الأصل العبراني من سفر الأيّام الأوّل[٦]. ففي الحواشي والتراجم وسفر الأيّام الأوّل شهادة مرغمة بالنقصان في سفر يشوع العبراني.

ويشهد لذلك أيضاً أنّ هذا الأصل بذاته صرّح بأنّ المدن المعطاة لبني مراري اثنتا عشرة[٧]. مع أنّه لم يعدّ إلّا ثماني مدن[٨]. وصرّح أيضاً بأنّ مدن اللاويّين ثمانية وأربعين[٩]. مع أنّه لم يعدّ إلّا أربعاً وأربعين[١٠].

ويشهد لذلك أيضاً أنّ «باصر» قد أفرزها موسى من سهم بني روابين مدينة للملجأ تكون للاويّين، كما أفرز «راموت» من سهم الجاديّين، و«جولان» من سهم المنسيّين[١١].

---

١ و ٢. سفر الملوك الثاني ١٩: ٣٧.

٣. سفر إرميا ٣١: ٣٧.

٤. سفر إرميا ٥٠: ٢٩.

٥. سفر راعوث ٣: ٥ و ١٧.

٦. الأصحاح ٦: ٦٣ ـ ٦٤.

٧. سفر يشوع ٢١: ٣٩.

٨. سفر يشوع ٢١: ٣٤ ـ ٣٩.

٩. سفر يشوع ١٢: ٣٩.

١٠. سفر يشوع ٢١: ٣ ـ ٣٩.

١١. سفر التثنية ٤: ٤٣.

وذكرت هذه المدن الثلاث أيضاً في «يش»[١]. فلماذا لم تذكر باصر في الأصل العبراني في عداد الثمان وأربعين مدينة، كما ذكر راموت وجولان.

والحاصل: أنّ لزوم السقط في الأصل العبراني هاهنا من أوضح الواضحات.

وكذا في قول التوراة: وقال قاين لهابيل. وكان بكونهم في الحقل وقام قاين إلى هابيل أخيه فقتله[٢]. انظر الأصل العبراني.

وزيادة على وضوح السقط والنقصان في هذا الكلام، قد ذكرنا لك[٣] كيف اضطرب في هذه العبارة المترجمون والنسخة السبعينيّة والنسخة السامريّة. وإنّ هذه الموارد لتوضح لك وضوح الشمس في رابعة النهار أنّ مأخذ العهد القديم العبراني ـ وخصوص التوراة ـ لم يكن إلّا نسخة وحيدة مغلوطة جدّاً، قد اتّبعوا غلطها فيما تداولوه عنها. ولم يمدّوا إليه يد التصحيح إلّا فيالحواشي، وتركوا المتون على سقمها حرصاً على حفظ الاسم والصورة التي ظفروا بها بعد التلاشي. وذلك لما هو المعروف من اضطراب أحوالهم، كما شرحناه في المقدّمة الخامسة عن كتبهم[٤]، وتشهد به أحوالهم المشاهدة من أنّهم في أمور ديانتهم بين تفريط فاحش وإفراط هو أفحش منه.

المورد العاشر: زيادة الفقرات واعتراضها بين الكلام الذي لا ربط له بها ولا مناسبة فيها لمقامه، حتّى شوّهت وجه تأريخه المسوق له. وذلك كالسادسة والسابعة من عاشر التثنية، فإنّ عاشر التثنية بينما يذكر حديث موسى وكلامه في شأن صعوده إلى جبل سيناء، بعد واقعة العجل وما أمر الله به من تجديد اللوحين وإفراز بني لاوي لخدمة المسكن وحمل التابوت؛ إذ قالت بلا ربط ولا مناسبة:

وبني يسرائيل ناسعوّ مبارت بني ياعقان موساره شم

وبني إسرائيل ارتحلوا من آبار بني ياعقان إلى موساره هناك

---

١. سفر يشوع ٢٠: ٨.

٢. سفر التكوين ٤: ٨.

٣. تقدّم في ص ٤٧٤.

٤. تقدّم في ج ١، ص ٣٧ و ما بعدها.

مت هرون ويقابر شم ويكهن العازار بنو تحتايو: مشم ناسعوّ هكد كداه
مات هرون وقبر هناك وكهن العازار ابنه بدله من هناك ارتحلوا إلى الجدّ جداه
ومن هكد كداه يا طباثاه ارض نحلي مايم
ومن الجدّ جداه إلى يا طباثاه أرض أنهار ماء.

مع أنّ هذه الفقرات في نفسها غلط صرف، بملاحظة منازل بنيإسرائيل ومراحلهم بمقتضى الثالث والثلاثين من العدد، المستقصي لذكر مراحل بني إسرائيل ومنازلهم على التوالي والترتيب من مصر إلى عربات مُوآب.

وسأذكر لك محلّ الغرض المنازل على مقتضى المرسوم في الأصل العبراني ففيه:

وارتحلوا من حشمناه ونزلوا بمسروت. وارتحلوا من مسروت ونزلوا بني ياعقان. وارتحلوا من بني ياعقان ونزلوا بُحر الجِدْجادِ. وارتحلوا من بحر الجِدْجادِ ونزلوا بياطباثاه. وارتحلوا من ياطباثاه ونزلوا بعَبْرُناه. وارتحلوا من عَبْرُناه ونزلوا بعصين جابر. وارتحلوا من عصين جابر ونزلوا ببريّة صن هي قادش. وارتحلوا من قادش ونزلوا بجبل الهور بطرف أرض أَدُومَ. وصعد هارون الكاهن إلى جبل الهور على قول الله ومات هناك... وارتحلوا من جبل الهور ونزلوا بصَلْمُنَةَ. إلى آخر المنازل[1].

فقول التثنية: «إنّ بني إسرائيل ارتحلوا من آبار بني ياعقان إلى موساره» مناقض لقول العدد: «إنّهم ارتحلوا من حشمناه إلى مسروت ومنها إلى بني ياعقان ومنهم إلى هور الجِدْجادِ».

وكذا قول التثنية: «إنّ هارون مات وقبر في موساره» فإنّه مناقض لقول التوراة: «بأنّه مات ودفن في جبل الهور»[2].

وكذا قول التثنية: «إنّهم ارتحلوا من موساره إلى الجِدْجَادِ ومنه إلى ياطباثاه» فإنّه مناقض لقول العدد: «إنّهم ارتحلوا من بني ياعقان إلى بُحر الجِدْجَادِ ومنه إلى ياطباثاه ومنها إلى عَبْرُناه».

---

١. انظر سفر العدد ٣٣: ٣٠ ـ ٤١.

٢. سفر العدد ٢٠: ٢٨ و ٣٣: ٣٨ ـ ٣٩؛ سفر التثنية ٣٢: ٥٠.

ومن الظرائف أنّ مترجم الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ م أحسّ بأنّ ما ذكرناه عن التثنية إنّما هو حشو زائد مخلّ لا ارتباط له بما قبله وما بعده، فهان عليه أن يحرّف الكلام ويزيد فيه ماشاء هواه فلعلّه يوٰهم التئام الكلام، فعمد إلى الفقرتين اللتين ذكرناهما بأصلهما العبراني وترجمتهما، فقال في الترجمة التي هي أشبه بالتشطير والتوشيح ما لفظه:

ولمّا شفّعني في هارون أقام إلى أن رحل بنو إسرائيل من بايروت بني ياعقان وموسيرا ومات هارون ثَمَّ ودفن وأمّ العازر ابنه مكانه لمّا رحلوا من ثمّ إلى جِدْجَاد ومنها إلى ياطباثاه أرض ذات أودية ماء.

فانظر إليه وطابقه مع ما ذكرناه من الأصل العبراني، لكي تعلم أنّ هذا المترجم كتب توراةً جديدة ولم يتخلّص من عدم الارتباط.

ثمّ نقول: لا يخفى على من راجع سفر التثنية أنّه قد أخذ في حديث اللوحين والعجل.

المورد الحادي عشر: قد ذكرنا في الجزء الأوّل[1] أنّ الترجمة السبعينيّة للعهد القديم قد ترجمت بعناية سبعين ـ أو اثنين وسبعين ـ من علماء اليهود المنتخبين من الملّة. ونقول هاهنا بحسب القدر المتّفق عليه من تأريخها، والجامع المحصّل من منقولاته: إنّه لابدّ أن يكون اجتماع هذا العدد المنتخب من أهل العصر الواحد حجّة على أهل الكتاب في نقل كتابهم، فإنّه راجع في الحقيقة إلى انتخاب جامعة الملّة وعناية رئاستها الدينيّة، من دون توسّط اضطهادٍ أو إلجاء أو أدنى سبب للتغيير، بل كان الحال يحثّ على الدقّة والمحافظة على المطابقة. كما يشهد لذلك اتّفاق التأريخ على أنّ هذه الترجمة فازت في الملّة اليهوديّة ورئاستها العلميّة الدينيّة بالاحتفال والقبول والاعتماد.

وتتأكّد الحجّة بها على النصارى؛ لأجل ما ذكروه عن اعتماد المسيح عليها، وأنّه كان يخاطب اليهود الذين اجتمعوا يوم الخمسين من الترجمة السبعينيّة. وكذا استفانوس المملوء ـ بزعمهم ـ من الروح القدس كان يخاطب اليهود منها.

١. تقدّم في ج ١، ص ١٧.

وكذا الذين تشتّتوا في البلاد ليكرزوا بالمسيح.

وكذا المعلّمين من قدماء النصارى[١]. ويشهد لذلك أيضاً اعتماد العهد الجديد عليها في ذكر الفقرات التي اختصّت بها دون العبرانيّة، كما سيأتي ذكره قريباً إن شاء الله.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ النسخة السبعينيّة هذه تشهد بوجود السقط والزيادة في النسخة العبرانيّة.

أمّا شهادتها بوجود السقط والنقصان والغلط في العبرانيّة فقد ذكرت فقرات كثيرة غير موجودة في الأصل العبراني. ولنذكر لك بعضاً منها وهذه هي: في سفر التكوين: تعال نخرج إلى الحقل[٢]. وأرفكشاد ولد قينان وقينان ولد شالح[٣].

وفي سفر اللاويّين: «ويضع يده على رأسه»[٤]. «أمام الربّ»[٥]. «وكلّ الشحم الذي على الأحشاء»[٦]. «الذي يعطيكم الربّ إلهكم»[٧]. «لميت»[٨]. «وملحاً» [٩].

وفي سفر العدد: ويأخذون ثوباً أرجوانيّاً ويغطّون به المرحضة وقاعدتها ويضعون عليها غطاءً من جلد تخس ويجعلونها على العتلة[١٠].

وإذا ضربتم هتافاً ثالثة ترتحل المحلّات النازلة إلى الغرب. وإذا ضربتم هتافاً رابعة ترتحل المحلّات النازلة إلى الشمال[١١].

---

١. انظر أقلّاً الهداية ٣: ١٧٥ و ٢١٢ و ٤: ٩٠ـ ٩٢.

٢. سفر التكوين ٤: ٨.

٣. سفر التكوين ١٠: ٢٤.

٤. سفر اللاويّين ٣: ١٠.

٥. سفر اللاويّين ٣: ١٣.

٦. سفر اللاويّين ٧: ٣.

٧. سفر اللاويّين ١٩: ٢٣.

٨. سفر اللاويّين ٢١: ٥.

٩. سفر اللاويّين ٢٤: ٧.

١٠. سفر العدد ٤: ١٤.

١١. سفر العدد ١٠: ٦.

«وبيت أبيك»[١]. «فرجعوا إلى المحلّة»[٢].

وفي سفر التثنية: «اليوم»[٣]. «والجرجاشي»[٤].

وفي سفر يشوع: «اثنا عشر ملكاً للأموريّين»[٥].

وفي سفر القضاة: «أضعف وأصير كواحد من الناس»[٦]. لأنّها كانت ميتة[٧]. «واستبقوا العذارى ففعلوا هكذا»[٨].

وفي صموئيل الأوّل: لأنّه ليس لها ولد[٩]. مع رجلها وشربت[١٠]. وكلّ الشعب كان مع شاول نحو عشرة آلاف رجل وانتشر الحرب في كلّ مدينة من جبل أفرايم[١١]. «فاشتعل غضب شاول»[١٢].

وفي صموئيل الثاني: ولم يحزن روح آمنون ابنه؛ لأنّه أحبّه، لأنّه بكره[١٣]. «وصنع أبشالوم وليمة كوليمة الملك»[١٤]. «وصارت امرأة لرحبعام بن سليمان فولدت له آبيا»[١٥]. وجاء عبيد يواب إليه وثيابهم ممزّقة وقالوا: قد أحرق عبيد أبشالوم الحقلة بالنار[١٦].

---

١. سفر العدد ١٤: ١٢.

٢. سفر العدد ١٤: ٤٥.

٣. سفر التثنية ٤: ٢.

٤. سفر التثنية ٢٠: ١٧.

٥. سفر يشوع ٢٤: ١٢.

٦. سفر القضاة ١٦: ١١.

٧. سفر القضاة ١٩: ١٨.

٨. سفر القضاة ٢١: ١١.

٩. سفر صموئيل الأوّل ١: ٥.

١٠. سفر صموئيل الأوّل ١: ١٨.

١١. سفر صموئيل الأوّل ١٤: ٢٣.

١٢. سفر صموئيل الأوّل ١٩: ٢٢.

١٣. سفر صموئيل الثاني ١٣: ٢١.

١٤. سفر صموئيل الثاني ١٣: ٢٧.

١٥. سفر صموئيل الثاني ١٤: ٢٧.

١٦. سفر صموئيل الثاني ١٤: ٣٠.

وفي الملوك الأوّل: «وأنبياء السواري أربعمائة»[١]. «كلّم إيليّا التشتي أنبياء البعل قائلاً: حيدوا الآن وأنا أُقرّب محرَّقتي، فحادوا وذهبوا»[٢]. «من الصباح إلى المساء»[٣].

وفي الملوك الثاني: «وذهبوا لكي يسألوا منه»[٤]. «رئيس الخمسين»[٥]. «وجاؤوا به»[٦]. «فقال ياهو: إن كان فهات يدك»[٧].

وفي سفر أيّوب: «كما حسن عند الربّ هكذا فليكن»[٨]. «بعد زمان طويل»[٩].

وفي المزامير:

حناجرهم قبور مفتحة مكروا بألسنتهم سمّ الأفاعي في شفاههم وهؤلاء أفواههم مملوءة لعنة ومرارة وأرجلهم إلى سفك الدماء سريعة البوس والتعبّس في سبلهم وطريق السلامة ما عرفوها وليس خوف الله أمام عيونهم[١٠].

صاحب الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ م أدرج هذه الفقرات في الأصل وجعل مزمورها الثالث عشر في العدد ٧٣ و ٧٨ في أبواب ابنة صهيون:

«الربّ أمين في كلّ أقواله رحيم في كلّ أفعاله»[١١]. «ونحن نبارك الربّ من الآن وإلى الأبد»[١٢].

وفي أمثال سليمان: «وإن كنت مجتهداً يأتي كينبوع حصادك»[١٣].

---

١. سفر الملوك الأوّل ١٨: ١٢.
٢. سفر الملوك الأوّل ١٨: ٣٠.
٣. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٣٥.
٤. سفر الملوك الثاني ١: ٢.
٥. سفر الملوك الثاني ١: ٩.
٦. سفر الملوك الثاني ٩: ٢٨.
٧. سفر الملوك الثاني ١٠: ١٥.
٨. سفر أيّوب ١: ٢١.
٩. سفر أيّوب ٢: ٩.
١٠. سفر المزامير ١٤: ٤ـ٦.
١١. سفر المزامير ١٤٥: ١٣.
١٢. سفر المزامير ١٤٥: ٢١.
١٣. سفر الأمثال ١٦: ١١.

وفي إشَعْياء: «للموت»[١].

وأمّا شهادة السبعينيّة بوجود الزيادة في الأصل العبراني فإنّها قد تركت كثيراً ممّا فيه، فتركت.

من سفر اللاويّين: «أنا الربّ»[٢].

ومن سفر التثنية: «الرض»[٣].

ومن كتاب يشوع: «لبني إسرائيل»[٤]. الخامسة عشرة بتمامها[٥]. الرابعة والخامسة والسادسة بتمامهنّ[٦]. «لمّا سمع بنو إسرائيل»[٧].

ومن صموئيل الأوّل: الثامنة بتمامها[٨]. «خمسين ألف رجل»[٩]. الأُولى كلّها[١٠]. الحادية والأربعين، وكذا الخمسين، وكذا الخامسة والخمسين إلى الثامنة والخمسين[١١]. الأُولى إلى لفظ الفلسطيني من السادسة وكذا الثانية عشرة[١٢]. الثانية عشرة بتمامها[١٣].

ومن صموئيل الثاني: «ليهوذا»[١٤]. الرابعة بتمامها[١٥].

---

١. سفر إشَعْياء ٥٣.
٢. سفر اللاويّين ٢٢: ٣١.
٣. سفر التثنية ٢٨: ٥.
٤. سفر يشوع ١: ٢.
٥. أي ترك من الأصحاح ١٠ العدد ١٥ بتمامه، من سفر يشوع.
٦. أي ترك من الأصحاح ٢٠ العدد ٤ـ٦، من سفر يشوع.
٧. سفر يشوع ٢٢: ١٢.
٨. سفر صموئيل الأوّل، ترك من الأصحاح ٢ العدد ٨ بتمامه.
٩. سفر صموئيل الأوّل ٤: ١٩.
١٠. أي ترك من الأصحاح ١٣ من سفر صموئيل الأوّل العدد ١ بتمامه.
١١. أي ترك من سفر صموئيل الأوّل من الأصحاح ١٧ العدد ٤١ و ٥٠ و ٥٥ـ٥٨.
١٢. أي ترك من سفر صموئيل الأوّل من الأصحاح ١٨ العدد ١ و ٦ و ١٢.
١٣. أي ترك من سفر صموئيل الأوّل من الأصحاح ٢٣ العدد ١٢ بتمامه.
١٤. سفر صموئيل الثاني ٣: ٨.
١٥. أي ترك من سفر صموئيل الثاني من الأصحاح ٦ العدد ٤٤ بتمامه.

ومن الملوك الأوّل: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة[١]. الثانية والثالثة إلى لفظ يربعام[٢]. «واسم أُمّه» إلى آخرها[٣].

ومن كتاب عزرا: «عشر»[٤].

ومن كتاب نحميا: «كلّ واحد» إلى آخرها[٥].

ومن كتاب أيّوب: «لولا»[٦].

ومن كتاب حزقيال: «التي كانت قويّة في البحر هي وسكّانها»[٧].

وأمّا شهادة السبعينيّة بالغلط في الأصل العبراني فإنّها قد خالفته في أُمور:

ففي سفر اللاويّين العبراني: «لا تاكلوا بالدم». وفي السبعينيّة: «لا تأكلوا على الجبال»[٨].

وفي سفر العدد العبراني «ابن ثلاثين سنة». وفي السبعينيّة: «ابن خمس وعشرين سنة»[٩].

وفي المزامير العبرانيّة: «أُذنين حفرت لي». وقرئ في السبعينيّة: «جسداً هيّأت لي»[١٠].

المورد الثاني عشر: شهادة العهد الجديد على الأصل العبراني بالنقصان والتحريف أمّا شهادته بالنقصان، فقد جاء فيه: «لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء أنّه سيدعى ناصريّاً»[١١]. وليس لهذا القول في كتب العهد الجديد عين ولا أثر.

وللمتكلّف هاهنا كلام لم يأت لقومه إلّا بالإسراف في الحبر والقرطاس وعمل الطبع[١٢].

---

١. أي ترك من سفر الملوك الأوّل من الأصحاح ٦ العدد ١١ ـ ١٣.

٢. أي ترك من سفر الملوك الأوّل من الأصحاح ١٢ العدد ٢ ـ ٣ إلى لفظ يربعام.

٣. سفر الملوك الأوّل ١٤: ٣١.

٤. سفر عزرا ١: ٢٩.

٥. سفر نحميا ٤: ٢٣.

٦. سفر أيّوب ٢٧: ١٣.

٧. سفر حزقيال ٢٦: ١٧.

٨. سفر اللاويّين ١٩: ٢٦.

٩. سفر العدد ٤: ٣ و ٢٣ و ٣٠ و ٣٥ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٧.

١٠. سفر المزامير ٤٠: ٧.

١١. إنجيل متّى ٢: ٢٣.

١٢. فانظر الهداية ٢: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

وخالف التوراة العبرانيّة فزاد في طبقات النسب «قينان» بين أرفكشاد وشالح[١].

وللمتكلّف هاهنا كلام سيأتي قريباً ـ إن شاء الله ـ بيان ما فيه.

وأمّا شهادته بالتحريف فقد ذكرنا أنّ الموجود في السابعة من المزمور الأربعين: «أُذنين حفرت لي». وفي الخامسة من عاشر العبرانيّين: «هيّأت لي جسداً».

والمتكلّف يقول: إنّ قول العبرانيّين: «هيّأت لي جسداً» نقل بالمعنى لقول المزامير: «أُذنين حفرت لي». وتمحّل لذلك بكلام طويل وتأويل بارد، فانظره[٢] تعرف شططه.

ويكفي في ردّه أنّ النقل بالمعنى يلزم فيه أن يكون المعنى محفوظاً بحدوده، وإنّما يكون التبديل بصورة الألفاظ. إذن فأين «أُذنين حفرت لي» وأين «هيّأت لي جسداً»؟ ولو كان هذا التفاوت والتباين من النقل بالمعنى، لما بقي في الكلام اختلاف. بل انسدَّ باب اللوم على أكثر الذين يخطؤون أو يكذبون في نقلهم، فيقال: إنّه نقل بالمعنى.

واعلم أنّ الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١ م قد جمعت في ترجمة المزامير بين الأمرين، فذكرت هكذا «وأعددت لي جسداً فتحت مسامعي» وفي ترجمة رسالة العبرانيّين اقتصرت على قولها: «واقتنيت لي جسماً» فزادت على الأصل العبراني؛ لكي تتّجه دعوى النقل بالمعنى.

تتمّة: واعلم أنّ المترجمين من النصارى لم يجروا على نهج غير مضطرب، فلم يتّبعوا الأصل العبراني تماماً على ما فيه، ولم يتّبعوا حواشيه تماماً على ما فيها، ولم يتّبعوا النسخة السبعينيّة تماماً على ما فيها، ولم يرفضوا النسخة السامريّة تماماً، بل استخرجوا بحسب أفكارهم و أغراضهم كتاباً ملفّقاً لا يطابق بتمامه مطابقة تامّة لواحد من هذه الأربعة.

ولقد كنّا نحبّ بيان ذلك بالاستقصاء، لو لا أنّه يؤدّي إلى الطول الذي تبعد به المسافة عن المقصود، بل هو جدير بأن نفرده في رسالة مستقلّة. وفي الإشارة إليه

---

١. إنجيل لوقا ٣: ٣٥ ـ ٣٦.

٢. الهداية ٣: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

هاهنا كفاية. فانظر أقلاً إلى ما ذكرناه من الموارد، وراجع النسخة التي ذكرناها أوّلاً في صدر الكتاب. وانظر الجزء الأوّل من إظهار الحقّ[1]. وإن شئت فطابق بين الأصل العبراني وحواشيه والترجمة السبعينيّة، وبين تراجم النصارى للعهد القديم، لكي تعرف أنّ العهد القديم ليس له عندهم أصل يعتمد عليه، وإنّما هو كتاب موهون للنظر في تصحيحه وتهذيبه مجال واسع، لا يصدّ عن جماحه عنان التعصّب والتستّر.

وبذلك تعرف شطط المتكلّف على قومه وكتبه في قوله: «لا يعوّل على التراجم، بل المعوّل عليه والمرجع إليه هو التوراة العبريّة التي حافظ عليها اليهود»[2]. وقوله: «التوراة العبريّة هي المعوّل عليها»[3]. و«إنّ المعتمد عليه هي التوراة ـ أي العهد القديم ـ العبريّة وعبارتها هي الحقّ»[4].

تتمّة الصدر والتمهيد

لا يخفى على غير القاصر أنّ الحقيقة إذا تداولت عليها قرون القدم وتقلّب الأحوال، كثر عليها اعتراك التأريخ ولغطه في الاختلاف والتعارض. فلا يكاد المتعمّق في سبر كتب التواريخ أن يرى حقيقة سَلِمت من هرج الاختلاف ومرجه. نعم قد يفوز بالشهرة بعض كتب التأريخ لشهرة كاتبه ولو بنحو السلطنة والوزارة، أو بموافقته لطباع العوامّ أو الأهواء أو العصبيّة القوميّة، أو تعس الوقت. ولو أنّ المؤرّخ كان معروفاً بالضبط والتثبّت، لما ترجّح تأريخه إلّا بنحو من رجم الظنون التي تسكن إليها النفس، إذا لم يطّلع على ما يعارضه.

فلو أنّ بعض أقوال المؤرّخين خالفت القرآن الكريم، لما كان لذي عقل أن يعترض بها على القرآن. فإنّ التأريخ ـ كيفما كان ـ لا يمسّ الحجّة القاطعة على كون القرآن الكريم كلام الله علّام الغيوب، بل إذا تمّت الحجّة عاد التأريخ المعارض من خرافات

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٤٢٩ فما بعد.

٢. الهداية ١: ١٢٧.

٣. المصدر ٣: ٢١٦.

٤. المصدر: ٢٢٨.

الضلال. ولو فرضنا أنّ الحجّة لم تتمّ، لما عدا الحال أن يكونا تأريخين متعارضين، لا يحسن التحكّم ببطلان أحدهما لأجل معارضة الآخر.

وبهذا تعرف شطط المتعرّب في اعتراضه على القرآن الكريم بالتأريخ الآحادي المجهول.

ألا ترى أنّ العهد القديم تضمّن التأريخ من خلق العالم إلى سبي بابل، وأنّ التأريخ من ذلك الحين إلى ميلاد المسيح معلوم ليس فيه خلاف يعتدّ به. ومع ذلك فقد حكي[١] عن كتاب جادلس روجر أنّه ذكر اختلاف المؤرّخين في ذلك إلى خمسة وعشرين قولاً، من اليهود والنصارى وغيرهم. وتزيد الأقوال بخلاف اهيلز[٢] لهم أيضاً. وكلّ هذا الخلاف أوجلّه يرجع إلى مخالفة تأريخ العهد القديم وخصوص التوراة.

وأيضاً قد جاء في العهد القديم أنّ سليمان شرع ببناء بيت الربّ في السنة الأربعمائة وثمانين من خروج بني إسرائيل من مصر[٣]. وعن آدم كلارك[٤] مفسّرهم أنّه نقل في ذلك اثني عشر تأريخاً لأهل الكتاب كلّها متخالفة، وأقلّها ٣٣٠ سنة، وأكثرها ٦٨٠ سنة. وكلّها مخالفة لتأريخ العهد القديم في بناء الهيكل وإتمامه[٥].

ومع ذلك كلّه لا يحسن الاعتراض على العهد القديم بمخالفة هؤلاء المؤرّخين، وإن كانوا من متّبعيه؛ لأنّه لو قامت الحجّة على كونه من الوحي الإلهي لكشف عن ضلالة هذه التواريخ بأجمعها. وإذا لم تتمّ الحجّة فهو تأريخ كأحد التواريخ يعارضها كما تعارضه، لو لم ينحطّ عنها بمجهوليّة كاتبه وعصره، وكثرة وقوع الغلط في كتابته، وعبث التصرّف به، وتعرّض الأهواء في قلبه إلى حيث تميل.

---

١. حكاه إظهار الحقّ مفصّلاً في الجزء الثاني في الاختلاف الخامس من الفصل الثاني من الباب الخامس.

٢. نقله إظهار الحقّ أيضاً في المقام المذكور عن تفسيري هنري واسطت.

٣. سفر الملوك الأوّل ٦: ١.

٤. نقله إظهار الحقّ في العدد ٣٧ من القسم الثاني من الفصل الثالث من الباب الأوّل ٢: ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٥. ففي العهد القديم: «أنّ سليمان أتمّ بناء الهيكل في السنة الحادية عشرة لملكه». سفر الملوك الأوّل ٦: ٣٨. فيكون إتمامه سنة ٤٨٧ ولا يوافق شيء من التواريخ المشار إليها لتأريخ ابتداء البناء ولا لتأريخ إتمامه ولا يقارب واحداً منها.

وكيف كان فإنّ المصيبة الفادحة على الكتب المنسوبة إلى الوحي وعلى من ينسبها إليه:

١. إذا كان الكتاب الواحد متناقض التأريخ.

٢. أو كانت نسخ الكتاب الواحد المشهود لها بالاعتبار متناقضة التأريخ.

٣. أو كان بعض الكتب المذكورة مناقضاً لبعضها الآخر في التأريخ.

وقد ابتلي العهدان بالأقسام الثلاثة من التناقض في التأريخ.

أمّا القسم الأوّل فقد جاء في التوراة عن قول الله لإبراهيم:

اعلَمْ علماً أنّه غريباً يكون نسلك في أرض ليست لهم ويستعبدونهم ويذلّونهم أربعمائة سنة وأيضاً الأُمّة يعبدونها أدينُها أنا وبعد ذلك يخرجون بأملاك عظيمة وفي الجيل الرابع يرجعون إلى هنا ـ أي أرض كنعان ـ[١].

وفي هذا الكلام دلالة واضحة على أنّ الأربعمائة سنة هي مدّة الاستعباد والذلّة في الغربة، في الأرض المذكورة التي يخرجون منها. كما هو واضح الدلالة على أنّ الخروج بالأملاك العظيمة إنّما هو من أرض الغربة التي يُستَعبدون فيها أربعمائة سنة، ولا ينطبق ذلك إلّا على أرض مصر وخروجهم منها. ويزيد في وضوح ذلك أنّه جعل الغاية لتلك الغربة أنّ بني إسرائيل يرجعون إلى أرض كنعان، فلا يمكن أن تكون أرض كنعان داخلة في الغربة والأرض المسوق لها الكلام.

هذا، ثمّ ذكرت التوراة نفسها أنّ إقامة بني إسرائيل في مصر كانت أربعمائة وثلاثين سنة[٢]. فتناقض تأريخها في المقامين بثلاثين.

ولا تتوهّم أنّ سقوط الثلاثين سنة في التأريخ الأوّل كان لأجل اعتزازهم بعزّة يوسف مدّة حياته، وذلك لأنّ عزّتهم بحياة يوسف في مصر كانت فوق الثمانين سنة، فإنّ يوسف وقف بين يدي فرعون وهو ابن ثلاثين سنة، ثمّ مضت سبع سنين للخصب،

١. سفر التكوين ١٥: ١٣ ـ ١٦، وانظر أعمال الرسل ٧: ٥ ـ ٨.

٢. سفر الخروج ١٢: ٤٠ ـ ٤١.

وجاء بنو إسرائيل إلى مصر في السنة الأُولى أو الثانية من سِنِي الجوع[١]. ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة[٢].

فإن قلت: إنّ المتكلّف قد وجّه هذا الاختلاف بما حاصله أنّ مبدأ التحديد بالأربعمائة وثلاثين سنة كان من حين الوعد المذكور[٣] عند دعوة إبراهيم وأمره بالخروج من أهله وعشيرته. وأنّ مبدأ الأربعمائة سنة كان من ولادة إسحاق أو فطامه[٤].

قلت: ولماذا سرى إليك داء المتكلّف، فلم تلتفت إلى ما في كلامه؟ أم أنّك من أعدائه فأردت أن تنبّه على شططه؟ أم تريد أن تدلّنا على معرفة المرسلين الأمريكان الذين طبع كتابه بمعرفتهم؟

إذن فاسمع ما فيه من الأغلاط. قال المتكلّف:

> نعم إنّ المولى ـ سبحانه وتعالى ـ قال: إنّ نسله ـ أي إبراهيم ـ يستعبد ٤٣٠ سنة، ولكن كان هذا القول وقت دعوته، ولا شكّ أنّه من وقت دعوته واختياره إلى خروج بني إسرائيل من مصر ٤٣٠ سنة[٥].

ولا ينبغي أن يخفى عليك أنّ في كلامه أغلاطاً عديدة لا تخفى على صغار الناس:

١. إنّ الكلام الذي فيه هذا العدد ـ أعني ٤٣٠ سنة ـ ليس فيه لفظ «نسله» ولا لفظ «يستعبد» وإنّما لفظه في سفر الخروج: «وإقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر أربعمائة وثلاثين سنة»[٦]. ونصّها في الأصل العبراني: «وموشب بني يسرائيل آشر يشبّو بمصرايم شلشيم شنه وأربع مأوت شنه».

٢. لم يجئ في التوراة الرائجة في دعوة إبراهيم بالخروج تعرّض لشيء من هذا

---

١. انظر سفر التكوين ٤١: ٤٦ـ ٥٥ و ٤٧: ١ـ ١٨.

٢. سفر التكوين ٥٠: ٢٦.

٣. سفر التكوين ١٥: ١٣ـ ١٦.

٤. الهداية ٢: ١١٦ـ ١١٧ و ٤: ٣ـ ٨.

٥. المصدر: ١١٦.

٦. سفر الخروج ١٢: ٤٠.

النحو أصلاً، وإنّما كان وعداً بالعظمة والبركة، وأنّه تتبارك به جميع قبائل الأرض[١].

٣. إنّ التحديد بهذه المدّة، كان في نصّ التوراة تحديداً لسكنى بني إسرائيل في مصر. وبأيّ محاورة من محاورات العقلاء أو غيرهم يؤخذ مبدأ التأريخ والعدد من دعوة إبراهيم؟ فإذا قال شخص: إنّ فلاناً عاش في الدنيا ثمانين سنة، فاطّلعت على غلطه وأنّ فلاناً ما عاش في الدنيا إلّا أربعين سنة، أفتقبل عذره لو قال: أخذت مبدأ التأريخ من حين عزم جدّه على التزويج؟

٤. إنّ هذا القول لم يكن في وقت دعوة إبراهيم، وإن كان له أصل فهو في عهد موسى بعد خروج بني إسرائيل من مصر.

٥. إنّ دعوة إبراهيم واختياره كانا في أُور الكلدانيّين، كما صرّح به المتكلّف[٢] في أوّل جدوله الأيمن، واعتمد فيه على سابع الأعمال. وهذه الدعوة لا يعرف تأريخها من العهدين أصلاً ورأساً، وكذا مدّة مكث إبراهيم في حاران. فمن أين يتيسّر للمتكلّف هذا التطبيق الذي يدّعيه حتّى يقول بملء فمه: «لا شكّ»؟

ثمّ قال المتكلّف في هذا المقام:

أمّا قوله: «نسله يستعبد ٤٠٠ سنة» فكان نزول هذا القول في وقت ولادة إسحاق أو في وقت فطامه، عند حصول الخلاف بين سارة وبين هاجر[٣]. ولا شكّ أنّ من وقت فطام إسحاق إلى خروج بني إسرائيل من أرض مصر هو ٤٠٠ سنة[٤].

ولا ينبغي أن يخفى عليك أنّ في هذا الكلام أيضاً أغلاطاً عديدة:

١. إنّ نزول هذا القول على إبراهيم كان ـ بحسب نقل توراتهم ـ حينما شكاالعقم وعدم الولد. وذلك قبل ولادة إسماعيل التي هي قبل ولادة إسحاق بأربع عشرة سنة[٥].

---

١. انظر سفر التكوين ١٢: ١ ـ ٤.

٢. الهداية ٤: ٣.

٣. سفر التكوين ٢١: ٨ ـ ١٢.

٤. الهداية ٤: ٣.

٥. فانظر سفر التكوين ١٥ ـ ١٦.

٢. إنّ الترديد بين ولادة إسحاق وبين فطامه، يوجب اشتباه التأريخ بمقدار مدّة رضاعه، ولا يكون ذلك بحسب العادة، أقلَّ من سنتين. وهذا الترديد غلط منه، فإنّ أصحابه يدّعون إتقان التأريخ.

٣. إنّ قوله أخيراً: «ولا شكّ أنّ من وقت فطام إسحاق إلى خروج بني إسرائيل من مصر هو ٤٠٠ سنة» هو مناقض لتردّده في مبدأ المدّة المذكورة بين ولادة إسحاق وفطامه.

٤. ومناقض لقوله: «لا شكّ أنّه كان من مولد إسحاق إلى خروج بني إسرائيل من مصر ٤٠٠ سنة»[١]. ولعلّ المتكلّف إذا نبهّته على هذا التناقض يقول لك: لا يوجد في هذا أدنى تناقض، فإنّ إسحاق فطموه في سنة ولادته أو شهرها. فلا تقبل مزاعمه التي يدّعي تقدّم الدنيا بها. ولكن اعذره في عدم درايته بصراحة توراته؛ إذ تقول: «وكبر الولد ـ أي إسحاق ـ وفُطِم وصنع إبراهيم وليمة كبيرة يوم فطام إسحاق». وفي الأصل العبراني: «ويكدل هيلدويغامل»[٢].

٥. إنّ تقويم التوراة تقتضي أنّ المدّة من مولد إسحاق إلى دخول بني إسرائيل إلى مصر تكون مائة وتسعين سنة. وذلك لأنّها من مولد إسحاق إلى مولد يعقوب ستّون سنة[٣]، ومن ولادة يعقوب إلى دخول بنيه إلى مصر مائة وثلاثون سنة[٤]. فإذا كانت إقامة بني إسرائيل مائتين وخمس عشرة سنة ـ كما جزم به المتكلّف[٥] ـ فيكون المجموع أربعمائة وخمس سنين. فهل كتب في العهدين أنّ مدّة رضاع إسحاق كانت خمس سنين.

وإذا كانت كذلك فكيف تتمّ الأربعمائة سنة على زعمه[٦] في جدوله الذي على اليمين، حيث جزم فيه بأنّ إقامتهم في مصر كانت مائتين وعشر سنين؟

---

١. الهداية ٤: ٣.
٢. سفر التكوين ٢١: ٨.
٣. سفر التكوين ٢٥: ٢٦.
٤. سفر التكوين ٤٧: ٩.
٥. الهداية ٢: ١١٦، ١١٧، و ٤: ٨.
٦. المصدر ٤: ٣.

بل وكيف تتمّ على هذا إذا أخذ مبدأ الأربعمائة من ولادة إسحاق وتركنا لرضاعه حسب العادة سنتين ونحوهما؟

فهذا مع ما تقدّم عشرة أغلاط.

١١. زعم[١] أنّ مبدأ الأربعمائة وثلاثين سنة كان من وقت الموعد الذي وعد الله به إبراهيم بالبركة عند خروجه من حاران، وكان عمره حينئذٍ ٧٥ سنة[٢].

وهذا مناف لتصحيح استفانوس بأنّ ظهور الله لإبراهيم ودعوته التي وقع فيها هذا الموعد، قد وقع حين كان إبراهيم فيما بين النهرين، قبل ما سكن في حاران[٣].

ومناقض أيضاً لأخذه مبدأ التأريخ بهذه المدّة من دعوة إبراهيم من أُور الكلدانيّين فيما بين النهرين، قبل خروجه من حاران بخمس سنين، حسبما صرّح به في جدوليه[٤]. معتمداً فيه على قول استفانوس[٥]. كما اعتمد فيه أيضاً[٦] على تقويم مرشد الطالبين.

١٢. جزم المتكلّف فيما أشرنا إليه بأنّ إقامة بني إسرائيل في مصر كانت مائتين وخمس عشرة سنة. وهذا مناقض لجزمه في جدوله الأيمن المذكور بأنّها كانت مائتين وعشر سنين. ولم يكن هذا التناقض والغلط في الحساب والاضطراب في مبادئ التواريخ، إلّا لأمر يشير إليه المَثَل المشهور عند العوامّ.

١٣. قد التجأ المتكلّف في تكلّفاته المتناقضة إلى أن يزيد على عبارة سفر الخروج العبرانيّة[٧] مثل الألفاظ التي زادتها السامريّة واليونانيّة، وهي لفظة: «وآبائهم» ولفظة: «وأرض كنعان». فتكون العبارة هكذا: «وإقامة بني إسرائيل وآبائهم التي أقاموها في

---

١. الهداية ٢: ١١٦، و ٤: ٧.

٢. سفر التكوين ١٢: ٣ ـ ٤.

٣. فانظر أعمال الرسل ٧: ٢ ـ ٣.

٤. الهداية ٤: ٣.

٥. أعمال الرسل ٧: ٢.

٦. الهداية ٤: ٨.

٧. سفر الخروج ١٢: ٤٠.

مصر وأرض كنعان أربعمائة وثلاثين سنة». وهذا غلط بحسب جدوله المذكور واعتماده على تقويم مرشد الطالبين، حيث جعلا مبدأ المدّة من دعوة إبراهيم في أُور الكلدانيّين، بل يلزم على هذا أن يزيد على ذلك أيضاً لفظ: «وحاران» بل إنّ هذه الزيادة لازمة لهم على كلّ حال، فإنّ يعقوب وبنيه قد سكنوا في حاران أكثر من ثلاثين سنة؛ لأنّ يعقوب خدم لابان بليئة وراحيل أربع عشرة سنة قبل أن يرزق منهما الأولاد[١].

ثمّ ولدت له ليئة أربعة أولاد، ثمّ توقّفت عن الولادة[٢].

ثمّ ولدت ولدين وبعدهما بنتاً[٣].

ثمّ ولدت راحيل يوسف[٤]. وحينما خرج يعقوب من حاران كانت بنته قابلة للتزويج[٥]. وكان يوسف آخر أولاده يعرف الاستقبال وسجود التحيّة[٦]. وكان شمعون ولاوي ابناه قابلين للقتل والقتال[٧]. فلا يمكن أن تنقص هذه المدّة عن ثلاثين سنة. فلماذا أهمل ذكر حاران مع أنّها كانت ليعقوب أرض غربة وخدمة وعبوديّة وذلّة[٨]؟

١٤. لمّا التجأ المتكلّف إلى أن يقدّر في الأصل العبراني لفظ: «وآبائهم» و «أرض كنعان» بل ولفظ «وحاران» كما هو لازم له، لم يكتف بذلك، بل جعله[٩] من باب الاكتفاء الوارد في كلام العرب والقرآن الكريم.

---

١. انظر سفر التكوين ٢٩: ٢٠ ـ ٣٠.
٢. سفر التكوين ٢٩: ٣١ ـ ٣٥.
٣. سفر التكوين ٣٠: ١٧ ـ ٢١.
٤. سفر التكوين ٣٠: ٢٤.
٥. انظر سفر التكوين ٢٤.
٦. سفر التكوين ٣٠: ٧.
٧. انظر سفر التكوين ٣٤: ٢٥.
٨. انظر سفر التكوين ٢٩ ـ ٣٢.
٩. الهداية ٢: ١١٧، و ٤: ٤.

وهذا غلط؛ لأنّ الشرط في الاكتفاء أن تكون دلالة اللفظ الموجود وسَوقه كافية في بيان المحذوف المكتفى عنه والدلالة عليه، كما يقتضيه لفظ الاكتفاء، بل اعترف المتكلّف بنفسه[١] بأنّ الاكتفاء هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة.

أقول: وليت شعري إذن فأيّ تلازم وارتباط يشعربه المقام ويقتضيه في عبارة سفر الخروج بين بني إسرائيل وبين آبائهم، وبين أرض مصر وبين أرض كنعان، بل وحاران؟ أم تقول: كلّما جاء لفظ بني إسرائيل يكون اكتفاءً عن لفظ آبائهم، وكلّما جاء لفظ مصر يكون اكتفاء عن لفظ كنعان وحاران؟ إذن فقرّت أعينهم بتأريخ توراتهم.

١٥. ثمّ زاد المتكلّف في الغلط حيث قاس دعواه في الاكتفاء والحذف، بالحذف الذي تجلو مراده نوارنيّة المقام في القرآن الكريم، كما نبّهناك عليه في الجزء الأوّل[٢]. مع أنّ ما نسلّم فيه الحذف في القرآن الكريم، إنّما هو على وجه لو ذكر المحذوف لفاتت من الكلام نكتة شريفة، أوأدّى إلى تطويل مملّ في الكلام المتوسّط، فضلاً عن الكلام السامي في البلاغة. فانظر الأمثلة التي ذكرها[٣].

مثل: يحكى أنّ صبيّاً انحصر على سطح بلا درج، فأعيا عليه النزول، فجاء بعض المغفّلين وألقى إليه طرف الحبل وقال له: شدّه في وسطك، فلمّا شدّه جذبه المغفّل إلى صحن الدار، فلمّا وقع مات. فقال المغفل متعجّباً ومعتذراً: إنّ هذا الصبيّ قتله حضور أجله، وإلّا فقد أخرجت بهذا الحبل من البئر عشرين رجلاً سالمين.

١٦. ثمّ أفحش المتكلّف في الغلط المضحك[٤]، حيث اعترض على الآيات التي ذكرها من القرآن الكريم. ثمّ قال: «إنّ كتاب الله منزّه عن مثل هذه التقديرات الفاحشة».

---

١. الهداية ٤: ٤.

٢. تقدّم في الجزء الثاني ـ حسب تجزئتنا ـ ص ٤٢٣ ومابعدها.

٣. الهداية ٤: ٥ ـ ٦.

٤. المصدر: ٦.

القسم الثاني في اختلاف نُسَخ التوراة في التأريخ

مع أنّ كلّاً منها إمّا مشهود لها بالصحّة والاعتبار عند اليهود والنصارى معاً، وإمّا مشهود لها بالصحّة والاعتبار عند النصارى.

أمّا النسخة العبرانيّة فلا تحتاج دعواهم لاعتبارها إلى بيان، وأمّا النسخة السبعينيّة فقد ذكرنا وجه اعتبارها[١]. وأشرنا إليه قريباً في صدر المورد الحادي عشر من التمهيد. وكلّه موافق لملخّص اعتراف المتكلّف[٢].

وأمّا النسخة السامريّة فقد ادّعى المتكلّف أنّها ذات خمسة أسفار موسى التي نزلت باللغة العبرانيّة، ولكنّها مكتوبة بأحرف سامريّة قديمة[٣].

وهذه الدعوى وإن كانت ساقطة عند غير السامريّين، ولكنّها اعتراف بصحّة السامريّة واعتبارها. دع عنك المتكلّف في دعاويه واعترافاته، ولكنّه نقل عن آدم كلارك قوله:

> ذهب كثير من العلماء إلى أنّ ترجمة خمسة أسفار موسى السامريّة هي من أضبط التراجم وأقدمها.

ونقل إظهار الحقّ في شواهد المقصد الأوّل من الباب الثاني، عن المجلّد الثاني من تفسير محقّقهم المشهور «هورن» ما ملخّصه:

> أنّ المحقّق هيلز أثبت بالأدلّة القويّة صحّة السامريّة. وأنّ كني كات أورد ملاحظات استنتج منها أنّ الحقّ ما عليه السامريّون وأنّ اليهود حرّفوا التوراة قصداً[٤].

ونقل أيضاً عن المفسر المشهور آدم كلارك من الصفحة ٨١٧ من المجلّد الأوّل من

---

١. تقدّم في ج ١، ص ١٧.

٢. الهداية ٣: ١٧٥ ـ ١٧٦، و ٤: ٩٠ ـ ٩٣.

٣. انظر الهداية ٣: ١٧٥ ـ ١٧٦.

٤. إظهار الحقّ ٢: ٤٣٧.

تفسيره أنّ المحقّق «كني كات» يدّعي صحّة السامريّة وأنّ كثيراً من الناس يفهمون أنّ أدلّة «كني كات» لا جواب لها ويجزمون بأنّ اليهود حرّفوا لأجل عداوة السامريّة. وعنه أيضاً في المجلّد الأوّل المذكور قوله: «يصرُّ هيوبي إصراراً بليغاً على صحّة السامريّة»[١].

ونقل إظهار الحقّ أيضاً في شواهد المقصد الثالث أنّ جامعي تفسير هنري واسكات قالوا في عبارة في السامريّة تخالف العبرانيّة: «لا شكّ أنّ هذه العبارة صادقة»[٢].

والمتكلّف لم يسعه إنكار هذه النقول عن محقّقيهم ومفسّريهم والكثير منهم. نعم، التجأ إلى شيء من أغاليط التأريخ، ثمّ قال: «فيتّضح للمتأمّل أنّ عبارة التوراة العبريّة هي صحيحة»[٣].

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ النسخة العبرانيّة ـ وهاتين النسختين ـ قد وقع فيما بينهما الاختلاف التأريخي، ولنذكر منه ثلاثة موارد[٤]:

الأوّل: قد سمعت المدّة المذكورة في التوراة العبرانيّة لإقامة بني إسرائيل في مصر، وهي ٤٣٠ سنة[٥]. وعرفت أغلاط المتكلّف في حساب التأريخ ودعوى الاكتفاء. فاعلم بأنّه قد خالفتها الترجمة السامريّة، بل واليونانيّة، كما اعترف به المتكلّف[٦]، أو السبعينيّة الإسكندرانيّة كما نقله عن آدم كلارك[٧]، فقد جاء فيهما ما تعريبه: «وإقامة بني إسرائيل وآبائهم في أرض مصر وكنعان أربعمائة وثلاثون سنة». فاختلفت النسخة العبرانيّة مع هاتين النسختين في المدّة التي أقامها بنو إسرائيل في أرض مصر.

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.
٢. المصدر: ٥١٨.
٣. انظر الهداية ٣: ٢١٨ ـ ٢٢٤.
٤. كذا في النسخ المطبوعة، والمذكور في المتن موردين.
٥. تقدّم في ص ٤٩٣.
٦. الهداية ٤: ٤.
٧. المصدر: ٦.

وقد ذكرنا لك أنّ تقويم هاتين النسختين لا يتّجه مع كون المبدأ لتأريخه هو تغرّب إبراهيم من أرض الكلدانيّين مع كون إقامة بني إسرائيل في مصر ٢١٥ سنة، كما ذكره المتكلّف مراراً وعليه تقاويمهم؛ لأنّ العدد حينئذٍ يزيد على ٤٣٠ سنة بمقدار إقامة إبراهيم في حاران. وقد زعم المتكلّف في جدوليه، وأصحابه في تقاويمهم، أنّها كانت خمس سنين. ومع ذلك يلزم أنّهما تركتا ذكر «حاران» باعتبار إقامة إبراهيم فيها، وإقامة يعقوب وبنيه، أكثر من ثلاثين سنة وأنّهما أهملتا ذلك قصوراً وتقصيراً، فإنّ حديث الاكتفاء في مثل هذا المقام عند من يعرف الاكتفاء مضحكة ومسخرة.

هذا، ولو فرضوا أنّ إقامة بني إسرائيل في مصر ٢١٠ سنين ـ كما زعمه المتكلّف في جدوليه، وبعض اليهود في كتاباتهم ـ لما اتّجه التقويم بكون المبدأ له تغرّب إبراهيم في كنعان لأنّ العدد حينئذٍ ينقص خمس سنين. فإن ادّعى مدّعٍ أنّ المبدأ له أوّل تغرّب إبراهيم في حاران. قلنا: من أين لهذا المدّعي أنّ تغرّب إبراهيم في حاران كان خمس سنين لكي يتمّ العدد؟ وهل البناءعليه إلّا بالتشبّث بالتخمين الوهمي، وإصلاح الفاسد المضطرب، وتطبيق الحساب الضائع؟ وإلّا فلماذا تركتا ذكر حاران مع ذكرهما كنعان ومصر؟

الثاني من موارد اختلاف النسخ الثلاث: قد ذكرت النسخة العبرانيّة تأريخ الآباء من آدم إلى إبراهيم، فذكرت عمر الأب قبل ولادة الابن المذكور في السلسلة، وذكرت باقي عمره بعد ولادة ذلك الابن[1]. وقد خالفتها النسخة السامريّة والسبعينيّة في ذلك اختلافاً فاحشاً، كما تخالفتا بينهما كذلك. فلنذكر لك الجداول التي ذكرها المفسّرون في تسجيل الاختلاف، وذكرها المتكلّف أيضاً[2]، وهذه صورتها بعد تصحيحنا للغلط المادّي في عناوينها، والغلط الرقومي في طبعها:

---

١. فانظر سفر التكوين ٥: ٣ و ٣٢ و ١١: ١٠ ـ ٢٧.

٢. الهداية ٣: ٢١٣ و ٢١٦.

اسماء آباء السلسلة قبل الطوفان	أعمارهم عند ولادة الابن الواقع في السلسلة			أعمارهم بعد ولادة ذلك الابن		
	عبريّة	سامريّة	سبعينيّة	عبريّة	سامريّة	سبعينيّة
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠	٨٠٠	٨٠٠	١٧٠٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥	٨٠٧	٨٠٧	٧٠٧
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠	٨١٥	٨١٥	٧١٥
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠	٨٤٠	٨٤٠	٧٤٠
مهلئيل	٦٥	٦٥	١٦٥	٨٣٠	٨٣٠	٧٣٠
يارد	١٦٢	٦٢	١٦٢	٨٠٠	٧٨٥	٨٠٠
اخنوخ	٦٥	٦٥	١٦٥	٣٠٠	٣٠٠	٢٠٠
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧	٧٨٢	٦٥٣	٧٨٢
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨	٥٩٥	٦٠٠	٥٩٥
	عند الطوفان			بعد الطوفان		
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠	٣٥٠	٣٥٠	٣٥٠
	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢			

فانظر إلى هذا الاختلاف في الأعمار، وفي تأريخ الطوفان من خلقة آدم.

والمتكلّف لم يسعه في هذا الاختلاف الباهظ إلّا تأييد التقويم العبراني بتأييدات فارغة. ويكفيك أنّه جعل من الأدلّة القويّة على صحّة العبرانيّة ما توهّمه حيث قال:

إنّ السبعينيّة تقتضي تأخّر ولادة البكر لآدم وشيث إلى أن مضى من عمرهما ٢٣٠ سنة و ٢٠٥ سنين، وهذا يخلّ بالنسبة بين وقت النموّ وبين مجموع عمريهما. فهل كان أمر الله الذي قال: «أكثروا واملؤوا الأرض» ليس بضروري في الجيل المتقدّم وأنّه صار ضرورياً في الأجيال التي بعده؟[1]

١. المصدر: ٢١٥.

قلت: وكم ترى في هذا الدليل القويّ من الغلط والجهل؟

أمّا أوّلاً فإنّ شيئاً لم يكن بكر آدم، بل إنّ توراتهم تصرّح بأنّ آدم ولد قايين وهابيل قبل شيث، بل مقتضاها أنّ قايين ولد أولاداً كثيرين ثمّ صارت ولادة شيث. فانظر رابع التكوين[١].

وأيضاً لا يعرف من التوراة وغيرها من كتب وحيهم أنّ أنوش كان بكر شيث، بل إنّ جميع آباء السلسلة لا يعرف من كتب العهدين أنّهم كانوا أبكار آبائهم. وقد سمعت أنّ شيثاً لم يكن بكر آدم.

وأيضاً بمقتضى التوراة أنّ ساماً لم يكن بكر نوح؛ فإنّها تقول: وكان نوح ابن خمسمائة سنة وولد ساماً وحاماً ويافث[٢]. ولمّا كان نوح ابن ستّمائة سنة صار الطوفان[٣]. فلو كان سام بكر نوح لكان عمره عند الطوفان مائة سنة، ولكنّ توراتهم تقول: «لمّا كان سام ابن مائة سنة ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين»[٤]. وهذا يقتضي أنّ ساماً تولّد بعد مامضى من عمر نوح خمسمائة وسنتان، فالبكر إذن غير سام.

وأيضاً يلزم النصارى أن لا يكون إبراهيم بكر أبيه، فإنّ توراتهم تقول: «إنّ تارح أباه عاش مائتين وخمس سنين ومات في حاران»[٥]. «وإنّ إبراهيم حينما خرج من حاران كان عمره خمساً وسبعين سنة»[٦]. واستفانوسهم يقول: «إنّ إبراهيم خرج من حاران بعد مامات أبوه»[٧]. فلا بدّ على هذا من أن تكون ولادته بعد ما مضى من عمر أبيه مائة وثلاثون سنة. والتوراة تقول: «إنّ تارح ولد بنيه لسبعين سنة من عمره»[٨].

---

١. العدد ١ و ١٧ ـ ٢٤ و ٢٥.

٢. سفر التكوين ٥: ٣٢.

٣. سفر التكوين ٧: ٦.

٤. سفر التكوين ١١: ١٠.

٥. سفر التكوين ١١: ٣٢.

٦. سفر التكوين ١٢: ٤.

٧. أعمال الرسل ٧: ٤.

٨. سفر التكوين ١١: ٢٦.

فإن قيل: هب أنّ شيثاً وساماً وإبراهيم لم يكونوا أبكار آبائهم في هذه السلسلة، ولكن باقي رجال السلسلة كانوا أبكار آبائهم. ويدلّ على ذلك أنّ التوراة بعد أن تذكر ولادة الولد المذكور في السلسلة تقول في شأن أبيه: «وولد بنين وبنات» فيدلّ ذلك على أنّ الولد المذكور هو البكر. وأيضاً إنّ البكوريّة لها أهمّيّة وفضيلة، فلا بدّ أن تكون سلسلة الآباء والعهد ومواليد الأنبياء فائزة بها.

قلت: هذا واضح البطلان؛ إذ لا دلالة فيما تتشبّث به. كيف وقد قيلت هذه العبارة في شأن آدم بعد ذكر ولادة شيث[١].

وأيضاً قد دلّ العهد القديم على أنّ جماعة من الأنبياء وآباء سلسلة النبوّات والعهد، لم يكونوا أبكار آبائهم، كما في شيث وسام وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولاوي ويهوذا وفارص وموسى وداود وسليمان، وأكثر هؤلاء عيون هذه السلسلة.

وأيضاً إنّ الله العليم الحكيم قد تقتضي حكمته أن لا يربط سلسلة النبوّة بالبكوريّة، وإنّ إجراء الحكمة أولى من اتّباع عيسو في بيعه بكوريّته ليعقوب بأكلة من خبز وبطيخ وعدس[٢].

وأمّا ثانياً: فلو تجاهلنا وسلّمنا أنّ آباء السلسلة هم أبكار آبائهم، لقلنا: إنّ الحكمة التي اقتضت تأخّر ولادة شيث مائة وثلاثين سنة، وولادة أنوش مائة وخمس سنين، حسب التقويم العبراني، لا يمتنع أن تقتضي تأخّر ولادتهما مائتين وثلاثين سنة ومائتين وخمس سنين، حسب تقويم السبعينيّة. وكلتا المدّتين لا تتفاوت كثيراً بالنسبة إلى الوعد بالإثمار في المنافاة وعدمها.

وبما ذكرناه تعرف غلط المتكلّف في قوله في عنوان تقويم الجداول: «قبل ولادة البكر» و «بعد ولادة البكر» وغلطه في إهمال ذكر الطوفان لما قبل الستّمائة وما بعدها في عمر نوح.

---

١. سفر التكوين ٥: ٣ ـ ٥.

٢. سفر التكوين ٢٥: ٢٩ ـ ٣٤.

وهاك بقيّة الجداول في تقويم الأعمار بعد الطوفان، وقبل ولادة الابن الواقع في السلسلة، وانظر إلى الاختلاف فيها:

الأعمار	**بعد الطوفان وقبل ولادة الابن الواقع في السلسلة**			**بعد ولادة الابن الواقع في السلسلة**		
الأسماء	عبريّة	سامريّة	سبعينيّة	عبريّة	سامريّة	سبعينيّة
سام	٢	٢	٢	٠٠٠	٠٠	٠٠٠
أرفكشاد	٣٥	٣٥	٣٥	٤٠٣	٣٠٣	٤٠٠
قينان	٠٠٠	٠٠٠	١٣٠	٠٠٠	٠٠٠	٣٣٠
شالح	٣٠	١٣٠	١٣٠	٤٠٣	٣٠٣	٣٣٠
عابر	٣٤	١٣٤	١٣٤	٤٣٠	٢٧٠	٢٧٠
فالج	٣٠	١٣٠	١٣٠	٢٠٩	١٠٩	٢٠٩
رعو	٣٢	١٣٢	١٣٠	٢٠	١٠٧	٢٠٧
سروج	٣٠	١٣٠	١٣٠	٢٠٠	١٠٠	٢٠٠
ناحور	٢٩	٧٩	٧٩	١١٩	٦٩	١٢٩
	٢٢٢	**٧٧٢**	**٩٠٢**			
ماقبل الطوفان	١٦٦٥	١٣٠٧	٢٢٦٢			
	١٨٧٨	**٢٠٧٩**	**٣١٦٤**			

فانظر إلى هذه الأعداد والحواصل المختلفة بحسب النسخ، من خلقة آدم إلى ولادة ناحور لتارح أبي إبراهيم. واعلم أنّه لا يكاد يعرف من العهدين تأريخ ولادة إبراهيم من تارح، إلّا أن يعرف المقدار لمكث إبراهيم في حاران بعد موت أبيه، كما يقوله استفانوس[١]. وقد عرفت من هذه الجداول أيضاً أنّ التوراة السبعينيّة قد خالفت العبرانيّة والسامريّة حيث زادت عليها في عدد الآباء قينان بين أرفكشاد وشالح.

١. أعمال الرسل ٧: ٦.

القسم الثالث في اختلاف كتب العهدين في التأريخ

ولنذكر من ذلك مقامات:

[المقام] الأوّل: قد جاء في الأناجيل في طرد النسب مالفظه: «شالح بن قينان بن أرفكشاد»[1]. فوافق التوراة السبعينيّة في زيادة قينان بين أرفكشاد وشالح. وخالف بذلك العبرانيّة والسامريّة.

والمتكلّف حاول التخلّص من هذه الورطة فارتبك في !!تخليط وقال:

ذهب البعض إلى أنّ موسى لم يذكره ـ أي قينان ـ لكي تكون الأجيال من آدم إلى نوح عشرة، ومن نوح إلى إبراهيم عشرة، لتكون أعلق بالأذهان[2].

قلت: إنّ الوحي وموسى ﷺ لم يكونا ليشوّها وجه التأريخ المسلسل، ويهملا حقيقة قينان وتأريخه، ويجعلا ذلك عثرة في سبيل التصديق بالوحي. كلّ ذلك ليصفّا الآباء صفّاً شطرنجيّاً.

إذن قل: كيف أقدم سبعون من علماء اليهود المنتخبين من الملّة، فزادوا قينان وخالفوا إرادة الوحي وموسى؟

وكيف احتفل بترجمتهم عامّة اليهود والمسيح والتلاميذ والأجيال القديمة من النصارى؟

ولماذا أقدم هؤلاء على تغيير وضع التوراة ونقض غرض الوحي وموسى؟

ولماذا رضي لهم قومهم واحتفلوا بترجمتهم؟ أفلا تفهم من هذا أنّ اليهود لا يتوقّفون عن العبث بكتب الوحي إذا حسن في أهوائهم، بل يكون هذا العبث رائجاً مقبولاً في الملّة؟

ثمّ قال المتكلّف: «وذهب البعض إلى أنّ أرفكشاد كان أباً لشالح طبيعيّاً، ولقينان شرعيّاً».

قلت: أظنّ هذا التوجيه ممّن تقدّم الدنيا بكشفه عن هذا الغيب.

---

١. إنجيل لوقا ٣: ٣٥ـ٣٦.

٢. الهداية ٣: ٢١٢.

وليت شعري إذا كان قينان ابناً شرعيّاً، فلماذا أقحمته الترجمة السبعينيّة في سلسلة النسب والمواليد، وجعلته مولوداً من أرفكشاد ووالداً لشالح، فتلاعبت بالتوراة وشوّهت التأريخ وشوّشت التقويم بذكرها مقدار عمر قينان عند ما ولد شالح؟

وكيف رضيت لهم الملّة ذلك، وقبلت منهم ذلك مع أنّه تلاعب بكتاب الوحي بأمر غلطي؟

دع عنك الملّة اليهوديّة، ولكن لماذا أقحمه إلهام «لوقا» في سلسلة الآباء عبثاً محضاً، ومَعثرَة في التأريخ والتصديق بصحّة التوراة العبرانيّة، وتثبّتاً لغلط السبعينيّة وتحريفها؟

ثمّ قال المتكلّف: «وذهب البعض إلى أنّ قينان وشالح اسمان يدلّان على شخص واحد».

قلت: إذاً فلماذا قبلت الملّة اليهوديّة من السبعينيّة جعلهما والداً حتّى أنّها ذكرت عمر قينان عند ما ولد شالح؟ ولماذا لم يشر إلهام لوقا إلى هذا الغلط، ولا أقلّ من أن يجري مجرى التوراة العبرانيّة، بل جرى على غلط السبعينيّة،ترك متّبعيه يخبطون في عشواء؛ إذ قال في طرد النسب: «وابن شالح بن قينان بن أرفكشاد»[1]؟

ثمّ قال المتكلّف: وذهب كثيرون إلى أنّ قينان لم يكن مذكوراً في إنجيل لوقا، غير أنّ النسّاخ أخذوه من الترجمة السبعينيّة محاكاةً لها.

قلت: عجباً كيف سمح المتكلّف أن ينطق بشهادة الكثيرين على أنّ كتب وحيهم كانت ملعبة للنسّاخ وأوهام الآراء؟! فلماذا اتّفقت النسخ والنسّاخ على هذه في الإنجيل المتواتر بزعم المتكلّف؟ ثمّ مع نقل هؤلاء الكثيرين، كيف يتّجه للمتكلّف أن يقول: «قال المفسّرون: إنّ قينان هو لقب لأرفكشاد»[2]؟ أفلست ترى أنّ هذا الاضطراب في الشطط إنّما هو من الأوهام التي مَنّاها الغرور بأن تصلح الفاسد بالأفسد؟

وبعد هذا كلّه فما معنى قول المتكلّف: «على أنّه قرئ في بعض النسخ من التوراة

---

١. إنجيل لوقا ٣: ٥ ـ ٢٦.

٢. الهداية ٢: ٢٥٤.

قينان قبل أرفكشاد»[١]؟ أتراه يعني بذلك قينان بن أنوش، وهو الثالث من ولد آدم في السلسلة؟ كيف وهو مذكور في جميع نسخ التوراة في الأجيال التي قبل الطوفان؟ أم أنّه يعني بذلك أمراً لم يفهمه هو ولا غيره؟ أم يريد بذلك أنّ الغلط في العهدين غير عزيز، فلا عيب إذا وقع فيه إنجيل لوقا؟ ولعلّه لذلك عقّبه بقوله: «وعلى كلّ حال فالأمر سهل». أفلا تقول له: إنّا يكفينا مثل هذا الاستسهال في عدم الاعتناء بالعهدين، بل لا عذر لنا عند الله في الاعتماد على كتب يستسهل فيها مثل ذلك.

المقام الثاني من اختلاف العهدين في التأريخ: فقد عرفت من تقويم التوراة العبرانيّة أنّ المدّة من دخول إبراهيم إلى أرض كنعان إلى حين دخول بني إسرائيل إلى مصر، تكون مائتين وخمس عشرة سنة. وقد عرفت نصّها على أنّ إقامة بني إسرائيل في مصر كانت أربعمائة وثلاثين سنة[٢]. وتدلّ أيضاً على أنّ نزول الشريعة والناموس كان ابتداؤه في مصر في سنة الخروج منها[٣]. ثمّ جاء جميع ما في سفر الخروج في السنة الأُولى لخروجهم من مصر قبل أن يشتغلوا بعمل المسكن الذي تمّ وأُقيم في أوّل السنة الثانية[٤]. ثمّ جاءت الشريعة المذكورة في سفر اللاويّين وعشرة أبواب من سفر العدد في السنة الثانية قبل أن يمضي منها شهر وعشرون يوماً[٥].

وقد انتظم في هذا أكثر شريعة التوراة ونواميسها حسبما هو موجود في التوراة الرائجة، فيكون من دخول إبراهيم أرض كنعان إلى هذه الغاية ستّمائة وسبع وأربعون سنة. ثمّ جاء باقي الشريعة متدرّجاً إلى السنة الأربعين لخروجهم من مصر، فكلّم بها موسى بني إسرائيل في سفر التثنية[٦]. وكان غالب سفر التثنية تكراراً لبيان الشريعة

١. المصدر: ٢٥٤.
٢. تقدّم في ص ٤٩٣ و ٥٠٠.
٣. سفر الخروج ١٢: ١.
٤. سفر الخروج ٤٠: ١٧.
٥. انظر سفر اللاويّين ٢٧: ٣٤؛ سفر العدد ١٠: ١١.
٦. سفر التثنية ١: ٣.

المتقدّمة؛ ولذا سمّته الترجمة السبعينيّة بذلك وإنّ أحكام الكهنوت وشرائعه وتـأبيده، كلّها قد جاءت في سفر الخروج وسفر اللاويّين قبل أن تمضي لخروجهم من مصر سنة ونصف. وهاك جدول الحساب بمقتضى تقويم التوراة:

سنة	واقعة
٢٥	من دخول إبراهيم كنعان إلى ولادة إسحاق[١].
٦٠	ومن ولادة إسحاق إلى ولادة يعقوب[٢].
١٣٠	ومن ولادة يعقوب إلى دخوله مع بنيه إلى مصر[٣].
٤٣٠	وإقامة بني إسرائيل في أرض مصر[٤].
١	شريعة سفر الخروج ونواميسه.
١	شريعة سفر اللاويّين، وعشرة أبواب من سفر العدد ونواميسها.
٦٤٧	
٣٨	باقي الناموس إلى ختامه عند تثنية بيانه.
٦٨٥	

وبمقتضى التوراة أنّ إبراهيم توفّاه الله بعد ما خرج من حاران بمائة سنة[٥]. وعلى هذا فالزمان الفاصل بين مواعيد الله لإبراهيم حينما تجلّى له، وبين ابتداء الناموس الذي نزل على موسى، لا يمكن أن يكون أقلّ من خمسمائة وخمس وأربعين سنة.

إذا عرفت هذا فقد جاء عن بولس في ثالث غلاطية: «وأمّا المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله»، لا يقول: وفي الأنسال كأنّه عن كثيرين، بل كأنّه عن واحد في

١. سفر التكوين ١٢: ٤ و ٢١: ٥.
٢. سفر التكوين ٢٥: ٢٦.
٣. سفر التكوين ٤٧: ٩.
٤. سفر الخروج ١٢: ٤٠.
٥. انظر سفر التكوين ١٢: ٤ و ٢٥: ٧.

نسلك الذي هو المسيح. وإنّما أقول هذا إنّ الناموس الذي صار بعد أربعمائة وثلاثين سنة لا ينسخ عهداً قد سبق فتمكن من الله[١]. وأقلّ اختلاف يفرض بين هذا الكلام وبين التقويم المتقدّم عن التوراة العبرانيّة هو مائة وخمس عشرة سنة.

قال المتكلّف ما ملخّصه:

أنّ الموعد المشار إليه في كلام بولس هو الوعد الذي وعد الله به إبراهيم[٢]، عندما أمره بالتغرّب عن وطنه وعشيرته. ومن هذا الموعد إلى نزول الشريعة ٤٣٠ سنة؛ لأنّ عمر إبراهيم حينئذٍ كان ٧٥ سنة، ومنه إلى دخول بني إسرائيل مصر ٢١٥ وأقاموا في مصر ٢١٥، يكون المجموع إلى نزول الشريعة ٤٣٠ سنة[٣]. انتهى ملخّصاً.

قلت: قد أوضحنا لك قريباً في القسم الأوّل من أقسام الاختلاف الثلاثة، كيف قد تقلّب المتكلّف في التناقض في هذا المقام وقلق في أغلاطه فراجعها إلى الغلط الرابع عشر[٤]، واكفنا مؤونة التكرار، ولكنّا نوضح لك هاهنا أنّه لو فرضنا أنّ إقامة بني إسرائيل في مصر كانت ٢١٥ سنة أو ٢١٠ سنين ـ كما تقلّب به المتكلّف ـ لما أمكن أيضاً انطباق الكلام الذي ذكرناه عن غلاطية على موعد من مواعيد الله لإبراهيم المذكورة في التوراة، لا من حيث المعنى، ولا من حيث التقويم، أصلاً ورأساً. فلنذكر لك ما جاء في التوراة من مواعيد الله وعهوده لإبراهيم:

فالموعد الأوّل ـ وهو الذي عناه المتكلّف وعيّنه في كلامه ـ: جاء في [سفر التكوين][٥] وليس فيه ذكر للنسل الذي ذكر في كلام غلاطية أصلاً. وتأريخ هذا الموعد إمّا عند خروج إبراهيم من حاران حينما كان عمر إبراهيم ٧٥ سنة، كما زعم المتكلّف هاهنا. وإمّا عند خروجه ممّا بين النهرين ـ أي أُور الكلدانيّين ـ على قول استفانوس[٦].

---

١. رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٦ ـ ١٧.
٢. سفر التكوين ١٢: ٣.
٣. الهداية ٤: ٧ ـ ٨.
٤. تقدّم في ص ٤٩٧.
٥. سفر التكوين ١٢: ٢ ـ ٣.
٦. أعمال الرسل ٧: ٣ ـ ٤.

وعلى زعم المتكلّف أيضاً في أوّل جدوله، كما تقدّم. وبمقتضى تقويم المتكلّف في جدوليه يوافق السبعين من عمر إبراهيم.

الموعد الثاني: بعد اعتزال لوط عن إبراهيم وبعد رجوعهم من مصر، وعندما أقام إبراهيم في حبرون[١]، وذلك بعد دخول إبراهيم إلى أرض كنعان بسنين. والنصارى يقولون في تواريخهم: إنّها كانت خمس سنين أو أربع. وصريح هذا الوعد أنّ المراد من النسل هم الكثيرون الذين يعسر عدّهم كتراب الأرض.

الموعد الثالث: بعد ذلك وبعد حرب إبراهيم مع الملوك[٢]. وصريحه أيضاً أنّ المراد من النسل الكثيرون الذين يعسر عدُّهم، والذين يستعبدون ويذلّون في مصر.

العهد الرابع: لمّا كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة[٣]. وهو صريح أيضاً في أنّ المراد من النسل هم الكثيرون في أجيالهم.

وكذا **العهد الخامس** : فإنّه بهذا التأريخ وهذا المعنى[٤].

العهد السادس: حينما عزم إبراهيم على ذبح إسحاق قرباناً[٥]. وهو أيضاً صريح في أنّ المراد من النسل هم الكثيرون الذين هم كنجوم السماء وكالرمل.

وليس في هذه المواعيد لفظ: «في نسلك» الذي يتشبّث به كلام غلاطية إلّا في الموعد الأخير. ولكن ما شئت فابذل جهدك وسعيك في تطبيق كلام غلاطية المنسوب إلى بولس على أحد المواعيد التي ذكرناها، من حيث اللفظ أو المعنى أو التأريخ:

أمّا الوعد الأوّل فليس فيه ذكر للنسل أصلاً.

وأمّا المواعيد الأربعة التي بعده فليس فيها لفظ: «في نسلك»، بل ذكر النسل بعبارة أُخرى صريحة في أنّ المراد من النسل هم الكثيرون في أجيالهم.

---

١. وهو في سفر التكوين ١٣: ١٥ ـ ١٦.

٢. سفر التكوين ١٥: ٥ ـ ١٩.

٣. سفر التكوين ١٧: ٧ ـ ٨.

٤. سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٣.

٥. سفر التكوين ٢٢: ١٦ ـ ١٩.

وأمّا الوعد السادس فإنّه وإن كان فيه لفظ: «في نسلك» لكنّه صريح في أنّ المراد من النسل هم الكثيرون كنجوم السماء وكالرمل ولا يمكن تطبيق تقويمه على كلام غلاطية.

فإذن ليس في التوراة كلام ينطبق عليه الكلام الذي سمعته عن غلاطية لا من حيث المعنى ولا من حيث التقويم، حتّى بالتقويم الذي اضطرب في دعاويه المتكلّف، مضافاً إلى أنّه جاء أيضاً في الرسائل المنسوبة إلى بولس، ماهو صريح في أنّ المراد من النسل في مواعيد إبراهيم هم الكثيرون. وإن زعم أنّ المراد منهم أولاد الموعد لا أولاد الجسد[١].

وأظنّ أنّ كاتب رسالة روميّة لم يطّلع على رسالة غلاطية، أو بالعكس. والحاصل: أنّ كلام غلاطية زيادة على غلطه في المعنى، فهو مناقض لتقويم التوراة، كما ذكرناه أوّلاً[٢].

المقام الثالث من اختلاف العهدين: جاء في إنجيل متّى قوله:

> حينئذٍ تمّ ما قيل بإرميا النبيّ القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضّة ثمن المُثمَّن الذي ثَمّنُوه من بني إسرائيل، وأعطوها عن حقل الفَخّاري كما أمرني الربّ[٣].

هذا، مع أنّ هذا المنقول لا يوجد في كتاب إرميا. نعم، يوجد له مشابه في بعض المفردات في كتاب زكريّا، وهو قوله:

> فوزنوا أُجرتي ثلاثين من فضّة، فقال لي الربّ ألقها إلى الفخّاري الثمن الكريم الذي ثَمّنت عليهم فأخذت الثلاثين الفضّة وأرسلتها إلى الفخّاري في بيت الربّ[٤].

وأنت ترى أنّه لا مماثلة من حيث المعنى ولا التركيب بين ما ذكرنا عن متّى وما ذكرناه عن زكريّا، وإنّما توجد المماثلة بين بعض المفردات مثل: «ثلاثين». و«فضّة». و«ثمن». و«الذي». و«الربّ».

---

١. رسالة بولس إلى أهل روميّة ٩: ٧ ـ ٨.

٢. تقدّم في ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

٣. إنجيل متّى ٢٧: ٩ ـ ١٠.

٤. سفر زكريّا ١١: ١٢ ـ ١٣.

فإن أغمضنا عن مسخ التركيب والمعنى، فقد غلط كاتب الإنجيل في نسبته إلى إرميا وهو في كتاب زكريّا. أو غلط كتّاب العهد القديم؛ إذ جعلوه في كتاب زكريّا وهو من كتاب إرميا.

وإن أغمضنا عن الغلط في النسبة، فقد غلط كاتب الإنجيل في مسخ التركيب وتبديل الاسم، أو غلط العهد القديم في نقل الكلام على وجهه.

نقل إظهار الحقّ في الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الثاني من الباب الثاني عن كتاب واردكاتلك عن كتاب مسترجويل: أنّ متّى غلط فكتب «إرميا» موضع «زكريّا». وعن هورن في تفسيره اعترافه بأنّ في هذا النقل إشكالاً جدّاً من أجل عدم وجوده في إرميا وعدم مطابقته لما في زكريّا.

ونقل عن بعض المحقّقين بناءهم على أحد أمرين: إمّا تبديل الكتّاب لزكريّا بإرميا غلطاً، وإمّا أنّ لفظ إرميا ألحقه الكتّاب غلطاً. ثمّ قوّى هورن هذا الأخير.

ونقل إظهار الحقّ عن بعض مفسّريهم أنّه وجّهه بالوجه الأوّل. وعن ابن ساباط أنّ بعض قسّيسيهم اعترف بأنّ متّى كتب هذا اعتماداً على حفظه بدون مراجعة للكتب فوقع في الغلط. وقال بعضهم: لعلّ زكريّا يكون مسمّى بإرميا أيضاً[1].

والمتكلّف[2] من شدّة عناده للحقّ ـ أو من كثرة علمه! ـ نسب إظهار الحقّ إلى الهذيان حيث نقل الحيص والبيص من علماء النصارى في هذا المقام.

وليت شعري لماذا حمل على إظهار الحقّ قصاص علماء النصارى ومفسّريهم إذا نطقوا في اضطرابهم ببعض الصواب الباهظ لضلال الأهواء؟ فهل يقول المتكلّف: إنّ عدل الله وقداسته ومقته للخطيئة والخطأ والخبط والغلط، اقتضى أن يكون إظهار الحقّ فادياً لمتّى والمفسّرين؟

دع هذا، فإنّ المتكلّف زاد في الخبط والاضطراب في هذا المقام. فزعم أوّلاً: أنّ من اصطلاحات علماء اليهود القديمة أنّهم كانوا يقسمون الكتب المقدّسة إلى ثلاثة أقسام.

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

٢. الهداية ٣: ٢٧١.

القسم الأوّل: شريعة موسى، وكانوا يسمّونها «الشريعة».

والقسم الثاني: المزامير.

والقسم الثالث: قسم الأنبياء، ويسمّى إرميا، من إطلاق الجزء على الكلّ. وسبب تسمية قسم الأنبياء بإرميا هو أنّهم ذكروا نبوّاته أوّل الأنبياء على هذا الترتيب، وهو إرميا وحزقيال وإشَعْياء، ثمّ نبوّات الاثني عشر نبيّاً صغيراً[١].

قلت: يحكى أنّ بعض الكذّابين أوصى ولده وقال له: إذا كذبت فاستشهد بالأموات. كيف وإنّ الموجود من العهد القديم العبراني هو أنّهم ذكروا بعد أسفار التوراة حصّتين سمّوا الأُولى: «نبيايم راشونيم» أي الأنبياء الأوّلين، وهي ستّة كتب أوّلها: كتاب يوشع وآخرها: الملوك الثاني. وسمّوا الحصّة الثانية: «نبيايم احرونيم» أي الأنبياء الآخرين، وهي خمسة عشر كتاباً أوّلها كتاب إشَعْياء وآخرها كتاب ملاخي. ثم ذكروا بعد ذلك حصّة سمّوها: كتوبيم، وهي ثلاثة عشر كتاباً، أوّلها المزامير «تهليم» وآخرها أخبار الأيّام الثاني. فليس في العهد القديم العبراني حصّة أوّلها كتاب إرميا، ولا حصّة تسمّى إرميا، واليهود لا يعرفون ذلك عن سلفهم. وإنجيل متّى لم يقل بالأنبياء، بل قال: «بإرميا النبيّ القائل» وهذا كالصراحة بإرادته كتاباً واحداً.

ولو خادعنا نفوسنا وسلّمنا دعوى المتكلّف في اصطلاحات اليهود القديمة، وأعرضنا عن دلالة اللفظ، لقلنا: إنّ إنجيل متّى لم يجر على هذا الاصطلاح المكذوب، بدليل أنّه قال: «لكي يتمّ ما قيل بالنبيّ»[٢] وهو يعني بذلك كتاب المزامير؛ فإنّ قسم المزامير لا يسمّى عند اليهود بالنبيّ ولا الأنبياء، لا في الاصطلاح المكذوب، ولا في الاصطلاح المعروف، بل يسمّى: «تهليم».

فإن قلت: إنّ استشهاد إنجيل متّى بما ذكرته عن المزامير غير ثابت، بل ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الفقرة المشار إليها يجب حذفها؛ لأنّها ليست في المتن وإنّما هي

---

١. المصدر: ٢٧٢.

٢. إنجيل متّى ٢٧: ٣٥.

مأخوذة من إنجيل يوحنّا[١]. ولذا جعلوها في إنجيل متّى بين خطّين هلاليّين.

قلت أوّلاً: إنّ المتكلّف يعترف[٢] بأنّ هذه الفقرة في إنجيل متّى ثابتة في النسخ المعتبرة والقراءات الصحيحة.

وثانياً: إنّك لم تأت في هذا بشيء إلّا أنّك جلبت على الإنجيل مصيبة أُخرى، وهي أن تكون مثل هذه الفقرة الطويلة زائدة فيه من عبث التصرّف.

وزعم المتكلّف ثانياً أنّ كلمة «إرميا» تكتب باللغة اليونانيّة: «ايريو» وكلمة زكريّا «زيريو» بتغيير الألف إلى زاي فقط، فنشأ هذا الاختلاف.

قلت: إذن فيحقّ أن يصنع التنوير والاحتفال لإتقان الإنجيل في لغته وكتابته، وللمتكلّف في رؤياه النبويّة.

وزعم ثالثاً بأنّ البعض ذهب إلى أنّ إرميا هو الذي تكلّم بهذه الكلمات، وأنّ زكريّا نقل عنه.

قلت: دع عنك أنّ سَوق الكلام في كتاب زكريّا يأبى ذلك ويبطل هذه الدعوى، ولكن كان على هذا البعض؛ إذ تنبّأ من هواه بهذا الغيب، أن يتمّ الإصلاح لنقل إنجيله فيتنبّأ ويقول: إنّ العبارة الأصليّة لإرميا موافقة لعبارة متّى، وإنّ الخطأ وقع في نقل زكريّا.

المقام الرابع [من اختلاف العهدين]:

وأيضاً جاء في العهد القديم أنّ بلعام هو ابن بعور بالعين قبل الواو[٣].

وجاء في العهد الجديد «بلعام بن بصور»، بالصاد قبل الواو[٤].

ولا تصغ إلى اعتذار المتكلّف في مثل هذا بتقارب الحروف؛ فإنّ الفرق في الخطّ

---

١. إنجيل يوحنّا ١٩: ٢٤.

٢. الهداية ٣: ٢٧٤.

٣. سفر العدد ٢٢: ٥؛ سفر التثنية ٢٣: ٤؛ سفر يشوع ١٣: ٢٢؛ سفر ميخا ٦: ٥.

٤. رسالة بطرس الثانية ٢: ١٥.

العبراني بين العين والصاد من أوضح ما يكون في الفرق بين الحروف، إلّا أن يقول: إنّ كاتب العهد الجديد لا يحسن أن يميّز ما بين الحروف. فقل له: إذن فقد وقع كتبة العهد القديم بمثل ذلك، حيث اعتذرت عن اشتباههم مراراً بتقارب الحروف. فلماذا قسم الطالع للعهدين بالكتبة الذين لا يميّزون بين الحروف؟

ولا تلتفت إلى نبوّاته الأهوائيّة إذا ادّعى باطلاً أنّ بعور لمّا تزوّج، أو لمّا نبتت لحيته، أو لمّا شاب، أو لمّا ارتفع بعد الضعة، أو لمّا اتّضع بعد الرفعة، صار اسمه «بصور» بالصاد، كما يلتجئ إلى مثل هذا الخبط عند ما يضيق به الخناق كما ادّعاه[1] لمّا سمّى العهد القديم أُمّ سليمان النبيّ مرّةً: «بتشبع بنت اليعام»[2]، ومرّة: «بتشوع بنت عميئيل»[3]، وادّعاه أيضاً في كتابه في كثير من اختلاف العهد القديم.

المقام الخامس في اختلاف ذات الأناجيل فيما بينها في التأريخ:

ولنكتف من ذلك بما ذكرناه في الجزء الأوّل[4]، فراجعه؛ فإنّه يشتمل أيضاً على القسم الأوّل، وهو اختلاف ذات الكتاب الواحد في تأريخه.

المقام السادس في اختلاف كتب العهد القديم فيما بينها في التأريخ:

في سفر الملوك الثاني: «ابن اثنتين وعشرين سنة أَخَزْيا هو عند ملكه وسنة واحدة ملك بأُورشليم واسم أُمّه عثليا بنت عمري ملك إسرائيل»[5]. وجاء في سفر الأيّام الثاني:

> ابن اثنتين وأربعين سنة أَخَزْيا هو عند ملكه وسنة واحدة ملك بأُورشليم واسم أُمّه عَثَليا بنت عمري[6].

---

١. الهداية ٢: ١٢٨.

٢. سفر صموئيل الثاني ١١: ٣.

٣. سفر الأيّام الأوّل ٣: ٥.

٤. تقدّم في ج ١، ص ٢٣ ـ ٢٦.

٥. سفر الملوك الثاني ٨: ٢٦.

٦. سفر الأيّام الثاني ٢٢: ٢.

فزاد تأريخ سفر الأيّام على تأريخ سفر الملوك عشرين سنة، مع أنّ ما في سفر الأيّام لا يكاد أن يصحّ؛ لنصّ العهد القديم على أنّ أباه يهورام مات وهو ابن أربعين سنة، وأنّ أَخَزْيا صار ملكاً سنة موت أبيه[١]، وعلى هذا يلزم أن يكون أَخَزْيا أكبر من أبيه بسنتين.

قال المتكلّف:

المراد بقوله ـ يعني الأيّام الثاني[٢] ـ: اثنتين وأربعين سنة أي من دولته، وأنّه صار للدولة التي هو منها ٤٢ سنة، وكان عمره نحو اثنتين وعشرين سنة[٣].

قلنا: سامحنا المتكلّف في دعواه التي لا يرتضيها لنفسه كلّ مؤرّخ يعرف من لحن الكلام والتأريخ موطئ قدمه، ودعه يرضى مثل ذلك لأنبيائه وكتب وحيه، وإن خالفه أُسلوب كلّ التأريخ المذكور في العهد القديم. ولكن قل: أيّ وقت من الدولة يأخذه مبدأً للاثنتين وأربعين سنة؟

فإن كان ابتداء دولة أبيه يهورام، فإنّه يكون ابن ثمان سنين. وإن كان ابتداء دولة جدّه يهوشافاط، فإنّه يكون ابن ثلاث وثلاثين سنة. وإن كان ابتداء دولة جدّ أبيه آسا، فإنّه يكون ابن أربع وسبعين سنة.

أم يقول: إنّ الوحي اشتهى سنة من السنين فجعلها مبدأً للتأريخ، وعلى كلّ حال فلا غلط ولا خبط ولا اختلاف.

ثمّ قال ثانياً:

قرئ عوضاً عن ٤٢ سنة ٢٢، وعليه فلا لزوم إلى التأويل. وسبب اختلاف القراءة هو أنّ العبرانيّين كانوا يستعملون الأحرف للدلالة على الأعداد، وبما أنّه يوجد تشابه بين الحرف الدالّ على العدد ٢ والحرف الدالّ على العدد ٤ نشأ هذا الاختلاف في القراءة وهو أمر نادر جدّاً في كتاب الله، وهو يكاد أن يكون كالمعدوم[٤].

---

١. فانظر إلى سفر الملوك الثاني ٨: ١٧ و ٢٥؛ سفر الأيّام الثاني ٢١: ٢٠.

٢. سفر الأيّام الثاني ٢٢: ٢.

٣. الهداية ١: ٢٨٢.

٤. المصدر: ١٨٣.

قلت أوّلاً: إنّ اليهود وإن كانوا ربما يشيرون إلى العدد بالحروف، ولكنّه لا أثر لذلك في متن العهد القديم العبراني، بل إنّ جميع أعداده مذكورة باللفظ الصريح حتّى في هذا المقام. إلّا أن يقول المتكلّف: إنّ المتن العبراني كالحِرباء يبرز كلّ زمان بلون.

وثانياً: إنّ إشارتهم إلى العدد إنّما هي بحروف «أبجد» الكبير، الذي تكون فيه مراتب العدد محفوظة في ذات الحرف لا بموقعه في الصفّ، كما هو في الإشارة بالأرقام. فالمتكلّف غلط في قوله: «تشابه الحرف الدالّ على العدد ٢ والحرف الدالّ على العدد ٤». بل الاشتباه في مثل المقام يكون بين الحرف الدالّ على عشرين وهو الكاف، والحرف الدالّ على أربعين وهو الميم.

وثالثاً: إنّ الباء والدال والكاف والميم في الخطّ العبراني متباعدة في الشكل، كتباعدها في الخطّ العربي أو أكثر، فلا يَشتَبِه بها إلّا من لا يميّز من الخطّ إلّا السواد على البياض فقرّت عين المتكلّف بكتبه وكَتَبتها وقُرّائها وحَمَلَتها.

ورابعاً: إنّ قوله: «وهذا نادر جدّاً في كتاب الله» إنّما هو قول من لا خبرة له في كتابه، أو قول من لا يبالي بدعاويه الوقتيّة وإن قدّم وأخّر ما ينقضها. كيف لا وقد تشبّث باشتباه الحروف وتقاربها في الاعتذار عن كثير من أغلاط العهدين فانظر الجزء الأوّل[١]. كما اعتذر بذلك[٢] عن اختلاف العهد القديم في نحو: «تاريع» و«تحريع» و«بنعة» و«ينعة» و«يهوعده» و«يعره». على أنّا قد ذكرنا لك في التمهيد[٣]، أنّ الحواشي قد ذكرت من أغلاط الحروف في المتن العبري ما يزيد على الألف، مع أنّها قد أهملت من ذلك الكثير. ولكنّ المتكلّف لا يبالي أن يقول مع ذلك: وعلى كلّ حال فلا اشتباه بالحروف في كتاب الله.

وأيضاً جاء في الملوك الثاني: ابن ثماني عشرة سنة يَهُوياكِين عند ملكه وثلاثة أشهر ملك بأُورشليم[٤].

---

١. المصدر: ٢١١.

٢. المصدر: ١٨٠.

٣. تقدّم في ص ٤٧٢ وما بعدها.

٤. سفر الملوك الثاني ٢٤: ٨.

وجاء في الأيّام الثاني: ابن ثماني سنين يهوياكين عند ملكه وثلاثة أشهر وعشرة أيّام ملك بأورشليم[١]. فاختلف التأريخان في عمره عند ملكه بعشر سنين.

وقال المتكلّف:

لمّا كان عمره ثماني سنين أشركه معه والده في الحكم ليمرّنه ويدرّبه على السياسة والإدارة، ومع ذلك فلم يملك رسمياً، إلّا لمّا كان عمره ثماني عشرة سنة[٢].

قلت: دع عنك أنّ هذه الدعوى تقوُّل بلا أثر يشهد لها، وإنّما أوردها على اللسان والقلم ذلك الروح المذكور[٣]. ولكن ما يصنع المتكلّف والمرسلون الأمريكان بقول الأيّام الثاني:

ابن خمس وعشرين يهوياقيم عند ملكه وإحدى عشرة سنة ملك بأُورشليم وملك يَهُوياكِين ابنه عوضه. ابن ثماني سنين يهوياكين عند ملكه وثلاثة أشهر وعشرة أيّام ملك بأُورشليم[٤].

وطابق أنت هذه العبارات مع [سفر الملوك الثاني][٥] فإنّه لو كان المراد كما يزعمه المتكلّف هاهنا، لكان نبيّه ووحيه قد غلطا في قولهما: «إنّ يهوياكين ملك عوض أبيه» بل كان عليهما أن يقولا: معه. وغلطا في قولهما: إنّ يهوياكين ملك ثلاثة أشهر وعشرة أيّام. بل كان عليهما أن يقولا: عشر سنين وثلاثة أشهر وعشرة أيّام. فلا يصحّ لسفر الأيّام إلّا أن يريد في جميع كلامه ملك يهوياكين الرسمي بعد أبيه.

المقام السابع في اختلاف كتب العهدين فيما بينها في التأريخ:

جاء في صموئيل الثاني:

هذه أسماء الأبطال الذين لداود: يُوشَيب بَشَّبَتُ التَحَكْمُوني رئيس الثلاثة هو هزّ

١. سفر الأيّام الثاني ٣٦: ٩.

٢. الهداية ١: ١٨٣.

٣. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٢٢؛ سفر الأيّام الثاني ١٨: ٢١.

٤. سفر الأيّام الثاني ٣٦: ٥ و ٨ـ ٩.

٥. سفر الملوك الثاني ٢٣: ٣٦و ٦٤: ٦ و ٨.

قناته على ثمانمائة قتيل دفعة واحدة. وبعده أَلِعازار بن ددي بن أخُوخي. وبعده شَمّة بن أجِي هاراري فاجتمع الفلسطينيّون جيشاً وكانت هناك قطعة مملوءة عدساً[١].

وجاء في الأيّام الأوّل في هذا الموضوع:

وهذا عدد الأبطال الذين لداود: يا شابعام بن حَكْمُوني رئيس الثوالث هو هزّ رمحه على ثلاثمائة قتيل دفعة واحدة. وبعده ألعازار بن دودو الأخُوخي... والفلسطينيّون اجتمعوا هناك للحرب وكانت قطعة الحقل مملوءة شعيراً[٢].

فاختلف الكتابان في نقل القصّة الواحدة في أُمور:

١. يُوشَيب بشَّبثُ، ويا شبعام.

٢. التحكموني، بن حكموني.

٣. ثمانمائة قتيل دفعة واحدة، ثلاثمائة قتيل دفعة واحدة.

٤. ددي بن أخوخي، دودو الأخوخي.

٥. مملوءة عدساً، مملوءة شعيراً.

وحاصل ما عند المتكلّف في هذه الورطة ثلاث دعاوٍ تزيد في الطنبور نغمة:

١. إنّ العَلَم قد يكون مركّباً من اسم فاعل وجار ومجرور، فإنّ بشبث الرابض في مكانه.

٢. إنّ أحد النبيّين ذكر ٣٠٠ عدد المقتولين. والثاني ذكر ٨٠٠ عدد المقتولين مع الجرحى والهاربين.

٣. أن يكون العددان في حادثتين مختلفتين[٣].

فنقول أوّلاً: هب أنّ بشبث عَلَم مركّب، ولكن ما وجه التوفيق بذلك بينه

---

١. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٨ ـ ١١.

٢. سفر الأيّام الأوّل ١١: ١١ ـ ١٣.

٣. انظر الهداية ١: ١٨٤، و ٣: ٢٢٩.

وبين يوشيب وبين ياشبعام؟ وما وجه التوفيق بين وصفه بالتحكموني وبين جعله ابن حكموني؟

وثانياً: إنّ كلا الكتابين قالا: ٣٠٠ و ٨٠٠ قتيل دفعة واحدة. ولفظ ذلك في الأصل العبراني في كلا الكتابين: «حالال» وهو القتيل[١]. فهل يقول المتكلّف: إنّ أحد النبيّين جهل الحقيقة فعدّ الجرحى والهاربين من قسم القتلى؟ ولعلّه يقول ذلك لكي يحامي عن كتبه المملوءة غلطاً، والتي لا تعرف الأنبياء ولا يعرف الأنبياء صورتها المستحدثة.

وثالثاً: إنّ كلّ من يفهم ما يقول وما يسمع وما يقرأ لَيعلم أنّ المراد من صموئيل الثاني[٢] هو المراد من الأيّام الأوّل[٣]. كما يعلم أنّ العازار بن دُدي بن أخوخي، هو الذي قيل فيه العازار بن دودو الأخوخي. وأنّ العدس هو الذي قيل فيه شعير. وكما يعلم أيضاً من صموئيل الثاني بأنّ شمّة الحرودي[٤]، هو المذكور في الأيّام الأوّل شموت الهروري[٥]. وحالَص الفَلْطي[٦] هو حالص الفلوني[٧]. وخالب بن بعنة[٨] هو خالد بن بعنة[٩]. وهدّي من أودِية جاعَش[١٠] هو حوري[١١]. وأخِيآم بن شَارار الأراري[١٢] هو أخِيآم بن ساكار الهَراري[١٣].

١. انظر سفر التثنية ٢١: ١ و ٣ و ٦؛ سفر صموئيل الأوّل ٣١: ١ و ٨؛ سفر الأيّام الأوّل ١٠: ٨.
٢. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٨ ـ ٣٩.
٣. سفر الأيّام الأوّل ١١: ١٠ ـ ٤٧.
٤. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٢٥.
٥. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٢٧.
٦. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٢٦.
٧. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٢٧.
٨. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٢٩.
٩. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٣٠.
١٠. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٣٠.
١١. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٣٢.
١٢. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٣٣.
١٣. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٣٥.

ولو قابلت [سفر صموئيل الثاني][١] مع [سفر الأيّام الأوّل][٢]، لوجدت الاختلاف الفاحش في الأسماء، مع أنّ المقامين متصدّيان لذكر أمر واحد.

ولا يخفى عليك أنّ هذا كلّه من الغلط الذي أشرنا إليه آنفاً.

المقام الثامن في اختلاف الكتاب الواحد من العهد القديم:

جاء في الملوك الثاني: أنّ أَخَزْيا بن أَخْآب ملك إسرائيل مات، ومَلَك عوضه أخوه يَهورام بن أَخْآب في السنة الثانية ليَهُورام بن يَهُوشافاط ملك يهوذا[٣].

وجاء فيه أيضاً:

> وفي السنة الخامسة ليَهُورام بن أَخْآب ملك إسرائيل، ويَهُوشافاط ملك يهوذا، مَلَك يَهُورام بن يَهُوشافاط ملك يهوذا[٤].

وإذا كان يَهُورام بن يَهُوشافاط قد مَلَك في السنة الخامسة لملك يهورام بن أَخْآب، فكيف يكون يهورام بن أَخْآب مَلَك في السنة الثانية لملك يَهُورام بن يَهُوشافاط؟! ودع باقي المناقضات في الملوك الثاني، وبينه وبين الأيّام الثاني في تأريخ هذين الملكين ويهوشافاط. ودع المترجمين يسقطون ويُحَرِّفون ما شاؤوا حيث لا يقبل منهم ولا يُجدِيهم.

وقد أدّى بنا التطويل في هذا المقام إلى السأم، وفي هذا الأُنموذج كفاية، وليس الغرض من هذا المقام هو الاستقصاء؛ فإنّه يحتاج إلى كتاب برأسه. بل وليس الغرض بيان أغلاط المتكلّف في كلّ ما أجاب به إظهار الحقّ، ولعلّما نستطرد في المباحث الآتية كثيراً من ذلك إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

---

١. سفر صموئيل الثاني ٢٣: ٢٤ ـ ٣٩.

٢. سفر الأيّام الأوّل ١١: ٢٦ ـ ٤٧.

٣. سفر الملوك الثاني ١: ١٧.

٤. سفر الملوك الثاني ٨: ١٦.

فلنشرع بعون الله فيما هو المقصود في الفصل الرابع الذي قدّمنا لأجله هذا التمهيد:

[آيات خلق السماوات والأرض]

قال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة حم فصّلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

واعترض المتعرّب[2] على هذه الآيات باعتراضين:

[الاعتراض] الأوّل: زعمهُ أنّه يتحصّل من الآيات الكريمة المذكورة أنّ خلق الأرض والسماوات كان في ثمانية أيّام ـ وذلك لمكان يومين وأربعة أيّام ويومين ـ ثمّ زعم أنّه منقوض في سبعة مواضع من القرآن بمامعناه أنّه ـ جلّ شأنه ـ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام[3] لا ثمانية.

قلت: لا يخفى أنّ الجبال جزء من الأرض التي خلقت في يومين، وهي مخلوقة بخلق الأرض، ولكن جرى التنصيص على ذكرها للامتنان بجعلها على الأرض لما فيها من الفوائد ودفع المضارّ، كما أشرنا إليه في الجزء الأوّل[4]. ولم يقل جلّ اسمه: «وخلق فيها رواسي» بل قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وذلك لئلّا يتوهّم أنّ خلق الجبال كان منفصلاً عن خلق الأرض في اليومين، بل لينبّه على أنّ الجبال من المخلوق في اليومين، وجرى التنصيص عليها للامتنان بحكمتها الظاهرة. فيكون ذكر جعل الجبال

---

١. فصّلت (٤١): ٩ـ١٢.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٤٤.

٣. الأعراف (٧): ٥٤؛ يونس (١٠): ٣؛ الفرقان (٢٥): ٥٩؛ السجدة (٣٢): ٣؛ ق (٥٠): ٣٨؛ الحديد (٥٧): ٤.

٤. تقدّم في الجزء الثاني ـ حسب تجزئتنا ـ ص ٤٦١.

بمنزلة الإعادة لذكر الخلق المتقدّم في الآية الأُولى ؛ لأنّ جعل الجبال كان من جملتها. وهذا ممّا لا ينبغي أن يخفى.

فيكون قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ بمنزلة قوله تعالى: «خلقها» مع جبالها الراسية النافعة ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فيكون اليومان داخلين في الأربعة، فتتمّ فائدة التفصيل والبيان والتمجّد بالقدرة والامتنان، بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وبيانه ـ جلّ شأنه ـ بقوله تعالى: إنّهُ خلقها وجَعَلَ فيها رواسي وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام.

الاعتراض الثاني: هو أنّ الآيات المذكورة تدلّ على أنّ خلق السماوات كان بعد خلق الأرض. فزعم أنّه منقوض بقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَـٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَـٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَـٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَـٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَـٰهَا * مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾[1].

قلت: منشأ توهّم المتعرّب في زعمه هذا أمران:

أحدهما: توهّمه أنّ قول الله ـ جلّ شأنه ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ معطوف ومرتّب على قوله ـ تبارك اسمهُ ـ: ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

وليس كما توهّم، بل إنّه معطوف على قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

وثانيهما: توهّمه أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَـٰهَآ﴾ بمعنى أنشأ خلقها.

وليس كما توهّم، بل إنّ معنى قوله تعالى: ﴿دَحَـٰهَآ﴾ مَهَّدها وأعدّها للسكنى، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها، وأخرج منها ماءَها ومرعاها متاعاً للناس ولأنعامهم. ولو اعتمدنا على الهيئة الجديدة، لفهمنا من قوله تعالى: ﴿دَحَـٰهَآ﴾ أنّه سخَّرها للحركة الأينيّة في الدوران على الشمس، بعد أن خلق الشمس في جملة السماوات وأودع فيها القوّة الجاذبة. فيكون قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَـٰهَا﴾ حالاً من الضمير البارز

---

١. النازعات (٧٩): ٢٧ ـ ٣٣.

في ﴿دَحَىٰهَآ﴾ كما أنّه يكون على المعنى الأوّل بدلاً من قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾.

فيكون حاصل الآيات السابقة هو أنّ الله ـ جلّت قدرته ـ خلق الأرض وأنشأها في يومين، ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات في يومين، وخلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة تامّة في العدد، وإن كانت مفصولة بوقوع خلق السماوات بين خلق الأرض وبين البركة فيها وتقدير أقواتها.

وممّا يرشد من نفس الآيات إلى أنّ يومي خلق الأرض مفصولان عن يومي البركة فيها وتقدير أقواتها، هو قوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي أربعة تامّة العدد فيما يتعلّق بالأرض، وإن كانت مفصولة بخلق السماوات، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[1] أي كاملة في العدد وإن كانت مفصولة بمدّة الرجوع إلى الوطن.

فإن قلت: فلماذا لم يجر البيان على نَسَق التكوين والتقدير؟

قلت: ليجري البيان والامتنان في النظام الأرضي في تكوينهاوتقدير أقواتها مطّرداً في نسق واحد، وينتظم فيه التقدير بأربعة أيّام؛ فإنّه لا يخفى أنّ أذهان عامّة البشر أقرب إلى الالتفات إلى تأثير النعم الأرضيّة في قوام حياتهم وقرار تَعَيُّشهم، وأمّا النعم السماويّة فلا يلتفت إلى حقيقة مداخلتها في ذلك بما لها من التسبيب إلّا الخواصّ.

فإن قلت: قد قدّمت أنّ خلق الجبال كان في جملة خلق الأرض في اليومين قبل خلق السماوات؛ إذن فماذاتقول في قوله تعالى في السادسة من الآيات الأخيرة: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أفليس ذلك يدلّ على أنّ خلق الجبال كان بعد خلق السماء؟

قلت: إنّ إرساء الجبال ليس بمعنى خلقها، بل بمعنى تثبيتها وإعطائها قوّة الثبات في مَحَالّها حينما تحتاج إلى ذلك بواسطة الصوادم، أو حركة الأرض عند دحو الأرض وتقدير أقواتها، إذ كان من ذلك أن أودع بقدرته في جوفها الموادّ البخاريّة والناريّة السيّارة لتوليد معادنها ونباتها وتصعيد مياهها، فمنح الله الجبال قوّة إرسائها،

١. البقرة (٢): ١٩٦.

فلا يزعزعها ويلاشيها ما قدّر الله خروجه منها من الموادّ البخاريّة والناريّة السيّارة في جوف الأرض، لكي تدوم بذلك حكمة خلقها، كما أشرنا إليه في الجزء الأوّل[١]. وجعلها راسية عندما دحا الأرض بالحركة الوضعيّة أو الأينيّة، فدبّت فيها الحرارة السيّارة وتوجّهت إلى الخروج من الجبال.

أو لهذا ولأنّها لا تنهال بواسطة الحركة وتتزعزع من مكانها، وذلك إمّا بقوّة كافية في ذلك كلّه، أو بأن جعل في طبيعتها الميل إلى مركز الأرض كما تقوله الفلسفة القديمة، أو بحبسها بإحاطة الهواء الثقيل المطلق، كما يقال في الفلسفة الجديدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[٢].

ولعلّما إلى نحو هذه الحركة يشير قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

واعترض المتكلّف على الآيات السابقة من سورة فصّلت أيضاً فقال:

ومن طالع الأصحاح الأوّل من سفر التكوين وجد أغلاطاً جمّة في عبارة القرآن. ففي اليوم الأوّل خلق الله النور، وفي اليوم الثاني خلق الله الجَلَد، وفي اليوم الثالث خلق الأرض وجعلها تنبت العشب، وفي اليوم الرابع خلق الشمس وفي اليوم الخامس خلق الله الطيور والزحّافات، وفي اليوم السادس خلق الله البهائم والوحوش وغيرها، وفي اليوم السابع خلق الله الإنسان. كما هو مذكور بالتفصيل في الأصحاح الأوّل من سفر التكوين[٤].

قلت أوّلاً: إن أردت أن تعرف حال التوراة التي يعترض بها، فانظر إلى ما ذكرنا في الصدر والتمهيد[٥]، مع ما أشرنا إليه في الجزء الأوّل. لكي تعرف ماهي عليه من تعدّد

١. تقدّم في الجزء الثاني ـ حسب تجزئتنا ـ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

٢. الطلاق (٦٥): ٣.

٣. النمل (٢٧): ٨٨.

٤. الهداية ٢: ١٠٨.

٥. تقدّم في ص ٤٧٢.

مواليدها ومسمّياتها ونشوئها وأحوالها وأسقامها، وإنكار المفسّرين المدقّقين لمضامينها وصراحتها، وشهادة جملة من المفسّرين بزيادتها ونقصانها، وإعراض قارئيها ومترجميها عن صورتها المشوّهة بالغلط والنقصان. ودع عنك ما ذكرنا في متفرّقات الكتاب، ممّا تتيقّن منه بأنّ هذه الصورة الموجودة لا تعرف كليم الله موسى عليه السلام ولا يعرفها.

وثانياً: إن أردت أن تعرف مقدار معرفة المعترض، فانظر إلى جهله بتوراته، فإنّها تقول:

> إنّ اليوم الثالث قال الله فيه: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه بحاراً[1].

وهذا لا يدلّ إلّا على أنّ الأرض كانت مخلوقة موجودة ولكنّها مغمورة بالمياه، فأمر الله المياه أن تنحسر عنها لكي تظهر بعد الانغمار.

وزيادة على ذلك أنّ توراته قد ذكرت قبل ذلك:

> أنّ الأرض كانت خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفرف على وجه المياه وقال الله: ليكن نور، ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً. وهو اليوم الأوّل[2].

وهذا يدلّ على أنّ الأرض مخلوقة قبل خلق النور في اليوم الأوّل.

وإنّ قوله: «وفي اليوم السابع خلق الله الإنسان» إنّما هو أيضاً جهل بصراحة توراته في هذا المقام وغيره؛ فإنّها تقول: «إنّ الله خلق الإنسان في اليوم السادس»[3]. «وإنّ الله تعالى فرغ في اليوم السابع واستراح من عمله»[4]. وتقول: «في ستّة أيّام صنع الربّ السماء والأرض والبحار وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع»[5].

---

١. سفر التكوين ١: ٩ ـ ١٠.

٢. انظر سفر التكوين ١: ٢ ـ ٥.

٣. سفر التكوين ١: ٢٦ ـ ٣١.

٤. سفر التكوين ٢: ٢ ـ ٣.

٥. سفر الخروج ٢٠: ١١ و ٢٣: ١٧.

ثالثاً: إن أردت أن تعرف تنافي التوراة واضطرابها في المقام الذي يعترض به فاعرف ذلك أقلّاً من أربعة موارد:

١. قد تقدّم أنّ توراته تدلُّ على أنّ الأرض كانت خربة وخالية قبل خلق النور الذي حدث منه اليوم الأوّل، وأنّها في اليوم الثالث ظهرت من تحت الماء بسبب اجتماع المياه إلى مكان واحد.

وهذا منافٍ لقولها: «فأُكمِلت السماوات والأرض وكلّ جندها وفرغ الله في اليوم السابع»[1] وقولها: «هذه تولّدات السماوات والأرض عند خلقها»[2]؛ فإنّها لم تؤرّخ خلق الأرض، بل مقتضاها أنّ خلق الأرض قبل الستّة أيّام، وقبل خلق النور الذي تميّزت به الأيّام.

٢. وإذا كان خلق الأرض هكذا، وظهورها من الماء في اليوم الثالث، وذكرت خلق السماء في اليوم الثاني.

فهذا معاً منافٍ لقولها: «هذه تواليد السماوات والأرض عند خلقها» بيوم عمل الربّ الإله الأرض والسماوات فكيف تجمع خلقها بيوم واحد مع أنّها تذكره في أيّام متفرّقة؟

٣. ذكرت:

أنّ الله ـ جلّت قدرته ـ في اليوم الأوّل خلق النور وفصل بين النور والظلمة ودعا النور نهاراً والظلام ليلاً وكان مساء وكان صباح[3].

وهذا منافٍ لقولها: إنّ الله في اليوم الرابع خلق الأنوار لتفصل بين الليل والنهار ولتحكم على الليل والنهار وتفصل بين النور والظلمة[4].

٤. ذكرت: أنّ الله أنبت العشب والبقل والشجر المثمر في اليوم الذي عمل فيه الأرض بأن أظهرها من تحت الماء وهو اليوم الثالث[5].

---

١. سفر التكوين ٢: ١ ـ ٢.

٢. سفر التكوين ٢: ٤.

٣. سفر التكوين ١: ٣ ـ ٥.

٤. سفر التكوين ١: ١٤ ـ ١٩.

٥. سفر التكوين ١: ٩ ـ ١٣.

وهذا منافٍ لقولها:

كلّ شجر البريّة لم يكن بعد في الأرض وكلّ عشب البريّة لم ينبت بعد في الأرض؛ لأنّ الربّ الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض[١].

فإنّ هذا الكلام يدلّ على أنّ نبات الشجر كان موقوفاً على وجود الإنسان الذي يعمل الأرض. وهي تذكر أنّ الإنسان لم يُخلق إلّا في اليوم السادس، فأين قولها: «إنّ الشجر نبت في اليوم الثالث»؟ هذا مضافاً إلى كونها تذكر أنّ السماوات تفصل بين مياه ومياه من فوقها وتحتها[٢].

مع أنّ المتكلّف وقومه المعتمدين على الهيئة الجديدة يعدّون هذا من الخرافات.

وأيضاً صريح هذا المقام أنّ الله خلق النور والسماوات والشمس والقمر والكواكب والعالم الأرضي من نبات وشجر وحيوان، هذا كلّه وفيما بين خلقه وبين خلق آدم خمسة أيّام، وقبل ذلك لم يكن. وغالب قوم المتكلّف يعدّون هذا أيضاً من الخرافات.

أفبهذا الكتاب وهذه المعرفة وهذا المقام المتناقض المرفوض في مضامينه، يعترض المتكلّف على القرآن الكريم؟ نعم ولعلّه بسبب هذه المعارف يتوقّع من قومه مرتبة الأُسقفيّة الكبرى.

[آيات خلق الجانّ]

وقال الله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[٣] وفي سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٤].

فقال المتكلّف فيما قال:

والحقّ هو ماورد في كتاب الله من أنّه لا يوجد سوى الملائكة الأخيار والملائكة

١. سفر التكوين ٢: ٥.

٢. سفر التكوين ١: ٦ــ٨.

٣. الحجر (١٥): ٢٧.

٤. الرحمن (٥٥): ١٥.

الأشرار، أو أرواح طاهرة وأرواح شرّيرة، ولا وجود لشيء يقال له: جنّ، فالاعتقاد بوجود جنّ هو من الاعتقادات الوثنيّة[١].

قلنا: فاستمع لما في العهدين ممّا هو من هذا الذي نفى المتكلّف وجوده، وجعله من الاعتقادات الوثنيّة.

ففي التوراة:

لا تلتفتوا إلى الجانّ ولا تطلبوا التوابع فتتنجّسوا بهم[٢]. والنفس التي تلتفت إلى الجانّ والتوابع لتزني وراءهم أجعل وجهي ضدّ تلك النفس... وإذا كان في رجل أو امرأة جانّ أو تابعة فإنّه يقتل[٣].

«لا يوجد فيك... ولا من يسأل جانّاً أو تابعة ولا من يستشير الموتى»[٤].

وفي تأريخ مَنَسّى ملك يهوذا أنّه استخدم جانّاً وتوابع[٥]. وانظر إلى حديث صاحبة الجانّ مع شاول[٦]. واسم الجانّ في الأصل العبراني «أُوب» و «أُوبُت» واسم التابعة «يدّعني» والتوابع «يدّعنيم».

وأمّا العهد الجديد، فقد ذكر أنّ الأرواح النجسة حينما نظرت المسيح خرّت له وصرخت قائلة: «أنت ابن الله»[٧]. وصرخ الروح النجس قائلاً:

آه مالنا ولك يايسوع الناصري أتيت لتهلكنا أنا أعرف أنّك قدّوس اللهِ فانتهره يسوع قائلاً: اخرس واخرج[٨].

وأخرج شياطين كثيرة ولم يدع الشياطين يتكلّمون؛ لأنّهم عرفوه. أو لم يدعهم

---

١. الهداية ٢: ٨٢.
٢. سفر اللاويّين ١٩: ٤.
٣. سفر اللاويّين ٢٠: ٦ و ٢٧.
٤. سفر التثنية ١٨: ١٠ و ١١.
٥. سفر الملوك الثاني ٢١: ٦؛ سفر الأيّام الثاني ٣٣: ٦.
٦. سفر صموئيل الأوّل ٢٨: ٣ ـ ١٩؛ سفر الأيّام الأوّل ١٠: ١٣.
٧. إنجيل مرقس ٣: ١١.
٨. إنجيل مرقس ١: ٢٤ ـ ٢٥.

يقولون: إنّهم عرفوه[١]. وإنّ الروح النجس والشياطين لمّا رأى المسيح قال:

مالنا ولك يا يسوع ابن الله أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذّبنا؟ وطلبوا منه أن لا يأمرهم بالذهاب إلى الهاوية وأن يأذن لهم بالذهاب إلى قطيع الخنازير فأذن لهم وذهبوا إليه[٢].

فانظر إلى الصفات التي أثبتها العهد الجديد للأرواح النجسة، واعلم أنّه كلّما جاء في العهد الجديد المعرّب في حديث الأرواح النجسة بلفظ: «شيطان وشياطين» فقد ترجموه بالعبرانيّة بلفظ: «شد. وشديم». فظهر لك من العهدين أنّ الجانّ المذكور في العهد القديم هو نوع الجانّ والروح النجس، وشيطان وشد وشديم الواردة في العهد الجديد، هم أشرار الجانّ. وبذلك تعرف أنّه قد أخطأ سايل في قوله:

لا يختلف مذهب المسلمين في الجنّ عمّا يذهب إليه اليهود في نوع من الأرواح الخبيثة يطلقون عليه اسم «شديم»[٣].

وأمّا الشيطان الذي هو إبليس، فقد ترجموه في العهد الجديد بالعبرانيّة بلفظ «شطن» كما جاء بهذا اللفظ في العهد القديم العبراني[٤].

وأمّا خلق الجانّ من نار، فهو أمر ممكن، ولا طريق لإثباته ونفيه إلّا من جهة الوحي الإلهي، وقد أخبر الوحي بحقيقته فلا مساغ لإنكاره، خصوصاً للنصراني، فقد جاء في العهدين ما يخرس لسانه عن الاعتراض في ذلك ففيهما: الصانع ملائكته رياحاً وخدّامه ناراً ملتهبة، أو لهيب نار[٥]. فالقرآن الكريم ميّز الجانّ من الملائكة، وعيّن أنّ الجانّ هم المخلوقون من نار. فبيّن بذلك ما اختلط في العهدين في اسم الملائكة،

---

١. إنجيل مرقس ١: ٣٤٧؛ إنجيل لوقا ٤: ٤١.

٢. انظر إنجيل متّى ٨: ٢٨ ـ ٣٣؛ إنجيل مرقس ٥: ٦ ـ ١٤؛ إنجيل لوقا ٨: ٢٨ ـ ٣٤.

٣. مقالة في الإسلام: ١٤٤.

٤. سفر صموئيل الثاني ٢٤: ١؛ سفر أيّوب ١: ٦ ـ ٩ و ١٢ و ٢: ١ ـ ٤ و ٦ ـ ٧؛ سفر المزامير ١٠٩: ٦؛ سفر زكريّا ٣: ١ و ٢.

٥. سفر المزامير ١٠٤: ٤؛ الرسالة إلى العبرانيّين ١: ٧.

فجعلا منهم من خلق من نار، ومنهم أشرار[١]، ومنهم من طُرحوا في جهنّم[٢]، مقيّدين إلى يوم القضاء[٣].

فالذين سمّاهم المتكلّف تبعاً لعهديه بالملائكة الأشرار والأرواح الشرّيرة، هم قسم من الجانّ الذي يذكره القرآن الكريم.

بيلي والمتكلّف والأرواح النجسة

ذكر إظهار الحقّ في الوجه الرابع عشر من الفصل الرابع من الباب الأوّل نقلاً عن ص ٣٢٣ من الكتاب المطبوع سنة ١٨٥٠ م من تصنيف «بيلي» من محقّقي البروتستنت ما لفظه:

ولا نقول في الأشياء التي هي أجنبيّة من الدين صراحة، لكن يقال في الأشياء التي اختلطت بالمقصود اتّفاقاً قولاً ما، ومن هذه الأشياء تسلّطن الجنّ والذين يفهمون أنّ هذا الرأي الغلط كان عامّاً في ذلك الزمان، فوقع فيه مؤلّفو الأناجيل واليهود الذين كانوا في ذلك الزمان. فلا بدّ أن يقبل هذا الأمر، ولا خوف منه في صدق الملّة المسيحيّة؛ لأنّ هذه المسألة ليست من المسائل التي جاء بها عيسى، بل اختلطت بالأقوال المسيحيّة اتّفاقاً بسبب كونها رأياً عامّاً في تلك المملكة وذلك الزمان. وإصلاح رأي الناس في تأثير الأرواح ليس جزءاً من الرسالة، ولا علاقة له بالشهادة بوجه ما[٤]. انتهى.

والمتكلّف لم يرتض ترجمة إظهار الحقّ لقول بيلي، فترجمه هو بقوله:

يلزم التمييز بين ما كان غرض الدعوة الرسوليّة، وبين ما كان أجنبيّاً خارجاً عنها أو ما اتّصل بها عرضاً واتّفاقاً. أمّا القضايا الخارجة عن الدين فلا لزوم إلى الكلام

---

١. سفر المزامير ٧٨: ٤٩.

٢. رسالة بطرس الثانية ٢: ٤.

٣. رسالة يهوذا: ٦.

٤. إظهار الحقّ ٢: ٣٧٤.

عليها، غير أنّ القضايا التي اتّصلت بها عرضاً فيلزم الإشارة إليها. فأقول: من هذه القضايا تسلّطن الأرواح النجسة، أمّا من جهة حقيقتها فلا يمكنني الفصل في هذه القضيّة فإنّه فوق طاقتي، وضيق المقام يمنعني عن إيراد أدلّة كلّ فريق في هذه المسألة.

والأمر الذي أُريد التنبيه عليه هو أنّه لو سلّمنا بقول من ذهب إلى أنّ هذا الرأي كان شائعاً في تلك الأزمنة وكان خطأ، وأنّ كَتَبَة العهد الجديد جارَوا مؤلّفي اليهود في ذلك العصر وتكلّموا على هذه القضيّة حسب اصطلاحهم وعاداتهم وطرق مخاطباتهم وأفكارهم، فلا يخشى من ذلك على صدق وصحّة الديانة المسيحيّة، فإنّ المسيح لم يأت بهذا التعليم في الدنيا، بل إنّه ظهر في النصوص المسيحيّة عرضاً واتّفاقاً بصفة أنّه كان رأياً موجوداً في ذلك العصر وفي تلك البلاد التي كان يهدي الناس فيها، ولم يكن من اختصاصات الوحي تنظيم وترتيب آراء الناس بخصوص تأثير الجواهر الروحيّة في الأجسام الحيوانيّة.

وعلى كلّ حال فلا ارتباط بينه وبين الشهادات الإلهيّة؛ فإنّه إذا أُعيد للأخرس الأبكم قوّة النطق والبيان فلا يهمّنا معرفة سبب هذا الخرس، فالمرض كان حقيقيّاً والشفاء كان واقعيّاً. ولا يهمّ إذا كان توضيح الناس لهذا السبب حقيقيّاً أم لا، وإنّما الأمر الحقيقي الواقعي هو التغيّر الذي حصل للمريض على كلّ حال؛ لأنّه كان مشاهداً بالعيان لايحتاج إلى برهان[١]. انتهى بلفظه.

قلت: ولم يحصل لي الأصل من كتاب «بيلي» لأعرف أيّ الترجمتين أصحّ، ولكنّ القدر المتيقّن منهما أنّ فريقاً من النصارى ينكرون صحّة ما في الأناجيل فيما شحنت به من أحاديث الأرواح النجسة وشؤونها مع المسيح، ولهم على ذلك أدلّة. وأنّ كَتَبَة العهد الجديد قد جارَوا بها مؤلّفي اليهود وتكلّموا حسب عاداتهم وأفكارهم. وأنّ بيلي لا يمكنه الفصل في حقيقة ذلك فإنّه فوق طاقته.

وليت شعري إذا كان «بيلي» نصرانيّاً يقول بأنّ الأناجيل كتبها الرسل بوحي الروح

١. الهداية ٢: ١١٧.

القدس، فلماذا لم يمكنه الفصل في هذه القضيّة؟ وفي أيّ شيء تنفع كتب الوحي إذا لم تنفع صراحتها التي ملِئت أطرافها في هذا الموضوع؟ كيف لا، وقد ذكرت الأناجيل بتكرارها أنّ الأرواح النجسة ترى، وتخرّ للمسيح وتعرفه، وتصرخ، وتخاطبه، وتخاف من إهلاكه لها، وتتكلّم، وتسكت بأمره ويأمرها بأن لا تظهر أنّها عرفته، وتخاف من الذهاب إلى الهاوية، وتستأذن منه لذهابها إلى قطيع الخنازير، وتخبره أنّها لجيون أي جماعة كثيرة، فأذن لها، وخرجت إلى الخنازير. كما ذكرنا لك طرفاً من ذلك، وقد جعل كَتَبَة الأناجيل هذه التفاصيل الضافية حجّةً وبرهاناً لدعوة المسيح.

فقل لبيلي وأُولئك المنكرين: إذا كان رسلكم الملهمون قد ملؤوا أناجيلهم بهذه الحكايات المفصّلة، وهي أكاذيب لا حقيقة لها، فماذا تكون العلامة على ما يصدقون فيه؟ وكيف لنا إذاً بتصديقهم في حكايات شفاء المسيح للأمراض؟ ومن أين نعلم أنّ المرض كان حقيقيّاً والشفاء كان واقعيّاً، وهم قد عنونوا حكايات المرض والشفاء بهذه الحكايات التي تقولون: إنّها أكاذيب؟

وأيّ شيء يخشى منه على صدق الديانة المسيحيّة وصحّتها أكثر من أن تكون كتب وحيها وقانونها الأساسي في حجّتها وبرهانها وتعليمها قد ملئت بهذه الأكاذيب؟ وإذ كانوا قد جارَوا بها أفكار اليهود، فبالحريّ أن يكونوا في باقي الأناجيل وكتب العهد الجديد قد جارَوا أهواءهم وأهواء الأُمم الذين حاولوا التَرَؤُّس عليهم بوسيلة الرئاسة الدينيّة، كما يشهد لذلك العاشر والحادي عشر والخامس عشر من الأعمال وكثير من كلمات الرسائل المنسوبة لبولس؟

ومن أوهن الوهن اعتذار «بيلي» عن هذه الحكايات بقوله:

> ولم يكن من اختصاصات الوحي تنظيم وترتيب آراء الناس بخصوص تأثير الجواهر الروحيّة في الأجسام الحيوانيّة.

فإنّ هذا الاعتذار إنّما يخرج عن الغشّ والغلط، لو لم تذكر الأناجيل من هذه الحكايات شيئاً، واعترض المعترض على كونها لم تصلح بتعليمها آراء الناس في وهم القول بتأثير الجواهر الروحيّة.

وأمّا على ما أطنبت بتكراره في هذه الحكايات، فعلى زعمهم تكون قد أكّدت فساد آراء الناس، ولفّقت من أوهامهم الفاسدة أكاذيب كثيرة جعلتها البرهان على صحّة الديانة المسيحيّة وأساس تعليمها.

فيا أيّها الأخ المسلم لا يؤلمنّك اعتراض المتكلّف وأمثاله بأوهامهم على القرآن الكريم؛ فإنّ نكاية أوهامهم على كتب وحيهم وأساس دينهم أشدّ وأشدّ شنشنة أعرفها من أخزم[1]. ولا تنشدني قول الشاعر:

لا تقل دارُها بِشَرقي نـجدٍ كـلُّ نـجدٍ للـعامريّةِ دارُ[2]

وإذ قد سمعت ما ذكرناه أوّلاً عن العهدين، فإنّك تعرف ما في قول المتكلّف: «فالاعتقاد بوجود جنّ هو من الاعتقادات الوثنيّة». ولولا التحرّج من سوء القالة، لذكرنا شطراً ممّا قد أخذ من الاعتقادات الوثنيّة، ولكنّا قد كفينا مؤونة ذلك بالكتب التي أشار إليها في صدر كتاب الوثنيّة والنصرانيّة.

[آيات خلق آدم وشأن الملائكة]

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[3].

---

١. جمهرة الأمثال ١: ٥٤١.

٢. لم أجده في المصادر التي بين يديّ.

٣. البقرة (٢): ٣٠ ـ ٣٣.

فاعترض المتعرّب[١] على هذه الآيات باعتراضات متعدّدة، وكذا المتكلّف[٢] وربـما اشتركا في الاعتراض فأكتفي بنسبته إلى أحدهما وردّه. وإن شئت فانظر إلى كلاميهما في كتابيهما.

قال المتعرّب:

> إنّه عنى بالخليفة آدم، لكنّه لم يقل لمن أراد أن يجعله خـليفة: وأنت تـعلم أنّـه لم يكن على الأرض مخلوق قبله حتى يخلفه فيها، ويلزم من هذا أنّ الله أراد أن يستخلفه عن نفسه.

قلت: كأنّ المتعرّب افترى عليك بدعوى العلم بأنّه لم يكن على الأرض مخلوق قبل آدم، لأجل غروره بخرافة مذهب داروين، أو بمضمون توراته الذي لا يقبله حتّى الكثير من قومه. وهي أنّ السماوات والأرض وما فيهنّ خُلقت كلّها فيما بين خمسة أيّام قبل خلق آدم. ولكن لنا أن نـجادله بكـتبه و نـقول له: إنّ تـوراتك لم تـذكر أنّ خلق الملائكة كان بعد خلق آدم، بل إمّـا أن يكـون فـي اليـوم الثـالث أو الرابـع أو قبل ذلك. فلماذا لا يكون آدم خليفة في الأرض بدلاً عن الملائكة الأشرار، والذيـن لم يحفظوا رئاساتهم وأخطؤوا فلم يشفق الله عليهم، بل طرحهم في جهنّم بقيود أبديّة إلى يوم الدينونة، كما سيأتي عن كتبه؟ وهذا كافٍ في دحض باطله. وستسمع إن شاء الله إعلام الحقّ.

وقال أيضاً على النسق:

> غير أنّه تعالى لمّا عزم على خلقه، نوى أن يجعله في الجنّة يأكل منها رغداً، ولو لم يعصه لم يهبطه إلى الأرض ليكون خليفة فيها، فقوله: إنّه جاعله فـي الأرض خليفة وهو ينوي أن يجعله في الجنّة. فيه نظر.

وحاصل كلامه الاعتراض على جعله خليفة في الأرض، مع إسكانه فـي الجـنّة، ونهيه عمّا يسبّب خروجه منها.

---

١. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٨ ـ ٩٠.

٢. الهداية ٢: ١٠ ـ ١١.

قلنا أوّلاً: لنا أن نقول: إنّ الله قال ذلك باعتبار سابق علمه بما يصير إليه أمر آدم في سكناه في الأرض. وقد أوضحنا لك[١] أنّ آدم لم تصدر منه المعصية القبيحة المانعة لوظيفة الخلافة، إن أُريد بالخلافة معنى النبوّة والرئاسة الدينيّة، وأنّ الله بكلّ شيءٍ عليم، لا يغيب عن سابق علمه شيء.

وثانياً: لنا أيضاً أن نقول: إنّ الجنّة المذكورة كانت من جنان الدنيا، كما جاء عن أهل بيت النبوّة[٢]، وذهب إليه جمع من المفسّرين[٣]. ولا حجّة بقول بعض المفسّرين على القرآن إذا قالوا: إنّها جنّة السماء[٤]. ولا دلالة في قوله تعالى: ﴿اَهْبِطُواْ﴾[٥]. و﴿اَهْبِطَا مِنْهَا﴾[٦] لجريان هذا الاستعمال في الانتقال من مكان إلى مكان، فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿اَهْبِطُواْ مِصْرًا﴾[٧] بل هو استعمال متعارف حتّى في التوراة؛ إذ تقول: «فانحدر أبرام إلى مصر»[٨]. انزلوا إلى هناك ـ يعني مصر ـ فنزل عشرة، يعني إلى مصر[٩].

وقال المتكلّف في الاعتراض على الآية الأُولى:

> وهذه العبارة ناطقة بأنّ المولى ـ سبحانه وتعالى ـ استشار الملائكة في خلق آدم فاعترضوا عليه، وهو خطأ؛ فإنّ كتاب الله يعلّمنا أنّ المولى ـ سبحانه وتعالى ـ غنيّ عن ذلك ـ ثمّ قال ـ: فأقوال الوحي ناطقة بأنّه لم يستشر ولن يستشير.

قلنا: ليس هذا من الاستشارة في شيء، فإنّ كلّ من يفهم الكلام يعلم أنّ الاستشارة لا تكون بمثل الإخبار المؤكّد بهذا التأكيد، وإنّما هو تفضّل منه تعالى بإعلام ملائكته بآثار حكمته وقدرته.

---

١. تقدّم آنفاً.
٢. الكافي ٣: ٢٤٧، باب جنّة الدنيا، ح ٢.
٣ و ٤. التبيان ١: ١٥٥؛ التفسير الكبير ٣: ٤ ـ ٥، ذيل الآية ٣٥ من البقرة.
٥. البقرة (٢): ٣٦.
٦. طه (٢٠): ١٢٣.
٧. البقرة (٢): ٦١.
٨. سفر التكوين ١٢: ١٠.
٩. سفر التكوين ٢٤: ٢ ـ ٣.

وقد جاء في العهد القديم: «إنّ السيّد الربّ لا يصنع أمراً إلّا وهو يعلن سرّه لعبيده الأنبياء»[١]. بل هو أبعد من الاستشارة، ونحوها من قول التوراة: «فقال الربّ: هل أُخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله»[٢]. وحاشا للقرآن الكريم كلام الله أن يجيء فيه مثل قول التوراة:

إنّ صرخة سدوم وعمّورة قد كثرت وخطيئاتهم قد عظمت جدّاً. أنزل وأرى هل كصرختهم الآتية إليَّ عملوا كلّها وإلّا فأعلم[٣].

وإن أراد المتكلّف أن يعرف الكلام الدالّ على نسبة الاستشارة والحيرة والضعف إلى الله ـ جلَّ شأنه ـ فلينظر إلى العهد القديم الذي يقول:

فاسمع إذن كلامَ الربّ. قد رأيت السيّدَ الربّ جالساً على كرسيّه وكلّ جند السماء وقوف لديه عن يمينه ويساره. فقال الربّ: من يُغوي أخْآب فيصعدَ ويسقطَ في رامُوت جلعاد فقال: هذا هكذا وقال: ذاك هكذا، فخرج الروح ووقف أمام الربّ وقال: أنا أُغويه، فقال له: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال: إنّك تُغويه وتقتدر فاخرج وافعل هكذا[٤].

والمتكلّف يعظّم العهد القديم المشتمل على أمثال هذه الخرافة الكفريّة، ويسمّيه كلام الله السميع العليم. ثمّ يتقوّل على القرآن ببواعث هواه، ويعترض عليه بجهله، ويقول:

إنّ كتاب الله يعلّمنا أنّ الملائكة هم خدّامه المعصومون عن الخطأ والزلل. أمّا عبارة القرآن فتفيد أنّهم اقترفوا أربعة معاصٍ، كما قال علماء المسلمين.

قلت: يا عجباً، ولا عجب من مثل المتكلّف والمتعرّب، فإنّ الذي يسمّيانه كتاب الله وكلام الله السميع العليم، هو الذي يقول: «إنّ الله ينسب إلى ملائكته حماقة»[٥]. ويقول

---

١. سفر عاموس ٣: ٧.
٢. سفر التكوين ١٨: ١٧.
٣. سفر التكوين ١٨: ٢٠ ـ ٢١.
٤. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ١٩ ـ ٢٢؛ سفر الأيّام الثاني ١٨: ٢٢.
٥. سفر أيّوب ١٤: ١٨.

أيضاً: «جيش ملائكة أشرار»[١]. «وإنّ الله لم يشفق على ملائكة قد أخطؤوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنّم وسلّمهم محروسين للقضاء»[٢].

والملائكة الذين لم يحفظوا رئاستهم، بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبديّة تحت الظلام[٣].

فأين تكون من كتابهم عصمة الملائكة؟

وإنّ عبارة القرآن لا تفيد أنّ الملائكة اقترفوا أربعة معاصٍ، ولا قال بذلك علماء المسلمين، فاستمع إلى ذلك، فإنّه قال: «إنّ فيما حكاه القرآن من قول الملائكة إنكار على الله فيما يفعله، وهو من أعظم المعاصي».

قلت: ليس في هذا الكلام شيء من الإنكار على الله، وإنّما هو سؤال عن وجه الحكمة في خلقه للإنسان، مع أنّه قد ينبعث من بعض أفراده الفساد وسفك الدماء. ولهذا أجابهم الله بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الوجوه الحكمة والصلاح في خلق هذا النوع، وما سيظهر منه من قداسة الأنبياء والأولياء، وحسن عبادتهم وإخلاصهم بالرغبة والاختيار المرغم لدواعي الهوى ووساوس الشيطان وبواعث الطبيعة البشريّة. ولو كان كلامهم اعتراضاً على الله، لقال لهم الله عالم الغيب والشهادة: ما أنتم والاعتراض على خالقكم القادر القاهر!

وإن شئت فقابل كلام الملائكة هذا مع ما تذكره التوراة عن قول إبراهيم لله جلّ شأنه:

أفتهلك الصدّيق مع الأثيم. عسى أن يكون خمسون صدّيقاً في المدينة؟ أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين صدّيقاً الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر لتميت الصدّيق مع الأثيم فيكون الصدّيق كالأثيم أديّان كلّ الأرض لا يصنع عدلاً[٤].

---

١. سفر المزامير ٧٨: ٤٩.

٢. رسالة بطرس الثانية ٢: ٤.

٣. رسالة يهوذا: ٦.

٤. سفر التكوين ١٨: ٢٣ـ٢٦.

وقس أيضاً كلام الملائكة مع ما تذكره التوراة في قولها: «فرجع موسى إلى الربّ وقال: يا سيّد لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني»؟[١]. فقال موسى للربّ:

لماذا أسأت إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينك حتّى أنّك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ ألعَلّي حبلت بجميع هذا الشعب أو لَعَلّي ولدته[٢]؟

ونادى ـ أي إيليا ـ إلى الربّ وقال: أيّها الربّ إلهي أيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل معها أسأتَ بإماتَتِك ابنها[٣].

ودع عنك ما ينسبه سفر أيّوب إلى أيّوب ـ وحاشاه ـ من عظائم الكفر في الاعتراض على الله ككونه جلّ شأنه.

نزع حقّه ولفّق فوق إثمه، حتّى طلب المحاكمة معه. فراجع الأقوال المنسوبة إلى أيّوب، وحاشاه.

وقال المتكلّف:

إنّ الملائكة في كلامهم هذا قد اقترفوا الغيبة في حقّ من يجعله الله خليفة، بأن ذكروا مثالبه.

قلت: المراد من قول الله ـ جلّ شأنه ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هو إخبار الملائكة بخلق جنس البشر. إمّا لأنّهم يخلفون من كان قبلهم في الأرض من خلق الله. أو لأنّ أصلهم وداعيهم إلى الله وهو آدم خليفة عليهم، ومؤدّب لهم على الطاعة. فاقتضى الحال أنّ الملائكة يسألون عن وجه الحكمة في خلق هذا النوع، مع أنّه يكون فيه من يفسد ويسفك الدماء. فلم يقصدوا بذلك جميع النوع البشري، ولا خصوص أصلهم وداعيهم إلى الله. فليس في قولهم هذا شيء من الغيبة المحرّمة بالعقل أو الشرائع، فإنّهم لم يعنوا بما قالوه شخصاً معيّناً أو أشخاصاً معيّنين، بل قالوا ذلك لما علموه من الله بأنّ الجنس البشري تقتضي طبيعته أن يكون فيه من يفسد ويسفك

---

١. سفر الخروج ٥: ٢٢.

٢. سفر العدد ١١: ١١ ـ ١٢.

٣. سفر الملوك الأوّل ١٧: ٢٠.

الدماء، فهم لم يقصدوا بما قالوه إلّا العنوان الكلّي المبهم المجمَل بمقتضى الإبهام، في تأثير اقتضاء الطبيعة البشريّة الذي يجوز على كلّ واحد من البشر مع فرض عدم المانع، ويمتنع عن كلّ واحد مع وجود المانع.

وهذا ليس من الغيبة في شيء؛ فإنّه إذا قال شخص: إنّ في جنس البشر من يكون فاسقاً، لم يقل عاقل أو متشرّع بأنّ هذا الشخص قد اغتاب، بل لا يتأثّر من كلامه أحد من البشر حتّى الفسّاق في نفس الأمر. وذلك لأنّه لم يوجّه باللفظ قصده ـ حتّى بمعونة القرائن ـ إلى ذات معيّنة أو جماعة معيّنين أو محصورين. فكذا قول الملائكة؛ فإنّهم قصدوا أمراً طبيعيّاً.

هذا مضافاً إلى أنّ الملائكة لو قصدوا أُناساً معيّنين من المتهتّكين بالفسق والفجور، الهاتكين بفسادهم لأستارهم، لم يكن مثل ذلك من الغيبة المحرّمة القبيحة أصلاً. مضافاً إلى أنّ شريعة تحريم الغيبة من العقل والشرع إنّما هي شريعة إصلاحيّة اجتماعيّة، تمدّ الستر فيما بين البشر وتمنع مايضرّ بالاجتماع البشري، فلا يجري حكمها مع الملائكة، خصوصاً إذا ذكروا شيئاً من فسق الفسّاق تنفّراً منه واستقباحاً له.

فهل يقول عاقل أو متشرّع بأنّك اغتبت وفعلت حراماً إذا شكوت إلى الله ظالمك وذكرت له ظلمه، وإذا ذكرت لله فسق الفاسق ليغفرله أو ليهديه أو لينتقم منه؟

وليت شعري إذا كان المتكلّف يجعل قول الملائكة من الغيبة المحرّمة، فماذا يصنع بكتابه العهد الجديد، فإنّك تقدر أن تؤلّف منه من الكلام المنسوب للمسيح والتلاميذ كتاباً بقدر الإنجيل أو أكثر، كلّه في غيبة الكَتَبَة والفرّيسيّين وبني إسرائيل والمسيح والتلاميذ ومريم المجدليّة وجماعة من المؤمنين بالمسيح.

وقال المتكلّف: «في كلامهم ـ أي الملائكة ـ العُجب وتزكية النفس بذكر مناقبها».

قلنا: لم يكن الغرض من بيان تسبيحهم وتقديسهم هو الافتخاربه، ولكن ضرورة السؤال عن وجه الحكمة في خلق البشر اقتضت ذكره، وليس هذا من العُجب وتزكية النفس، خصوصاً حال كونهم أزكياء معصومين لا يعصون الله ولا يفرّطون في وظائفهم من العبادة. ولئن كان هذا من العُجب وتزكية النفس الممقوتة، فماذا يقال في القول

المنسوب للمسيح بعد الذمّ للرعاة: «أنا باب الخِرَافِ. أنا الراعي الصالح. أمّا أنا فإنّي الراعي الصالح»[١]. مع أنّه أنكر على من سمّاه صالحاً، وقال له: «لماذا تدعونني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلّا واحد هو الله»[٢]؟

وماذا يقال في القول المنسوب لداود:

يكافئني الربّ حسب بِرّي حسب طهارة يدي يردّ عَلَيّ؛ لأنّي حفظت طرق الربّ ولم أعصِ إلهي؛ لأنّ جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها[٣]؟

والأقوال المنسوبة إلى بولس في الافتخار بالأعمال والمراتب العالية، وإن امتزجت في الأثناء بالتصوّف البارد والتواضع السخيف؟ فانظر إلى الأصحاح السادس، والحادي عشر، والثاني عشر من كورنتوس الثانية.

وقال المتكلّف:

وفيه أيضاً ـ أي في كلام الملائكة ـ أنّهم قالوا ما قالوه من نسبة الإفساد والسفك رجماً بالظنّ، وإلّا شاركوا المولى ـ سبحانه وتعالى ـ في علم الغيب.

قلنا: لا هذا ولا هذا، بل قالوه بعلم موهوب لهم من الله جلّ شأنه.

وقال المتكلّف: «إنّ القرآن نسب إلى المولى تعجيز الملائكة بطريق الاحتيال»[٤].

قلت: لا يدلّ سوق القرآن على إرادة تعجيز الملائكة، بل إنّما يدلّ على أنّ الله بيّن لهم الحكمة في خلقه لنوع البشر على لسان آدم، ببيان من يخلق من ذرّيّته من الأنبياء والأولياء. وحاصل ذلك أنّ الله ـ جلّ اسمه ـ تفضّل على ملائكته بإعلامهم بأنّه جاعل في الأرض خليفة. فاستفسروا عن وجه الحكمة في ذلك، وإن كانوا يعلمون إجمالاً أنّ الله هو العليم الحكيم. فأبان ـ جلّ شأنه ـ لهم وجه الحكمة على لسان آدم، وخصّه بذلك تكريماً له وتنويهاً بارتفاعه هو وكثير من بنيه عن النقائص العارضة للطبيعة

١. إنجيل يوحنّا ١٠: ٧ و ١١ و ١٤.

٢. انظر إنجيل متّى ١٩: ١٧؛ إنجيل مرقس ١٠: ١٨؛ إنجيل لوقا ١٨: ١٩.

٣. سفر صموئيل الثاني ٢٢: ٢١ ـ ٢٣.

٤. الهداية ٢: ١٢.

البشريّة من آثار الشهوة والغضب ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ أسماء ذرّيّته من الأنبياء والأصفياء، بما يكونون عليه من القدس والطهارة والطاعة لله، والجهاد في سبيله وتحمّل الأذى والمتاعب الشديدة في إرشاد عباده وإعلاء دعوة الحقّ، وحسن صبرهم ورضاهم فيما يلقونه من الاضطهاد في الدعوة إلى الحقّ والصلاح. كلّ ذلك بالطوع والرغبة على رغم الشهوة والغضب المودعين في الطبيعة البشريّة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ أي هؤلاء الصفوة وهم أشباح نورانيّة ﴿عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما هم عليه من صفات القدس والكمال الاختياري ﴿إِن﴾ ادّعيتم العلم و ﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواه ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تقدّست عن الشريك والشبيه، لك العلم وحدك لا شريك لك، و﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالغائبات ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما تفعل ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ وما هم عليه من الكمالات القدسيّة الباهرة، الباهظة لشهوات الطبيعة البشريّة، الكاسرة لسورات غضبها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ واتّضح للملائكة وجه الحكمة في خلق النوع الإنساني ﴿قَالَ﴾ جلّ شأنه ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ وأُعلّمكم ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾[١] ومن كان له هذا العلم لا يفوت حكمته شيءٌ من الغائبات عنكم.

هذا ملخّص ما جاء عن أهل بيت النبوّة في تفسير الآيات. وهل تراه ناظراً إلى تعجيز الملائكة؟ وإذا أحطت خبراً بما قلناه تعرف شطط المتعرّب فيما قاله في هذا المقام، فإنّه شريك المتكلّف في اعتراضاته.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾[٢].

فاعترض المتكلّف بأنّ القرآن نسب إلى الله ـ جلّ اسمه ـ أنّه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وحاشا لله القدّوس أن يأمر بالسجود لغير ذاته العليّة. قال في سفر الخروج: «لا تسجد لإله آخر»[٣]. وكتاب الوحي الإلهي يحرّم السجود لغير

١. البقرة (٢): ٣١ـ٣٣.
٢. البقرة (٢): ٣٤.
٣. سفر الخروج ٣٤: ١٤.

المولي من المخلوقات مهما كانت درجتهم[١].

قلنا: لنا أن نقول: إنّ المحرّم إنّما هو سجود العبادة، لا سجود التحيّة والإكرام. وسجود الملائكة لآدم كان من القسم الثاني، وتوراة المتكلّف إنّما نهت عن القسم الأوّل؛ لقولها: «لا تسجد لإله آخر». ومعناه: لا تسجد لشيء غير الله بعنوان السجود للإله و العبادة له ولا حجّة من كتب المتكلّف على تحريم السجود لغير الله إذا كان بعنوان التحيّة والإكرام، بل في كتب المتكلّف حجّة على جوازه، كما يستنتج ذلك منها من مقدّمتين:

الأُولى: سجود الأنبياء لغير الله.

والثانية: أنّ عمل الأنبياء حجّة على جواز ما يفعلونه.

أمّا المقدّمة الأُولى، فقد ذكرت أنّ ابراهيم خليل الله سجد لشعب الأرض بني حِثّ مرّتين[٢]. وقدكان هؤلاء غير مؤمنين وسجد يعقوب النبيّ لعيسو سبع مرّات إلى الأرض وسجد أيضاً نساؤه وأولاده[٣]. وموسى كليم الله خرج لاستقبال حَمِيه فسجد وقبّل له. وفي الأصل العبراني «ويشتحوا ويشق ـ لو»[٤]. وسجد داود النبيّ ثلاث مرّات لمّا ودّع يوناثان ابن شاول[٥]. وسجد لشاول[٦]. وسجد ناثان النبيّ لداود النبيّ[٧]. وسجد سليمان النبيّ لأُمّه[٨]. وزيادة على ذلك أنّ يوسف سجد أمام وجه يعقوب[٩]. وسجدت ابيجائل لداود[١٠].

---

١. الهداية ٢: ١٢.

٢. سفر التكوين ٢٣: ٧ و ١٢.

٣. سفر التكوين ٣٣: ٣ و ٧.

٤. سفر الخروج ١٨: ٧.

٥. سفر صموئيل الأوّل ٢٠: ٢١.

٦. سفر صموئيل الأوّل ٢٤: ٨.

٧. سفر الملوك الأوّل ١: ٢٣.

٨. سفر الملوك الأوّل ٢: ١٩.

٩. سفر التكوين ٤٨: ١٢.

١٠. سفر صموئيل الأوّل ٥: ٢٣.

وكذا بثشبع[١]. ولم يذكر أنّ هذين النبيّين منعا عن السجود لهما.

وأمّا المقدّمة الثانية، فإنّ الأناجيل تذكر أنّ اليهود اعترضوا على المسيح بأكل تلاميذه من الزرع في يوم السبت وهو محرّم، فاحتجّ على جواز ذلك بأكل داود من خبز التَّقْدِمَةِ الذي لا يحلّ إلّا للكهنة[٢].

أم تقول: دعنا من احتجاج المسيح، فإنّ هؤلاء الأنبياء كلّهم قد عصوا وأخطؤوا في هذا السجود لغير الله، وإن كان بعنوان التحيّة والإكرام لا بعنوان العبادة.

إذاً فلماذا لم تتعرّض كتب وحيكم لتوبيخهم على ذلك، لا تصريحاً ولا تلويحاً ولا إشارةً؟

ولنا أن نقول: إنّ سجود الملائكة كان شكراً لله وتمجيداً له على خلقه لآدم أبي الأنبياء والأصفياء والأولياء؛ لأجل ما لهم من عظيم الشأن وشرف المنزلة، فيعود السجود الذي هو لله بالتكريم والتبجيل لآدم. ولأجل ذلك نسب السجود لآدم باعتبار غايته المطلوبة. وليس كذلك ما يذكره العهد القديم في سجود إبراهيم ومن ذكرناهم من الأنبياء. فتدبّر ما قلناه، وراجع كلام المتكلّف، وقل ما شئت في تمجيده على معرفته وأمانته.

[حديث آدم وحوّاء وأكلهما من الشجرة]

وقال الله تعالى في سورة الأعراف فيما اقتصّ من حديث آدم وحوّاء وأكلهما من الشجرة: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَا رَبَّنَا ظَـلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٣].

فاعترض المتكلّف[٤] على ذلك بمخالفته لما في توراته[٥] وعلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

---

١. سفر الملوك الأوّل ١: ١٦.
٢. إنجيل متّى ١٢: ١ ـ ٩؛ إنجيل مرقس ٢: ٢٣ ـ ٢٦؛ إنجيل لوقا ٦: ١ ـ ٤.
٣. الأعراف (٧): ٢٢ ـ ٢٣.
٤. الهداية ٢: ٤٦.
٥. سفر التكوين ٣: ٨ ـ ٢٠.

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ وعلى حكايته ـ جلّ اسمه ـ لقول آدم وحوّاء: ﴿رَبَّنَا ظَـلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ ثمّ ذكر المتكلّف كلام توراته في ذلك الشأن، ولكن شذّبه وهذّبه، وأنّى له؟!

فننقله بنصّه، وهو قولها في آدم وحوّاء:

فسمعا صوت الإله متمشّياً «عب. متهلخ» في الجنّة عند ريح النهار، فاختبأ آدم من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الربّ الإله آدم وقال: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنّة فخشيت؛ لأنّي عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟[1]

ولعلّ المتكلّف أنكر على مضمون القرآن دلالته على أنّ الله العليم علم بأكل آدم وحوّاء من الشجرة بعلمه الذي لا يغيب عنه شيء بدون استعلام واستخبار. والمتكلّف لا يرضى بذلك؛ لأنّ توراته تدلّ على أنّ الله ـ جلّ اسمه ـ وأستغفره ـ يحتاج إلى الاستعلام من آدم بقوله ـ جلّ شأنه ـ: أين أنت؟ من أعلمك؟ هل أكلت؟

ولا يرضى المتكلّف من القرآن إلّا أن يقول: «متمشّياً في الجنّة عند ريح النهار» لكي يفهم القارئ أنّ ذلك التمشّي لأجل الاستراحة والتنفّس في طيب الوقت وصفاء الجنّة. وأنّ آدم وحوّاء «سمعا صوت الإله متمشّياً» لكي يفهم القارئ أنّهما سمعا وطء الأقدام أو ترنّم الطرب في التمشّي. وأنّ آدم اختبأ، لكي يتأكّد مضمون هذه التجسيمات بأنّ آدم كان يعرف أن الاختباء بشجر الجنّة يستره عن الله ـ جلّ شأنه ـ ولأجل هذا سأله: أين أنت؟ من أعلمك؟ هل أكلت؟

ولكن ليعلم المتكلّف ـ فيسخط أو يرضى ـ أنّ القرآن يعدّ حقائق هذه الكلمات كفراً وإلحاداً وجحوداً لله إله الحقّ، ويعدّ مجاراتها جهلاً وضلالاً، ويسعد بذلك التوراة الحقيقيّة في استغاثتها من ذلك.

وأمّا عدم ذكر التوراة الرائجة لتوبة آدم، فذلك لعادة ربّاها عليها آباؤها وكاتبوها في

١. سفر التكوين ٣: ٨ ـ ١١.

أنّهم يذكرون خطايا الأنبياء ولا يذكرون توبتهم. فهل يراها المتكلّف ذكرت توبة نوح كما يزعم ممّا ذَكَرَتْه[١]؟ أو توبة إسحاق ممّا ذَكَرَتْه[٢]؟ أو توبة يعقوب ممّا ذَكَرَتْه[٣]؟ أو توبة موسى ممّا ذَكَرَتْه[٤]؟ أو توبة هارون ممّا ذَكَرَتْه[٥]؟ أم يقول المتكلّف: إنّ هؤلاء ما تابوا، ولكن تساهل الله معهم فأبقاهم على وظيفة النبوّة ولوازم القداسة؟ حاشا لله القدّوس الحكيم العليم من ذلك سبحانه وتعالى شأنه.

❊ ❊ ❊

وقال الله تعالى في سورة الأعراف ١٨٩ و ١٩٠: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٦] الآيات، وقد ذكرناهما[٧] في الجزء الأوّل وذكرنا في شأنهما ما يبطل تشبّثات المتكلّف لأوهامه[٨].

[آيات نبأ ابني آدم هابيل وقابيل]

وقال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ❊ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾[٩].

---

١. سفر التكوين ٩: ٢١.

٢. سفر التكوين ٢٦: ٧.

٣. سفر التكوين ٢٧: ١٨ ـ ٣٥.

٤. سفر الخروج ٤: ١٠ ـ ١٤ و ٥: ٢٢ و ٣٢: ٣٢؛ سفر العدد ١١: ١١ ـ ١٥.

٥. سفر الخروج ٣٢: ١ ـ ٧.

٦. الأعراف (٧): ١٨٩ و ١٩٠.

٧. تقدّم في ج ١، ص ٨٥ ـ ٨٧.

٨. الهداية ١: ١١ و ٢: ٥٩ ـ ٦٠.

٩. المائدة (٥): ٢٧ و ٣٠ ـ ٣١.

فقال المتكلّف:

وقول القرآن: إنّ الغراب علّم قايين كيفيّة دفن أخيه مأخوذ من خرافات اليهود القديمة وهل يتصوّر أنّ قايين كان يجهل هذا الأمر، وكان يرى مدّة حياته الذبائح تقدّم لله؟ وهل يعقل أنّه لم ير في مدّة حياته الطويلة أنّ دفن الطير أو الحيوان ومواراته في التراب يكون واقياً في الأرض، وقد آتى الله الإنسان عقلاً به يعقل؟[1]

قلت: لماذا لا يتصوّر أنّ قابيل كان يجهل دفن الموتى، وقد كان لم يَرَميّتاً ولا دفناً؟ ومن قال: إنّ الذبائح التي كانت تقدّم لله كانت تدفن؟ ومن يقول: إنّ قابيل رأى في مدّة حياته إلى حين قتله لهابيل من يدفن الطير؟ وما الغاية في دفن الطير أو الحيوان؟ ومن فعل ذلك؟

وبمقتضى التوراة أنّ قابيل كان إذ ذاك رابعاً لثلاثة من البشر: آدم، وحوّاء، وهابيل. وأنّ هذه الواقعة حدثت قبل أن يولد شيث وقبل أن يمضي من العمر لآدم مائة وثلاثون سنة[2]. فهل يكون عمر قابيل حينئذٍ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة بين ألوف من البشر المتمدّنين، وقد درّبته الدنيا بحوادثها، وتربّى في المكاتب ليكرّس نفسه مبشّراً لأهل نحلته؟ ولو كان كذلك وكان معتضداً بجماعة من المرسلين الأمريكان، لجوّزنا في عقله عدم الوصول إلى مالم يره، ولم يحدث في الدنيا؛ فإنّا نرى من الناس من شذّت عقولهم وأبصارهم عمّا هو نصب أعينهم في كتبهم التي يدرسونها ويعتمدون عليها ويدعون إليها. ولا نزيدك غير ذلك.

وقال المتكلّف في هذا المقام: «ثمّ إنّ مراعاة القرآن للسجع مقدّمة على الحقائق، فقال: قابيل؛ لأنّه على وزن هابيل»[3].

قلت: ليس في القرآن الكريم ذكر للفظ قابيل أو هابيل. والمتكلّف في أغراضه

---

١. الهداية ٢: ٤٣.

٢. فانظر سفر التكوين ٤ و ٥: ٣.

٣. الهداية ٢: ٤٢.

وشؤونه معذور في ذلك. ولا تبخل بالعذر أيضاً على المرسلين الأمريكان الذين طبع كتابه بمعرفتهم.

[قصّة نوح وقومه]

وذكر الله «جلّ جلاله» في سورة هود[١] نحواً من شأن نوح وقومه في دعوته ونصحه لهم وتمرّدهم وطغيانهم على دعوة الحقّ. فاعترض المتكلّف على ذلك بقوله:

> لم يرد في كتاب الوحي الإلهي خبر عن هذه المجادلة، ولم يرد في التوراة أنّ أراذل الناس اتّبعوا نوحاً[٢].

قلت: إنّ من منحه الله شيئاً من الفهم والشعور لَيَعْلَم من العادة وفلسفة الحقائق أنّ النبيّ الذي يقيم في دعوة الحقّ والوعظ والنصيحة مئات من السنين بين قوم كفرة متجبّرين، ويجزم يقيناً أنّ شأن هذا النبيّ لا ينقضي مع قومه بالصمت والسكوت، بل لابدّ فيه من المكالمات الكثيرة، والردّ والبدل، والدعوة والجحود، والوعظ والهزء، والنصيحة والسخريّة، والاحتجاج والجدال، والبرهان والمكابرة، والحجّة والعناد. وليس هذا المقام ممّا قال فيه الشاعر:

حَواجِبُنا تَقضِي الحَوائِجَ بَينَنا		فَنَحْنُ سُكُوتٌ والهَوَى يَتَكَلَّمُ[٣]

أفلاترى أنّ مدير القرية إذ أراد أن يبدّل فيها قانوناً واحداً عموميّاً، أو يؤسّس هذا القانون الواحد، كم يحدث فيها من الانقلاب والمجادلات والمكالمات؟

فما ظنّك بدعوة النبيّ إلى التوحيد والصلاح! وماذا ينبغي أن يصدر من العُتاة في ردّ الدعوة الدائمة والنصح المستمرّ من النبيّ الأمين في الدعوة، المجاهد في سبيل الله،

---

١. هود (١١): ٢٥ ـ ٤٩.

٢. الهداية ٢: ٦٥.

٣. البيت للعبّاس بن الأحنف في ديوانه: ٢٣٩، وفيه:

وأُقسمُ لو أبصرتنا حين نلتقي		ونحن سكوتٌ خِلْتَنا نتكلّم

وهو مختلف عمّا عندنا.

وما يبدر منهم ليحافظوا على وثنيّتهم وعوائد ضلالهم؟

فأعرني رُشدَك لحظةً، وانظر في التوراة الرائجة التي سلكت في قصصها مسلك التأريخ الساذج. فهل تراها ذكرت في شأن نوح وقومه ما يليق بحوادث يوم واحد في الدعوة والوعظ وجوابهما؟ وهل ذكرت في هذا الشأن:

إلّا أنّ أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتّخذوا لأنفسهم نساءً. فقال الربّ: لايَدِينُ روحي في الإنسان إلى الأبد، تكون أيّامه مائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيّام... وبنات الناس ولدن الجبابرة... ورأى الربّ أنّ شرّ الإنسان قد كثر... فحزن الربّ أنّه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه، فقال: أمحُو عن وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقته مع البهائم والدبّابات وطيور السماء؛ لأنّي حزنت أنّي عملتهم. وأمّا نوح فوجد نعمة في عيني الربّ... وفسدت الأرض وامتلأت ظلماً... فقال الله لنوح: ... اصنع فُلكاً. إلى آخره[١].

هذا ما في التوراة في شأن نوح وقومه مع حذف التكرار والفضول.

ومع هذا فهل يحسن من أقلّ العقلاء أن يقول: إنّ هذه هي تمام الحوادث في أيّام نوح، وشؤون دعوته ووعظه ونصحه لقومه، ولم يصدر كلام لا من نوح ولا من قومه، لا في الدعوة ولا في الجحود، ولا في الوعظ ولا في الإصرار، ولا في النصح ولا في العناد، فلم يوبّخهم نوح ولم يضجروا منه، ولم يجادلوه ولم يستهزئوا به؟ حتّى أنّ من نقل من ذلك شيئاً، يقول له المتكلّف: اسكت؛ فإنّ التوراة لم تذكر من ذلك شيئاً مع أنّها أطنبت في بيان حزن الله وتأسّفه في قلبه.

أين العقول؟ أين الرشد؟ أين الأدب؟ فهل ترى ذا أدب يقدر أن يردّ بالتوراة تأريخاً من التواريخ إذا ذكر سيرة طويلة في تأريخ نوح مع قومه في دعوته؟ نعم له في قانون الأدب أن يطالب المؤرّخ بمستند ما يذكره.

وأمّا ردّه بأنّ التوراة الرائجة لم تذكر ذلك، فإنّ الأدب والأديب والفهم والفاهم

---

١. فانظر سفر التكوين ٦: ١ ـ ١٤.

لينكرونه أيّ إنكار، ويهتفون مع المؤرّخ في قوله:

وما على الحقائق إذا كانت توراتكم الرائجة ـ وحاشا الحقيقيّة ـ خرساء في هذا الشأن إلّا عن ذكر حزن الله وتأسّفه في قلبه.

والمتكلّف يعترض على القرآن كلام الله بإهمال توراته للحقائق اللازمة، إذا ذكر بعضها حسب مقتضى الحال في مقام الوعظ والتذكير والحجّة كما هو شأنه، لا سفاسف السيرة وخرافات الاعتقاد وفضائح الأنبياء والأولياء.

نعم، للمتكلّف أن يطالب بالحجّة على كون القرآن كلام الله، لكي يتيقّن بحقيقة ما يذكره، ولكنّه هوى به عاصف الهوى عن ذلك في مكان سحيق.

وبما ذكرنا تعرف شططه أيضاً في قوله: «ولم يرد في التوراة أنّ أراذل الناس اتّبعوا نوحاً» كما تعرف أنّ حجّته على إنكار ذلك بقول التوراة: «إنّ الله أغرقهم بالطوفان» إنّما هي حجّة واهية.

فإنّا لو خطر في خيالنا الاعتماد على التوراة الرائجة، لقلنا: يجوز أن يكون هؤلاء الصفوة الأفاضل الذين سمّاهم الطغاة بالأراذل، لم يدركوا زمان الطوفان، بل ماتوا بآجالهم أو أماتهم اضطهاد الكفر، فإنّ الدعوة والإيمان والطوفان لم تكن حادثة يوم وليلة، بل استمرّت الدعوة مئات من السنين حتّى جاء أمر الله بالطوفان.

غرق ابن نوح في الطوفان

وقال الله تعالى في سورة هود: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ * قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[1].

١. هود (١١): ٤٢ـ٤٣ و ٤٥ـ٤٦.

والمتكلّف[١] ينكر هذا كلّه، تشبّثاً بغمغمة توراته الرائجة في تأريخها المدمج وسيرتها البتراء. وقد اعترض[٢] على بعض المفسّرين في تسميتهم لابن نوح المشار إليه بكنعان، وقال: هذا غلط مبين.

وأظنّ ذلك لكون توراته تذكر أنّ ابن حام بن نوح اسمه كنعان. فكأنّ المتكلّف يقول: إنّ كنعان بن حام أخذ امتيازاً بهذا الاسم من أوّل الدنيا، فلم يقدر نوح أن يتعدّى قانون الأسماء ليسمّي ابنه كنعان. فيالهفاه على الأدب! على أنّ ذلك لا يمسّ القرآن في شيء.

واعترض أيضاً على قول نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وافترى على القرآن بنسبة التأوّه لنوح. ثمّ صار يتبجّح بما يذكر كتابه عن عالي لمّا أخبره صموئيل بما يحلّ بولديه لأجل شرّهما وما يحلّ ببيته من البوار حيث قال: «هو الربّ ما يحسن في عينيه يعمل». وصار يطالب نوحاً بما يزعمه من تسليم عالي لأمر الله حسب عادة الأتقياء.

قلت: قد قدّمنا لك[٣] أنّه ليس في قول نوح اعتراض على الله، ولا منافاة للتسليم لإرادته. وإنّما استفهم عن حقيقة الوعد السابق بنجاة أهله فقال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وعقّب سؤاله بالإذعان بالحكمة والرضى والتسليم. ولو أنّ المتكلّف يشعر بما قرفت به كتبه كبار الأنبياء، لما تعرّض للافتخار بتسليم عالي الذي ليس بنبيّ. ولكنّه كأنّه لا يدري لكي يتحذّر من أن يقول له نُقّاد الأدب وزعماء البحث: إذن فكيف تقول كتبكم: «إنّ موسى كليم الله يقول لله: لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟ لماذا أسأتَ إلى عبدك؟» وإنّ إيليا يقول: «إلى الأرملة التي أنا عندها أسأتَ أيضاً بإماتتك ابنها» وإنّ إرميا النبيّ يقول: «يا أيّها السيّد الربّ حقّاً إنّك خدّاع خادعت هذا الشعب» وأُورشليم قائلاً: «يكون سلام وقد بلغ السيف النفس» وإنّ المسيح يقول ـ وهو على

---

١. الهداية ٢: ٦٦.

٢. المصدر: ٦٥.

٣. تقدّم في ج ١، ص ٨٨ ـ ٨٩.

الصليب ـ: «إلهي إلهي لماذا شبقتني»، أي تركتني؟ ولماذا شُحِن كتاب أيّوب بنسبته لأيّوب كلمات الجزع والاعتراض على قضاء الله إلى حدّ الكفر؟

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾[1].

فاعترض المتكلّف على ذلك[2] بأنّ التوراة تقول: إنّ عمر نوح هو ٩٥٠ سنة، من دون زيادة ما قبل الرسالة وما بعد الطوفان كما يقتضيه القرآن.

قلت: قد ذكرنا لك في تتمّة الصدر[3] مبلغ اعتبار التوراة السبعينيّة في الأُمّة اليهوديّة، وعلوّ شأنها في الملّة النصرانيّة، بل كانت هي الشاهد لها في الدعوة وبشارة الرسالة. كما أنّ النسخة العبرانيّة عندهم هي الأصل المعتمد والسند والمستند. وبذلك تكون النسختان متكافئتين في الاعتبار، متزاملتين عندهم في محمل الصحّة على اسم التوراة الواحد ومعناها المتّحد.

فنقول إذن: إنّ التوراة بهاتين النسختين، وذاتها بهذين الزيّين أو الزينتين، قد اضطربت وتلوّنت في مقادير العدد وألفاظه في التأريخ والشريعة أفحش اختلاف، كما ذكرنا لك في أعمار الآباء[4]، وعمر اللاوي في خدمة المسكن. وزد على ذلك مخالفة النسخة السامريّة التي قال جمع من محقّقي النصارى ومفسّريهم بصحّتها واعتبارها.

دع عنك هذا كلّه، ولكنّ النسخة العبرانيّة قد ذكرنا لك اضطرابها في التأريخ ومقادير السنين على وجه بيّنّا لك في تتمّة الصدر أنّه كلّما رام المتكلّف أن يصلحه بمعونة معرفة المرسلين الأمريكان فلم يستطع إلّا مواساة توراته في الاضطراب والاختلاف.

---

١. العنكبوت (٢٩): ١٤.

٢. الهداية ٢: ١٠٢.

٣. تقدّم في ص ٤٩٠.

٤. تقدّم في ص ٥٠٢ و٥٠٥.

فقل للمتكلّف: أبهذه التوراة ـ ذات النشوء المجهول، والكاتب المغلاط ـ تريد أن تعارض القرآن الكريم؟ لا، ولا واحداً من كتب التأريخ. أيّها المتكلّف ألم يسمح أدبك أو إنصافك أن تجعل القرآن بمخالفته للتوراة الرائجة في صفّ النسخة السبعينيّة، إذ كان يرتّلها المسيح‎ﷺ ـ كما تقولون ـ في خطابه، ويدرسها الرسل والقدماء كما تقولون لاحتجاجهم؟ لا ولا منّة ولا إحسان. فإنّما هو هو ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] و﴿ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] و﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3].

[آيات القرآن في شأن إبراهيم]

شأن إبراهيم والكواكب [ومحاجّته مع النمرود]

وقد كرّر المتكلّف[4] اعتراضه على الآيات التي ذَكَرَت ذلك في سورة الأنعام[5]. وقد قدّمنا لك الكلام في ذلك مستوفى[6].

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[7].

فقال المتكلّف ما ملخّصه:

أجمع علماء الإسلام على أنّ الذي حاجّ إبراهيم هو نمرود بن كنعان الجبّار ـ ولا شكّ أن محمّداً‎ﷺ اتّخذ هذه القصّة من الخرافات اليهوديّة التي كانت متداولة في

١. البقرة (٢): ٢.
٢. الأعراف (٧): ٢.
٣. النساء (٤): ٨٢.
٤. الهداية ٢: ٤٥.
٥. الأنعام (٦): ٧٥ـ ٧٨.
٦. تقدّم في ج ١، ص ١٠٠ ـ ١٠١.
٧. البقرة (٢): ٢٥٨.

عصره. والتوراة منزّهة عن مثل هذه الخرافات ـ على أنّ نمرود لم يكن معاصراً لإبراهيم، بل يعلم من سفر التكوين أنّه كان بين نمرود وإبراهيم نحو ثلاثمائة سنة. فأقوال القرآن هي من الخرافات الملفّقة[١].

قلت أوّلاً: إنّ التوراة الرائجة لا يحتمل شأنها أن تذكر مثل هذه الحجّة الباهرة، وتمجّد الله ورسوله بذكر واقعتها. وإنّما توفّقت لأن تقتصر على واقعتين في تأريخ مابين الطوفان وهجرة إبراهيم:

الواقعة الأُولى:

أنّ نوحاً شرب الخمر وسكر وتعرّى في خبائه، فأبصر حام عورته... وأخبر ساماً ويافث... فلمّا استيقظ نوح من خمره... لعن كنعان[٢].

الواقعة الثانية:

أنّ بني آدم عزموا على أن يبنوا مدينةً وبرجاً، فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج. وقال: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض[٣].

وثانياً: إنّ الذي سمّاه المسلمون هو نمرود بن كنعان، وقالوا هم وغيرهم من المؤرّخين: إنّ نمرود اسم يسمّى به ملوك تلك البلاد، كما يسمّى كلّ واحد من ملوك الفرس كسرى، وكلّ واحد من ملوك الروم قيصر، كما سمّى به العهد الجديد اوغسطس[٤]، وطيباروس[٥]، وكلوديسوس[٦]، وكما سمّى العهد القديم ملوك مصر فرعون، فسمّى بذلك صاحب إبراهيم[٧].

١. الهداية ٢: ٣٠ ـ ٣١.
٢. سفر التكوين ٩: ٢١ ـ ٢٥.
٣. سفر التكوين ١١: ٥ ـ ٨.
٤. إنجيل لوقا ٢: ١.
٥. إنجيل لوقا ٣: ١.
٦. أعمال الرسل ١١: ٢٨.
٧. سفر التكوين ١٢: ١٥ ـ ٢٠.

وصاحب يوسف[١]، وصاحب موسى[٢]، وصهر سليمان[٣]، ومعاصر إرميا[٤]. وإنّ نمرود بن كنعان لا يلزم أن يكون هو المذكور في توراة المتكلّف.

وثالثاً: سلّمنا ذلك، ولكنّ التوراة ذكرت أنّ الذين نجوا بالفلك من الطوفان هم ثمانية من البشر: «نوح وامرأته و بنوه الثلاثة ونساؤهم»[٥] وذكرت في أولاد حام كوشا وذكرت أنّ بني كوش:

سبا، وحويلة، وسبته، ورعمة، وسبتكا. وأنّ بني رعمة: شبا، وددان. وبعد هذا كلّه ذكرت أنّ كوشا ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جبّاراً في الأرض وكان ابتداء مملكته بابل وأرَك. وأكّد وكَلْنَة في أرض شِنعار[٦].

وتصحيح عبارة التوراة يقتضي أن يكون نمرود من أولاد كوش بالواسطة. وهبة كان ولده بلا واسطة، ولكن كم ينبغي أن يكون من السنين بين الطوفان وبين موت نمرود، بحسب أعمار تلك الأدوار ومواليدها. أفلم تذكر التوراة أنّ أعمار تلك الطبقات كانت خمسمائة ومايقاربها[٧]. فمن أقرب الممكنات العاديّة أن يعيش ولد كوش إلى ما بعد الطوفان بأربعمائة سنة أو أكثر. وإذا أخذنا مولد إبراهيم بحسب التوراة العبرانيّة[٨] وجدناه أبعد ما يكون فيه عن الطوفان نحو ثلاثمائة واثنتين وخمسين سنة، أو ثلاثمائة وستّين سنة.

وحاصل ذلك أنّ تقاويم التوراة العبرانيّة في ذلك الوقت تقتضي أن يكون نمرود المذكور في التوراة قد أدرك في عمره المعتاد مدّة طويلة وسنين عديدة من عمر

١. سفر التكوين ٤١: ١ ـ ٥٥.
٢. سفر الخروج ١ و ١٥: ٢٠.
٣. سفر الأيّام الأوّل ٣: ١.
٤. سفر إرميا ٤٤: ٣٠.
٥. سفر التكوين ٨: ١٨.
٦. فانظر سفر التكوين ١٠: ٦ ـ ١١.
٧. سفر التكوين ١١: ١٢ ـ ١٨.
٨. سفر التكوين ١١: ١٠ ـ ٣٢ و ١٢: ٤؛ وأعمال الرسل ٧: ٤.

إبراهيم. كما اتّفق بحسب تقويمها أنّ إبراهيم أدركه جميع آبائه الذين هم بعد الطوفان مدّة طويلة ما عدا نوحاً وفالج.

إذا عرفت هذا فقل للمتكلّف: إنّ نمرود الذي ذكره المسلمون هو النمرود بن كنعان أحد النماردة الكثيرين، لا خصوص من ذكرته توراتك. وهبة هو، فإنّ أبعد مدّة تقولها توراتك العبرانيّة بين الطوفان ومولد إبراهيم هي ٣٥٢ أو ٣٦٠ سنة، فإذا جعلنا بين إبراهيم وبين نمرود المذكور في التوراة ثلاثمائة سنة ـ كما تزعم ـ فقل متى كانت ولادة كوش من حام؟ ومتى كانت ولادة نمرود؟ ومتى كان تملّكه على بابل وأَرَك وأكّد وكَلْنَة في أرض شنعار؟ ومتى تمصّرت البلاد بعد الطوفان؟ أفتقول بإلهامك ومعرفة المرسلين الأمريكان: إنّ ولادة كوش كانت بعد الطوفان بسنة، وولادة نمرود كانت بعد الطوفان بسبع عشرة سنة، ثمّ ملك البلاد الممصّرة ومات بعد الطوفان بنحو ٥٢ أو ٦٠ سنة، فكان بينه وبين إبراهيم ٣٠٠ سنة؟

ولكنّ المتكلّف لا يبالي من أن يقول مثل ذلك فيخالف كتبه.

أو ليس هو الذي قال:

> اقتضت عناية الله الإلهيّة أن يبقى نوح حتّى رأى إبراهيم، فأخبره عن الطوفان وعن أعمال الله معه و غير ذلك، فنقل إبراهيم هذه القصص الإلهيّة وأعلمهم إرادة الله؟[١]

فلم يبال في ذلك بمخالفة كتبه التي يعوّل عليها، فإنّ توراته تقول: «إنّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة»[٢]. وتقويم العبرانيّة يقول بحسابه:

> إنّ ولادة تارح أبي إبراهيم لمائتين واثنتين وعشرين سنة من الطوفان، وكانت أيّام تارح مائتين وخمس سنين ومات في حاران[٣].

---

١. الهداية ٣: ٢١٧.

٢. سفر التكوين ٩: ٢٨.

٣. سفر التكوين ١١: ١٠ ـ ٣٢.

«وإنّ إبراهيم لمّا خرج من حاران كان ابن خمس وسبعين سنة»[١]. والعهد الجديد يقول: «إنّ إبراهيم خرج من حاران بعد ما مات أبوه»[٢].

فإن فرضنا أنّه خرج من حاران في سنة موت أبيه، فلا بدّ أن يكون مولده لمائة وثلاثين سنة من مولد أبيه تارح، فيكون مولد إبراهيم لسنة ثلاثمائة واثنتين وخمسين سنة من الطوفان، فيكون مولده بعد موت نوح بسنتين. فأين تكون رؤية نوح لإبراهيم وإخباره عن الطوفان وأعمال الله معه؟

[إيمان إبراهيم]

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[٣].

فاعترض المتكلّف[٤] على هذه الآية بأنّ عبارة القرآن ناطقة بوقوع الشكّ من إبراهيم في قدرة الله تعالى. وتشبّث لذلك برواية من الآحاد.

قلنا: وقد ذكرنا لك[٥] أنّ قول إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ لصريح ـ على رغم أنف الغباوة والعناد ـ بأنّ إبراهيم مؤمن بهذه الحقيقة لا شكّ له فيها، ولكنّه طلب تأييد العقل بالحسّ؛ ليحصل له الاطمئنان باليقين الكامل؛ إذ لا شكّ أنّ العقل إذا تأيّد بالحسّ، كان المعلوم أوقع في النفس، وأثبت في اليقين من المعقول الصرف.

وذكرنا لك أيضاً أنّ الرواية يكفي في ردّها مخالفتها لصراحة القرآن الكريم. وطلبنا منك المقايسة في الدلالة على الإيمان والشكّ بين قول إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾

---

١. سفر التكوين ١٢: ٤.
٢. أعمال الرسل ٧: ٤.
٣. البقرة (٢): ٢٦٠.
٤. الهداية ٢: ٣٣ و ٣٤.
٥. تقدّم في ج ١، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

وبين حكاية التوراة لقول إبراهيم أيضاً. ففيها:

وقال: أنا الربّ الذي أخرجك من أُور الكلدانيّين ليعطيك هـذه الأرض لتـرثها. فقال: أيّها السيّد الربّ بماذا أعلم أنّي أرثها؟[١]

أفترى هذا الكلام يعطي رائحة من الإيمان والتصديق بوعد الله في أمر جرت عليه سنّة الله في عباده وبلاده من توريثه أرض قوم لآخرين؟ أم يعطي أنّه لا يحصل العلم بمجرّد قول الله ووعده، وإنّما يحصل العلم بشيء آخر، كما قيل: بماذا أعلم أنّي أرثها؟

هب، أنّ المتكلّف لا يفهم القرآن ولا اللغة العربيّة، أو أنّه يـتحامل لتـعصّبه عـلى القرآن بالافتراء توهّماً لرواج ذلك عند بعض الأوباش، ولكنّه ألم يكن يدري بأنّ في توراته مثل هذا الذي يفضحه عند المقايسة؟ ولعمر الأدب لو أراد أن يدلّ على ما في توراته من الخلل، لما أحسن التنبيه بمثل هذا التعريض.

وأظرف شيء مع ذلك أنّه يقول: «إنّ كتاب الله يعلّمنا بأنّ إبراهيم لم يشكّ في قدرة الله مطلقاً». إذن فالتوراة التي ذكرت هذا الكلام كتابُ مَن؟ وهل ترى المتكلّف يقول: إنّ قول إبراهيم: «بماذا أعلم» ليس شكّاً في قدرة الله، وإنّما هو شكّ في صدقه ـ جلّ شأنه ـ في وعده؟ نعم يقول ولا يبالي.

ولا تقل: إنّ المتكلّف لا يعلم بهذا الكلام من توراته؛ فإنّه نقل منها هذا المقام برمّته، ولكنّه ستر بذيل أمانته قولها: بماذا أعلم أنّي أرثها؟

وحاصل هذا المقام هو أنّ الله ـ تبارك اسمه ـ قال لإبراهيم:

أُعطيك هذه الأرض لترثها. فقال إبراهيم: بماذا أعلم أنّي أرثها؟ فقال له: خذ لي عِجلةً ثُلثيّة وعنزاً ثُلثيّة وكبشاً ثُلثيّاً ويَمامةً وحمامة. فأخذها وشقّها من الوسط وجعل شقّ كلّ واحد مقابل صاحبه، وأمّا الطير فلم يشقّه.

ثمّ غابت الشمس فصارت العتمة وإذا تنوّر دخان ومصباح نار يجوز بين تـلك القطع. في ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض[٢].

---

١. سفر التكوين ١٥: ٧ و ٨.

٢. سفر التكوين ١٥: ٨ ـ ١١ و ١٧ ـ ١٨.

فانظر وقل: إذا كان وعد الله لا يوجب العلم بصدقه حتّى يقول إبراهيم: بماذا أعلم أنّي أرثها؟ فما وجه الدلالة في قطع الحيوانات وظهور الدخان والنار بين قِطَعها؟ فإن كان إبراهيم يخاف خلف الوعد والندم والحزن والتأسّف في القلب على صدور الوعد، فإنّ هذا العمل لا يوجب له العلم بعدم الندامة ولا فائدة فيه.

أو تقول مثل ما قال المتكلّف في هذا المقام:

فهذه الذبيحة هي لتأييد العهد الذي عقده الله مع إبراهيم، فكانت عادة اليهود ـ بل الأُمم أيضاً ـ عند إبرام عهد يذبحون الذبيحة إشارة إلى أنّ من ينكث العهد يحلّ به سيف العدل الإلهي، فالمولى ـ سبحانه وتعالى ـ تفضّل وأعطاه هذه العلامة لتأييد العهد وتثبيت إيمانه، وأنّ الله سينجز ما وعده به.

إذن فهل حصل العلم بعقد الميثاق وتثبيت العهد بهذه العادة الأُمميّة، بسبب إشارتها إلى جعلها سيف العدل الإلهي حوالةً على الناكث، أم لم يحصل، ولماذا يحصل؟

فإنّ من لا يَصدُق بوعده لا يؤتَمَن على الوفاء بعهده، والتوراة لم تذكر حصول العلم بواسطة هذا العهد. ولعلّها تقول: إنّ قانون الفداء لم يترك وثوقاً بمراقبة سيف العدل الإلهي؛ إذ لعلّ العدل والقداسة وبغض الخطيئة والنكث للعهد تكون سبباً لأن يكون إبراهيم فادياً وإن استعفى، فيحمل عليه قصاص الناكث للعهد. غفرانك اللهمّ جلّ شأنك وتعاليت عمّا يقولون.

ثمّ اعترض المتكلّف على حديث الطيور في الآية الكريمة، ودلالتها على حياتها واجتماع أوصالها بعد التفرّق، فقال: «هذه الأقوال ليست من الأغلاط الفاحشة بل من الخرافات الخارجة عن حدّ المعقول».

قلت: إن كان لك إلمام بمعرفة أحوال المتكلّف فأبِنْ لي عن منشأ هذا الكلام، هل هو هذيان مُبَرْسَم؟ أو نفثة باح بها كامنُ الإلحاد وإنكار المعاد وقدرة الله، انطواء الاعتقاد على أنّ عود الأجسام والتئامها بعد تفرّق أجزائها خارج عن حدّ المعقول؟ وكيف يكون ذلك والمتكلّف والمرسلون الأمريكان يدّعون أنّهم أتباع المسيح الذي هو والعهد الجديد أيضاً يحتجّان على وقوع القيامة وعَود الأجسام بعد تفرّقها، وينوّهان

بقدرة الله؟ وهم يدّعون أنّهم رسل الدين المسيحي، لا رسل داروين.

[إبراهيم وأبوه آزر]

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فاعترض المتكلّف[٢] على تسمية القرآن أبا إبراهيم آزر، مع أنّ التوراة سمّته: «تارح». وبأنّ تارح ما كان يعبد الأصنام، بدليل أنّه هاجر مع إبراهيم إلى حاران، فلو لم يكن تقيّاً، لما ترك وطنه وهو عزيز عنده.

قلنا: إنّ آزر معرّب أليعازر. ومنه قول المتنبّي:

أو كان صادف رأس آزر سيفه[٣].

حيث أراد منه أليعازر الذي يذكر إنجيل يوحنّا أنّ المسيح أحياه من الموت. فيجوز أن يكون لفظ أليعازر لقباً لتارح فإنّ معناه «الله عون» فسمّى القرآن تارح بلقبه.

ودعوى أنّ تارح لم يكن يعبد الأصنام، إنّما هي من المتكلّف دعوىً، لا شاهد عليها إلّا التخمين المعارض بأقوى منه؛ فإنّ لابان بن بتوئيل بن ناحور أخا إبراهيم كان في حاران يعبد الأصنام[٤].

وهذا يعطي أنّ بيت إبراهيم لم يكونوا في حاران أبرياء من عبادة الأصنام.

ويؤيّد ذلك أنّ إبراهيم هاجر عن أهله من حاران ولم يتبعه إلّا لوط وسارة. ويجوز أن يكون تارح هاجر من وطنه حبّاً لإبراهيم، وفراراً بولده من كيد عبدة الأوثان. وهذا ممّا يقدم عليه الأب الشفيق وإن لم يكن على دين ولده.

ولنا أن نقول: إنّ آزر المذكور في القرآن لم يكن أبا إبراهيم حقيقةً، وإنّما هو حسب

---

١. الأنعام (٦): ٧٤.

٢. الهداية ٢: ٤٤.

٣. صدر بيت، ولم أجده في ديوان المتنبّي.

٤. انظر سفر التكوين ٣١: ١٩ و ٣٠.

قول التوراة: «أليعازر الدمشقي ملك بيت إبراهيم، أو ابنه المتأهّل لوراثة إبراهيم»[١]. فسمّاه القرآن أباً لإبراهيم حسب الاصطلاح الجاري في القديم من تسمية القيّم بالأُمور أباً وإن كان عبداً أو رعيّة، فعن قول يوسف: «الله جعلني أباً لفرعون»[٢]. وعن قول ميخا للغلام اللاوي: «كن لي أباً»[٣]. وعن قول الدانيّين لذلك الغلام أيضاً: «كن لنا أباً»[٤]. وربما يشير تصريح القرآن باسم آزر إلى أنّه احتراز عن الأب الحقيقي.

وقال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٥].

فاعترض المتكلّف[٦] بأنّه حاشا لإبراهيم أن يستغفر له، فإنّه يعرف أنّه لا تنفع الشفاعة بعد الموت. وبأنّ أبا إبراهيم ما كان مشركاً ولا عدوّاً لله.

قلنا: إنّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ كافٍ في بيان بطلان الاعتراض، وكاشف عن أنّ الاستغفار كان لرجاء الإيمان. فيكون المراد من الاستغفار هو طلب التوفيق للإيمان الذي هو سبب المغفرة، ولكن ـ جلّ اسمه ـ لا يُلْجِئ المعاند، ولا يوفّق إلّا من هو أهل. فلمّا تبيّن لإبراهيم عناد أبيه ويئس من إيمانه تبرّأ منه، كما هو وظيفة الأنبياء والأولياء، بل وسائر المؤمنين. فلم يقل لله، ولا يقول لا إبراهيم ولا غيره من الأنبياء، في شأن من يعبد الوثن: والآن إن غفرت خطيئتهم وإلّا فامحني من كتابك الذي كتبت[٧].

هذا. وقد تقدّم الكلام بأنّ أبا إبراهيم المذكور ما كان مشركاً.

---

١. سفر التكوين ١٥: ٢ ـ ٤.
٢. سفر التكوين ٤٥: ٨.
٣. سفر القضاة ١٧: ١٠.
٤. سفر القضاة ١٨: ١٩.
٥. التوبة (٩): ١١٤.
٦. الهداية ٢: ٦٠.
٧. سفر الخروج ٣٢: ٣٢.

[بشرى الملائكة لإبراهيم وقصّة قوم لوط]

وقال الله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَامْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ﴾[١].

واعترض عليه المتكلّف[٢] بمخالفته لما ذكر في توراته التي عرفت حالها[٣]، وأُنموذج اعتراضاته في ذلك هو اعتراضه على نقله أنّ الملائكة لم يأكلوا، حيث إنّ توراتهم تقول: «إنّهم أكلوا».

قلت: ويظهر وجه اعتراضه بقول توراته:

وظهر له الربّ... وإذاً ثلاثة رجال ـ إلى أن قالت: ـ... فجاء الملاكان إلى سدوم... فصنع لهما لوط ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا[٤].

وهي وإن اضطربت في العدد، لكنّها لا تخفى دلالتها على أنّ الملاكين اللذين جاءا إلى سدوم، هما اللذان جاءا إلى إبراهيم، وأكلا تحت الشجرة من ضيافته وذهبا نحو سدوم. ويتّضح وجه اعتراضه بقول عهده الجديد في الملائكة: «أليس جميعهم أرواحاً؟»[٥] وباحتجاج أناجيله على أنّ أبناء القيامة لا يتزوّجون، بكونهم مثل الملائكة[٦].

واعترض المتكلّف أيضاً على القرآن وقال: «عدم تعيين عدد الرجال يدلّ على الجهل»[٧] يعني بذلك عدد الرسل الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم.

---

١. هود (١١): ٦٩ ـ ٧١.

٢. الهداية ٢: ٦٦.

٣. سفر التكوين ١٨: ١ ـ ١٦.

٤. سفر التكوين ١٨: ١ و ١٩: ١ ـ ٣.

٥. الرسالة إلى العبرانيّين ١: ١٤.

٦. إنجيل متّى ٢٢: ٣٠؛ إنجيل مرقس ١٢: ٢٥؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٣٦.

٧. الهداية ٢: ٦٧ س ٢٢.

قلت: وقد قدّمنا لك أنّ القرآن الكريم لم يدخل في شؤونه مدخل التأريخ، بل لا يتعرّض في نصّه وبيانه إلّا لما كان مهمّاً في الغرض المقصود. ولا مداخلة هاهنا في الغرض للنصّ على كون الرسل ثلاثة أو عشرة، فاكتفى بالإشارة إلى الحقيقة، بصيغة الجمع وضميره الدالّين على أنّهم لا ينقصون عن ثلاثة.

ولا تعجّب من سخافة كلام المتكلّف في اعتراضه هذا، ولكن تَبَصَّر فيما جناه بهذا الاعتراض على نفسه وعلى كتابه وعلى قومه، إذ حمل المتتبّع على أن ينظر في توراته فيرى خبطها في هذا المقام.

فإنّها بينما تقول: «إنّ هؤلاء الرسل ثلاثة رجال ـ وقاموا وتطّلعوا نحو سدوم ـ وانصرفوا من هناك وذهبوا نحو سدوم»[١]، إذا بها قد قالت: «وجاءَ الملاكان الاثنان إلى سدوم»[٢]، فانقلب الثلاثة اثنين.

ثمّ قالت أيضاً في مخاطبة لوط لهؤلاء الاثنين وجوابهما له:

فقال لهما لوط: لا يا سيّد هو ذا عبدك وجد نعمة في عينك عظَّمت لطفك... فقال له: قد رفعت وجهك أنا لا أقلب المدينة... أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك[٣].

فانقلب الاثنان واحداً.

وحقَّ للمتكلّف أن يفتخر بتوراته ويقول: إنّ الناس من هذا المقام أخذوا علم الحساب ووضعوا أُصوله، واستخرجوا قواعد الجبر والمقابلة.

ولعلّ المتكلّف يقول: إنّ هذا المقام من مجاهرة التوراة بالثالوث.

فنقول له: إنّ توراتك ثلّثت وثنّت ووحّدت موضوعاً واحداً من الملائكة. وإنّ المعروف منكم وممّن تقدّمكم بعقيدة الثالوث كالبراهمة والبوذيّين وغيرهم من الأُمم القديمة[٤]،

---

١. سفر التكوين ١٨: ٢ و ١٦ و ٢٢.

٢. سفر التكوين ١٩: ١.

٣. سفر التكوين ١٩: ١٨ ـ ٢٢.

٤. انظر كتاب العقائد الوثنيّة في الديانة النصرانيّة: ١٧ ـ ٣٣.

إنّما هو التثليث في الذات الإلهيّة ـ تعالى الله عن ذلك ـ فتجعلونه واحداً ذا أقانيم ثلاثة وعليه جرت مزاعمك[١]. ولا نسمع عنكم ولا عمّن قبلكم دعوى الجمع بين التثليث والتثنية والتوحيد حتّى في الملائكة.

فإن زعم المتكلّف كمزاعم الرسالة المنسوبة لعبد المسيح أنّ التوراة أرادت بذلك الثالوث الإلهي وذكرت أقانيمه الثلاثة.

قلنا له: إذن فقل: إنّ البرهان لك من توراتك على ذلك هو أنّ إبراهيم عرف أنّهم أقانيم الإله الثلاثة، ولذلك دعاهم لأن يسندوا قلوبهم بكسرة خبز فأكلوا تحت الشجرة. وبعد ما انقلب هؤلاء الثلاثة اثنين أكلا عند لوط من ضيافته والخبز الفطير. وبعد ما انقلب الاثنان إلى واحد صار لا يقدر على أن يفعل شيئاً حتّى يجيء لوط إلى صوغر.

ومن أين يجد أهل علم اللاهوت في الاحتجاج على الأُلوهيّة أحسن من مجد هذه الصفات؟[٢]

[شأن إبراهيم وابنه إسماعيل وبناء الكعبة]

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة الصافّات في شأن إبراهيم وابنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[٣].

فاعترض المتكلّف[٤] بأنّ هذا لم يكن في الرؤيا، بل إنّ الله أمره بذلك، كما في التوراة.

قلت: غاية ما في التوراة على ما فيها، «أنّها قالت: إنّ الله امتحن إبراهيم، فقال له: يا إبراهيم، فقال: ها أنا، فقال: خذ ابنك وحيدك»[٥] إلى آخره. ولم تصرّح بأنّ هذا كان في يقظة أو رؤيا. وإنّ جملة من نبوّات إبراهيم وكلام الله وخطابه معه قد كانت في الرؤيا

---

١. الهداية ٤: ٢٤٥ ـ ٣٠١.
٢. فانظر سفر التكوين ١٨ ـ ١٩.
٣. الصافّات (٣٧): ١٠٢.
٤. الهداية ٢: ١٠٦.
٥. سفر التكوين ٢٢: ١ ـ ٢.

والمنام[١]. فالقرآن أوضح الحقيقة على خلاف إبهام التوراة لها.

وقال الله ـ تبارك اسمه ـ في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾[٢].

والمتكلّف ينكر ذلك ويقول: «وكتاب الوحي الإلهي يعلّمنا أنّ إبراهيم لم يتوجّه مطلقاً إلى الكعبة ولا إلى بلاد العرب».

ثمّ ذكر ما ذكرته توراته في سيرة إبراهيم المجملة، ثمّ قال: «والحقيقة هي أنّ الكعبة بيت زحل»[٣].

قلت: ليس في التوراة الرائجة ما يدلّ على أنّ إبراهيم لم يتوجّه مطلقاً إلى الكعبة ولا إلى بلاد العرب، وغاية ما فيها أنّها لم تذكر بصراحتها سفر إبراهيم إلى مكّة، وغاية ما تعرّضت له من أحوال إبراهيم إنّما هو رحلاته التي هاجر فيها بعائلته وثقله وبيته. وإنّما كان ذهابه إلى مكّة من سفريّاته الخصوصيّة، ولم تتعرّض التوراة الرائجة لهذا النوع من السفريّات. كما أهملت ذكر شؤونه وأحواله ونشوئه وتربيته فيما بين النهرين، وقد قضى من ذلك شطراً وافياً من عمره، وهو مؤمن، بل نبيّ بين وثنيّين، لابدّ أن تجري لهم معه شؤون مهمّة. وكما أهملت ذكر شؤونه في حاران أيضاً.

أفترى إذا قال بعض المؤرّخين: إنّ إبراهيم سافر وهو فيما بين النهرين إلى اليمن أو عمان، أو سافر وهو في حاران إلى ناحية الشمال، فهل يحسن من ذي أدب أن يردّه بخلوّ التوراة من ذلك؟ كلّا.

فإن قلت: إنّ الذي يُدَّعى من سفر إبراهيم إلى مكّة وبناء البيت أمر مهمّ، لا ينبغي للتوراة أن تهمله إذا كان له أصل.

---

١. انظر سفر التكوين ١٥: ١ ـ ١٠ و ١٢ ـ ١٧.

٢. البقرة (٢): ١٢٥ و ١٢٧.

٣. الهداية ٢: ٢٣.

قلت: أمّا أوّلاً: فإنّ توراة حلقيا ـ أو غيره ـ مشغولة بما هو أهمّ من ذلك عندها، وهو التسجيل على رحلة إبراهيم إلى مصر وجرار، لكي تجري وظيفتها في ذكر قصّة فرعون وأبي مالك مع إبراهيم، فتمجّد إبراهيم بذلك[١].

وأمّا ثانياً: فإنّ هذه التوراة إنّما هي كآبائها بني إسرائيل، إذ حرصوا على أن لا يجعلوا نصيباً لغيرهم في توحيد الله وعبادته وشريعته ونبوّته. فكيف تسمح أن تذكر بناءَ إبراهيم وإسماعيل للبيت، مع ما فيه من الفضل والرفعة للإسماعيليّين. وإنّ كاتب الأيّام الأوّل لم يدعه الحنق على الإسماعيليّين أن ينسبهم إلى أبيهم، بل سمّاهم الهاجريّين[٢]. وسرى هذا الوباء حتّى إلى كاتب رسالة غلاطية فصار يضرب مثله في الرفعة والضعة بابن سارة وابن هاجر[٣].

ويدلّك على ذلك أنّ هذه التوراة ذكرت أولاد إسماعيل فقامت ووقعت في الخبط، فإنّها لمّا تعرّضت لذكر الذين اشتروا يوسف من إخوته وباعوه في مصر ذكرت ما ملخّصه:

> وإذا قافلة إسماعيليّين... ذاهبون إلى مصر فقال يهوذا: تعالوا نبيعه للإسماعيليّين... واجتاز رجال مديانيّون تجّار فسحبوا يوسف من البئر وباعوه للإسماعيليّين... فأتوا بيوسف إلى مصر... والمدانيّون باعوه في مصر لفوطيفار[٤].

ثمّ قالت: ويوسف أُنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار من يد الإسماعيليّين.

فانظر إلى هذا الخبط والجهل بأنساب أولاد إبراهيم؛ فإنّ هؤلاء الجماعة نسبتهم هذه التوراة مرّةً إلى إسماعيل بن إبراهيم من هاجر. ونسبتهم مرّةً إلى مديان، وإن كان المراد به ابن إبراهيم، فهو مديان بن إبراهيم من قطورة. ونسبتهم مرّة ثالثة إلى مدان، وإن كان ابن إبراهيم، فهو مدان بن إبراهيم من قطورة أيضاً شقيق مديان.

---

١. انظر سفر التكوين ١٢: ١١ ـ ٢٠ و ٢٠: ١ ـ ١٨.

٢. سفر الأيّام الأوّل ٥: ١٠ و ١٩ و ٢١.

٣. الرسالة إلى أهل غلاطية ٤: ٢٢ ـ ٣١.

٤. سفر التكوين ٣٧: ٢٥ ـ ٣٦.

وأمّا ثالثاً: فإنّ أُمّة العرب بأسرها متسالمون في أجيالهم على نقلهم أنّ الكعبة الشريفة هي بناء إبراهيم وإسماعيل. وقلّما يتّفق لحقيقة أن يتواتر نقلها بمثل هذا التواتر، فهو حجّة مرغمة للخصم، ولا يمنع من ذلك أنّ العرب أخيراً وضعوا فيها الأصنام، لمّا تلاشت من بينهم حقيقة الحنيفيّة ملّة إبراهيم، فانقلبوا إلى الوثنيّة والشرك. كما هو الوباء العامّ الذي لم تسلم منه أُمّة إلّا أُمّتنا المرحومة، ثبّتها الله على توحيده وطاعته. فإنّ بني إسرائيل شعب الله، وابنه البكر ـ بقول توراتهم ـ قد جعلوا الأصنام في بيت المقدس مراراً عديدة لمّا تقلّبوا في وثنيّتهم، بل أخربوا بيت المقدس وانتهبوه.

وأمّا رابعاً: فإنّ رسول اللهﷺ طالما هتف بين العرب بأنّ الكعبة بناء إبراهيم، وتلا عليهم الآيات المصرّحة بذلك. فلو كان في ذلك خدشة، لصالوا على دعوته بذلك، وجعلوه برهاناً على تكذيبه في دعوته الثقيلة على أهوائهم، ولم يلتجئوا إلى المكابرة بنسبة الجنون إلى قدسه، مع أنّهم كانوا يعاملونه من حيث الكمالات معاملتهم لأكمل البشر وأعقلهم.

فإن قلت: إنّهم عرب خالون من المعارف، فتروج فيهم مثل هذه الدعوى.

قلت: إنّ كلّ من له إلمام بفلسفة القبائل ومعرفة أحوال العرب، يعلم أنّ لهم المعرفة التامّة في تأريخ قديمهم وآثار آبائهم وأسباب شرفهم، بل كان ذلك من أهمّ معارفهم عندهم الرائجة بينهم.

ولا تقل: إنّ رواج ذلك سهل بين الإسماعيليّين؛ لأنّه يتعلّق بمجدهم، وذلك لأنّ القحطانيّين لو وجدوا أدنى سبيل لمنعه لمنعوه، ولم يتركوا الإسماعيليّين يفخرون عليهم بذلك، فإنّهم من قديم الدهر وحديثه لا يزالون يفاخرون الإسماعيليّين وينافرونهم. ومن ذلك تعلم أنّ تسليم القحطانيّين لهذه الحقيقة برهان كافٍ على أنّها لا تختلج فيها الأوهام، إلّا إذا أقحمتها العصبيّة وقلّة المبالاة.

ولئن علقت نفسك بإهمال التوراة الرائجة لهذه الحقيقة، ولم يُزِح ما قدّمناه شكوك شبهاتك، فلا تحتفل بإهمال التوراة؛ فإنّ العهد الجديد يشهد بأنّها قد أهملت أهمّ تأريخ إبراهيم وألزم شؤونه بالذكر فيما هي بصدده، وهو بدء الدعوة وظهور الله له في أرض

الكلدانيّين فيما بين النهرين، وأمره له بالهجرة من وطنه. فقد جاء في أعمال الرسل كتاب إلهام المسيحيّين عن استفانوس المذكور أنّه «مملوء من الإيمان والروح القدس والقوّة، بحيث يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب»[١]، أنّه قال:

ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو فيما بين النهرين قبلما سكن في حاران وقال له: اخرج من أرضك ومن عشيرتك وهَلُمّ إلى الأرض التي أُرِيك. فحينئذٍ خرج من أرض الكلدانيّين وسكن في حاران[٢].

ومع ذلك فإنّ التوراة لم تذكر أنّ الله دعا إبراهيم فيما بين النهرين للمهاجرة، وإنّما ذكرت:

أنّ تارح أخذ أبرام ابنه ولوطاً وساراي كَنَّتَه[٣]... فخرجوا من أُور الكلدانيّين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك... ومات فيها تارح[٤].

ثمّ قالت بعد ذلك:

وقال الربّ لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُرِيك... فذهب أبرام كما قال له الربّ، وذهب معه لوط وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لمّا خرج من حاران. فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكلّ مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوسَ التي امتلكا في حاران[٥].

وهي صريحة في أنّ ما تذكره من دعوة الله لإبراهيم كان في حاران.

وحينئذٍ فمقتضى العهد الجديد أنّ التوراة الرائجة لا تخلو من أحد الأمرين:

إمّا أنّها حرّفت الواقعة الواحدة، والدعوة التي كانت في أرض الكلدانيّين، فجعلتها واقعة في حاران.

وإمّا أنّها أهملت ذكر الدعوة التي وقعت أوّلاً في أرض الكلدانيّين، مع أنّها ألزم

١. أعمال الرسل ٦: ٥ ـ ٩.
٢. أعمال الرسل ٧: ٢ ـ ٤.
٣. الكَنَّة: زوجة الابن. الصحاح ٦: ٢١٨٩، «ك ن ن».
٤. سفر التكوين ١١: ٣١ ـ ٣٢.
٥. سفر التكوين ١٢: ١ ـ ٥.

بالذكر. وزادت على ذلك بأن مسخت الحقيقة ونسبت الهجرة إلى تصرّف تارح.

ومع هذا لا يصحّ للنصراني أن يتشبّث بهذه التوراة على إنكار حـقيقة، إذا لم تَـفُز بذكرها، حتّى لو فرضنا سلامتها من الخلل من غير هذه الجهة.

والمتعرّب أيضاً لجّ في إنكار مجيء إسماعيل إلى مكّة، وأنكر على سايل قوله في أوّل مقالته في بلاد العرب وتهامة: «أنّ إسماعيل بن إبراهيم توطّنها» فقال: ليس هذا بثبت؛ لأنّ في فلسطين موضعاً يسمّى عربة أيضاً. وبعد فإنّ التوراة قد عيّنت موضع سكنى إسماعيل وهو في غير بلاد العرب[1].

ثمّ قال أيضاً ما حاصله:

> أنّ قول العرب: إنّ إسماعيل سكن مكّة، مردود بأنّ التوراة التي لا نعلم بوجود هذا الشخص إلّا منها تقول: إنّه لمّا طُرد من بيت أبيه سكن في برّيّة فاران، وهي ببرّيّة سيناء بين مصر وبلاد ثمود. وتقول في موضع آخر: إنّه نزل أمام إخـوته وهؤلاء كانوا بأرض كنعان من الشام، ولم يكن أمامهم ممّايلي جـزيرة العـرب سوى بلاد ثمود. وتقول في موضع ثالث: إنّه لمّا مات أبوه أتى ودفنه في مغارة المكفليّة بقرية أربع من كنعان، وبينها وبين مكّة مسافة لا يقطعها الراكب المجدّ في أقلّ من عشرة أيّام[2].

قلت: إذا كانت توراته قد عيّنت موضع سكنى إسماعيل فيما أشار إليه حيث ذكرت أنّه برّيّة فاران. وهو يقول: إنّها ببرّيّة سيناء بين مصر وبلاد ثمود، إذاً فما وجه قوله: «إنّ في فلسطين موضعاً يسمّى عربة»؟ ومن المعلوم أنّ بـرّيّة سـيناء أجـنبيّة عـن فلسطين. وهل تشبّثه باسم هذه العربة إلّا غلط في غلط!

وأمّا قوله: «لا نعلم بوجود إسماعيل إلّا من التوراة» فهو من أفحش الأغلاط، فلو أنّ حلقيا لم يأت شافان بكتاب وحيد سمّاه التوراة، لما انحطّ إسماعيل عن شهرته أقلّ قليل. كيف وها بنوه الذين يفخرون به في أجيالهم قد ملؤوا جزيرة العرب، وأذعن لهم

---

١. سفر التكوين ٢١: ١٤ و ٢٥: ١٢ ـ ١٨. التذييلات التي في أثناء مقالة في الإسلام: ٧.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ١٠ ـ ١١.

بذلك صاحبهم وخصمهم في المفاخرات. ولم يك إسماعيل كملكي صادوق: بلا أبٍ بلا أُمٍّ بلا نسبٍ لا بداية أيّام له ولا نهاية حياة[١]. حتّى لا يعرف إلّا من إلهام رسالة العبرانيّين.

وأمّا قوله: «إنّ التوراة تصرّح بأنّ إسماعيل سكن في برّيّة فاران» فهو مردود بأنّ اختلاف التوراة في التأريخ وأغلاطها فيه، وعلى الخصوص فيما يتعلّق بإبراهيم ودعوته وبنيه، لا يدع لها اعتباراً تساوي فيه واحداً من كتب التأريخ. ولو سلّمنا ذلك فقد ذكر اللغويّون أنّ فاران من جبال مكّة.

وأمّا قوله: «إنّ فاران هي ببرّيّة سيناء بين مصر وبلاد ثمود» فهو خبط بلا حجّة؛ فإنّ أصحابه قد اضطربوا في ذلك، فجعلوا فاران تارةً اسماً لجبل فيران، وهو الرأس الواقع بين خليجي العقبة والسويس جنوبي سيناء وكاترينا، بل هو آخر الجبال الواقعة في الزاوية بين الخليجين.

وجعلوه تارةً أُخرى اسماً لجبل فوريا وهو الجبل المقوّس الذي يقارب وسط محدَّبه للدرجة التاسعة والعشرين من العرض الشمالي، والرابعة والثلاثين من شرقي لندن، فجعلوا برّيّة فاران ما كان في شمال هذا الجبل.

وسمّوا به أيضاً وادياً ذا أربع شعب متقاطعة على زوايا مختلفة، وهو في قرب ما سمّي أيضاً وادي فيران.

فلا سبيل لهم إذاً في تعيين ما ذكرته توراتهم منزلاً لإسماعيل بمجرّد الاسم؛ فإنّهم قد سمّوا بذلك أماكن متباينة في الوضع والبعد.

وإن سامحنا المتعرّب ورجعنا إلى اكتشاف برّيّة فاران من علامات التوراة ومضامينها، فلا بدّ أن نقول: إنّ برّيّة فاران واقعة في شرقي جبل الشراة، وهو السلسلة الممتدّة في شرقي الأُردن، فبحيرة لوط، فوادي العربة، فخليج العقبة، فالبحر الأحمر إلى الحجاز، ومن رؤوسها جبال مكّة. والبرّيّة التي في شرقي جبل الشراة، لا ربط لها

---

١. الرسالة إلى العبرانيّين ٧: ٣.

ببرّيّة سيناء ولا فلسطين؛ فإنّها مفصولة عنهما بسلسلة جبل الشراة، ثمّ الأُردن وبحيرة لوط ووادي العربة وخليج العقبة، ثمّ السلسلة الغربيّة المتوجّهة من حدود لبنان إلى جبل سيناء.

وإنّ مقتضى التوراة أنّ برّيّة فاران تسمّى بها برّيّة صين وقادش برنيع، كما يعرف من [سفر العدد وسفر التثنية][1].

وإنّك لتعرف منها أيضاً أنّ برّيّة فاران واقعة في شرقي جبل الشراة، فقد ذكرت مراحل بني إسرائيل ومنازلهم على التفصيل والترتيب والتتابع من مصر إلى عربات موآب، حيث توفّي موسى عليه السلام. فذكرت لهم من برّيّة سيناء إلى عصيون جابر عشرين مرحلة ومنزلاً[2]. وإنّ عصيون جابر واقع إمّا في وادي العربة شرقي سلسلة جبال سيناء، وإمّا في شرقي سلسلة جبل الشراة.

ثمّ قالت:

وارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا في برّيّة صين وهي قادش. وارتحلوا من قادش ونزلوا في جبل هور في طرف أرض أدوم[3].

وقد عرفت من التوراة أنّ برّيّة صين وقادش هي برّيّة فاران، وعرفت موقع عصيون جابر. وأمّا جبل هور فهو جزء من جبل الشراة مائلاً إلى الشرق منه.

وتقول التوراة أيضاً: «وعبرنا عن إخوتنا بني عيسو الساكنين في سعير من طريق العربة من أيلة ومن عصيون جابر»[4]. والعبور عنهم بهذا النحو إنّما يكون بالتوجّه إلى شرقي جبل الشراة.

فإذا عرفت ذلك عرفت أنّه لا منافاة بين قول التوراة: «إنّ إسماعيل سكن في برّيّة فاران» وبين القول بأنّه «سكن مكّة»؛ فإنّ التوراة كثيراً مّا تحدّد الأماكن بحدود واسعة،

---

١. سفر العدد ١٣: ٣و ٢١ و٢٦ و ٣٢و ٣٢: ٨ ؛ سفر التثنية ١: ١٩ـ ٢٦.

٢. سفر العدد ٣٣: ١٦ ـ ٣٦.

٣. سفر العدد ٣٣: ٣٦ ـ ٣٧.

٤. سفر التثنية ٢: ٨.

خصوصاً إذا لم تكن مدينة معروفة، فإنّ مكّة لم تكن عند سكنى إسماعيل فيها مدينة ممصّرة، وإنّما كانت برّيّة بيداء. وقد جرت عادة التوراة بتحديد مثلها بالحدود الواسعة كأرض الجنوب[١]، وأرض المشرق[٢]، وأرض بني المشرق[٣]، وعند الجبل وعند البحر[٤].

فالمراد من «برّيّة فاران» هي البرّيّة الواقعة في شرقي سلسلة جبل الشراة، فإنّه لا برّيّة له في غربه؛ لأنّ غربه مضايق بالأُردن وبحيرة لوط ووادي العربة والبحر الأحمر. وهذه البرّيّة هي الشاملة للحجاز ومكّة. فالتوراة ذكرت منزل إسماعيل في مكّة والحجاز لا بالتعيين بل بالجهة الشاملة. قال في الجلد السادس من دائرة المعارف:

> الحجاز قيل وأحسن ما قيل في تحديده ما قاله ابن الكلبي ـ وهو العلّامة النسّابة في أواخر القرن الأوّل من الهجرة ـ: إنّ الحجاز عبارة عن جبل الشراة وما اتّصل به[٥].

فإن قال المتعرّب: إنّ أُسلوب الأصحاح الأوّل والثاني من التثنية يقتضي أنّ عبور بني إسرائيل من أيلة ومن عصيون جابر إلى شرقي جبل الشراة، إنّما كان بعد ارتحالهم من قادش التي هي برّيّة فاران. وذلك يقتضي أن تكون قادش وبرّيّة فاران في وادي العربة أو في غربيّه، فهي إذاً إمّا من فلسطين وإمّا من برّيّة سيناء.

قلت: لعلّ المتعرّب قد غرّته التراجم حيث جعلت أدوات العطف بلفظ «ثمّ» و«الفاء» اللتين هما للترتيب. وإنّما هو محض تشهٍّ وتحكُّم من المترجمين؛ فإنّ الأصل العبراني لم يقع فيه العطف إلّا بالواو، وهي لمطلق الجمع لا تدلّ على الترتيب؛ فإنّ التوراة العبرانيّة طالما عطفت بالواو ما هو متقدّم على ما هو متأخّر، فلا تشبّث بمحض العطف بالواو.

وكيف نعدل بوهمه عن صراحة الترتيب والتفصيل المذكور في الثالث والثلاثين من

١. سفر التكوين ٢٤: ٦٢؛ سفر العدد ١٣: ٢٩.
٢. سفر التكوين ٢٥: ٦.
٣. سفر التكوين ٢٩: ١.
٤. سفر العدد ١٣: ٢٩.
٥. دائرة المعارف، للبستاني ٦: ٦٩١.

العدد، حيث استقصى منازلهم ومراحلهم، من رعمسيس في مصر إلى عربات موآب حيث توفّي موسى عليه السلام، حيث ذكر:

أنّ بني إسرائيل ارتحلوا من رعمسيس، ونزلوا في سكُّوت، وارتحلوا من سكُّوت ونزلوا في إيثام. وجرت على هذا النسق والترتيب إلى أن قالت: وارتحلوا من ياطباثاه ونزلوا في عبرونة. وارتحلوا من عبرونة ونزلوا في عصيون جابر. وارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا في بريّة صين وهي قادش. وارتحلوا من قادش ونزلوا في جبل هور في طرف أدوم.

ثمّ ذكر لهم على هذا النسق والترتيب سبعَ مراحل ومنازل إلى عربات موآب.

وإذ حاول المتعرّب أن يتشبّث في وهمه بسفر التثنية، فإنّ لنا من صراحته حجّة واضحة على أنّ قادش وبريّة فاران إنّما هي في شرقي جبل الشراة. وذلك لصراحته بأنّ بني إسرائيل وهم في قادش صعدوا إلى الجبل، فخرج الأُموريّون الساكنون في ذلك الجبل للقائهم وكسروهم في سعير إلى حرمة[١]، وأنّ جبل سعير قطعة من جبل الشراة في شرقي وادي العربة، وجبل الأُموريّين قطعة منها أيضاً في شمال سعير. فإنّ ذات التوراة تقول: «إنّ ملك الأُموريّين كان ساكناً في حشبون»[٢]. وحشبون وأرض الأُموريّين في شمال موآب، شرقي الطرف الشمالي من بحيرة لوط[٣].

فإن قال المتعرّب: إنّ سفر التثنية العبرانيّ قد غلط في هذه الواقعة وارتباطها مع الأموريّين، والصحيح هو ما في النسخة السامريّة وهو قولها بدل الأموريّين: «العماليقي والكنعاني» بدليل ما في سفر العدد في قوله في هذه الواقعة:

لكن تجبّروا وصعدوا إلى رأس الجبل... فنزل العمالقة والكنعانيّون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم إلى حرمة[٤].

---

١. انظر سفر التثنية ١: ١٩ ـ ٤٠ ثمّ من ٤٠ ـ ٦٠.

٢. سفر التثنية ٢: ٢٦ و ٣٠، و ٣: ٢.

٣. وانظر سفر يشوع ١٣: ٢٧.

٤. سفر العدد ١٤: ٤٤ ـ ٤٥.

قلت له إذاً: فإنّ الحياء زينة الرجل، أفتريد أن تعارض الحقائق المعروفة في الأجيال المتعدّدة عن ملايين لا تحصى من أهل المعارف والدقّة، وتغالط فيها بكلمة لا تفهم معناها، من كتاب يلجئك سقمه واضطرابه إلى الاعتراف بغلطه.

وأمّا قول المتعرّب:

إنّ التوراة تقول: إنّ إسماعيل نزل أمام إخوته، وهؤلاء كانوا بأرض كنعان من الشام، ولم يكن أمامهم ممّا يلي جزيرة العرب سوى بلاد ثمود.

فقلت: إن كان مراد التوراة إسماعيل نفسه، وأنّه نزل أمام إخوته أولاد إبراهيم، فقد كذب المتعرّب أو وهم بقوله: «وهؤلاء كانوا بأرض كنعان» لأنّ إسماعيل لم يكن له في أرض كنعان إلّا أخ واحد وهو إسحاق. وأمّا إخوته الستّة بنو قطورة، فإنّما كانت منازلهم في أرض المشرق[1]. وهي في شرقي جبل الشراة، ومنهم مدان ومديان.

وهكذا إن كان المراد من إخوته هم عشيرته وبنونسبه، فإنّ أكثرهم لم يكونوا في كنعان؛ لأنّ إخوته الستّة أولاد قطورة والموآبيّين والعمّونيّين بني لوط، كانوا كلّهم في شرقي جبل الشراة.

وعلى كلّ حال لا يتعيّن من نزول، إسماعيل مقابل هؤلاء كونه سكن في بريّة سيناء، بل يجوز أن يراد بذلك سكناه في مكّة، فإنّ التوراة كثيراً مّا تذكر الجهات بالسَمْت البعيد جدّاً. فقد سمّت حاران بأرض بني المشرق[2]، مع أنّ سَمْتها يميل إلى الشمال عن مشرق مساكن إسحاق في كنعان بما يزيد على أربعمائة ميل جغرافي. وسمّت سفار بجبل المشرق[3]، مع أنّ سَمْته يميل إلى الجنوب عن مشرق الأماكن التي نزلت فيها التوراة بما يزيد على الثمانمائة ميل. ووصفت عبر الأُردن الذي نزل فيه سفر التثنية بأنّه قبالة سوف، مع أنّه ليس له مسامتة ومقابلة حقيقيّة أو عرفيّة مع سوف إلّا

١. سفر التكوين ٢٥: ١ـ٧.
٢. سفر التكوين ٢٩: ١.
٣. سفر التكوين ١٠: ٣٠.

مع البعد الشاسع. ووصفته أيضاً بأنّه بين فاران وحضيروت[١]، مع أنّ بينه وبين حضيروت مسير سبعة أيّام تقريباً[٢].

هذا، وإن كان مراد التوراة من «الساكن» أمام جميع إخوته، هم بنو إسماعيل وذرّيّته، كما يدلّ عليه كلام التوراة الذي سنذكره، فمن الواضح أنّ مساكنهم لا ربط لها ببرّيّة سيناء ولا فلسطين، بل هي في شرقي جبل الشراة على بعد متفاوت، فقد قالت التوراة:

وهذه أسماء بني إسماعيل حسب مواليدهم: نَبايُت بكر إسماعيل، وَقِيدار، وأَدَبْئيل، ومِبْسام، ومِشْماع، ودُومَة، ومَسّا، وحَدد، وتَيْما، ويَطُور، ونافِيش، وقِدْمَة. هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم. وهذه سِنُو حياة إسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحَه ومات وانضمَّ إلى قومه. وسكنوا من حَوِيلة إلى شُوور التي أمام مصر لمجيئك نحو أشّور أمام جميع إخوته نزل[٣].

وهذا الكلام بمقتضى المحاورة العقلائيّة ظاهر كالصريح في أنّ المراد من الذي نزل أمام جميع إخوته إنّما هم أولاد إسماعيل، وصريح في أنّ الأسماء الاثني عشر المذكورة، هي أسماء لأولاد إسماعيل وأسماء لقبائلهم وأسماء لديارهم وحصونهم. على النهج المألوف في القديم، كما في أولاد يقطان: حَضَرْمَوت وأُوزال وأُوفِير وحَوِيلة؛ إذ سُمّيت قبائلهم وأراضيهم وبلدانهم بأسمائهم. وكما في أولاد إبراهيم: مديان وأدوم «عيسو» بن يعقوب.

وعلى هذا فلا يخفى على من له أدنى معرفة بتوقيع البلدان أنّ «تيما» و «دومة» لا ربط لهما ببرّيّة سيناء، ولا بأرض كنعان، ولا بأرض إسرائيل في شرقي الأُردن، بل هما مائلتان عن ذلك وعن الحِجْر ـ بلاد ثمود ـ إلى المشرق في بلاد العرب بمسافة بعيدة، ومحلّهما معروف. وهذا كافٍ في إبطال مزاعم المتكلّف.

---

١. سفر التثنية ١: ١.

٢. انظر سفر التثنية ١: ٢؛ سفر العدد ٣٣: ١٦ ـ ١٧.

٣. سفر التكوين ٢٥: ١٣ ـ ١٨.

وزد على ذلك أنّ التوراة في تحديدها لمنازل بني يقطان ذكرت مَسّا؛ حيث قالت: «وكان مسكنهم من مَسّا لمجيئك سَفار جبل المشرق»[١].

وقال المتعرّب: «إنّ لفظها في النسخة المطبوعة في روميّة ماسا»[٢].

قلت: وفي الترجمة الفارسيّة المطبوعة في لندن سنة ١٨٣٩ م: مَسّا. ومَشّا. أو مِشا عند العرب من أسماء مكّة. وعلى ذلك جرى ظنّ كثير من النصارى حتّى رسموا مشّا في الخارطة في موقع مكّة، وهو مافوق الدرجة الحادية والعشرين من العرض الشمالي وفوق الدرجة الأربعين من الطول الشرقي. قال سايل: «ويظنّ أنّه ـ أي مشّا أو مسّا أو ماسا ـ مأخوذ من اسم واحد من أولاد إسماعيل»[٣]. وهو مسّا المذكور قريباً. وقد سمعت أنّ التوراة جعلت أسماء بني إسماعيل أسماء لقبائلهم وحصونهم وديارهم، فيكون لفظ مَسّا اسماً لابن إسماعيل وموطنه وحصنِه.

قلت: ويجوز أن يكون اسم ابن إسماعيل مأخوذاً من اسم مكّة. أو كما ظنّ باعتبار أنّ مسّا هو الذي مصّرها وبنى فيها الحصون.

تنبيه: اعلم أنّ ما يُقرأ «ميشا» و«مِشّا» و«مِشّاء» و«مِسّا» و«ماسا» و«مَسّا» إنّما هو بصورة واحدة بلا فرق أصلاً في نسخ التوراة التي يكتبها اليهود على الرقّ، ويقدّسونها للتلاوة في معابدهم من القديم إلى الآن، حيث التزموا فيها باتّباع أصلها المكتوب بالوضع القديم حتّى على الغلط البيّن، فلم يرسموا في هذه الألفاظ[٤] إلّا ميماً وألفاً بينهما حرف مردّد بين السين والشين. وإنّما جاء الفرق والاضطراب حسب التشهّي من بعض النسخ المرسومة على الوضع الحادث للخطّ العبراني، في طبريّة فيما بين القرن الثاني والثالث للمسيح. وإنّما كتبنا في المتن على مقتضاها؛ لئلّا يقرفنا الغافل بالخيانة في النقل، وإلّا فاللفظان في صورة واحدة.

---

١. سفر التكوين ١٠: ٣٠.

٢. التذييلات التي في أثناء مقالة في الإسلام: ١١.

٣. مقالة في الإسلام: ١١.

٤. سفر التكوين ١٠: ٣٠و ٢٥: ١٤.

وزد على ذلك أيضاً أنّ التوراة ذكرت أنّ أولاد إسماعيل سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر لمجيئك إلى أشّور. وحويلة من بلاد اليمن مسمّاة باسم واحد من أولاد يقطان، فهي في جنوب مكّة[1].

فإن قلت: قد جاء في صموئيل الأوّل «أنّ شاول ضرب عماليق من حويلة لمجيئك شور التي مقابل مصر»[2]، وليس لعماليق محلّ في أرض اليمن، ولم تصل حروب شاول إلى أرض اليمن، بل إنّ هذا التحديد لابدّ أن يكون واقعاً في أرض إسرائيل في شرقي الأُردن أو غربيّه.

قلت: إنّ منازل أولاد إسماعيل الواقعة من حويلة إلى شور، لا يمكن أن تكون واقعة في أرض بني إسرائيل، لا في شرقي الأُردن ولا في غربيّه. وذلك لوجهين:

أحدهما: أنّ من منازل أولاد إسماعيل تيما ودُومة، وهما بعيدتان إلى الشرق عن أراضي إسرائيل بعداً شاسعاً.

وثانيهما: أنّ التوراة تقول: إنّ الله وعد إبراهيم وهاجر بأن يبارك إسماعيل ويثمّره ويكثّره كثيراً جدّاً ويلد اثني عشر رئيساً. ويجعله أُمّة عظيمة[3].

فلابدّ أن يكونوا في زمان موسى أكثر من المديانيّين أولاد مديان بن إبراهيم، ومن الموآبيّين والعَمّونيّين أولاد لوط، ومن الأدوميّين أولاد عيسو؛ فإنّ هؤلاء لم يسبق لهم الوعد بالبركة والكثرة كأولاد إسماعيل، مع أنّهم كانوا في زمان موسى أُلوفاً عديدة، بل لابدّ بمقتضى وعد الله في إسماعيل أن يكون أولاده في زمان موسى بقدر بني إسرائيل أو أكثر.

وعلى هذا لو كانت منازلهم في الأرض التي استطرقها أو افتتحها بنو إسرائيل مع موسى أو يوشع، لجرى لهم حال وشأن كبير مع بني إسرائيل في حرب أو معارضة أو مصالحة أو مساعدة أو مهادنة أو معاهدة، كما جرى لبني إسرائيل مع غيرهم. مع أنّ التوراة وسفر يوشع لم يذكرا من ذلك شيئاً، لا تصريحاً ولا تلويحاً. وهذا السكوت في

---

١. انظر سفر التكوين ٢: ١١ و ١٠: ٢٩.

٢. سفر صموئيل الأوّل ١٥: ٧.

٣. سفر التكوين ١٧: ٢٠ و ٢١: ١٨.

مثل تأريخ التوراة وسفر يشوع يُعَدّ من نحو صراحتهما بأنّ بني إسماعيل لم يكن لهم منزل فيما استطرقه أو تملّكه بنو إسرائيل.

وحينئذٍ لو سلّمنا أنّ حَوِيلة في سفر صموئيل هي في بلاد بني إسرائيل أو ما يتاخمها، لقلنا: إنّها لابدّ أن تكون غير حويلة المذكورة في التوراة؛ فإنّ البلدان قد تتشابه في الأسماء نحو قادش[1] وقادش[2].

وهذا التطويل كلّه مماشاة وجدل لمن يتشبّث بالتوراة لأوهامه بأنّ مسكن إسماعيل وأولاده كان في برّيّة سيناء أو أرض كنعان أو ما يقاربها، وإلّا فإنّ أوضح الحجج التأريخيّة دالّة على أنّ مسكن إسماعيل هي مكّة. وهو تسالم الأجيال المتسلسلة المتّصلة، المشتمل كلّ جيل منها على أُلوف عديدة من الناس المختلفين في النسب المتشاجرين في المفاخرات. ولعلّما تأتي إن شاء الله تتمّة لهذا المقام عند ذكرنا لنسب رسول الله ﷺ.

وأمّا قول المتعرّب:

إنّ التوراة تقول في موضع ثالث: إنّه ـ أي إسماعيل ـ لمّا مات أبوه أتى فدفنه في مغارة المكفليّة.

فيكفي في قمع أباطيله بيان ما فيه من التحريف القبيح الذي هو العمدة في زبرج الباطل، وذلك أنّ لفظة «أتى» التي يموّه بها أمره إنّما هي زيادة على التوراة، فإنّ لفظها في شأن إبراهيم: «وانضمّ إلى قومه ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفليّة»[3].

رسالة هود إلى عاد، وصالح إلى ثمود، وشعيب إلى مدين، وشؤون هؤلاء

وقد اقتصّ الله ـ جلّ شأنه ـ في القرآن الكريم شيئاً من أنباء هؤلاء حسبما تقتضيه الموعظة والتذكير[4] ولكنّ المتكلّف والمتعرّب لأجل أنّ توراتهما ـ التي عرفت حالها ـ

---

١. سفر العدد ٢٠: ١ و ٢٢.

٢. سفر يشوع ٢٠: ٧ و ٢١: ٣٢.

٣. سفر التكوين ٢٥: ٨ ـ ٩.

٤. الأعراف (٧): ٦٣ ـ ٩٢؛ هود (١١): ٥٢ ـ ٩٩؛ الشعراء (٢٦): ١٢٣ ـ ١٩٠؛ الحاقّة (٦٩): ٤ ـ ٩، وغير ذلك.

لم تذكر من ذلك شيئاً، تحاملا ببواعثهما على قدس القرآن الكريم فيما ذكره في شأن هؤلاء.

وحاصل ما عند المتكلّف في معرفته هو أنّه لم يرد في كتبه أنّ هوداً كان نبيّاً، وأنّه أُرسل إلى قومه، وكذلك لم يرد أنّ قومه هم عاد، وأنّ الحقّ الذي لا مرية فيه أنّه لم يرسل الله بين عصر نوح وبين عصر إبراهيم، ولم يرد في التوراة ولا في الإنجيل أنّ الله أرسل نبيّاً اسمه صالح إلى ثمود من قبائل العرب؛ فإنّ جميع الأنبياء والمرسلين كانوا من الأُمّة الإسرائيليّة في أرض اليهود[١].

وغاية ما عند المتعرّب هو محض الهوسات في التكذيب للمؤرّخين، واستغراب بعض التفاصيل المنقولة عن بعض الناس، ممّا لا يعود شيء منه على جلالة القرآن الكريم[٢].

ومرجع كلام المتكلّف ـ وأعوذ بالله من وبال بيانه ـ هو أنّ خزانة رحمة الله ولطفه وعدله وهداه، وإرادة الصلاح بعباده، ودعوتهم إلى التوحيد والهدى والكمال، قد كانت محجوراً عليها، ممنوعة بالقهر من أن يرشح من نداها شيء على العباد، أو أنّ الحرص ضرب عليها أقفالاً، ختمها بخواتيم المحاباة لبني إسرائيل، ورصدها[٣] بحراسة الشحّ.

فبقيت عبادالله هَمَلاً فَوْضَى بلا معارف نبوّة، ولا دعوة توحيد، ولا نور هدى، ولا تكميل تعليم، ولا لطف تهذيب، ولا فيض رحمة، ولا بركة نعمة، ولا مدنيّة أحكام إلهيّة، ولا سياسة شريعة. يعاقبون بلا حجّة، ويُوَبَّخون بلا بيان، ويوصفون بالظلم بلا شريعة تميّز الحقوق وتحفظها بالسياسة.

إلى أن ارتفع ذلك الحَجْر من نحو خاصّ، وتفصّمت[٤] تلك الأقفال، وانصرفت الحرّاس من جهة واحدة، فانهطل وابل النبوّة على إسرائيل وبنيه سَحّاً[٥] بلا ميزان، ولا رعاية أثر، ولا مراعاة حكمة، ولا دعوة عامّة، ولا بركة شاملة، ولا هدى فائض.

---

١. الهداية ٢: ٤٨ ـ ٤٩.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ١ ـ ١٠.

٣. الرَصد: الحراسة والمراقبة. الصحاح ٢: ٤٧٤، «ر ص د».

٤. الفَصْم: الكسر. الصحاح ٥: ٢٠٠٢، «ف ص م».

٥. سحَّ المطر: انصبّ بشدّة. العين ٣: ١٦، «س ح ح».

فلذلك اتّفق لها بمقتضى نقل التوراة الرائجة أمر عجيب قد فاتته الموفّقيّة وجانبته الحكمة، فلم تذكر التوراة في نبوّة إبراهيم إلّا الوعد بالبركة وكثرة النسل، وإعطاء قطعة من الأرض لهم، وعهد الختان الذي أبطله العهد الجديد، وتنفيذ أوامر سارة.

ولم تذكر في نبوّة إسحاق إلّا الوعد بتكثير نسله، وإعطائه قطعة من الأرض، ولكنّها لم تذكر أنّ أمره لولده عيسو أن يصنع له طعاماً كما يحبّ ليأكل ويبارك عيسو قبل أن يموت، وأنّ اشتباهه بمخادعة يعقوب إذ باركه بعد ما أكل وشرب خمراً.

هل كان هذا كلّه بوحي ونبوّة أم لا؟ نعم ذكرت أنّ يعقوب اختلس بركة النبوّة وعهدها بالمخادعة والتزوير، وأحكم أمرها بالمصارعة والجهاد مع الله تعالى شأنه.

والحاصل: لم تذكر التوراة في نبوّة هؤلاء الأنبياء ـ ولا الذين من قبلهم ـ كتاب هدى ورحمة، أو نبوّةً بالدعوة إلى التوحيد والكمال، أو بتمهيد شريعة أدبيّة، أو تأسيس قوانين مدنيّة وإصلاح للاجتماع.

نعم، ذكرت أنّ في أيّام شيث ابتُدِئ أن يدعى باسم الربّ، ولكنّها لم تذكر مَن الداعي؟ ولمن دعا؟ وبماذا دعا؟ وكيف دعا؟

ثمّ بعد ذلك اندفقت النبوّة بأُبّهة رسالتها ورئاستها الكبرى على موسى، فلم تَعْدُ التوراة أن ذكرت أنّه ردّ هذه الرسالة بلسان غير ليّن ولا مؤدّب، ولم يلتفت إلى حجّة الله ووعده بالتأييد، بل كرّر الردّ بلسان خشن، حتّى حمي عليه غضب الله.

ثمّ تحكّم على الله بالغفران لعَبَدَة العجل أو يمحوه من كتابه، ووصف الله بالإساءة إلى الشعب وإلى عبده، وشكّ في قدرة الله على إشباع بني إسرائيل من اللحم كالمستهزئ بوعد الله، وذكرت المزامير أنّه فَرَط بشفتيه.

هذا كلّه ولم تسمح هذه الرسالة أن ترشح من بركتها قطرة واحدة على فرعون وقومه، بالدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، فلم تذكر التوراة أنّ موسى دعاهم إلى الإيمان والتوحيد ولا بكلمة واحدة، حتّى كأنّ سكوته عن ذلك كان إمضاءً لما عليه فرعون وقومه. وغاية فائدة تلك الرسالة وبركة عاقبتها هو أن يطلق فرعون بني إسرائيل، الذين كانت عاقبتهم بعدما رأوا الآيات أن عبدوا العجل وزنوا ببنات

موآب. إلى آخر ما ذكرناه في المقدّمة الخامسة[1] من ارتداداتهم.

ومن أجل هذا قال المتكلّف ما حاصله: أنّ الله لم يرسل موسى ليدعو فرعون وقومه إلى ديانته؛ ولا ليلفتهم عن شركهم[2].

ولسان الحال من عقيدة البروتستنت المذكورة في كتاب صلاتهم يقول: ما الحاجة إلى إزعاج فرعون وقومه عن شركهم وظلمهم وفسادهم، وعمّا قليل ـ وأستغفر الله ـ سينزل المسيح إلى الجحيم وينجّي أرواحهم منها؟

ومقتضى التوراة الرائجة أنّ موسى جاء بكتاب اشتمل على سيرة، لم تعنون بالموعظة، ولم تتزيّن بسياق التذكير، بل اشتملت في تأريخها على الفضائح لعائلات الأنبياء والأولياء. ولم يعلن ذلك الكتاب بعموم الدعوة، وسعة الرحمة، وفيض الهدى، وشمول الشريعة والإصلاح، بل خصّ بني إسرائيل بدعوة التوحيد والشريعة، وأحكام أراضيهم، وسلّطهم على قتل الأُمم حتّى النساء والأطفال بلا علّة سوى استلاب أراضيهم، وإزعاجهم عن أوطانهم، من دون أن يربط ذلك بالدعوة إلى الهدى والتوحيد وعدل الشريعة وآدابها. فلم يذكر وقوع شيء من ذلك لا وحياً ولا عملاً، ولم يتعرّض له.

ولم يتوعّد على مخالفة الشريعة والتوحيد إلّا بنحو المرض والفقر، ولم يجعل الثواب إلّا بنحو كثرة الحنطة والخمر. وغادر أمر الثواب والعقاب في الآخرة نسياً منسيّاً، بل لم يتعرّض لذكر المعاد والقيامة أصلاً ورأساً لا تصريحاً ولا تلويحاً.

وجعل سيطرة الشريعة وإمامتها إلى هارون، وذكر أنّ الله كلّمه مع موسى ومنفرداً.

ثمّ ذكر أنّ هارون صنع العجل إلهاً يعبده بنو إسرائيل، وبنى مذبحاً أمامه ونادى لعبادته.

ثمّ سالت النبوّة على النساء والرجال وإلى آخرها لم تذكر كتب العهد القديم عن الأنبياء والنبيّات دعوة عامّة، أو إشارة إلى هدى لعموم الناس، بل ذكر في النبوّة أنّها تقوم بضرب الدفّ والعود والناي والرباب، وبالتعرّي والاضطجاع. ويكون تبليغها

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٣٧ ـ ٥٣.

٢. الهداية ٢: ٦١.

بأنواع الخلاعات والتَجانُن، والفحش في الإنذار والوعيد بألفاظ الزنى وكشف العورة والهتك، ممّا لا نسمعه إلّا من تهديد المتهتّكين.

هذا كلّه وسلعة النبوّة المبذولة بائرة في سوق بني إسرائيل، وإن زاد عدد الأنبياء في الزمان الواحد على المائة، بل كان النفوذ والأثر الرائج لضلال الوثنيّة، وطغيان الفساد، اللذين يتقلّب بهما ابن الله البكر بنو إسرائيل، حتّى جرى ذلك النفوذ بنقل كتبهم على أعيان الأنبياء، كما قرفت به قدس هارون وداود وسليمان عليهم السلام.

ثمّ أفضت نوبة النبوّة إلى المسيح، فقرفت الأناجيل قدسه بما نحتشم تكراره. وذكرت أنّه لم يسعده الإمهال إلّا ثلاث سنين، على تَسَتُّر وخوف في تعليمه اليسير. ولكن بعد ذلك انحلّ وكاء[1] النبوّة والرسالة، فهطلت[2] على التلاميذ ـ الذين عرفت حالهم في أواخر المقدّمة الخامسة[3] ـ وعلى أتباعهم، بحيث يتنبّأ بنوهم وبناتهم. وذكر كتابهم أنّ أربع عذارى في بيت واحد كنّ نبيّات[4].

هذا، وقد فُوّض للتلاميذ أن يمحوا رسوم الشريعة، ونادت كتبهم بالفداء والخلاص. ولم تنفتح باب الرسالة العامّة ولم يرتفع عنها الحجر حتّى للمسيح إلّا للتلاميذ، ولكنّها تقول: إنّها كانت بالدعوة إلى التثليث لا إلى التوحيد.

ثمّ عادت النبوّة والرسالة إلى حجرها الأوّل، وسدّ بابها، وإحكام رِتاجها[5].

فلسان حال المتكلّف والمتعرّب وفحوى مقالهما يقولان: إذاً فكيف يسوغ لله أن يرسل رسولاً إلى غير بني إسرائيل من غير بني إسرائيل بغير الشريعة المعروفة في العهد القديم، وغير الوعد والوعيد المذكورين فيه، أو بغير الفداء المذكور في العهد الجديد؟

---

١. الوكاء: حبل يشدّ به فم القربة. الصحاح ٦: ٢٥٢٨، «و ك ى». وانحلاله يوجب سيلان ماء القربة وذهابه.

٢. هطل المطر: سال بقطر كبار. والهطل: تتابع المطر. لسان العرب ١١: ٦٩٨، «هـ ط ل».

٣. تقدّم في ج ١، ص ٥٢ ـ ٥٣.

٤. أعمال الرسل ٢١: ٩.

٥. الرتاج: الباب. المعجم الوسيط: ٣٢٧، «ر ت ج».

وكلّ ما يذكر في خلاف ذلك فهو من الخرافات، فكيف يبعث الله رسلاً إلى عاد وثمود وأهل مدين؛ ليأمروهم بعبادة الله وتوحيده وتقواه وطاعة أمر الرسول، واطّراح عبادة الأوثان والفساد في الأرض؟

أم كيف تصدر من موسى دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان والهدى والصلاح؟

أم كيف يكون من آل فرعون مؤمن ينصح قومه وينذرهم بيوم القيامة ويعظهم بهلاك من قبلهم، ويقول: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[1]؟

وكيف يكون ذلك والتوراة لم تذكر يوم القيامة ولم تتوعّد به وإن ذكرت القيامة في العهد الجديد فباحتجاج واهن فاسد أو وعد مكذوب؟

فكلّ ما يذكر من النبوّات في غير الكذب على فرعون ومخادعته بإطلاق بني إسرائيل ليذهبوا سفر ثلاثة أيّام، مع أنّ الغرض والوعد هو التوجّه إلى أرض كنعان، وغير استلاب الأرض من الكنعانيّين، وقتلهم وقتل أطفالهم ونساءهم وبهائمهم. وغير الشريعة لخصوص بني إسرائيل، وغير وعيدهم بالمرض والفقر وتسلّط الأجنبيّ على وطء زوجة الرجل، وغير وعدهم بالحنطة والخمر، وغير محو الشريعة بالفداء، فهو من الخرافات العجائزيّة.

بل إنّ تأريخ العالم كلّه محصور في العهدين، وإن استولى على كتبهما التطويل المملّ بالفضول الفارغة، وتسجيل الفضائح. وما عدا ذلك فتأريخ أهل الهند والصين خرافة، وتأريخ العرب خرافة، وتأريخ اليهود خرافة، وتأريخ قدماء المسيحيّين خرافة.

وخلاصة الأمر: أنّ كلّ ما وافق القرآن فهو خرافة.

نعم، رؤيا يوحنّا حقيقة نورانيّة.

---

١. غافر (٤٠): ٣٠ ـ ٣٣.

الثالث والرابع من رسالة يوحنّا الأُولى حقيقة وتعليم هدى ومعرفة وتوحيد.

الرسائل المنسوبة إلى بولس لا يوجد فيها غير الصدق والتوحيد والتكميل بالشريعة.

خامس عشر الأعمال وحي وتقوى وورع وحفظ للشريعة، وتمجيد لشريعة موسى وشدّة في حفظ أوامر الله ونواهيه. عاشر الأعمال وحي صادق لا يكذب الشريعة السابعة.

[إنجيل يوحنّا] عفّة ووقار وبيان لمراتب المحبّة ورأفة بالتلميذ الشابّ[١]. توحيد وإيمان وفهم للكتب[٢].

[إنجيل لوقا] هو روح للعفّة ورفع لحشمة التائبات وتثبيت لعَلاقة التوبة بينهنّ وبين القدّيسين بطهارة القلب وعفّة الضمير[٣]. الاحتجاج بالقيامة وعدم الزواج فيها[٤].

[إنجيل متّى] والاحتجاج للمنع من الطلاق[٥] من حجج الوحي القاطعة الباهرة[٦].

[سفر هوشع و...] كلّه وحي لائق بجلال الله، وشرف الأنبياء، والتعليم بالوقار والحشمة، وصون اللسان عن الخنا والفحش[٧].

[سفر صموئيل الثاني] تمجيد للنبيّ وتنويه بعفّته وأمانته، وحكمة الله وعلمه في إعطائه النبوّة، وحكمة الله وعدله في كيفيّة عقابه[٨].

أقوال أيّوب تقوى وتسليم لأمر الله، وتمجيد له بعدله ومعرفة للإنسان بقدر نفسه.

[سفر الملوك الأوّل وسفر الأيّام الثاني] كلّه معرفة الله بجلال الله وعظمته، وتقديس وتسبيح له جلّ شأنه[٩].

---

١. إنجيل يوحنّا ١٣: ٢٢ ـ ٢٦.

٢. إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٣ ـ ٣٧.

٣. إنجيل لوقا ٧: ٣٦ ـ ٥٠.

٤. إنجيل لوقا ٢٠: ٣٤ ـ ٣٨.

٥. إنجيل متّى ١٩: ٣ ـ ١٠.

٦. لم نعثر عليه.

٧. سفر هوشع ١ ـ ٣؛ سفر الخروج ١٦ و ٢٣؛ سفر إشَعْياء ٣: ١٦ ـ ٢٥؛ سفر إرميا ١٣: ٢٢ ـ ٢٧؛ سفر ناحوم ٣: ٤ ـ ٦.

٨. سفر صموئيل الثاني ١١.

٩. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ١٩ ـ ٢٤؛ سفر الأيّام الثاني ١٨: ١٦ ـ ٢٣؛ سفر إرميا ٤: ١٠.

[سفر القضاة] نور وهدى وحِكَم وأحكام[١].

[سفر اللاويّين] حكمة بالغة وآيات باهرة وشفاء ناجح تشهد به التجربة وتتأكّد به الحجة[٢].

[سفر الخروج وسفر التكوين] كلّه علم من الله وقدرة وحكمة ووفاء بالعهد[٣].

[سفر صموئيل الثاني وسفر التكوين] تمجيد للمؤمنين بعفّتهم وطهارة نفوسهم ونجابة عوائلهم ومواليدهم[٤].

[سفر التكوين] من الحقائق الموضّحة لحكمة الله وعلمه في اختياره، والمبيّنة لمقدار علم الأنبياء وأهليّتهم للائتمان على أعمال الله[٥].

وقال المتكلّف: «لم يصرّح القرآن بالرجس الذي أُنزل على قوم هود، ولو كان شيئاً حقيقيّاً له وجود، لصرّح به»[٦].

قلت: لا ألوم المتكلّف على جهله بالقرآن، بعد ما وجدناه من جهله الفاحش بكتبه. فلا غرو إذا لم يعلم من القرآن الكريم بيانه المكرّر في أنّ ذلك الرجس هو الريح المهلكة. ويكفي منه قول الله ـ تعالى شأنه ـ في سورة الحاقّة المكّيّة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٧].

ثمّ اعلم أنّ المتعرّب حاول أن يكذّب ما ذكره المؤرّخون في شأن شدّاد بن عاد بتمويه لا يمسّ بتزويره قدس القرآن الكريم، وإنّا وإن كنّا لا يعنينا ما يقوله في التأريخ وأخبار الآحاد، ولكن لا بأس ببيان جهالات المتعرّب في اعتراضه؛ فقد اعترض على

١. سفر القضاة ١١ ـ ١٧.
٢. سفر اللاويّين ١٣ ـ ١٤.
٣. سفر الخروج ٤: ٢٤ ـ ٢٧؛ سفر التكوين ٦: ٦ و ١١: ٥ ـ ٨.
٤. سفر صموئيل الثاني ١٣؛ سفر التكوين ١٩ و ٣٨.
٥. سفر التكوين ٢٧.
٦. الهداية ٢: ٤٨.
٧. الحاقّة (٦٩): ٦ ـ ٧.

المؤرّخين إذ قالوا: إنّ عاداً من ذرّيّة إرم بن سام وإنّه متقدّم على إسماعيل، وإنّ ابنه شدّاداً عزم على بناء إرَم وهو ابن تسعمائة سنة، وأقام في بنائها ثلاثمائة سنة، فيكون شدّاد عمّر ألفاً ومائتي سنة.

وحاصل اعتراضه على ذلك بأنّه يلزم أن يكون شدّاد مات بعد الطوفان بنحو ألف وثلاثمائة سنة. والتوراة العبرانيّة يعلم منها أنّ إسماعيل مات بعد الطوفان بخمسمائة وعشرين سنة. وبحسب النسخة السبعينيّة يكون بين الطوفان وموت إسماعيل ألف ومائتان وخمسون سنة، فلا بدّ أن يكون موت شدّاد بعد موت إسماعيل.

قلت: أمّا أوّلاً: فإنّ المؤرّخين لا يلتزمون بأنّ موت شدّاد وهلاك قومه متقدّمان على موت إسماعيل، بل مقتضى ذكرهم أنّ قيل بن عثر ومرثد بن سعد توجّها إلى البيت الحرام في مكّة ليطلبوا من الله الفرج، هو أنّ هلاك شدّاد وعاد كان بعد ما بنى إبراهيم وإسماعيل البيت بمدّة؛ فإنّ من مسلّمات معلوماتهم هو أنّ البيت الحرام إنّما بناه إسماعيل وأبوه إبراهيم، فيكون هلاك عاد في المدّة التي بين بناء البيت في أيّام إسماعيل وبين دعوة موسى لفرعون. ولا مانع من أن يكون هلاك شدّاد وقومه بعد موت إسماعيل. ولئن قال المؤرّخون: إنّ شدّاداً متقدّم على إسماعيل في الولادة فلا مانع منه، بل إنّ طبقات المواليد تقتضيه.

وأمّا ثانياً: فإنّ الاعتراض على تقويم المؤرّخين بتقويم التوراة الرائجة، إنّما هو من ورطات الغرور؛ فإنّ المؤرّخين أتقن من أن يعتمدوا على كتاب تلاعبت به الأيّام ماشاءت، وهتكت الحواشي من ستر أغلاطه ماهتكت، وسجّل عليه بالافتضاح تنازعُ نسخه المتعادلة في الاعتبار الادّعائي وعدمه الحقيقي. ويا حبّذا لو سلم من ذلك من زمان حلقيا فما بعد. فكيف إذاً لا يقبح الاعتراض به، سيّما إذا كان الاعتراض بنسخة من نسخه؟!

وأمّا ثالثاً: فإنّ المتعرّب لم يكتف بسخافة كتبه، حتّى صار يتقوّل عليها، ولا يفهم ما فيها ولا يدري به، فلم يشعر أنّ تقويم التوراة العبرانيّة وتأريخ العهد الجديد، يقتضيان أن يكون بين الطوفان وبين موت إسماعيل خمسمائة وخمس وسبعون سنة لا

خمسمائة وعشر سنين. وذلك لأنّ من الطوفان إلى مولد تارح أبي إبراهيم ـ بحسب النسخة العبرانيّة ـ مائتين واثنتين وعشرين سنة. وعاش تارح مائتين وخمس سنين، ومات في حاران[١].

وباعتبار أنّ إبراهيم خرج من حاران وهو ابن خمس وسبعين سنة[٢]. وأنّه خرج بعد ما مات أبوه[٣]. فلا تكون ولادة إبراهيم قبل أن يمضي من عمر أبيه تارح مائة وثلاثون سنة، فيكون من الطوفان إلى مولد إبراهيم على الأقلّ ثلاثمائة واثنتان وخمسون سنة، فإذا أُضيف إليها من مولد إبراهيم إلى مولد إسماعيل ستّ وثمانون سنة، وعمر إسماعيل ـ وهو مائة وسبع وثلاثون سنة[٤] ـ كان المجموع خمسمائة وخمساً وسبعين سنة.

هذا مع أنّ المتعرّب لا يساعده على دعواه تأريخ من التواريخ، حتّى تأريخ يوسيفوس المتعبّد بتقويم التوراة.

وأيضاً مقتضى النسخة السبعينيّة أنّ المدّة من الطوفان إلى مولد تارح تسعمائة وسنتان، فبمقتضى التقويم الذي ذكرناه من مولد تارح إلى وفاة إسماعيل، تكون المدّة من الطوفان إلى وفاة إسماعيل ألفاً ومائتين وخمساً وخمسين. فالمتعرّب غلط في التقويم الأوّل بخمس وستّين سنة، وفي التقويم الثاني بخمس سنين، فزاد على نسخ كتبه في الغلط نسختين أيضاً. وهو ـ بكتبه المتقلّبة، وجهله بها، وغلطه في الحساب ـ يحاول أن يعترض على المؤرّخين، فتعساً للغرور!

وقال الله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾[٥] ولا يمكن لعاقل أن يستبعد ذلك، فإنّه لا بدّ في كلّ زمان

---

١. سفر التكوين ١١: ١٠ ـ ٣٢.
٢. سفر التكوين ١٢: ٤.
٣. أعمال الرسل ٧: ٤.
٤. سفر التكوين ١٦: ٦ و ٢٥: ١٧.
٥. الفجر (٨٩): ٦ ـ ٨.

من أن تكون فيه بلدة هي خير بلاده، فلا بدّ أن تكون من جميع البلاد بلدة هي خير بلاد الدنيا في جميع الأزمان. فما ظنّك ببلدة تصدّى للتأنّق ببنائها ملك عاتٍ مقتدر، ساعده على ذلك طول العمر وكثرة المعادن وبكارتها، فلا غرو إذا جاءت خير بلاد الدنيا إلى وقتها أو مطلقاً.

وأمّا ما جاء عن بعض الناس في وصفها فليس على عهدة القرآن منه شيء.

ولا يقول المسلمون: إنّ شدّاداً نفسه تنبّأ في وصف الجنّة كما تنبّأ قيافا في أمره بقتل المسيح[١]. بل يقولون: إنّ شدّاداً سمع من أنبياء عصره الذين يدعون إلى التوحيد والخير والصلاح، بوعد الله بنعيم الجنّة وكبير شأنها، لا بالحنطة والخمر، ويحذّرون بوعيد الله بعذاب الدنيا والآخرة، لا بمحض الفقر والمرض ووطء الأجانب لزوجة العاصي.

وإنّ المسلمين لا يشطّون على الله، ويحصرون النبوّة بقبيلة بني إسرائيل ومريم ودبورة وخلدة وحنّة. وأربع بنات فيلبس وبنيهم وبناتهم.

وبهذا تعرف غلط المتعرّب[٢].

وزاد المتعرّب في الغلط؛ حيث أنكر قصّة ثمود وهلاكهم، متشبّثاً بأنّ «بترا» هي منازل ثمود، وقد كانت عامرة في القرن الثاني بعد الميلاد.

فقبحاً غرور الجهل! أفلا يعلم كلّ عاقل أنّا إن سلّمنا أنّ منازل ثمود الذين ذكرهم القرآن هي «بترا»، لقلنا: إنّ القرآن يبيّن أنّهم هلكوا قبل دعوة موسى لفرعون[٣]، فأقلّ ما يكون بينهم وبين الميلاد ما يزيد على ألف وخمسمائة سنة.

وكلّ ذي شعور يعلم أنّه يمكن للبلاد أن تخرب ويهلك جلّ أهليها، ثمّ تعمر بعد ألف وخمسمائة سنة. ولو سلّمنا أنّ الذين كانوا في «بترا» بعد الميلاد يدعون ثمود، لجوّزنا أن يكون بقيّة ثمود الأُولى من نسل الذين نجوا مع صالح[٤] أو أنّ الناس

---

١. إنجيل يوحنّا ١١: ٤٩ ـ ٥٢.

٢. ذيل مقالة في الإسلام: ٤ ـ ٦.

٣. غافر (٤٠): ٣١ ـ ٣٢.

٤. هود (١١): ٦١ ـ ٦٣؛ النمل (٢٧): ٤٥.

نحلوهم اسم ثمود ـ كما جاء في التوراة[١] ـ «الإيميّون يُحسَبون رَفَائيّين لكنّ الموآبيّين يدعونهم إيميّين».

وأمّا إنكار المتكلّف والمتعرّب على وصف أخبار المسلمين الآحاديّة لناقة صالح، فهو من الشطط؛ لأنّ الله قادر على أن يخلق ناقة هي أعظم من النوق المعتادة، لكي تكون آية لاقتراح العرب الذين ألفوا حقيقة الإبل وأحوالها. ولذا خصّوها بالاقتراح؛ لكون أمرها في نظرهم أبعد عن السحر، فخلقها الله بقدرته، كما هو قادر على أن يخلق عنقود عنب يحمل بالدقرانة بين رجلين[٢]، وعلى أن يعطي شمشون قوّة يقتل بها ألف رجل بلحي حمار، ويقلع بيتاً على سطحة ثلاثة آلاف رجل بجذب العمودين من تحته[٣]، وعلى أن يفتح القبور عند حادثة الصليب، ويقيم كثيراً من أجساد القدّيسين الراقدين، فخرجوا من القبور ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا لكثيرين[٤]، وعلى أن يعطي بطرس قوّة الشفاء للمرضى والمعذّبين من الأرواح النجسة، ولو بأن يخيّم ولو ظلّه على واحد منهم[٥]، وعلى أن يصنع على يدي بولس قُوّات غير المعتادة، حتّى كان يؤتى عن جسده بمناديل أو مآزر، فتزول بها الأمراض وتخرج الأرواح الشرّيرة[٦].

وأمّا سورة يوسف في القرآن الكريم وقصّته فيها[٧]

فقد اعترض المتكلّف على مضامينها تارةً بعدم وجود بعضها في توراته، وتارةً بمخالفة بعضها لتوراته، وتارةً بمخالفة بعضها للاعتبار أو المعقول بزعمه، وتارةً يفتري على

١. سفر التثنية ٢: ١٠ ـ ١١.
٢. سفر العدد ١٣: ٢٣.
٣. سفر القضاة ١٥: ١٥ و ١٦: ٢٧ ـ ٣١.
٤. إنجيل متّى ٢٧: ١ و ٥ ـ ٥٤.
٥. أعمال الرسل ٥: ١٥ ـ ١٦.
٦. أعمال الرسل ١٩: ١١ ـ ١٢.
٧. يوسف (١٢): ٤ ـ ١٠٣.

بعضها فيعترض عليه بأحد الوجوه الثلاثة، فانظر كتابه في هذا المقام[١].

فنقول: **أمّا أوّلاً**: فإنّا لو كابرنا الوجدان والشواهد القطعيّة، وفرضنا صحّة التوراة الرائجة، لقلنا: إنّ ممارستها والنظر في شؤون الحقائق يشهدان بأنّها تعرض في تأريخها عن ذكر كثير من الحقائق اللازمة الوقوع، وتطوي في قصصها أشياءً كثيرة لا ينبغي أن تطويها بمقتضى وضعها، كما يظهر ذلك من سيرة ما بين الطوفان وزمان إبراهيم، وإهمالها كثيراً من شؤون ذلك، وتأريخ انقلاب التوحيد الذي صفّاه الطوفان إلى الوثنيّة، وعناء الموحّدين في الردع عنها.

واعتبر حالها أيضاً في تكرارها في سفر العدد وسفر التثنية لذكر مراحل بني إسرائيل ومنازلهم وشؤونهم فيها[٢]؛ فإنّها في كلّ مقام يظهر عليها أنّها طوت في المقام الآخر ذكر شيء أو أشياء. وانتظر ما سنذكره ممّا طوت ذكره في شأن موسى مع فرعون[٣].

واعتبر أيضاً بأنّها قد طوت في خصوص المقام مكالمات يوسف مع إخوته واسترحامهم لمّا عزموا على قتله وإلقائه في البئر، وهو أمر لابدّ من وقوعه، كما أشرنا إليه[٤].

وأهملت أيضاً تعيين الزمان الذي بقي فيه يوسف في السجن، بل أهملت الإشارة إليه، مع أنّها نصّت في هذه القصّة على تعيين كثير من الأزمنة.

فلا غرو إذاً إذا ذكر القرآن الكريم شيئاً قد أهملت التوراة ذِكره، لكي تكمل الفائدة من كلا الوحيين مثلاً.

ولكن أين وأين غرض المتكلّف ومعرفته وأمانته من التدبّر في هذه الأُمور! أفتأمّل منه لأجل هذا أنْ يتورّع ويقف عن مثل قوله: «غَلَطَ» متشبّثاً بأنّ التوراة لم تذكر ذلك؟ كلّا.

وأمّا ثانياً: فإنّ مخالفة القرآن الكريم للتوراة الرائجة إن لم تكن من أمارات الحقّ

---

١. الهداية ٢: ٦٨ ـ ٨١.

٢. سفر العدد ١٢ ـ ٣٤؛ سفر التثنية ١ ـ ١٢.

٣. سيأتي في ص ٦٠٨ وما بعدها.

٤. تقدّم في ص ٥٦٧.

فلا تورد على الحقيقة شكّاً، وذلك لأنّ العقل إذا نظر بعين الاعتبار والاستقصاء إلى ما أشرنا إليه في التصدير وغيره ـ من قلق التوراة في أدوارها، وتقلّبها في شؤونها، ومكافحة متّبعيها لها بالتغليط والردّ ـ فإنّه يقرب إلى الظنّ ـ فضلاً عن العلم ـ أنّ كلّ مضمون من مضامينها لابدّ من أن يكون قد طرأ عليه المسخ والتبديل الكلّي أو الجزئي مراراً عديدة، خصوصاً إذا كان المضمون قصّة طويلة الذيل، فلا يعتبرها العقل كتاب تأريخ يساوي سائر التواريخ حتّى بالنسبة إلى حلقيا أو غيره[١]. فلا يسمح لها العقل بأن تقف في صفّ كتب التواريخ التي لم يعلم بوقوع التقلّب والمسخ في مكتوبها وجهالة نسبتها.

ودع عنك أمر الاعتماد على الكاتب وأنّه هل هو من أهل الخبرة بالتأريخ والأمانة في النقل والضبط في الحفظ؟

هذا إذا أغضى العقل عمّا فيها من الخرافات التي تؤول إلى الكفر، وما قرفت به يعقوب وموسى وهارون كما تقدّم مراراً، وإلّا فإنّه يقول ويقول.

وليس في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[٢] دلالة على أنّ القرآن الكريم في هذه القصّة ترجمة لما في التوراة الرائجة. كَيف، وهو ـ جلّ شأنه ـ يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[٣]، فإنّ هذا صريح في أنّ قصّة يوسف إنّما هي بوحيٍ ابتدائي.

دع هذا ـ وإن كانٍ لا يمكن أن تدعه ـ ولكن لو كان القرآن الكريم ترجمة لما ذكرته التوراة الرائجة، لكانت مخالفته لها استدراكاً عليها فيما غلط به كُتّابها وآباؤها المتعدّدون، أو سقط منهم، كما استدركت الترجمة السبعينيّة والعهد الجديد والحواشي والتراجم عليها أشياءَ كثيرة من نحو الغلط والسقط.

أو ليست التوراة الرائجة وصلت بالطريق الذي وصل به العهد القديم[٤]، ومع أنّه

---

١. فانظر إلى ما تقدّم.

٢ و٣. يوسف (١٢): ٢ ـ ٣.

٤. كذا، وصوابه: العهد الجديد.

أقرب منها عهداً وأقلّ منها إباءً وابتلاءً بالحوادث والكوارث، فإنّه قد استدركت عليه الحواشي كثيراً من الكلمات المكتوبة فقالت: إنّها لاتقرأ، وأوجبت قراءة كثير من الكلمات التي لم تكتب، فراجع التصدير[1].

هذا مضافاً إلى خلل التوراة الرائجة فيما يتعلّق بقصّة يوسف في الذين اشتروه وباعوه في مصر لفوطيفار، فتارةً جعلتهم إسماعيليّين، وتارةً جعلتهم مديانيّين، وتارةً جعلتهم مدانيّين.

وأمّا ثالثاً: فقد اعترض على مضمون القرآن الكريم في أنّ زوج المرأة التي راودت يوسف اطمأنّ ببراءته، وأمر المرأة بالاستغفار، وأبقاها في بيته، وأبقى يوسف إلى أن بدا لهم أن يسجنوه، فقال:

> من الغرائب تبرئة فوطيفار ليوسف وتوبيخ امرأته، فإنّه لا يتصوّر أنّ الرجل يثبت على امرأته الفسق والخيانة، ومع ذلك يقتنيها في بيته، أو يَستمرّ على اقتناء العبد ليكون أُحبولة لامرأته الشرّيرة. لا يتصوّر أنّه يسجنه بعد ظهور براءته[2].

أقول: أمّا إبقاء المرأة في بيته مع ظنّه ـ أو علمه ـ بخيانتها، فلا غرابة فيه؛ فإنّ أحوال الوقت والمكان والعوائد والأشخاص وبعض العوارض قد تقتضي ذلك. ولا أقول أكثر من هذا.

وأما إبقاء يوسف في بيته، فهو أقرب إلى الاعتبار؛ حيث اطمأنّ بصيانته وعفّته وأمانته؛ لقيام الآيات والشهادة على ذلك؛ فإنّ مثل هذه المرأة لا ينبغي أن يكون في بيتها غير هذا الصدّيق الأمين.

وأمّا سجن يوسف، فإنّما كان من استبداد من لم يطمئنّ ببراءة يوسف، أو اطمأنّ ولكنّه أراد أن يحابي المرأة المصريّة الشريفة، فيموّه الأمر ويزوّر الخيانة على يوسف الغريب ويسجّلها بالسجن؛ لكي تشيع بين الناس براءة المرأة. وهذا قريب من كيد الحكومات الوثنيّة الجوريّة القديمة في معاملتها مع أعيان الوطن وضعفاء الغرباء.

---

١. راجع ص ٤٧٢ وما بعدها.

٢. الهداية ٢: ٧١.

ولم يقل القرآن: إنّ الذي سجنه هو زوج المرأة، بل قال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1] ولو نسبهُ إلى زوج المرأة، لكان من الجائز أن يقصد به محاباة المرأة بالستر عليها، كما قدّمنا.

واعترض أيضاً على مضمون القرآن الكريم في أنّها دعت لائماتِها من نسوة في المدينة، وآتت كلّ واحدة منهنّ سكّيناً، فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ، فقالت: هَذا ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾[2] واعترفت بأنّها راودته فاستعصم، فقال:

هذا لا يتصوّر عقلاً، فلا يتصوّر أن تفضح نفسها، ولا يتصوّر عاقل ولا جاهل أنّ النساء يقطعن أيديهنّ ولا يشعرن لدهشتهنّ من جمال يوسف[3].

وأقول: إنّ سَوْرة[4] العشق وخلاعة الغرام تبعث على أكثر من هذا. ولم يقل القرآن: إنّ تلك النسوة من أشراف المدينة، بل قال: ﴿نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[5]. ولعلّهنّ صويحباتها في طاعة الصبابة والشهوة، وكان لومهنّ لها إنّما هو لأنّها لم تكشف سترها وتفشِ سرّها لأبناء جنسها من الأعيان الذين يغازلونها إذا تغازلهم، بل تعرّضت لغلام وَضِيع لا يؤاتيها على مرامها، وأصرّت على ذلك حتّى فضحها بقوله: «هي التي راودتني عن نفسي»[6]؛ فإنّ الناس لا يمتنع عليهم أن يصدّقوا يوسف، فضلاً عن شهادة الآيات.

ولعلّما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾[7] إذ سمّى لومهنّ على الفحشاء مكراً، أي ليس بلوم على الفحشاء في الحقيقة، وإنّما هو لوم على عدم سلوكها في الفحشاء بالنحو المألوف، فأبدت لأرباب الهوى عذرَها المقبول عندهم في الغرام.

ويشهد لذلك ما داخلهنّ عند رؤية يوسف إذ تنبّهت صبابتهنّ المألوفة، وحرّكتهنّ

---

١. يوسف (١٢): ٣٥.

٢. يوسف (١٢): ٣٢.

٣. الهداية ٢: ٧٢.

٤. سَورة الشيء: شدّته. انظر الصحاح ٢: ٦٩٠، «س و ر».

٥. يوسف (١٢): ٣٠.

٦. إشارة واقتباس بآية ٢٦ من سورة يوسف (١٢).

٧. يوسف (١٢): ٣١.

ممارسة المغازلة. وإنّ عملها معهنّ ليدلّ على معرفتها بحالهنّ، وأنّهنّ ممّن يلبّي دعوة العشق ويستخفّه الغرام.

ومن ذلك يظهر أنّهنّ لا يمتنع عليهنّ في دين الغرام وناموس الشغف[١] أن يقطّعن أيديهنّ. ولا سيّما إذا كانت سقتهنّ من نتاج الكرمة. ولا سيّما إذا حسبن إعراضه دلالاً، وعفّته تغنُّجاً[٢]، وخُيّل لهنّ أنّ إغضاءه من فتنة ألحاظه، وإسراعه من ترنيح الشباب لأعطافه، فشبّت بجوانحهنّ نيران الوجد، إذ لم يقبل توبتهنّ على يده، فيقبّلن قدميه ويبلّلنهما بمدامعهنّ ويمسحنهما بشعور رؤوسهنّ...

وأمّا اعترافها ببراءة يوسف بعد ذلك، فقد تقتضيه التوبة وتبرئة البريء وتخليصه من الظلم، بل قد تقتضيه رأفة العاشق بالمعشوق، بعد أن خمدت نار الغضب فشبّت نار الغرام، وأقلق الشوق الوِسادَ، ونبضت أعلاق المحبّة.

إنّ الغرامَ لأهلِه فَضّاحُ[٣].

فلا يتوجّه استبعاد المتكلّف لذلك[٤]، فإنّا نرى كثيراً من الناس قد جعلوا عِرضَهم وشرفهم فداءً لغرضهم الصحيح أو الفاسد، ومن ذلك اعتراف الخاطئات أمام القدّيسين.

ومن هذا النحو اعتراض المتكلّف على قوله تعالى في إخوة يوسف: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٥] فجعل هذا النقل عنهم افتراءً عليهم[٦]. مع أنّ التوراة تصرّح بأنّهم لمّا رأوا أباه يحبّه أكثر من جميع إخوته، أبغضوه، ولم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام[٧].

---

١. الشَغَف: شدّة الغرام. انظر الصحاح ٤: ١٣٨٢، «ش غ ف».

٢. التغنّج: تدلّل المحبوب على حبيبه، يريه ممانعة وليس ممانعاً في الحقيقة. انظر المعجم الوسيط: ٦٦٤.

٣. هذا شطر بيت. ولم أجده في المصادر المتوفّرة لدينا.

٤. الهداية ٢: ٩٦.

٥. يوسف (١٢): ٨.

٦. الهداية ٢: ٦٩.

٧. سفر التكوين ٣٧: ٤.

أفتقول: إنّهم مع ذلك لا ينقدح في أنفسهم شيء على أبيهم ولا يتفوّهون به؟ أم يقول المتكلّف: إنّهم أورع من ذلك؟ إذاً فلماذا أقدم أكثرهم على قتل أخيهم وحبيب أبيهم، وباعوه بيع العبيد، وأقرحوا قلب أبيه، وكذبوا عليه؟[١]

أم يقول: إنّ روابين ويهوذا قد تورّعا عن قتل أخيهم، فهما أورع من أن يتكلّما على أبيهم؛ لكي تشهد له التوراة على ورعهما؟[٢]

ومن هذا النحو اعتراضه على مضمون القرآن، بأنّ يعقوب انفتحت عيناه إذ ألقوا على وجهه قميص يوسف؛ حيث قال: «فمسألة القميص المذكورة في القرآن هي خرافيّة»[٣].

قلت: وكيف إذاً يعدّ المتكلّف من كلام الله السميع العليم قول كتابه:

إنّ بولس كان يؤتى عن بدنه بمناديل ومآزر إلى المرضى، فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأرواح الشرّيرة؟[٤]

فلماذا يكون هذا ممكناً معقولاً، وتكون كرامة الله ليعقوب ويوسف في أمر القميص خرافيّة؟ وهل التفرقة بينهما إلّا من الظلم الفاحش؟ فهل كان الأُقنوم المتجسّد فادياً ومتحمّلاً حتّى لقصاص هذه الخطيئة؟

أم يقول المتكلّف: إنّ كرامة القميص وأمثالها لم تكن ممكنة قبل التجسّد؟ وأمّا بعد فضيلة التجسّد ومجد الاضطهاد والصلب، فقد انبثقت القدرة على إعطاء بولس ما تقدّم ذكره، وإعطاء بطرس شفاء المرضى ولو بأن يخيّم ظلّه على أحد منهم[٥]. وشفاء المفلوج، وإحياء الميّت[٦].

---

١. سفر التكوين ٣٧: ٢٧ ـ ٣٦.

٢. سفر التكوين ٣٥: ٢٢ و ٣٨: ١٣ ـ ١٩.

٣. الهداية ٢: ٨١.

٤. أعمال الرسل ١٩: ١٢.

٥. أعمال الرسل ٥: ١٥.

٦. أعمال الرسل ٩: ٣٢ ـ ٤٢.

وأمّا رابعاً: فإنّ المتكلّف من رسوخ إيمانه وامتلائه من روح القدس، صار يفتري على القرآن ثمّ يعترض عليه، فقال:

إنّ القرآن يقول: إنّ الذي اشترى يوسف من مصر اتّخذه ولداً. والحقيقة هي أنّه كان عبداً غريب الجنس[1].

قلت: يعني بذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2].

فهل ترى في ذلك إخباراً بأنّه اتّخذه ولداً وتبنّاه؟ أم بأنّه يترجّى في المستقبل أحد أمرين: إمّا أن ينفعه نفع العبيد في العمل، أو يصافيهم صفاء الأولاد فيتّخذونه ولداً؟

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

فقال المتكلّف: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي قصد مخالطتها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جوابه محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها[4].

ثمّ اعترض على القرآن في آخر الصفحة.

قلت: قد قدّمنا لك[5] أنّ قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معلّق على ما بعده، أي ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها.

وأمّا قول المتكلّف: «لولا أن رأى برهان ربّه جوابه محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربّه لخالطها» فهو قول باطل مردود بلفظ الآية الشريفة ومعناها:

أمّا باللفظ فلأنّه لو كان المراد كما يدّعيه، لجيء بالواو، وقيل: ولولا أن رأى برهان ربّه.

---

١. الهداية ٢: ٦٩.

٢. يوسف (١٢): ٢١.

٣. يوسف (١٢): ٢٤.

٤. الهداية ٢: ٧٠.

٥. تقدّم في ج ١، ص ١١٢.

وأمّا بالمعنى فلأنّ العزم على الزنى بذات الزوج المحصن من أسوأ السوء، وقد قال الله تعالى في الآية: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[2] أي أكثرن جروحها فصارت بالجروح قِطَعاً.

فقال المتكلّف:

ولكنّ دعواه ـ أي القرآن ـ أنّ البعض قتلن أنفسهنّ ولم يشعرن، وهو من الأقوال الوهميّة والخرافات المستحيلة[3].

قلت: ولا أدري أنّ هذه الأمانة من المتكلّف في النقل عن القرآن، هل هي من طهارة ذاته، وغسله بدم المسيح، وامتلائه بالنعمة، أو من شربه دم المسيح؟! وإلّا فمتى قال القرآن: إنّ بعض النسوة قتلن أنفسهنّ؟!

وقال الله تعالى في طرد القصّة: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى﴾[4].

قيل: إنّ هاتين الآيتين حكاية عن امرأة العزيز، وهما مرتبطتان بقوله تعالى في الحكاية عنها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5] أي ليعلم يوسف أنّها وإن اتّهمته في حضرته، ولكنّها لا تخونه بالغيب، فتبهته وتُبرّئ أنفسها.

وقيل: إنّهما حكاية لقول يوسف، وهما مرتبطتان بقوله تعالى: ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[6] ذلك أي طلبه سؤال النسوة لكي يتّضح الحقّ ويعلم العزيز أنّي لم أخنه بالغيب في امرأته. ثمّ تواضع لله على سنّة الأولياء العارفين بالله ومواقع نعمه عليهم فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ أي لا أُزكّيها وأقول: إنّي تجنّبت الخيانة وتعفّفت عن السوء والفحشاء،

---

١. يوسف (١٢): ٢٤.
٢. يوسف (١٢): ٣١.
٣. الهداية ٢: ٧٢.
٤. يوسف (١٢): ٥٢ ـ ٥٣.
٥. يوسف (١٢): ٥١.
٦. يوسف (١٢): ٥٠.

لذات نفسي وطبيعتي البشريّة، بل إنّما كان ذلك برحمة الله وعصمته ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ﴾ باعثة بشهوتها على الفحشاء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وأيّدها بالعناية والعصمة.

وقال المتكلّف:

وكتاب الله يعلمنا أنّه ـ أي يوسف ـ منزّه عمّا عزاه إليه القرآن من أنّه همّ بها، وكيف يساعده الله على الارتقاء وقلبه فاسد[١].

قلت: وقد قدّمنا لك أنّ القرآن الكريم لم ينسب إليه أنّه همّ بها جزماً بل تعليقاً، بل التوراة جزمت بأنّه جاء إلى أبيه بنميمة إخوته القبيحة، أي نمّ عليهم بنميمة قبيحة[٢]، وقرفهم بأنّهم جاؤوا إلى مصر جواسيس، ليروا عورة الأرض، مع أنّه عرفهم وعرف أنّهم جاؤوا ليشتروا طعاماً[٣]. والقرآن لم يقل: إنّ قلبه فاسد، بل قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٤] وحكى عنه التحدّث بنعمة الله بملكة التقوى والتواضع لله في نفسه، وأنّ عصمته وتقواه إنّما هي برحمة الله ونعمته.

وياليت المتكلّف وتوراته وإنجيله الرائجين، وكتبه يعرفون بأنّ الله لا يساعد فاسد القلب على الارتقاء في معارج السعادة والتوفيق، ومراتب الرفعة الروحانيّة. كيف وإنّ توراته تذكر أنّ الله كلّم موسى في جبل سيناء بكلام طويل وعناية تامّة، كلّ ذلك في تفصيل ثياب هارون والتأنّق في صنعتها وترصيعها، ليمجّده ويقدّسه ويرفعه إلى مراقي الإمامة الكبرى والكهانة في الشريعة، فانظر الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر الخروج.

مع أنّها تذكر أنّ هارون في ذلك الوقت عمل عجل الذهب ليتّخذه بنو إسرائيل إلهاً يعبدونه، وبنى أمامه مذبحاً لرسم العبادة، ونادى لعبادته[٥]. ولم يَثْنِ ذلك عزم الوحي

---

١. الهداية ٢: ٧٧.
٢. سفر التكوين ٣٧: ٢.
٣. انظر سفر التكوين ٤٢: ٦ ـ ١٨.
٤. يوسف (١٢): ٢٤.
٥. سفر الخروج ٣٢: ١ ـ ٧.

وموسى عن تقديس هارون بأُبّهة الرفعة إلى الرئاسة الدينيّة الكبرى.

وإنّ الإنجيل ليقول: إنّ بطرس صار ينتهر المسيح حتّى قال له المسيح: «اذهب عنّي يا شيطان أنت معثرة لي؛ لأنّك لا تهتمّ لله بل بما للناس»[١]. مع أنّه يذكر قبل ذلك أنّ المسيح قال لبطرس:

أنت بطرس... وأُعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السماوات[٢].

فهل تجد ارتقاءً ورفعةً أكثر من هذا إلّا أن يكون أُقنوماً رابعاً؟

وهل تجد فساد قلب أكثر من أن يكون شيطاناً لا يهتمّ بما لله بل بما للناس؟

ودع عنك مشاركته للتلاميذ فيما وصمهم به الإنجيل، وإنكاره للمسيح حتّى صار يحلف ويلعن.

وأيضاً: إنّ الأناجيل قد وصفت التلاميذ بقلّة الإيمان، وغلَظ القلوب وقساوتها، والمشاحنة على الرئاسة بعد المسيح، والغيظ عليه من أجل ابن زبدي، وعدم مواساته بالحزن والصلاة وسهر بعض الليل، حتّى تفرّقوا عنه وهربوا وتركوه وحده بيد الأعداء، كما أشرنا إليه[٣].

ومع ذلك يذكر العهد الجديد أنّهم ارتقوا بروح القدس والمعجزات إلى درجات الرسالة التي صانعوا بها الأُمم، واستحسنوا فيها بمشورتهم أن يبطلوا شريعة موسى؛ لأنّه له من يكرز به في كلّ سبت[٤].

ودع عنك ما يذكره العهد الجديد من رياء أكابرهم[٥].

---

١. إنجيل متّى ١٦: ٢٢ ـ ٢٣.

٢. إنجيل متّى ١٦: ١٨ ـ ١٩.

٣. تقدّم في ج ١، ص ٤٨.

٤. أعمال الرسل ١٥.

٥. الرسالة إلى أهل غلاطية ٢: ٣ ـ ١٥؛ أعمال الرسل ١٦: ١ ـ ٤ و ٢١: ٢ ـ ٢٧.

ومع هذا وما هو أكثر منه في كتبهم، والمتكلّف يقول: «وكأنّ القرآن مستخفّ بخطيئة الفسق»[١]. فكأنّ القرآن الكريم يقول ما سمعته من كتبهم في شأن هارون وبطرس والتلاميذ.

أو كأنّ القرآن يقول:

إنّ سليمان ـ وحاشاه ـ مال قلبه وراء آلهة أُخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه، فذهب وراء عشتاروت إلهة الصيدونيّين ومَلْكوم رجس العمّونيّين. وعمل الشرّ في عيني الربّ ولم يتبع الربّ تماماً. فبنى مرتفعةً لكموش رجس الموآبيّين ولِمُولَك رجس بني عمّون[٢].

ومع ذلك يقول عن كلام الله علّام الغيوب في شأن سليمان: «هو يبني بيتاً لاسمي وهو يكون لي ابناً وأنا له أباً»[٣]. فكان آخر الأمر ـ بنقل العهد القديم ـ أنّ هذا الابن الباني البيت بنى المرتفعات للأوثان.

أو كأنّ القرآن ذكر ما ذكره العهد القديم في شأن داود ـ وحاشاه ـ مع أُورِيّا وامرأته وحَمْلِها، ممّا تقشعرّ منه الجلود، كما هو مشروح في الحادي عشر من صموئيل الثاني. ومع ذلك يذكر عن إلهام الروح القدس في كلامه: «لأنّي حفظت طرق الربّ ولم أعص إلهي»[٤].

واقتصّ الله ـ جلّ شأنه ـ في هذه السورة[٥] قصّة جعل الصواع في رحل بنيامين، واستخراجها منه، ليستخلص يوسف أخاه بنيامين من إخوته ويبقيه عنده. ولم يكن في ذلك بهتان وإيذاء لبنيامين، بل لا بدّ أن يكون هذا العمل عن تواطؤ مع بنيامين؛ لأنّ مقتضى القرآن الكريم أنّ ذلك وقع بعد ما عرّف يوسف نفسه لأخيه بنيامين. فلمّا تمّ القرار في مسألة الصواع، وأَعْيَت الحيل على إخوته حنقوا على بنيامين لتوهّمهم أنّه

---

١. الهداية ٢: ٧٧.

٢. سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ٨.

٣. انظر سفر الأيّام الأوّل ٢٢: ٩ ـ ١١ و ١٧: ١١ ـ ١٤؛ سفر صموئيل الثاني ٧: ١٢ ـ ١٥.

٤. سفر صموئيل الثاني ٢٢: ٢٢؛ سفر المزامير ١٨: ٢١.

٥. يوسف (١٢): ٧٠ ـ ٧٨.

سرق، وأوجب ريب المصريّين منهم، وجعلهم عرضة للوم أبيهم وتنكيده لعيشهم بالجزع عليه، فنبض عرق البغضاء له وليوسف.

فـ﴿قَالُوٓاْ﴾ في محاورتهم فيما بينهم باللسان العبراني: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ زعماً منهم أنّ يوسف والحاضرين أناس مصريّون لا يفهمون اللسان العبراني إذا تكلّموا به، على جاري العادة في القوم إذا صاروا في البلاد الأجنبيّة، فإنّهم يتكلّمون في مقاصدهم ومحاوراتهم بلسانهم الخاصّ. فلم يقولوا ذلك ليشهدوا على سرقة بنيامين، ولا ليوقعوه في التهلكة.

ولذا قال الله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي الكلمة التي قالوها عليه ﴿فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فكأنّه لم يفهم ما قالوه بلغتهم، وما قرفوه به من السرقة، و﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ في أفعالكم التي أعرفها. ولا بدّ من أن يكون قال ذلك في نفسه، أو بكلام لا يفهمونه ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[١] به بنيامين وإيّاي من السرقة.

فقد جاء في أوثق الروايات أنّ السرقة المنسوبة ليوسف كانت أيضاً تدبيراً من بعض أرحامه[٢]، كالتدبير في السرقة المنسوبة لبنيامين. وقد كان ينبغي لإخوة يوسف أن يظنّوا أو يحتملوا براءة بنيامين، وأنّ الذي جعل بضاعتهم في رحالهم في المرّة الأُولى، هو الذي وضع الصواع في رحل بنيامين.

وقد جاء في التوراة أنّ يوسف كان يكلّم إخوته بواسطة الترجمان، وهم يزعمون أنّه لا يفهم ما يقولونه باللسان العبراني. ولذا لمّا طلب منهم أن يجيئوا بأخيهم الصغير، جعلوا يتلاومون فيما بينهم بلسانهم الخاصّ فيما فرّطوا بيوسف[٣].

وإذا عرفت ما ذكرناه، فاعلم أنّ المتكلّف جرى عَلَى عادتِه في الفهم والأمانة فقال: «يؤخذ من عبارة القرآن أنّ بنيامين سرق الصاع مثل أخيه يوسف»[٤].

---

١. يوسف (١٢): ٧٨.

٢. راجع مجمع البيان ٣: ٢٥٥، ذيل الآية ٧٨ من سورة يوسف (١٢).

٣. سفر التكوين ٤٢: ٢١ ـ ٢٥.

٤. الهداية ٢: ٨٠.

قلت: لا يخفى على من تشرّف بالنظر إلى القرآن الكريم وهذه السورة، أنّه صريح في واقعة الصواع بأنّ بنيامين لم يسرقه، وإنّما جُعل في رحله تدبيراً من يوسف لكي يستخلص أخاه من إخوته، بطريق لا يعدّ من الظلم وجور القدرة[١].

ولعلّ الذي اقتضى هذا التدبير، هو أنّ يوسف حنّ إلى شقيقه وآواه وأكرمه؛ فخاف عليه من إخوته أن يحسدوه على ذلك، فيفعلون مع بنيامين مثل ما فعلوه مع يوسف أو أشدّ والتوراة أيضاً تذكر أنّ يوسف أكرم بنيامين أكثر من إخوته كلّهم بخمسة أضعاف[٢].

وبما ذكرنا تعرف شطط المتكلّف في باقي كلامه في هذا المقام.

[موسى عليه السلام وما نزلت في شأنه وقوم بني إسرائيل]

وقال الله ـ جلّ شأنه ـ في سورة طه، في الحكاية لخطابه ـ سبحانه وتعالى ـ مع موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٣] فأنكر المتكلّف ذلك، وادّعى أنّ موسى عليه السلام كان في جبل حوريب حينما أمره الله بخلع حذائه، ثمّ ادّعى أنّ طُوى اسم وهمي[٤].

وهذا أيضاً من بوادر الغرور.

أمّا أوّلاً: فإنّ العهد الجديد كتاب إلهام المتكلّف يقول بصراحته: «ظهر له ـ أي لموسى ـ ملاك الربّ في بريّة جبل سيناء في لهيبِ نارِ عُلّيقة»[٥].

وأمّا ثانياً: فإنّ التوراة ـ على ما بها ـ لم تقل: إنّ موسى كان حينئذٍ في الجبل، بل إنّما قالت:

> وموسى كان يرعى غنم يثرون... فساق الغنم وراء البرّيّة وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهبة نار[٦]. إلى آخره.

---

١. فانظر يوسف (١٢): ٦٩ ـ ٧٨.

٢. سفر التكوين ٤٣: ٣٤.

٣. طه (٢٠): ١٢.

٤. الهداية ٢: ٩٥.

٥. أعمال الرسل ٧: ٣٠ ـ ٣٥.

٦. سفر الخروج ٣: ٢ ـ ٨.

ومن المعلوم أنّ السائر من مكان بعيد، يقال له: إنّه جاء إلى الجبل إذا صار قريباً منه وعند سفحه وأودية سَيْلِه.

والقرآن يصرّح في سورة القصص[1] بأنّ الواقعة كانت بجانب الطور من شاطئ الوادي الأيمن.

ولو أنّ توراة المتكلّف تقول: إنّ موسى إذ ذاك كان في الجبل، لما صحّت بلفظها المعارضة، وذلك لأجل ما هو المعهود من توسّعها الفاحش، فقد ذكرت أنّ بني إسرائيل نزلوا في جبل هور[2]. مع أنّها تقول في هذا المنزل:

إنّ الله أمر موسى أن يصعد بهارون وألعازار إلى جبل هور، فصعدوا إلى جبل هور أمام عين كلّ الجماعة، ثمّ انحدر موسى وألِعازار من الجبل[3].

وهذا كالصريح في أنّ نزول بني إسرائيل هناك لم يكن في الجبل.

وتقول أيضاً: «الربّ إلهنا كلّمنا في حوريب قائلاً: كفاكم قعودٌ في هذا الجبل»[4]. مع أنّها تذكر أنّ نزول بني إسرائيل كان في برّيّة سيناء مقابل الجبل، وكان ارتحالهم من تلك البرّيّة أيضاً[5].

وتقول أيضاً: عن حكاية خطاب موسى لبني إسرائيل: «في اليوم الذي وقفت فيه أمام الربّ إلهك في حوريب» مع أنّها تقول: «فتقدّمتم ووقفتم في أسفل الجبل»[6].

وفيها من هذا النحو من التوسّع شيء كثير.

ولو أنّ توراة المتكلّف أيضاً تصرّح وتقول: إنّ موسى عليه السلام كان حينئذٍ على قنّة الجبل، لما كان ذلك ضائراً بأيّ تأريخ يعارضها، فضلاً عن القرآن الكريم كلام الله. وذلك لمّا

---

١. القصص (٢٨): ٢٩ ـ ٣٠.

٢. سفر العدد ٣٣: ٣٧.

٣. انظر سفر العدد ٢٠: ٢٢ ـ ٢٩.

٤. سفر التثنية ١: ٦.

٥. انظر سفر الخروج ١٩: ٢؛ سفر العدد ١٠: ١٢ و ٣٣: ١٥ ـ ١٦.

٦. سفر التثنية ٤: ١٠ ـ ١٢.

بيّنّاه في الجزء الأوّل في المقدّمة الخامسة والسادسة[١]، وفي هذا الجزء في التصدير[٢]، بل كلّ مورد تعرّضنا فيه لحال التوراة من متفرّقات هذا الكتاب.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ طُوَى اسم وهمي» فهي دعوى تشوّه وجه الأدب. أفيقول: إنّه ليس في تلك الناحية وادٍ أصلاً ورأساً، أم يقول: إنّه قد بلغ من العمر آلافاً من السنين التي قضاها في تلك النواحي، فعلم بالعلم اليقين أنّه لم يسمَّ بعض أراضيها «طُوَى» لاباللغة العبرانيّة ولا العربيّة ولا غيرهما، فنقل ذلك بأمانته وتقواه. أم يقول: إنّ هذه الدعوى من إلهام الروح الذي أخبر عنه ميخا[٣]؟

استطراد ومناسبة في الذكر

وقال الله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾[٤].

فقال المتكلّف:

> الصواب أنّ شجرة الزيتون هي في فلسطين، ولم يكن في طور سيناء شجر ولا غيره، وإلّا لما أرسل الله المنّ والسلوى إلى بني إسرائيل[٥].

قلنا: لم يحصر القرآن وجود الشجرة بطور سيناء، بل يجوز أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ خصّها بالذكر امتناناً بقدرته على أن يخلق مثل هذه الشجرة النافعة بنوعها من الجبل الصخري. ولا يسوغ إنكار ذلك إلّا بإقامة البرهان على امتناعه في العادة بحسب تلك الأرض، وهو باطل؛ فإنّ الوجدان شاهد على أنّ تلك الجبال يكثر فيها الشجر كالطرفاء والعوسج وغيرهما. وقد كانت تلك الجبال قريبةً من عمران الحاضرة مثل إيليم ومدين وعصيون جابر وأيلة. بل تكاد أن تعدّ من ضواحي ذلك العمران. فلا يبعد أنّها كانت

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٣٧ ـ ٦٠.

٢. تقدّم في ص ٤٧٢.

٣. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٢٢.

٤. المؤمنون (٢٣): ٢٠.

٥. الهداية ٢: ١٩٨.

تستنبت فيها تلك الشجرة، وإن كانت لا توجد فيها الآن؛ فإنّ الأحوال تتبدّل، والعمران يتنقّل.

ولعلّك تؤيّد أوهام المتكلّف بدعوى بعض الجغرافيّين أنّ منابت الزيتون منحصرة فيما بين الدرجة الرابعة والثلاثين والرابعة والأربعين من العرض الشمالي، فتقول إذاً: إنّ جبل سيناء لا يبلغ الدرجة التاسعة والعشرين.

ولكنّا ننبّهك إلى أنّ الجيزة من أعمال مصر هي من منابت الزيتون الكثير، وهي لا تبلغ الدرجة الثلاثين، وكذا الفيوم من أعمال مصر أيضاً وهو دون الجيزة بنحو ثلاثين دقيقة تقريباً، وهو لا يزيد بالعرض على جبل سيناء بأكثر من نيّف وخمسين دقيقة. مع أنّه ينجبر ذلك في طور سيناء بانكسار الحرارة فيه بسبب ارتفاعه عن انعكاس الأشعّة الأرضيّة، وبسبب قربه من البحر الملطّف لهوائه.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّه لم يكن في طور سيناء شجر ولا غيره»[1] فهي دعوى باطلة مردودة عليه، ولو كان كملكي صادوق بلا أب بلا أُمّ بلا نسب لا بداية أيّام له ولا نهاية حياة.

وأمّا احتجاجه بقوله: «وإلّا لما أرسل الله المنّ والسلوى إلى بني إسرائيل» فهو من الشطط؛ لأنّ القرآن لم يقل: إنّ في طور سيناء أشجاراً وبساتين من الزيتون والفواكه، ومزارع من الحنطة والشعير، ومليونات من الغنم و البقر، وكلّ قسم يقوم بحاجة بني إسرائيل، فلا حاجة لهم إلى المنّ والسلوى.

بل لو قال: إنّ في طور سيناء ألف شجرة ممّا ذكره، لما كان منافياً للحاجة لنزول المنّ والسلوى. كيف لا وإنّ التوراة تقول: إنّ الله أعطى المنّ والسلوى لبني إسرائيل في برّيّة سين في الشهر الثاني لخروجهم من مصر[2]. مع أنّهم خرجوا من مصر ومعهم لفيف كثير من غنم وبقر مواشٍ وافرة جدّاً. وفي أوائل مجيئهم إلى برّيّة سيناء أصعدوا مُحرَقات وذبحوا ذبائح سلامة للربّ من الثيران، وكذا بعد ذلك[3].

---

١. الرسالة إلى العبرانيّين ٧: ٣.

٢. سفر الخروج ١٦: ١ ـ ١٧.

٣. انظر سفر الخروج ١٢: ٣٨ و ٢٤: ٥، وسفر اللاويّين ٨ ـ ٩، وسفر العدد ٧.

ولو أنّا نرضى لمجد معارفنا بالحجّة المخدوشة بالاحتمال، لقلنا: إنّ وجـود زيت الزيتون الذي جاء به بنو إسرائيل في برّيّة سيناء للضوء ودهن المسحة، هو دليل على وجود شجر الزيتون هناك[١]. ولكن احتمال استجلابه من الأماكن البعيدة، ووهن توراة حلقيا أو غيره مانعان لنا عن التشبّث بمثل ذلك.

ولنا أن نقول: إنّ رؤوس الجبال التي في شبه جزيرة سيناء، إنّما هي أجـزاء مـن سلسلة ذات تعاريج منبثّة في أرض فلسطين وشبه جزيرة سيناء ولنا أن نعتبر مبدأ السلسلة من موازاة جبل لبنان. والأحرى أن نعدّه جزءاً منها، وإن تخلّل بينهما ما هو بمنزلة العقبات في أثناء سلاسل الجبال، فتمتدّ هذه السلسلة إلى الجنوب على غربي الأُردن وبحيرة لوط ووادي العربة وخليج العقبة، ثمّ تنعطف عند ملتقى الخليجين إلى الشمال الغربي ممتدّة مع شرقي خليج السويس، حتّى تتعدّى منتهاه بنحو ثلاثين ميلاً، ثمّ تنعطف إلى الشمال الشرقي ممتدّة إلى نحو العريش وحدود فلسطين. فيتّفق لهذه السلسلة في امتدادها وتعاريجها وانعطافاتها عدّة رؤوس يسمّى كلّ منها باسم، نحو: فوريا، والصفصافي، والصمغي، وحوريب، وكاترينا، وفيران، وغيرها. وقـد تـتداخـل الأسماء كما تداخل أسماء حوريب وسيناء في التوراة[٢].

فمن الممكن الشائع في اللغة والاستعمال أن يكون القرآن الكريم قـد أراد بـطور سيناء الجبل الذي هو مجموع السلسلة، وسمّاه طور سيناء باعتبار أنّ سيناء هو الحدّ الجنوبي لمنابت الزيتون فيه، أو لأنّه أشرف رؤوسه وأشهرها. ولبعض هـذه الوجـوه جعل الجغرافيّون برّيّة سيناء اسماً لجميع القسم الواقع غرباً، من خـطّ مـفروض مـن طرف بحيرة لوط الجنوبي إلى رأس خليج العقبة، مع أنّه يشتمل على شطر من أرض يهوذا في فلسطين. كما أنّهم يسمّون سلسلة الجبال الغربيّة جبل الشراة باعتبار قطعة منها، مع أنّ لها قطعاً ورؤوساً ذوات أسماء وشهرة.

---

١. فانظر سفر الخروج ٢٧: ٢٠ و ٢٩: ٤٠ و ٣٠: ٢٤ و ٣٥: ٨ و ٢٨ و ٣٩: ٣٧.

٢. انظر سفر الخروج ١٩: ٢٠ و ٢٤ و ٣٤؛ أعمال الرسل ٧: ٣٠؛ ثمّ انظر سفر الخروج ٣: ١؛ سـفر التـثنية ١: ٦ و ١٩، و ٤: ١٠ و ٥: ٢ ـ ٦ و ١٨: ١٦، وسفر الملوك الأوّل ٤: ٤.

وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[١].

فاعترض المتكلّف على ذلك وقال:

إنّ الله لم يرسل موسى ليدعو فرعون وقومه إلى ديانته، بل إنّ المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أرسله لإنقاذ الأُمّة الإسرائيليّة من الرقّ والعبوديّة، وإخراجهم من مصر[٢].

قلت: إنّ اللازم على أمانة المتكلّف أن يذكر ما ذكرته توراته في عنوان إرسال الله موسى إلى فرعون وماذا أمره أن يقوله له، وماذا قاله له؛ ثمّ إذا ذكر ذلك فَلْيَتَّكِئْ على سرير تبشيره بمحضر العقلاء العارفين بالله ويقول: إنّ هذا هو الحقيقة المعقولة اللائقة بجلال الله في إرساله موسى إلى فرعون، دون ما يذكره القرآن.

ولئن طوى ذكر ما في توراته، فإنّا نذكره ونقول: يقول مضمون توراته: إنّ اللّه ـ جلّ شأنه ـ قال لموسى في أوّل كلامه في حوريب:

إنّي رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر... فنزلت لأُنقذهم من أيدي المصريّين وأُصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيّدة وواسعة إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً إلى مقام الكنعاني والحثي والأموري والفرزي والحِوّي واليبوسي[٣].

وأمره أن يبشّر قومه بذلك[٤]، فاعرف المقصود من الرسالة واحفظه.

ثمّ قالت عن قول الله لموسى:

فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون: الربّ إله العبرانيّين التقانا فالآن نمضي طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ونذبح لله إلهنا[٥].

---

١. يونس (١٠): ٧٥ و٧٨.
٢. الهداية ٢: ٦١.
٣. سفر الخروج ٣: ٧ ـ ٨.
٤. سفر الخروج ٣: ١٦ ـ ١٧.
٥. سفر الخروج ٣: ١٨.

فتكون فائدة هذا الوحي ـ وحاشا لله ـ أمرين:

أحدهما: أنّ الله أمر موسى بأن يأمر شيوخ بني إسرائيل أن يكذبوا على فرعون بقولهم: «إله العبرانيّين التقانا» مع أنّه ـ جلّ شأنه ـ إنّما تجلّى لموسى في حوريب، ولم يتجلّ لهم ولا التقاهم.

وثانيهما: أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ أمر موسى وشيوخ إسرائيل أن يكذبوا أيضاً على فرعون بقولهم: نذهب طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ونذبح لله إلهنا. مع أنّ المقصود هو الذهاب إلى بلاد ذات مدن ومزارع وبساتين، وهي أرض الكنعانيّين ومن جرى ذكرهم من القبائل، لا إلى البرّيّة، ولا إلى طريق ثلاثة أيّام. بل إنّ أقرب حدود هذه الأرض إلى محلّ بني إسرائيل في مصر، يزيد بعده عنهم على مائة وسبعين ميلاً بالخطّ المستقيم، فضلاً عن تعاريج الطريق وانحرافاته. فلا يمكن لثقل بني إسرائيل أن يبلغ أقرب حدودها إليهم بأقلّ من ستّة أيّام. ولا يمكن أن يتوسّطوها بأقلّ من ثمانية أيّام أو تسعة. ولا تقل: إنّ المقصود من طريق الثلاثة أيّام، هو الطريق إلى برّيّة سيناء. وذلك لأنّ بُعده عنهم يزيد على مائتي ميل بالخطّ المستقيم، وقد قطعه بنو إسرائيل بمسير ثلاثة عشر يوماً في أكثر من شهرين.

وزادت التوراة أيضاً في الطنبور نغمة إذ ذكرت: أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ أمر موسى بأن يأمر نساء بني إسرائيل، أن يطلبن من جاراتهنّ المصريّات أمتعة فضّة وأمتعة ذهب وثياباً بعنوان الأمانة والاستعارة، فيسلبونها من المصريّين بعنوان الخيانة في الأمانة[1].

ويقول مضمون التوراة: إنّه لمّا جاءت النوبة إلى تبليغ الرسالة لفرعون، لم يفعل شيوخ إسرائيل ما أمر به الله، بل دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الله إله إسرائيل: أطلق شعبي لِيُعَيِّدوا لي في البرّيّة[2]. مع أنّه لم يسبق هذا الكلام فيما ذكرته سابقاً عن كلام الله لموسى.

---

١. سفر الخروج ٣: ٢١ ـ ٢٢.

٢. سفر الخروج ٥: ١.

ثمّ قالا لفرعون:

إله العبرانيّين التقانا فنذهب طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ونذبح لله إلهنا لئلّا يصيبنا بالوباء أو بالسيف[1].

مع أنّه لم يتقدّم في الوحي السابق وعيد بالوباء أو بالسيف.

فحاصل مضمون التوراة الرائجة التي اغترّ بها المتكلّف، يظهر منه في إرسال الله لموسى وتبليغه للرسالة عدّة أُمور:

١. أمر شيوخ إسرائيل أن يكذبوا بدعوى أنّ الله التقاهم.

٢. أمر موسى وشيوخ إسرائيل أن يكذبوا بدعوى الذهاب طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ليذبحوا لله. مع أنّ المقصود هو الذهاب إلى مدن فلسطين للسكنى والتملّك.

٣. أمر نساء بني إسرائيل أن يخدعن المصريّات ويخنّ أمانتهنّ.

٤. كذب موسى وهارون ـ وحاشا قدسهما ـ في مسألة العيد.

٥. كذبهما ـ وحاشاهما ـ في دعوى الذهاب طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ليذبحوا لله. وقد عرفت المقصود.

٦. كذبهما ـ وحاشاهما ـ في قولهما: «لئلّا يصيبنا بالوباء أو السيف».

فكأنّ المتكلّف يقول ـ وأستغفر الله ـ: هذا هو الذي يليق بجلال الله ولطفه وقدسه في إرسال موسى إلى فرعون. وهو الذي يليق من الرسول في التبليغ. فالتوراة التي تنقل هذه المضامين هي أحقّ بالإذعان من القرآن الذي يقول: إنّ الله القدّوس اللطيف إله العدل والصلاح، أرسل موسى ليدعو فرعون إلى طهارة الإيمان والصلاح، والإقلاع عن رجاسة الشرك والظلم والفساد.

أترى هل يصحّ من موسى أن يبلّغ فرعون عن الله أمره بأن يطلق بني إسرائيل، بدون أن يعلّمه الإيمان بالله ويدعوه إليه، لكي يسمع أمره ويعرض عن ضلالة الأوثان؟ فهل ترى أنّه يمكن لرسول الملك أن يبلّغ بعض الناس أوامر الملك ويأمرهم بالطاعة،

---

١. سفر الخروج ٥: ٣.

بدون أن يعرّفهم بالملك وسطوته وقدرته، ويدعوهم إلى الإذعان بذلك ليطيعوه؟

دع هذا، وقل: ما معنى قول التوراة: «وكلّم الله موسى وهارون قائلاً: إذا كلّمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة»[١]. فلماذا يطلب العجيبة، إذا لم تكن الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، لكي تكون العجيبة برهاناً لهذه الدعوة؟

ومن الظرائف أنّ توراة المتكلّف كأنّ لها عداوة مع الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وشريعته، والإقلاع عن الشرك وعوائد الضلال، فلم تذكر أنّ موسى ومن بعده يوشع دعوا المصريّين أو الكنعانيّين أو غيرهم من أُمم الأرض إلى التوحيد والهدى والصلاح، ولم تذكر أنّ الله أمر موسى بهذه الدعوة أصلاً. بل ذكرت أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ أمرهم بقتل الرجال والنساء والأطفال والبهائم، وإحراق البلاد وما فيها.

نعم، ذكرت أنّ الله أمر موسى إذا حارب مدينة أن يدعوها إلى الصلح، فإن أجابت كان شعبها للتسخير والجزية. هذا إذا كانت من غير الشعوب السبعة، وأمّا إذا كانت منها فلا يبقي نسمة منهم حتّى البهائم. وأمّا الدعوة إلى الإيمان بالله فهي نسي منسيّ.

وأنت ترى، وكلّ عاقل يرى، أنّه لا يأمر بذلك ولا يفعله واحد من البرابرة المتوحّشين، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

ولئن رضي المتكلّف بهذا كلّه من توراته، فإنّ العقل والدين ليأبيان لنا أن نرضى ذلك لجلال الله وقدس رسله وهدى كتبه.

ولا يلام المتكلّف مع ما ألّفه من توراته من مثل هذه الطامّات، إذا اعترض على القرآن الكريم.

فكيف تَرَى لَيلَى بعينٍ تَرَى بها   سِواها وما طَهَّرْتَها بِالمَدامِعِ[٢]

وقد حداني طرد الكلام أن أُبصِّرك بالهدى ودين الحقّ، وَأُشِمَّكَ من أَرَج[٣] تأريخ

---

١. سفر الخروج ٧: ٨ ـ ٩.

٢. الحماسة البصريّة ٢: ١١٩.

٣. الأرج: توهّج ريح الطيب. الصحاح ١: ٢٩٨، «أ ر ج».

الإسلام نفحة[١]، وأشِيمَك[٢] من سَناء[٣] أحكامه وأسَاسياته لمحة[٤]. فنقول: إن الله ـ تقدّست أسماؤه ـ أمر رسوله الصادق الأمين، أن يصدع بما يؤمر، ويشمّر للدعوة إلى التوحيد وشريعة العدل والصلاح وترك الأوثان وعوائد الجور والفساد، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة بشيراً ونذيراً. فتجرّد وشمّرﷺللدعوة مُدَرِّعاً[٥] بالصبر مُعْتَدّاً باليقين، ونصح العباد وحسن الخلق، والمواظبة على الدعوة للشريف[٦] والوضيع، والكبير والصغير، والحرّ والعبد، والرجل والمرأة، والحاضر والبادي، والقريب والبعيد، لا يستصغر فيها حقيراً ولا يُكبِر فيها جبّاراً، ولا يثنيه عنها اضطهاد، ولا يتربّص فيها فرصة، ولا يُؤيسه من تأثيرها إصرار الغيّ. وقد لبّاه في دعوته جماعة، قد اقتضت حكمة الدعوة أن يأمرهم بالصبر على تحمّل الأذى، والفرار بدينهم.

واستمرّ على هذا الدأب سنين عديدة، وقد بثّ دعوته ودعاته في البلاد.

ولمّا لبّاه أهل المدينة آثر بأمر الله أن يهاجر إليها، ليُحكِم أمر الدعوة وينشر لواءها بدون ثورة شغب، ولِتَكُون مأوى المؤمنين، فلا تنقدح بينهم وبين المشركين نار الفتنة، ولكي تشيع مَنَعَتُه[٧] فلا يصدّ من يريد الإسلام خوف الاضطهاد وضعف الجانب ولا يُسْتَنْكَف[٨] من الانضمام إلى حوزته[٩].

ولمّا تمادى مشركو مكّة على الغيّ واضطهاد من عندهم من المسلمين، والتعرّض لإطفاء نور الإيمان، ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره، أمره الله ـ جلّ شأنه ـ أن يتعرّض

---

١. نفح الطيب نفحةً: فاحت رائحته. الصحاح ١: ٤١٢، «ن ف ح».
٢. أشيمك، من شمت الشي: إذا تطلّعت نحوه ببصرك. الصحاح ٥: ١٩٦٣، «ش ى م».
٣. السنا: ضوء البرق. الصحاح ٦: ٢٣٨٣، «س ن ا». وشبّه به أحكام الإسلام.
٤. اللمحة: النظرة الخاطفة. انظر الصحاح ١: ٤٠٢، «ل م ح».
٥. أي جاعلاً الصبر درعاً ووقاية.
٦. في الأصل «للشفيع» وما ذكرناه هو الصواب.
٧. المنعة: التحصّن والعزّة. انظر الصحاح ٣: ١٢٨٧، «م ن ع».
٨. يستنكف: يستكبر.
٩. حوزته: ناحيته. الصحاح ٣: ٨٧٦، «ح و ز».

لإرهابهم، ليخافوا جانبه فيكفّوا عن غيّهم وغرورهم، فتعرّض لأموالهم وطريق تجارتهم، لكي يضطرّوا في حفظ اقتصادهم وثروتهم إلى الإقلاع عن عدوانهم على المسلمين فخرج المشركون لإنقاذ أموالهم بعدّة تامّة وقوّة بزعمهم كافية، فلمّا علموا بنجاتها حملهم طغيانهم وغرورهم بعدّتهم وعديدهم، فقصدوا حرب رسول اللهﷺ اغتراراً بقلّة أصحابه، ووهن استعدادهم، وأصرّوا على حربه، ولم ينجع بهم نصح شيوخهم ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1] إذ كان ـ جلّت آلاؤه ـ قد وعد رسوله والمسلمين بإحدى الطائفتين من العير أو النفير. فقضى الله بالفتح على رسوله على نحو لم يكن متصوّراً في العادة.

ثمّ تتابعت بعد ذلك حروب رسول الله وتجريداته، وكلّها كانت من نحو الدفاع، والانتصار للمسلمين، وكسر عادية المشركين. وكانﷺ في حروبه وتجريداته كلّها يبتدئ بالدعوة إلى الإيمان والصلاح، ويرغّب فيهما ويحثّ على السلم، ويجيب إلى الهدنة، ويقيل العثرة، ويركن إلى الصلح، مع كونه المظفّر المنصور. كلّ ذلك لحبّه الصلاح، وليكون الإمهال وحسن السيرة ولين الجانب والوفاء بالعهد داعية للناس إلى الإيمان، من دون تحريش بالحروب القاسية. فإذا اعترف المشرك بالتوحيد وأناب إلى الإيمان ـ ولو ظاهراً ـ عصم ماله ودمه، وصار أخاً حبيباً للمسلمين، وإن كان قد قتل في الشرك آباءهم وأبناءهم وجَنَى ما جَنَى عليهم.

وكانﷺ أهمّ وصاياه في تجريداته وحروبه هو النهي عن المُثْلةِ[2] بالقتلى، وسوء الولاية، وقتل النساء والأطفال والمشايخ العاجزين، والرهبان المعتزلين، وإزعاجهم عن معابدهم. وكان يحثّ على الرأفة بالأسرى والمماليك حسن معاملتهم، ويسلّي قلوبهم ويعدهم بنعمة الله عليهم، ويشدّد في الترغيب في عتقهم.

وكانﷺ يقبل من أهل الكتاب الجزية على شروط يؤول إجراؤها بهم إلى الإسلام

---

١. الأنفال (٨): ٤٢.

٢. المثلة: التعذيب، وهي في الحيّ قطع أطرافه وتشويه خلقته، وبالميّت جدع أنفه أو أُذنه أو غيره من جسده. انظر لسان العرب ١١: ٦١٥، «م ث ل».

وشريعة العدل، إن ساعدهم التوفيق، من دون نكاية بهم أو تساهل بأهوائهم.

فلم يُسمع ـ ولن يُسمع ـ بمثل رسول الله ﷺ في دعوته وسيرته في حروبه، حيث أعطى كلّ مقام صالح حقّه، من حيث سياسة الإيمان وشريعة العدل، وكسر شوكة الشرك والجور وعوائد الضلال، بصدق النهضة والتشمير والصبر في الدعوة، وحسن الدفاع عنها، والشدّة في ذات الله من غير قسوة، واللين والرحمة من غير ضعف وخَوَر. قد بلغ في جميع ذلك أعلى مراتب حسن الخُلق وكرم النقيبة[١] وحسن الولاية.

وقد ساس العرب العتاة الأشدّاء الألدّاء، أحلاس الخيل[٢]، وإخوان السيف، وأبناء الحرب، فقلبهم من الوثنيّة إلى التوحيد، ومن عوائد الضلال إلى شريعة العدل، ومن تفرّق الاهواء والتوحّش وتكالب العداوة إلى حسن الاجتماع والأُخوّة والخضوع لنظام المدنيّة. وهم الذين تمادوا على حرب البسوس[٣] عمراً من السنين، فقطعوا بها علائق الأرحام ونياط القرابة من أجل ضرع ناقة، استمرّوا في حرب الغبراء وداحس[٤] فقتلوا الرجال والأطفال من أجل سباق فرس.

وَلَجّوا في حرب كسرى حتّى أذاقوه الوبال مع سطوته، وذلك من أجل حماية امرأة.

ويكفيك شاهداً أنّ هذا العنصر وهؤلاء القوم كلّهم قد غلبهم على معبوداتهم وأهوائهم، وعوائدهم وجبروتهم، وعدوان وحشيّتهم، وطغيان رئاساتهم، واستقلال قبائلهم. فثنى أعناقهم وجمعهم على التوحيد، ونواميس الحقّ ومدنيّة العدل وأدب الشريعة. وإنّ الكثير منهم قد انقادوا إلى ذلك برغم أُنوفهم، مع احتدام[٥]

١. كريم النقيبة: مبارك النفس. الصحاح ١: ٢٢٧، «ن ق ب».

٢. أحلاس الخيل: أي يديمون اقتناءها وركوبها. الصحاح ٣: ٩١٩، «ح ل س».

٣. البسوس: حرب دارت بين بكر وتغلب، وهما قبيلتان من جذم ربيعة. انظر تفاصيلها في الكامل في التأريخ ١: ٥٢٣ ـ ٥٣٩.

٤. داحس والغبراء: اسما فرسين أُجري بينهما سباق، وثارت حرب من أجل ذلك السباق بين بني عبس وبني فزارة. أمالي المرتضى ـ غرر الفوائد ـ ١: ٢٠٨ ـ ٢١٤.

٥. احتدمت النار: التهبت. الصحاح ٥: ١٨٩٥، «ح د م».

قلوبهم بنار الغيظ وضغائن الأوتار[١].

ولكنّهم لمّا تشرّفوا بنعمة الإسلام، صار رسول الله أحبّ إليهم من أسماعهم وأبصارهم، وذلك لمّا وجدوه من صلاح دعوته، وحسن سيرته في إجرائها، فيما عاملهم به من التحمّل والملاينة، وجميل الدفاع، وعاطفة الرحمة، وكرم المروءة وحسن الخلق، وحسن الأثر، وحسن الولاية. ووجدوا أنّ حربه معهم وإن كانت لأجل أحسن الغايات وأشرفها وأنفعها للبشر في دينهم ودنياهم، ولكنّه ﷺ لم يسلك فيها إلّا سبيل الدفاع لعدوانهم، وحماية حوزة التوحيد والحقّ بالتي هي أحسن، ليردّ عادية المعتدين. فجلب قلوبهم ما وجدوه في أثناء ذلك من حسن المعاملة، وجميل الصفح، وعظيم المنّ، وكرم الأخلاق، وأيادي الرحمة، ممّا لا يتصوّرونه هم ولا غيرهم في محارب مظفَّر معتزّ بنصيحة أصحابه وطاعتهم له.

هذا كلّه، ولم تنشب الحرب بمقدار حرب البسوس، ولم تزد القتلى على قتلى ربيعة فيها بكثير يذكر، بل يمكن لنا أن نقول: إنّ كلّ من قتل في سبيل الإسلام من العرب، لا يبلغ ما يقتل في ضلالات العرب وعدوانهم بحروب سنة. وسيأتي إن شاء الله بيان ما ذكرناه على وجهه.

وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

فاعترض المتكلّف على ذلك بعد أن ذكر شيئاً من أقوال المفسّرين وقال:

> وعلى كلّ حال لم يأمر الله موسى وأخاه أن يتبوّءا بيوتاً في مصر، بل أمر موسى بإخراج بني إسرائيل من أرض العبوديّة ليرثوا أرض الموعد[٣].

قلنا: أمّا أقوال المفسّرين فهم أعرف بمأخذها، ولا مانع منها إلّا إسرار المتكلّف في

---

١. الأوتار: جمع وَتر، وهو الثأر. انظر الصحاح ٢: ٨٤٢، «و ت ر».

٢. يونس (١٠): ٨٧.

٣. الهداية ٢: ٦١.

إنكار كلّ ما لا يوافق هواه، أو أغفلت ذكرَه توراتُه التي عرفت حالها.

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ الله لم يأمر موسى وأخاه أن يتبوّءا بيوتاً في مصر»، إلى آخره، فإنّما هو من الشطط والتغافل عمّا يقتضيه الحال من لزوم ذلك، وإنّ توراته قد أغفلته مع أنّها دخلت في ذلك مدخل الاستيفاء في السيرة البسيطة والتأريخ الساذج، بل جعلت دعوة موسى لبني إسرائيل وترويضهم على الإيمان به، وعلى أن يطاوعوه على الخروج من مصر، وعلى أن يدخلوا إلى فرعون ليخلّي سبيلهم، ودخولهم إلى فرعون ودعوته وعمل الآيات. جعلت هذا كلّه كأنّه حادثة يوم وليلة بين عشرة أشخاص في بيت واحد.

ولكنّ المتدبّر في عادات الأُمور يجزم بأنّه لا بدّ لموسى وهارون من أن يقيما مدّة مديدة بين بني إسرائيل، يدعوانهم فيها إلى حقيقة الإيمان بالله وحقّ عبادته والانقطاع إليه. ويمرّانهم على الصلاة له والطاعة لرسله، والانقياد إليهما والائتمار بأمرهما. ويملآن آذانهم وقلوبهم بالبشارة بخلاصهم من عبوديّة فرعون، والتنعّم بأرض الموعد. ويثبّتانهم على الاطمئنان بذلك، ويَرُوضانهم على الانقياد والمتابعة في الخروج معهما. فإذا اطمأنّا منهم بالانقياد، أعلنا دعوتهما لفرعون.

ولو كان ذلك مع أهل قرية لا يبلغون الألف، وهم ثابتون في طباعهم، لاحتاج إلى تربّص كثير ورياضة في السياسة. فكيف ببني إسرائيل المتلوّنين المتقلّبين، وهم مئات من الأُلوف، وقد عرفت حالهم من المقدّمة الخامسة. وإنّ ذات التوراة الرائجة قد ذكرت عنهم أنّهم قالوا لموسى وهارون في مصر:

> ينظر الربّ إليكما ويقضي؛ لأنّكما قد أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وعيون عبيده حتّى تعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا[1].

وأنّهم لم يسمعوا لموسى بشارته بوعد الله لهم بالخلاص وتوريثهم أرض الموعد[2].

---

١. سفر الخروج ٥: ٢١.

٢. سفر الخروج ٦: ١ ـ ٩.

وقالوا: «كفّ عنّا فنخدم المصريّين؛ لأنّه خير لنا أن نخدم المصريّين من أن نموت في البرّيّة»[١].

وإنّ حكمة التعليم والتمرين وتجديد التأسيس وإجراء الأحكام الإلهيّة في مثل رسالة موسى لتقتضي أن يكون الله ـ جلّ شأنه ـ قد أمر موسى وهارون أن يتبوّءا في مصر بيوتاً يجعلونها مختلفاً لبني إسرائيل ومقصداً لهم، يقبلون إليه ليروضهم التمرين على الانقياد فيما يراد منهم.

ولعلّ هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[٢] أي بيوت موسى وهارون ومن يعضدهم من المؤمنين في نشر الدعوة والنهضة إلى التعليم. أو أنّ المراد: واجعلوا بيوت بني إسرائيل قبلة، يقبلون فيها على عبادة الله وطاعته، ويقيمون الصلاة. ولو أنّ بعض المؤرّخين ذكر ذلك، لحكم بصدقه الاعتبار بالعادة في بيان هذه الحقيقة اللازمة، وأنّ التوراة الرائجة قد قصر بيانها عن ذلك، فكيف وقد بيّنها القرآن الكريم بوحي الله إلى رسوله الصادق الأمين.

أم يقول المتكلّف: ليس الأمر كذلك، بل كانت دعوة موسى وهارون لقومهما ولفرعون كقبسة العجلان، واستعجال الخائن المتكلّف.

وقال الله ـ تعالى شأنه ـ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[٣].

والمثبور هو المعذّب الهالك. والمراد من ذلك إنذار فرعون بالنكال ووبال العاقبة إذا تمادى على طغيانه وغيّه، فقد كان يظنّ من أمارات عتوّه وطغيانه أنّه لا يُقلِع عن غيّه.

---

١. سفر الخروج ١٤: ١٢.

٢. يونس (١٠): ٨٧.

٣. الإسراء (١٧): ١٠١ ـ ١٠٢.

ولكنّ المتكلّف يقول ببواعثه:

وقد افترى القرآن على موسى وعلى فرعون بأنّهما تشاتما، وموسى لم يشتم فرعون كما أنّ فرعون لم يلعن موسى، فإنّ هذه المسألة ليست مسألة مطاولة وقباحة، ولا يعقل أنّ موسى المشهور بالحلم والوداعة يتطاول على ملك مستبدّ[١].

قلت: ما غرّ المتكلّف ومعرفة المرسلين الأمريكان بهذا الكلام، إلّا أنّ ألفاظ القرآن لا توجد في توراتهم. ولم يشعروا من توراتهم بأنّها قد أهملت الكثير من مخاطبات موسى وهارون مع فرعون، كما أهملت أجوبته لهما، بدليل قولها عن قول الله لموسى: «أنت تتكلّم كما آمرك وهارون أخوك يكلّم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه»[٢]. فلم تبيّن بعد هذا كلام موسى وهارون، ولا جواب فرعون لهما، بل طوت الحال، ولم تبيّن ماذا أمرهما الله أن يتكلّما به مع فرعون؟ وماذا قالاه له؟ وبماذا أجابهما؟ بل قالت: «ففعل موسى وهارون كما أمرهما الربّ»[٣].

وقولها أيضاً:

إذا كلّمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة تقول لهارون: خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً. فدخل موسى وهارون وفعلا هكذا كما أمر الربّ وطرح هارون عصاه أمام فرعون وعبيده فصارت ثعباناً[٤].

فلم تذكر كلامهما في دعوتهما له، وبماذا أجابهما، حتّى انجرّ الكلام إلى المطالبة بالعجيبة، وكيف طالبهما بها.

ثمّ انظر في هذا الأصحاح[٥] تجد توراتهم قد أهملت فيما بين العدد ١٨ والعدد ١٩ وأسقطت ما هو لازم الوقوع من جواب فرعون لموسى. وكذا في الأصحاح الثامن فيما بين العدد ٤ و العدد ٥ والعدد ٦، وكذا فيما بين العدد ١٩ والعدد ٢٠. وكذا في

---

١. الهداية ٢: ٨٧.

٢. سفر الخروج ٧: ٢.

٣. انظر سفر الخروج ٧: ٢ ـ ٧.

٤. سفر الخروج ٧: ٩ ـ ١٠.

٥. أي الأصحاح ٧ من سفر الخروج.

الأصحاح العاشر في أثناء العدد السادس بين قولها: «اليوم» و «ثمّ».

وإنّك لتعلم أنّ المقام بين موسى وفرعون مقتضٍ بالضرورة والعادة لوقوع المطارحات ومراجعات الكلام بينهما، من تفنيد فرعون لموسى وتوهينه لرأيه؛ إذ طلب منه أن يخرج بني إسرائيل عن سلطانه وطاعته، ومن تكذيبه لموسى في دعوى الرسالة بذلك من الله. فقد أرسل فرعون إلى بني إسرائيل يردعهم من الاعتماد على كلام موسى قائلا: «ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب»[١]. ومن موعظة موسى لفرعون وتوبيخه له على عتوّه على الله وإصراره على الظلم والجور، وتحذيره من عاقبة ظلمه ووبال بطش الله به.

هذا لو كانت دعوة موسى لفرعون ـ كما يظهر من توراتهم ـ هي محض طلبه أن يطلق بني إسرائيل.

وأمّا إذا كانت ـ كما هو الحقّ ووظيفة الرسل وآثار رحمة الله ولطفه بعباده ـ هي الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وطاعة رسله واتّباع هداهم والانقياد إلى شريعتهم والإقلاع عن الظلم والعدوان، فالحال والعادة يقتضيان أن يغلظ موسى ﷺ في الإنذار والموعظة والتوبيخ لفرعون، على إصراره على كفره وغلظ قلبه وقبيح ظلمه. وأن يغلظ فرعون في تكذيب موسى وتوبيخه حيث تكرّرت المراجعة بينهما.

والحال يقتضي أنّ فرعون ـ بضلاله وطغيانه ـ يرى أنّ موسى ﷺ كافر بنعمتهم وبرّهم، عاقّ لحقّ تربيتهم له. فقول فرعون لموسى: «أظنّك مسحوراً» هو من أيسر ما يقتضي الحال أن يقوله فرعون الطاغية لموسى في ردّ دعوته، بل هو ردّ جميل من مثل فرعون، قد نزّه به موسى عن تعمّد الافتراء على الله بدعوى الرسالة وليس لعناً. وقول موسى لفرعون: «أظنّك مثبوراً» هو أيضاً من أيسر الإنذار وليس شتماً، كما لا يخفى ذلك على أقلّ الناس فهماً وأكثرهم غباوة، ولا يقول بأنّه شتم ولعن إلّا من داس شرف أدبه بنعل تعصّبه.

وإذ قد نزّه المتكلّف فرعون عن أن يقول لموسى: «أظنّك مسحوراً» فقد اعترف بأنّ

١. سفر الخروج ٥: ٩.

فرعون على عتوّه وغلظ قلبه، أطيب منه نفساً، وأحسن أدباً، وأعفّ لساناً، وأقلّ تمرّداً على الله؛ فإنّ المتكلّف قد نزّه فرعون عن الجرأة على موسى بما هو واحد من أُلوف الأُلوف من قبيح جرأته على قدس رسول الله الصادع بالحقّ. مع أنّ رسول الله لم يبهظ[١] المتكلّف في دعوته، بمثل ما بهظ به موسى فرعون، فإنّ دعوة موسى تبهظ فرعون بالتوحيد النافي لأوثان كثيرة من آلهة المصريّين. ودعوة رسول الله بتوحيده لا تبهظ المتكلّف إلّا بنفي اثنين من ثالوثه.

وإنّ موسى عليه السلام في دعوته قد سمّى آلهة المصريّين رجساً. ورسول الله قد مجّد المسيح بعد أن نفى عنه الإلهيّة وسمّاه رسول الله وكلمته، ونزّهه بالتمجيد عمّا قرفت قدسه به الأناجيل، ومجّد الروح القدس إذ جعله رسول التنزيل على الأنبياء.

وإنّ دعوة موسى تستلب من فرعون سلطانه، وتحطّه عن سلطته، وتشتّت رعيّته، وتقهره في إجرائه. وأنّ دعوة رسول الله لا تمنع المتكلّف إلّا من خسيس عيش تباع به الأمانة وشرف الأدب والدين، بل يبيح له التعيّش والتنعّم بما لا يضادّ ذلك.

وإنّ ما ذكرناه من اعتراف المتكلّف، ليكون شهادة أيضاً على أنّ المرسلين الأمريكان الذين طبع كتابه بمعرفتهم، هم أيضاً شركاؤه في المقايسة. ويا عجباه ولا عجب من قوم ينزّهون فرعون من أن يقول لموسى: «أظنّك مسحوراً». ويرضون من كتاب إلهامهم أن يقول عن خطاب إرميا النبيّ مع الله جلّ شأنه: «يا سيّد الربّ حقّاً إنّك خدّاعاً خادعت هذا الشعب وأُورشليم قائلاً: يكون سلام، وقد بلغ السيف النفس»[٢]. ويقول: إنّ هذا الكفر من وحي الله.

وأمّا أنّ موسى عليه السلام مشهور بالحلم والوداعة، فهو ـ لعمر الله ـ رسول الله وكليمه وصفيّه، معلّم الكمال ومهذّب البشر ومؤدّبهم، العارف بمواقع الحلم، ومواقع الحزم والشدّة في ذات الله، ووظيفة الرسالة وحكمة التبليغ والإنذار. وهو أجلّ شأناً وأعلى قدراً من أن يعتمد في كماله على مجرّد الشهرة.

---

١. بَهَظه يبهظه: أثقله وشقّ عليه. الصحاح ٣: ١١٧١، «ب هـ ظ».

٢. سفر إرميا ٤: ١٠.

ولكن لا يتيسّر الإذعان بذلك مع الإذعان بصحّة ما في العهد القديم، فإنّه قد قرف قدس موسى ﷺ بما لا يصدر إلّا من فظٍّ غليظ القلب، سيّئ الخلق، سيّئ الأدب، سيّئ المعرفة بالله. فنسب إلى موسى ـ وحاشاه ـ أنّه لمّا أرسله الله إلى فرعون ردّ الرسالة بلسان خشن، وكرّر الردّ مع احتجاج الله عليه ووعده له بالتأييد حتّى حمي غضب الله عليه[١]. وأنّه قال لله: «لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟»[٢]. «لماذا أسأتَ إلى عبدك؟»[٣]. وتحكّم على الله بالغفران لعابدي العجل وقال لله: «الآن إن غفرتَ لهم وإلّا فامحني من كتابك»[٤]. ولمّا وعده الله بإشباع بني إسرائيل من اللحم، ردّ على الله، كالمستهزئ بوعده المنكر لقدرته، فقال:

ستّمائة ألف ماشٍ هو الشعب الذي أنا في وسطه وأنت قد قلت: أُعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمان. أيذبح لهم بقر وغنم ليكفيهم أم يجمع لهم سمك البحر ليكفيهم؟ فقال الربّ: هل تقصر يد الربّ؟[٥]

وقالت المزامير: «إنّ موسى ـ وحاشاه ـ فرط بشفتيه»[٦]. وانظر الجزء الأوّل[٧].

أفيقول المتكلّف: إنّ الحلم والوداعة والأدب لا تليق من موسى مع الله، كما تليق منه مع فرعون في مقام الدعوة والإنذار؟!

ولعلّك تسأل وتقول: لماذا لم تذكر التوراة شيئاً من مكالمات موسى لفرعون، في الوعظ والإنذار الذي لا بدّ منه في هذا المقام؟ ولماذا أهملت ذكر المكالمات فيما أشرت إليه في أوّل الجواب؟

فنقول لك: إنّ التوراة الرائجة قد أبدلتها صروف الأيّام عن مثل هذا بأشياء قد

---

١. سفر الخروج ٤: ١٠ ـ ١٥.

٢. سفر الخروج ٥: ٢٢.

٣. سفر العدد ١١: ١١.

٤. سفر الخروج ٣٢: ٣٢.

٥. سفر العدد ١١: ٢١ ـ ٢٣.

٦. سفر المزامير ١٠٦: ٣٣.

٧. تقدّم في ج ١، ص ١٢٣.

حكّمنا فيها وجدانك، فإن شئت جعلتها من حقائق العرفان، وإن شئت جعلتها من خرافات الهذيان. وذلك أنّها ذكرت كلام الله مع موسى في حوريب ومدين، وإرساله إلى فرعون ووعده بالتأييد ليخلّص بني إسرائيل من العبوديّة. وأنّ موسى رجع إلى مصر حسب أمر الله ووعده له. ثمّ قالت: وحدث في الطريق في المنزل أنّ الله التقاه ـ أي التقى موسى ـ وطلب أن يقتله. فأخذت صَفُّورة صَوّانةً وقطعت غرلة ابنها ومَسَّت رجليه وقالت: لأنّك عرّيس دم أنت لي، فانفكّ عنه حينئذٍ.

وقد اقتصّ الله في سورة الأعراف[1] قصّة موسى مع فرعون ومع السحرة، وحسن عاقبتهم ووعيد فرعون لهم، ووعيده أيضاً لبني إسرائيل، وتسلية موسى لهم، وأمرهم بالصبر، وبشارتهم بالفرج. وذكر في سورة طه[2] أنّ موسى لمّا جاء السحرة بسحرهم أوجس في نفسه خيفة.

فاعترض المتكلّف[3] على مضامين القرآن الكريم في ذلك باعتراضات، منشؤها أنّ توراته الرائجة لم تذكر ما ذكره القرآن الكريم في قصّتها البتراء. وقد عرّفناك حال توراته في قصصها، وسنزيدك إن شاء الله معرفةً في أنّها تهمل المهمّ في الذكر، وتطيل في الفضول الفارغة، ونسبة المثالب الشنيعة إلى الأولياء وعائلاتهم، وفي الخرافات الكفريّة. فاعترض على قوله تعالى حكاية عن قول السحرة لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾[4].

فقال المتكلّف:

إنّ هذا لا يتصوّر حصوله؛ لأنّ فرعون كان ملكاً مستبدّاً يفعل بقومه ما يشاء. والذوق والأدب يقضيان بعدم إبرام شرط مع الملك.

قلت: لم يقل القرآن: إنّ السحرة اشترطوا على الملك، وقالوا: إن لم تعطنا أجراً

---

١. الأعراف (٧): ١١٢ ـ ١٢٦.

٢. طه (٢٠): ٦٧.

٣. الهداية ٢: ٥٢ ـ ٥٣.

٤. الأعراف (٧): ١١٣.

فإنّا لانفعل ولا كرامة لك، بل طلبوا منه الجائزة، وأرادوا بذلك أن يثبّتوا قلوب فرعون ورعيّته على الاطمئنان بغلبتهم لموسى. ولعلّ هذا من بعض مقدّماتهم في سحرهم وشعبذتهم.

والتوراة الرائجة أدمجت هذه القصّة إدماجاً سمجاً لا يليق بالكتاب المتصدّي لبسيط التأريخ، حيث اقتصرت على قولها: «فدعا أيضاً فرعون الحكماء والسحرة ففعل أيضاً عرّافو مصر بسحرهم كذلك»[١]. فلم تذكر ما يلزم في العادة أن يجري من الكلام بين فرعون وبينهم، ولا أقلّ من أمر فرعون لهم بمقابلة موسى بسحرهم، وحثّهم على إتقان السحر لكي تتمّ له المقابلة؛ فإنّ مثل الساحر في هذا المقام يحتاج إلى الحثّ والترغيب في إتقان عمله، لكي ينصح فيه؛ فإنّه من الأعمال الخفيّة، التي يجوز أن يقصّر فيها و يقول: «هذا حدّ مقدوري».

واعترض المتكلّف أيضاً على قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[٢] فقال:

> لم يرد في كتاب الله أنّ موسى جزع وخاف من شعوذة السحر، وهو يعرف كذبها، هذا فضلاً عن بسالته.

قلنا أوّلاً: إنّ توراته لم تذكر في قصصها البتراء أنّ موسى ارتعد أو ارتعب عند ما كلّمه الله في حُوريب في عُلّيقة النار[٣]. وفي جبل سيناء[٤]. مع أنّ العهد الجديد يذكر أنّ موسى ارتعد في الكلام الأوّل[٥]. وقال في الكلام الثاني: «أنا مرتعب ومرتعد»[٦]. وإنّ ارتعاد موسى وارتعابه في هذين المقامين أهمّ الأُمور بالذكر في مثل التوراة. فماذا تقول بكتاب يهمل مثل هذا ويشتغل بالسفاسف؟

---

١. سفر الخروج ٧: ١١.
٢. طه (٢٠): ٦٧.
٣. سفر الخروج ٣: ١ـ٦.
٤. سفر الخروج ١٩.
٥. أعمال الرسل ٧: ٣٢.
٦. الرسالة إلى العبرانيّين ١٢: ٢١.

وثانياً: إنّ القرآن لم يقل: إنّ موسى جزع وخاف واضطرب وإنّما قال: ﴿أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ بتنكير «خِيفَة» أي أحسّ بشيء من الخيفة، وهو كناية عن قلّة الخيفةوزوالها. ولم يقل القرآن: إنّ موسى ارتاع وخاف من هَول السحر، بل إنّ موسى الرسول الأمين ـ الحريص على هدى الناس وإجراء أحكام الله ـ اختلج في نفسه شيء من خوف أن يفتتن الناس بتمويه السحر، فيستحكم الضلال، وتقف معجزته عن تأثيرها المطلوب.

ويدلّ على ذلك أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ أمّنه بقوله جلّ اسمه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في برهانك ومعجزاتك الحقيقيّة، فلا تخف الفتنة على الناس فإنّ الله مسدّد أمرك. ولم تقتض الحكمة امتحان الناس﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ ممّا لا حقيقة له فينجلي الريب، ويحقّ الله الحقّ ويمحق الباطل، وتزول ظلمة الشكّ، ويسفر صبح اليقين، ويعلي الله برهانك، ويؤيّد معجزتك﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ يعرف الناس أنّه زبرج وتمويه، إذا أزال الله مَعثَرته وأبطل صورته، وأيّد إعجاز آياته جلّ اسمه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1] بل يردّ الله كيده ويخذله في باطله.

واعترض المتكلّف أيضاً على نقل القرآن لإيمان السحرة، لمّا تحقّقوا معجزة موسى، فقال:

> لا يتصوّر أنّ عبيد فرعون يؤمنون بربّ موسى، ويخالفون فرعون الملك المطاع صاحب الدولة والشوكة الآمر الناهي وموسى كان بلا جاه ولا قوّة.

قلت أوّلاً: إنّ توراة المتكلّف ـ مع تفريطها في بيان الحقائق ـ قد أشارت إلى إيمان السحرة، إذ ذكرت أنّهم قالوا لفرعون في معجزة البعوض: «هذا إصبع الله»[2] وهذا إيمان منهم بالله، وتصديق بمعجز رسوله.

وثانياً: إنّ الإيمان المنبعث عن هدى وبصيرة، لينهض بالمؤمن إلى نصرة الحقّ بإظهاره، فلا يصدّه خوف من ظالم، ولا محاذرة من الشدائد والعطب، ولا طمع في أكل

١. طه (٢٠): ٦٨ ـ ٦٩.

٢. سفر الخروج ٨: ١٩.

أموال الناس بالباطل؛ فإنّ الذين أسلموا مع رسول الله ﷺ وآمنوا بدعوته، لم يصدّهم عن المجاهرة بإيمانهم خوف بلاء أو شدّة أو عطب، أو حبّ مال أو ولد أو وطن أو عزّة عشيرة، بل استقبلوا البلاء والشدائد وجبال الحديد ونيرانَ الحروب بِمُهَجِهم، وأرخصوا في سبيل الله كلّ عزيز، كما هو معلوم بشهادة الأثر المتواتر. فلا تَقِس أيّها المتكلّف كلّ الناس على تلاميذ المسيح، فيما تذكره عنهم أناجيلكم، من أنّهم لم يواسوا المسيح في الشدّة، ولم يدافعوا عنه، بل هربوا وتركوه وحده، وأنكره بطرس وصار يحلف ويلعن. مع أنّ المسيح حذّرهم من ذلك إذ أخبرهم به وبأنّهم كلّهم يشكّون أو يعثرون به[1].

إذا انْبَجَسَتْ دُموعٌ من عُيونٍ تَبَيَّنَ مَن بَكَى مِمَّن تَباكَى[2]
والناس ألفٌ مِنهُم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن خَطْبٌ عَرَى[3]

واعترض المتكلّف على حكاية القرآن الكريم لتهديد فرعون للسحرة الذين آمنوا[4].

وهذا الاعتراض من الظرائف؛ فإنّ المتكلّف يعترف بأنّ فرعون ملك مستبدّ يفعل بقومه ما يشاء، وهو صاحب السطوة والشوكة، إذاً فما يمنعه من تهديد الذين فَتّوا بإيمانهم في عَضُده، وأبطلوا تدبيره، وضَعّفوا سلطانه؟

أيقول المتكلّف: إنّ فرعون أقوى إيماناً وأرأف قلباً، أو أقلّ قدرة من قيافا رئيس الكهنة النبيّ بقول إنجيلهم[5]، فلا يفعل فرعون بالسحرة مع نكايتهم في سياسته ومملكته، كما فعله قيافا والكهنة بالمسيح، على ما تزعمه الأناجيل؟

أم يقول المتكلّف: إنّ فرعون أبرّ من ذلك، حتّى أنّه لا يصحّ على برّه أن يتوعّد السحرة المؤمنين ولا يروعهم بالتهديد؟

واعترض المتكلّف على حكاية الله لقول فرعون، بعد دعوة موسى وظهور معجزاته

١. تقدّم في ج ١، ص ٤٨ ـ ٤٩.
٢. ديوان المتنبّي: ٥٦٩.
٣. شرح مقصورة ابن دريد: ٣٩٥، البيت ١٦٩، وفيه: إن أمرٌ عَنا.
٤. طه (٢٠): ٧١.
٥. إنجيل يوحنّا ١١: ٤٩ ـ ٥٢.

وإيمان السحرة، في تهديده لبني إسرائيل الذين قاسى من أجلهم هذا الاغتشاش في مملكته، ولامه الملأ من قومه على الإبقاء عليهم وخوّفوه عاقبة أمرهم، فقال في سورة الأعراف: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾[1]، فقال المتكلّف: «إنّ قتل الذكور واستحياء النساء كان قبل ولادة موسى».

قلت: لم يقل القرآن: إنّ فرعون في هذه الواقعة قتل أبناءهم واستحيا نساءهم، وإنّما ذكر أنّ فرعون توعّدهم بأنّه سيفعل ذلك في المستقبل اغتراراً بقوّته وسطوته. ولكن موسى هوّن على قومه وعيدَ فرعون، ووعدهم بالنجاة والعافية والرفاهية والفوز بعاقبة الصبر.

فقد ذكر القرآن الكريم أنّه ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ﴾ على فرعون وغيره ممّن يبغيكم بالسوء ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ ولا يَستخفّكم الهلع، أو يهولكم الوعيد، أو تحسبوا أنّكم لامأوى لكم من الأرض تستريحون به من ذلّة العبوديّة وتأمنون به من سلطان الجور ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ كلّها ﴿لِلَّهِ﴾ وبيده أمرها ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو قادر على أن يجعل لكم منها ميراثاً تتبوّؤونه بالأمن والعزّة. وإنّ ذلك بُلْغَة الحياة الدنيا ونعيم زائل، من ورائه الحساب ويوم الدين ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المرضيّة إنّما هي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لالكلّ من ورث الأرض ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قال موسى ما معناه: لاتيأسوا من رحمة الله وفرجه ونصره ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي كلّ من ينصب لهم العداوة ويبتغي بهم السوء فلم يسمّ القرآن خصوص فرعون وقومه، بل العموم أنسب بالامتنان وأحسن في البشارة، خصوصاً إذا كانوا موعودين بالخروج من مصر ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] بعد مُعاديكم.

ولم يسمّ القرآن أرض مصر ولا غيرها، ولكن ينبغي أن يكون مراد موسى غير أرض مصر؛ فإنّ ذلك هو المناسب لأمر الله موسى وهارون أن يرسل معهما بني إسرائيل، كما

---

١. الأعراف (٧): ١٢٧.

٢. الأعراف (٧): ١٢٨ ـ ١٢٩.

في سورة طه[١]، وأمر موسى لفرعون بذلك كما في سورة الأعراف[٢]، وقد حقّق الله رجاءهم وأنجز وعده وقال جلّ شأنه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي التي في شرقي الأُردن ﴿وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[٣].

وبما ذكرناهُ تعرف شطط المتكلّف في اعتراضه[٤].

وقال الله تعالى في ذكر البلايا التي عذّب بها المصريّين: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾[٥] والمراد به زيادة النيل وطغيانه فوق عادته، بحيث أضرّ بزرعهم وغرسهم ومساكنهم وعمارتهم. ولم يقل القرآن: إنّه أرسل عليهم مثل طوفان نوح الذي أهلك جميع الناس بالغرق، إلّا من نجا بالسفينة.

ولكنّ المتكلّف كأنّه توهّم هذا، وحاول أن يموّه به اعتراضه، حيث قال جازماً: «إنّ الله لم يرسل على المصريّين طوفاناً فأغرقهم» حتّى كأنّه لم يدر بما هو معلوم، أنّ النيل إذا زاد ارتفاع مائه عن المعتاد بكثير، تسبّب عنه الغرق. وأنّ المقاييس التي في بلاد السودان تأتي منها الأنباء البرقيّة عند طغيان النيل، لكي تؤخذ الاحتياطات اللازمة في وقاية البلاد من غوائله. وكأنّه لم يسمع من مشاهير المهندسين أنّ المخزن الذي أوجده الفراعنة في وادي الريان من إقليم الفيّوم، إنّما كان ليأخذ من ماء النيل عند الطغيان، ليخفّف عاديته عن البلاد.

وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾[٦].

---

١. طه (٢٠): ٤٧.

٢. الأعراف (٧): ١٠٥.

٣. الأعراف (٧): ١٣٧.

٤. الهداية ٢: ٥٣.

٥. الأعراف (٧): ١٣٣.

٦. القصص (٢٨): ٦ و ٨.

فاعترض المتكلّف على ذلك، وقال: «والحقيقة هي أنّ هامان كان وزيراً للملك أَحشْوِيرُوش»[١].

قلت: وينبغي له في تكملة شططه في اعتراضه أن يقول: وإنّ وزير أَحشْوِيرُوش هذا، وإن كان في الزمان الذي بعد سبي بابل، ولكنّه قد أخذ امتيازاً من الله بهذا الاسم، فلا يمكن أن يسمّى غيره هامان من أوّل الدنيا إلى آخرها.

وبمثل هذا الشطط اعترض على القرآن الكريم في تسميته مريم أُمّ المسيح بابنة عمران وأُخت هارون. فزعم بتوقّد فهمه، أو بحرّيّة ضميره، أنّ القرآن الكريم أراد بذلك هارون أخا موسى، وعمران أباهما. وكان ذلك لأجل أخذهما الامتياز الذي ذكرناه. فوا أسفاه على التقوى والأدب! نعم من لا يتحاشى من الاحتجاج بالإنجيل على أنّ أبا مريم اسمه «هالي» فإنّه لا يرى عليه حرجاً فيما يقوله[٢].

وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[٣].

وقال المتكلّف ما حاصله: إنّ التوراة تعلّمه أنّ فرعون لم يؤمن بربّ موسى حتّى في الساعة الأخيرة ـ ولا يتصوّر إيمان فرعون الذي صرف حياته في الاستبداد والظلم ـ وإنّ الله لا يقبل مثل هذه التوبة الوقتيّة الناشئة من الخوف ـ ولم يرد خبر في التوراة عن غرق فرعون ـ وأيّدت التواريخ أنّ فرعون موسى لم يغرق؛ لأنّه لم يخرج مع جيشه[٤].

قلنا: إنّ توراة المتكلّف لمّا جاءت إلى سعي فرعون وراء بني إسرائيل، غمغمت

---

١. الهداية ٢: ١٠٢.

٢. انظر المصدر: ٣٥.

٣. يونس (١٠): ٩٠ ـ ٩٢.

٤. الهداية ٢: ٦٣.

أمر غرقه، وأدمجت الحال إدماجاً يخلّ بالمقام، فلم تحسن الموعظة ولابيان القصّة. كما أهملت ذكر مكالماته مع موسى، كما قدّمناه. وغاية ما صرّحت به من فعل فرعون أنّه سعى وراء بني إسرائيل، واقترب منهم بحيث يرونه وهم عند فم الحيروث في المنزل الثالث من منازلهم، ومنه ارتحلوا وعبروا البحر. وغاية الأمر أنّها لم تتعرّض لذكر توبة فرعون عند ما أدركه الغرق، كما لم تذكر عدمها. انظر رابع عشر الخروج فإنّك ترى أنّ دعوى المتكلّف في كلامه للعلم إنّما هي شهادة على العناد أو الجهل.

وهب أنّ توراته صرّحت بعدم إيمان فرعون ساعة الغرق، فقد عرّفناك ـ وستزداد معرفة إن شاء الله ـ أنّ التوراة الرائجة لم تبق لها الأيّام بتلاعبها مجداً تعارِض به واحداً من التواريخ.

وأمّا قول المتكلّف: «لا يتصوّر إيمان فرعون» إلى آخره. فإنّا نعذر فيه المتكلّف في تصوّره إن جدّ في إنكاره، ولكنّا نسأل عن ذلك من لم تمنعه الموانع عن تصوّر الممكن والممتنع. وما المانع العقلي أو العادي من إيمان فرعون، وقد تكرّرت عليه الحجج وصرّحت له الآيات؟ وإنّ انشقاق البحر ليكشف الغطاء ويبصّر المرتاب، حتّى لو قال له بعض الموسوسين الذين تقدّمت الدنيا أو ... بأفكارهم، وقال له: إنّ شقّ البحر من حادثة المدّ والجزر. وإنّ التوراة الرائجة لتقول: إنّ فرعون كان عندما يمسّه العذاب، يطلب من موسى وهارون أن يصلّيا إلى الربّ إلههما ليرفع عنه العذاب، ويطلب منهما البركة حينما يعبدا إلههما. ويعترف بأنّه أخطأ إلى الله إلههما. وأنّ الله هو البارّ، وهو ـ أي فرعون ـ وشعبه هم الأشرار[1].

وهذا كلّه يعطي أنّ فرعون كان في الباطن مؤمناً بالله عارفاً به، ولكنّ الذي يمنعه عن إظهار ذلك بين العموم والانقياد لرسالة موسى، إنّما هوحبّ الملك وكبرياء السلطنة وسلطة الاستبداد. وبقول التوراة أيضاً: «إنّ الله ـ جلّ اسمه ـ شدّد قلب فرعون وغلّظه

---

١. انظر سفر الخروج ٨: ٨ و ٢٨ و ٩: ٢٧ ـ ٢٨ و ١٠: ١٦ و ١٢: ٣١ ـ ٣٢.

فلم يطلق بني إسرائيل لكي يتمجّد الله به».

والقرآن الكريم لا يعارض هذه المضامين، فإنّه لم يصرّح بأنّ فرعون كان كافراً مشركاً في الظاهر والباطن في جميع أيّامه إلى ساعة الغرق، بل يمكن أن يكون نقل القرآن الكريم لقول فرعون: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١] إنّما هو نقل لمجاهرة فرعون بما كان يكتمه من الإيمان والتوحيد، بعد أن كان يحافظ على سطوته ومملكته بالمكابرة والمجاهرة بالشرك، ولكنّه لمّا رأى العذاب والغرق أعلن وجاهر بالإيمان والتوحيد، إمّا ندماً وتوبةً، وإمّا رجاءً للنجاة من العذاب والعود ولو إلى بعض ثروته، بل ولو إلى مجرّد الحياة.

وهب أنّه كان كافراً في الظاهر والباطن، ولكنّه لا يبعد إيمانه بعد ما رأى الآيات وحاق به العذاب، فبصّرته الشدّة ورفعت عن بصيرته غشاوة غرور الملك وأُبّهة السطوة وترف العيش. وإن كان المتكلّف يستبعد ـ أو لا يتصوّر من نحو ذلك شيئاً ـ فليستبعد أو لا يتصوّر إيمان بولس رسوله؛ فإنّه يعترف بأنّه كان مضطهداً للمؤمنين بالمسيح. ومجدّفاً، أي متكلّماً بكلام الكفر، مفترياً[٢]. ويعاقب القدّيسين ويضطرّهم إلى التجديف، أي كلام الكفر[٣]. ويقول كتابهم: إنّه لم يزل ينفث تهدّداً وقتلاً على تلاميذ المسيح والمؤمنين به، ويأخذ الرسائل ليسوق الرجال والنساء من المؤمنين من طريق مُوثَّقين[٤]. فكيف إذاً يتصوّر المتكلّف أنّ بولس آمن، وبُعث رسولاً، وأُعطي سلطاناً على ملاشاة الشريعة والعيب لها؟

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ الله لا يقبل هذه التوبة الوقتيّة الناشئة من الخوف» فهو غفلة فاحشة، فإنّ القرآن لم يقل: إنّ الله تاب على فرعون وجعله رسولاً وأعطاه سلطاناً على عمل الآيات ومحو الشريعة. بل قال الله تقريعاً له وتوبيخاً وتسفيهاً لرأيه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ

١. يونس (١٠): ٩٠.

٢. رسالة بولس الأُولى إلى تيموثاوس ١: ١٣.

٣. أعمال الرسل ٢٦: ١١.

٤. أعمال الرسل ٩: ١ ـ ٢.

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١] أفيرى ذو الرشد أنّ هذا قبول للتوبة؟

ولعلّ مفاد الآيات ـ والله أعلم ـ فإن كنت آمنت طمعاً في النجاة فلا نجاة بل ﴿الْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ لا بنفسك، بل ﴿بِبَدَنِكَ﴾ المشوّه بالموت المرعب، ولا كرامة لك، ولكن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[٢] وعبرةً وموعظةً تقوم بها الحجّة.

وأمّا قول المتكلّف: «لم يرد خبر في التوراة عن غرق فرعون» فهو من الجهل بتوراته، فإنّها تقول عن قول الله جلّ اسمه:

وأُشدّد قلب فرعون حتّى يسعى وراءهم فأتمجّد بفرعون وبكلّ جيشه... فشدّ مركبته ـ أي فرعون ـ وأخذ قومه معه... وشدّد الله قلب فرعون ملك مصر حتّى سعى وراء بني إسرائيل... فلمّا اقترب فرعون، رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريّون راحلون وراءهم... وها أنا أُشدّد قلوب المصريّين حتّى يدخلوا وراءهم ـ أي وراء بني إسرائيل ـ في البحر فأتمجّد بفرعون وكلّ جيشه بمركباته وفرسانه. فيعرف المصريّون أنّي أنا الربّ حين أتمجّد بفرعون ومركباته وفرسانه[٣].

فإذا كانت التوراة تخبر أنّ فرعون شدّ مركبته وأخذ قومه، وسعى وراء بني إسرائيل، واقترب منهم بعد ثلاث مراحل، وتخبر أنّ الله أخبر بأنّ فرعون يسعى وراءهم، ووعد ـ جلّ شأنه ـ بالوعد المكرّر المؤكّد بأنّه يتمجّد بفرعون وكلّ جيشه بمركباته وفرسانه. وكتابهم يقول: إنّ نصيح إسرائيل لا يكذب ولا يندم؛ لأنّه ليس إنساناً ليندم[٤]. فلا بدّ أن يكون الله ـ جلّ جلاله ـ قد تمجّد بفرعون، كما وعد وأكّد.

ولم تقل التوراة هاهنا[٥]: إنّ الله ـ تعالى شأنه ـ حزن وندم على فعل الشرّ بفرعون، كما قالته[٦]. ولم تقل: إنّ فرعون رجع إلى مصر.

---

١. يونس (١٠): ٩١.

٢. يونس (١٠): ٩٢.

٣. سفر الخروج ١٤: ٤ ـ ١٨.

٤. سفر صموئيل الأوّل ١٥: ٢٩.

٥. أي في سفر الخروج ١٤.

٦. سفر التكوين ٦: ٦ ـ ٧.

وأمّا قول المتكلّف: «وأيّدت التواريخ أنّ فرعون موسى لم يغرق؛ لأنّه لم يخرج مع جيشه» فما عسى أن أقول فيه؟

أأقول: إنّه لم يطّلع مدّة عمره على صراحة ما ذكرناه من نقل التوراة أنّ: فرعون شدّ مركبته وأخذ قومه معه وسعى وراء بني إسرائيل، واقترب منهم حتّى أبصروه وهم في فم الحيروث، في المنزل الذي عبروا منه في البحر؟

أم أقول: اطّلع عليه، ولكنّه يتخيّل أنّ المسلمين لا يدرون بما ذكرناه عن توراته، وأنّ قومه يعذرونه في ذلك؟

أم أقول: إنّه يشير بغمز خفيّ إلى أنّ التأريخ هو المعتبر دون صراحة توراته؟

وإنّ عهدة الجزم بأحد هذه الوجوه الثلاثة عائدة على معرفة المرسلين الأمريكان الذين طبع الكتاب بمعرفتهم.

ثمّ إنّ المتكلّف، والمتعرّب قد اعترضا على قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[1] وقالا ما حاصله: أنّ هذا الكلام يقتضي أنّ الله نجّى فرعون من الغرق، وهو مناقض لقوله في سورة الإسراء: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[2] ووهّنا قول المفسّرين بأنّ معنى «ننجّيك ببدنك»: ننقذك من قعر البحر[3و4].

قلنا: لا مساغ لمن يعرف مفردات الكلام ويفهم تراكيبه، أن يفسّر الآية الكريمة بغير ما قاله المفسّرون؛ فإنّه مع تعليق النجاة بالبدن، لا يحسن في الكلام أن يراد منها نجاة النفس. ولو أراد ذلك واحد من الناس، لعدّه أهل اللسان من الغالطين. ألا ترى أنّه لو قال شخص: أنجيت بدن فلان من البحر، أو أنجيته ببدنه من البحر، لما فهمت ـ منه إن كنت أهل اللسان ـ أنّه أنجاه حيّاً وأنجى نفسه من الهلكة، بل إنّما تفهم بواسطة التقييد بالبدن أنّه أنجى ذات بدنه المجرّد عن النفس، من صدمات البحر وحيواناته. وكذا

١. يونس (١٠): ٩٢.
٢. الإسراء (١٧): ١٠٣.
٣. الدرّ المنثور ٤: ٣٨٨، ذيل الآية ٩٢ من يونس.
٤. الهداية ٢: ٦٣؛ ذيل مقالة في الإسلام: ٤١ ـ ٤٢.

قولك: أنجيت بدن زيد ـ أو جثّته ـ من المعركة. أو أنجيته ببدنه، أو بجثّته من المعركة.

وقال الله تعالى في سورة الأعراف في شأن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وقال ـ جلّ شأنه ـ في سورة النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾[2].

فنقل المتكلّف عن تفسير الخازن:

أنّ أصحاب الأخبار قالوا: إنّ بني إسرائيل لمّا أبَوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقّة، أمر الله ﷻ جبرئيل فرفع جبلاً عظيماً حتّى صار على رؤوسهم كالظُلّة، فلمّا نظروا إلى الجبل فوق رؤوسهم خرُّوا ساجدين، فسجد كلّ واحد منهم على خدّه وحاجبه الأيسر، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه، ولذلك لا تسجد اليهود إلّا على شقّ وجوههم الأيسر[3].

فقال المتكلّف:

فهذه الأقوال ليست فقط من الأغلاط، بل هي من الخرافات القديمة اليهوديّة. أمّا كتاب الله فيعلّمنا أنّه لمّا أنزل الله الشريعة على موسى بمرأى من بني إسرائيل، رأوا الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن، ففزعوا وارتعدوا، ووقعت هيبة الله وموسى في قلوبهم[4] فانظر بين الكلام المعقول المقبول وبين الخرافات اليهوديّة[5].

قلت: إن كان اعتراض المتكلّف لأجل أنّ ما ذكره الخازن غير موجود في توراته فهو شطط؛ لأنّ توراة حلقيا أو غيره ـ كما عرفت حالها، وتزداد فيه معرفة إن شاء الله ـ لا تنهض بثقل خرافاتها في الإلهيّات والنبوّات، حتّى تكون ميزاناً للحقائق. وقد قدّمنا[6]

١. الأعراف (٧): ١٧١.
٢. النساء (٤): ١٥٤.
٣. تفسير الخازن ٢: ١٥٤، ذيل الآية ١٧١ من الأعراف.
٤. سفر الخروج ٢٠: ١٨.
٥. الهداية ٢: ١٦.
٦. تقدّم في ص ٦٢٣.

لك أنّها أهملت ذكر ارتعاد موسى وارتعابه، كما نصّ عليه العهد الجديد[١]. وأهملت كثيراً من مكالمات موسى و فرعون. وأهملت ذكر يوم القيامة وثوابه وعقابه، فلا تجد فيها من ذلك أثراً ممّا يذكره العهد الجديد والقرآن الكريم. وأبدلته بالوعد بكثرة الحنطة والخمر، والوعيد بالمرض والفقر وتسلّط الأجانب على الزوجة.

ولئن أهملت التوراة ما ذكره الخازن، فلقد أشارت المزامير إليه وزيادة بإشارة واضحة، حيث قالت في تمجيد الله ما لفظه:

عند خروج بني إسرائيل من مصر وبيت يعقوب من شعب أعجم. كان يهوذا مَقْدِسُه وإسرائيل محلّ سلطانه. البحر رآه فهرب. الأُردن رجع إلى خلف. الجبال قفزت مثل الكباش، والآكام مثل حُملانِ الغنم. مالكَ أيّها البحر قد هربت؟ ومالك أيّها الأُردن قد رجعت إلى خلف؟ وما لكنّ أيّتها الجبال قد قفزتُنّ مثل الكِباش، وأيّتها التلال مثل حُملان الغنم؟[٢]

وإن كان المتكلّف يزعم أنّ هذا غير معقول وغير ممكن، فهو كفر منه بما في العهدين من بيان قدرة الله جلّ جلاله، وما أظهره بقدرته من العجائب الخارقة لعادة الطبيعة. وذلك كتوقّد العُلّيقة بالنار، وهي لا تحترق. وكمعجزة عصا موسى ويده، والضربات على أرض مصر، وشقّ البحر الأحمر والأُردن، وظهور الماء من الصخرة، ونزول النار على جبل سيناء وصعود دخانه وارتجافه بأجمعه جدّاً[٣]. ومثل أنّ عصا هارون في يوم واحد اخضَرَّت وأفرخت فروخاً وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً[٤]. ومثل ما ذكرته الأناجيل من معجزات المسيح، كشفائه المرضى والعُمي والمقعَدِين والمجانين، وإحياء الموتى، والمشي على الماء، وإشباع الأُلوف من قليل الخبز وقد بقي أضعافه. وما ذكرته من تفتّح القبور، وخروج كثير من الموتى فيها، ودخولهم المدينة المقدّسة، وظهورهم لكثيرين[٥]. ومثل

---

١. أعمال الرسل ٧: ٣٢؛ الرسالة إلى العبرانيّين ١٢: ٢١.
٢. سفر المزامير ١١٤: ١ ـ ٦.
٣. سفر الخروج ١٩: ١٨؛ سفر المزامير ٦٨: ٨.
٤. سفر العدد ١٧: ٧ ـ ٨.
٥. إنجيل متّى ٢٧: ٥٢ ـ ٥٣.

ما نسبه العهد الجديد من المعجزات إلى التلاميذ وبولس.

وإنّه ليقبح على الرجل أن يكون مثله كمثل النعامة إذا قيل لها: طيري، قالت: أنا بعير. وإذا قيل لها: احملي، قالت: أنا طير. فليس للرجل أن يظهر نفسه لبعض الأُمور نصرانيّاً، ويكون في طواياه بالنسبة إلى الإلهيّات طبيعيّاً داروِنيّاً، فيسرّ حَسْواً بارتِغاء[1] بل إمّا أن يذعن بقدرة الإله وحقيقة المعجزات، كما جاهرت به كتب العهدين، وإمّا أن يقف في صفّ شبلي شُميّل تحت راية دارون.

ومن هذا الوباء أنّ جملة من أهل الكتاب ذهبوا إلى أنّ معجزة شقّ البحر الأحمر لبني إسرائيل، إنّما هي من حادثة المدّ والجزر، وذلك لئلّا تكون خارقة لعادة الطبيعة. حتّى أنّهم رسموا في الخارطة خطّ عبور بني إسرائيل من البحر على طرف خليج السويس، بحيث يكون على طرف شواطئه، التي ينحسر عنها الماء عند الجزر عادة. حتّى كأنّهم لم يسمعوا من العهد القديم أنّه انشقّ الماء ودخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم[2]. وتراكمت المياه وانتصبت المجاري كرابية، وتجمّدت اللجج في قلب البحر[3]. وفلق اليَمَّ أمامهم وعبروا في وسط البحر[4]. والله شقّ البحر بقوّته[5]. وشقّ المياه قدّامهم ليصنع لنفسه اسماً أبديّاً[6].

ولو كانت واقعة البحر من حادثة الجزر، لكانت هذه الكلمات غلطاً وافتراءً.

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[7].

---

١. مجمع الأمثال ٣: ٥٢٥.

٢. سفر الخروج ١٤: ٢١ـ٢٢.

٣. سفر الخروج ١٥: ٨.

٤. سفر نحميا ٩: ١١.

٥. سفر المزامير ٧: ١٣.

٦. سفر إشَعْياء ٦٣: ١٢.

٧. البقرة (٢): ٦٠.

وفي سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[١].

وقد ذكرت التوراة الرائجة لذلك واقعتين، ضرب فيهما موسى الحجر عن أمر الله، فانفجرت منه المياه: الواقعة الأُولى: في رفيديم[٢]. والواقعة الثانية: في برّيّة صين[٣].

والقرآن الكريم لا يتعرّض في أمثال هذا إلّا لما كان له دخل في الامتنان والموعظة أو الحجّة، فلأجل ذلك لم يتعرّض لمحلّ هذه الواقعة، إذ لا دخل له إلّا في بسيط التأريخ، وهو بمعزل عن شريف أُسلوب القرآن الكريم.

فاعترض المتكلّف على نقل القرآن أنّ موسى ضرب الحجر فانفجرت منه المياه، وقال:«والصواب أنّ الصخرة انفجرت ماءً»[٤].

قلت: في توراة المتكلّف: أنّ الله أمر موسى أن يأخذ عصاه التي ضرب بها النهر، فيضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا[٥].

وأيضاً: «ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مراراً فخرجت مياه كثيرة»[٦].

قل فماذا ترى في اعتراض المتكلّف؟ أتقول: إنّه لم يَرَ توراته مدّة عمره، أم تقول: إنّ معنى اعتراضه ـ وإن خبط باللفظ ـ هو أنّ القرآن الكريم ذكر الحجر، والتوراة العربيّة قد سمّته صخرة؟ فهذا مبلغ اعتراض المتكلّف.

فنقول: إنّ اسم الحجر المذكور في القرآن الكريم يشمل الصخر، كما هو المعروف في اللغة العربيّة، وهو في الأصل العبراني «صور وسلع» وقد أعاد على «صور» ضمير

---

١. الأعراف (٧): ١٦٠.
٢. سفر الخروج ١٧: ٥ ـ ٦.
٣. سفر العدد ٢٠: ٧ ـ ١٢.
٤. الهداية ٢: ١٦.
٥. سفر الخروج ١٧: ٥ ـ ٦.
٦. سفر العدد ٢٠: ٦ ـ ١٢.

المذكّر حيث قال: «ممنو» أي منه. وأشار إلى «سلع» باسم الإشارة المذكّر فقال: «هزّه» أي: هذا.

ثمّ نقول: ماذا على القرآن الكريم إذا خالف توراة حلقيا أو غيره؟

أم تقول: إنّ المتكلّف يغمز في اعتراضه إلى إنكار معجزة موسى، بإخراجه الماء من الحجر بواسطة ضربه له عن أمر الله، بل يقول: إنّ الصخرة انفجرت ماءً لمقتضٍ طبيعيّ. فكلّ ما ينقل من المعجزات المخالفة لاقتضاء الطبيعة فهو خرافة، ولكنّه تحاشا من قومه أن يوجّه إنكاره إلى صراحة التوراة، فكنى عن ذلك بإنكاره على القرآن الكريم؟

أم تقول: إنّه كثيراً ما تكلّم بمثل هذا وهو لا يدري ما يقول؟

واعترض المتكلّف أيضاً على قول القرآن الكريم: إنّ الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً[1]. ومنشأ اعتراضه هو أنّ توراته التي عرفت حالها لم تذكر هذا العدد.

قلت: لئن أساءت التراجم للعهد القديم ترجمتها في هذا المقام، فإنّ الأصل العبراني يشير إلى ما يذكره القرآن الكريم من تعدّد الينابيع، وإن لم ينصّ العهد القديم على عددها، كعادته في إهمال ذكر المهمّات وإطنابه بالفضول. وهاك نصّ كلماته: «ويصاو ممنو ميم». فتخرج ـ بضمير الجمع ـ منه مياه. «ودبريتم ال هسلع لعينيهم وناتن ميما يو وهو صائيتالهم ميم»، «وكلّما الحجر لعيونهم ويعطي مياهه فتخرج لهم مياهاً». «ويّصأوّميم ربّيم» فخرجت ـ بضمير الجمع ـ مياه كثيرة[2].

وفي المزامير في ذكر النعم والمعجزات التي صنعها الله مع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر: «يبقع صوريم بمدّ بار ويشقى كتهموت ربّاه» يشقّ أحجاراً في البرّيّة ويسقي كلجج كثيرة. «ويوصانوزليم مسلع ويورد كنهروت ميم» أخرج مجارٍ من حجر وأجرى كأنهار مياهاً. «هن هكاه صور وياز وبو ميم ونحليم» هو ذا ضرب الحجر وفاضت المياه والأوديّة[3].

---

١. إشارة إلى الآية ١٦٠ من سورة الأعراف (٧).

٢. سفر العدد ٢٠: ٨ و ١١.

٣. سفر المزامير ٧٨: ١٥ ـ ٢١.

وهذه الكلمات متعاضدة على الصراحة بتعدّد المنابع والعيون من الحجر، ولكنّ التوراة والعهد القديم يهملان النصّ على العدد حيث يلزم في الامتنان وبيان القدرة وعظيم النعمة، وينصّان على العدد حيث لا يلزم النصّ، بل يقعان فيه بعثرات الغلط التي لا تقال، كما ذكرناه قريباً في عدد الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم ثمّ توجّهوا إلى سدوم وجاؤوا إلى لوط. وكما ذكره إظهار الحقّ في شواهد المقصد الأوّل والثاني من الباب الثاني[١]. فوقع المتكلّف به في حيص وبيص. ولعلّما يجري له ذكر إن شاء الله.

ومن أوهام المتكلّف، أو تنبيهاته على مواقع الاعتراض على التوراة الرائجة، هو أنّه افتخر هاهنا بضبطها وإتقانها لمنازل بني إسرائيل في خروجهم من مصر. فلا أدري أنّه هل يجهل خبطها في هذا الشأن، أو يدري ويريد أن ينبّه عليه؟ وهل ذلك لأجل تعلّق قلبه بغير النصرانيّة، أو لكي يجعل لها أُسوة بإنجيله في الخبط بالأمكنة؟ كما ذكرناه[٢].

واسمع إذاً خبط التوراة الرائجة في مراحل بني إسرائيل ومنازلهم، فإنّها تقول:

إنّ بني إسرائيل ارتحلوا من أُبُت. ونزلوا في عيّي العَبارِيم... من هناك ارتحلوا ونزلوا في وادي زارد. من هناك ارتحلوا ونزلوا في عَبْرِارْنُون... ومن هناك إلى بأره. أو بئر... ومن البرّيّة إلى متّاناه. ومن متّاناه إلى نَحلِيئل ومن نحليئل إلى باموت. ومن باموت إلى الجِواء... وأرسل إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأُموريّين[٣].

ثمّ قالت:

إنّهم ارتحلوا من أُبُت ونزلوا في عيّي العباريم ـ أي خربات العباريم ـ وارتحلوا من الخرابات ونزلوا في دِيبُن جاد. ومنها في عَلْمُون دِبلاتايمة. ومنها في جبال عَبارِيم. ومنها في عَرَبات موآب على أُردن أريحا[٤].

---

١. إظهار الحقّ ٢: ٤٢٩ و ٤٦٣.

٢. انظر ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨.

٣. سفر العدد ٢١: ١٠ ـ ٢١.

٤. سفر العدد ٣٣: ٤٤ ـ ٤٨.

فانظر هذا الاختلاف، وضمّه إلى ما ذكرناه في الصدر والتمهيد عن عاشر التثنية[١]. وليفتخر المتكلّف بإتقان توراته.

وقال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾[٢].

وفي سورة طه: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾[٣].

فاعترض المتكلّف على ذلك بأنّ كون العجل له خوار هو من خرافات اليهود القديمة، وأنّ الله ـ جلّ اسمه ـ لا يساعد على الإشراك به. وأنّه لم يكن في عصر موسى شيء يقال له: سامره ولا سامري، فهو من التخيّلات البعيدة المستحيلة، كما يدلّ عليه تأريخ بني إسرائيل، بل تواريخ العالم قاطبة. وأنّه ليس لجبرائيل فرس حتّى يقول: «إنّ السامري ألقى في فم العجل من تراب أثر فرس جبرئيل»[٤].

قلت أوّلاً: لم يقل القرآن الكريم: إنّ العجل كان يخور هو بخوار حيواني، غير منبعث عن وضع صناعي أو روح كهربائي، بل قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي يُسمَع منه صوت كصوت البقر. والفرق بين العبارتين لا يخفى على من له معرفة باللسان. وهذا من الممكنات الواقعة في الصناعة كثيراً، حيث يُقدَّر نفوذ الهواء وضغطه وتقطيعه على وضع خاصّ، فينشأ منه صوت ذو كيفيّة خاصّة مع ترجيع، أو اشتمال على ما يشبه الحروف.

ومن المشاهد الشائع أنّ صنفاً من الساعات المجلسيّة يحدث منها عند تحرّك

١. العدد ٦ و ٧.
٢. الأعراف (٧): ١٤٨.
٣. طه (٢٠): ٨٧ـ ٨٩ و ٩٥ ـ ٩٦.
٤. الهداية ٢: ٥٥.

آلاتها صوت كصوت الفاختة، أو العصفور، أو الديك أو ما يشبه لفظة: «يا كريم». فيجوز أن تكون صنعة العجل الذهبي كانت على وضع يقتضي نفوذ الريح في منافذه أن يحدث منه صوت كالخوار. بل يجوز أن يكون ذلك من روح كهربائي يؤثّر بالهواء النافذ إلى جوف عجل الذهب هذا الأثر، فيجوز أن تكون القبضة التي قبضها السامري من أثر الرسول، هو شيء بصر به دون بني إسرائيل في قعر البحر إذ عبروا فيه، فوجده يؤثّر بكهربائيّته أثراً غريباً، فأعمله في واقعة العجل.

وإنّ من المعروف أنّ في البحر سمكة إذا مسّ الإنسان ولو خيط الشبكة التي تقع فيها، حدثت فيه بكهربائيّتها رعدة مزعجة جدّاً. فهذا أمر لابعد فيه أصلاً.

وعلى كلّ حال لم يكن الخوار في العجل الذهبي إنشاء خلقٍ من الله فيه بنحو خرق العادة، لا من أمر طبيعي صناعي أو كيمياوي أو كهربائي. فليس هو كأحوال عصا موسى، حتّى يتشبّث به المتكلّف؛ لقوله: «إنّ الله لا يساعد على الإشراك به».

نعم، إنّ ابتلاء الله لبني إسرائيل في واقعة العجل والخوار، إنّما كان من نحو الخذلان لهم؛ لأجل عتوّهم بأن لم يصرف بقدرته المضلّ عن كيده. ولا الطبيعيّات الصناعيّة والكهربائيّة عن اقتضائها الذي أودعه بقدرته في نوعها. كما لم يصرف عملة الأوثان عن صنعهم لها، وتركيب صورتها بالصناعة، وحصول صورتها بالتركيب.

وليت شعري إذا كان المتكلّف يعترض في مثل هذا، فما يقول في خلق الله لإبليس، رأس الضلال والمشمّر في الدعوة إلى الإشراك؟ وإنجيلهم يقول: «إنّه أُعطي من القوّة ما يقدر به على أن يتصرّف بالمسيح» الذي يزعمون أنّه الإله المتجسّد وأُقنوم الابن الذي حلّ عليه أُقنوم الروح القدس، حتّى صار ينقله من مكان إلى مكان، ويدعوه إلى السجود له.

وإن كان للمتكلّف اعتراض، فليعترض على توراته في قولها: إنّ عصيّ السحرة والعرّافين لمّا ألقوها في مقابلة موسى صارت ثعابين[1]. وهذا لا يكون من السحر الذي

---

١. سفر الخروج ٧: ١٢.

هو تمويه باطل، فلا تكون ثعابين إلّا بقدرة الله تعالى ومشيئته وخلقه. وفي قولها أيضاً عن كلام الله ـ جلّ شأنه ـ في فرعون: «ولكنّي أُشدّد قلبه حتّى لا يطلق الشعب»[١]. «فإنّي أغلظت قلبه وقلوب عبيده لكي أصنع آياتي بينهم»[٢].

وأيضاً فإنّ مقتضى التوراة الرائجة أنّه حينما كان هارون يصنع العجل، ليكون إلهاً يعبده بنو إسرائيل، وبنى مذبحاً أمامه ونادى لعبادته في ذلك الوقت: كان الله ـ جلّ جلاله ـ يكلّم موسى في تقديس هارون للكهنوت، وتمجيده بامتيازات الرئاسة الكبرى، واستعداد تتويجه لتنفذ طاعته بكلام طويل[٣].

فهل ترى مساعدة على الإشراك أكثر من هذا؟

وفي رابع عشر حزقيال عن قول الله جلّ جلاله:

لأنّ كلّ إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغرّبين في إسرائيل إذا ارتدّ عنّي وأصعد أصنامه إلى قلبه ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه ثمّ جاء إلى النبيّ ليسأله عنّي فأنا الربّ أُجيبه بنفسي. وأجعل وجهي ضدّ ذلك الإنسان... وإذا ضلّ النبيّ وتكلّم بكلام فأنا الربّ قد أضللت ذلك النبيّ وأمدّ يدي عليه وأبيده من وسط شعبي إسرائيل. ويحملون إثمهم كإثم السائل يكون إثم النبيّ. لكي لا يعود يضلّ عنّي بيت إسرائيل[٤].

أفلا ترى صراحة هذا الكلام بأنّ الله ـ جلّ شأنه ـ هو الذي أضلّ ذلك النبيّ الذي ضلّ، وواتى بكلامه في عبادة الأصنام والارتداد عن الله؟ إذاً فكيف تكون المساعدة على الإشراك؟ تعالى الله عمّا يقولون.

وثانياً: أنّا قد قدّمنا[٥] أنّ التسمية بالسامري في العربيّة، والشمروني في العبرانيّة، غير منحصرة في النسبة إلى سمرون أو شمرون، وهي البلدة التي بناها عمري ملك

---

١. سفر الخروج ٤: ٢١.

٢. سفر الخروج ١٠: ٢.

٣. سفر الخروج ٢٨ و ٢٩.

٤. سفر حزقيال ١٤: ٧ ـ ١١.

٥. تقدّم في ج ١، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

إسرائيل فتسمّت بها تلك المملكة. بل يسمّى بذلك أيضاً من ينسب إلى سمرون أو شمرون بن يساكر بن يعقوب. فراجع تعرف مبلغ جهل المتكلّف والمتعرّب.

وثالثاً: إنّما قال القرآن الكريم: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[1]. وإنّ الذي قال: من أثر حافر فرس الرسول، إنّما هي الروايات[2]. فينبغي للمتكلّف في ناموس الأمانة أن يوجّه اعتراضه إليها، أو يقيم الحجّة على أنّها تفيد العلم بأنّ مضمونها هو مراد القرآن الكريم.

على أنّا نقول: إنّ من المعلوم من قوانين الملّة اليهوديّة والملّة النصرانيّة هو أنّ الملائكة وإن كانوا أرواحاً إلّا أنّهم يتشكّلون بأشكال الجسمانيّات. ولا يضرّ في اتّفاقهم خروج الصدوقيّين من اليهود، ومن علق به وباء القول بالطبيعة من الفريقين.

وإنّ هذا الاعتراض ـ سواء كان على الروايات، أو على القرآن الكريم ـ ليقبح كلّ القبح من النصراني الذي يدّعي أنّ كتب العهدين كتب سماويّة؛ فإنّ توراته وإنجيله ناطقان بوقوع أمثال ذلك من الملائكة، بل والروح القدس الذي هو بزعمهم أحد أقانيم الإله، تعالى الله عن ذلك. وإنّ كتبه لتقول في نقلها عن المشاهدة في اليقظة والعيان لا عن الرؤيا في المنام:

إنّ موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعين من شيوخ إسرائيل، صعدوا إلى الجبل ورأوا إله بني إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف، وكذات السماء في النقاوة... وأكلوا وشربوا[3].

«وأنّ الروح القُدس ـ أحد الأقانيم الثلاثة بزعمهم ـ نزل على المسيح بهيئة جسميّة مثل حمامة»[4]. «وإنّ الملائكة جاؤوا إلى إبراهيم ولوط بشكل رجال، وأكلوا من ضيافتهما»[5]. «وإنّ ملاك الربّ قد مدّ طرف العكّازة التي بيده»[6]. «وإنّ للجند السماوي

---

١. طه (٢٠): ٩٦.

٢. التفسير الكبير ١١: ١١١؛ الدرّ المنثور ٥: ٥٩٦.

٣. سفر الخروج ٢٤: ٩ ـ ١١.

٤. إنجيل لوقا ٣: ٢٢.

٥. فانظر سفر التكوين ١٨: ١ ـ ٩ و ١٩: ١ ـ ١١.

٦. سفر القضاة ٦: ٢١.

خيلاً من نار ومركبات من نار»[١].

فإذا كان هذا كلّه، فماذا يمنع من أن تكون لجبرئيل فرس تناسب عالمه، وأنّها تحدث في الأرضيّات من أثرها روحاً كهربائيّاً؟!

فلا مساغ في الأدب والدين للمتكلّف أن يسمّي نفسه نصرانيّاً يسلّم بكتب العهدين، وهو يعترض على القرآن الكريم بنحو هذا الاعتراض.

نعم، إذا جاهر بمكنونه وقال: إنّ نواميس الطبيعة وقوانين دارون تأبى هذا كلّه، وتعدّه من خرافات اليهود والنصارى والمسلمين، فإنّ لنا معه موقفاً آخر.

وقال الله تعالى في سورة الأعراف في شأن موسى لمّا عبد قومه العجل: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٢].

فاعترض المتكلّف على ذلك بثلاثة اعتراضات:

١. إنّ القرآن الكريم ذكر الألواح بصيغة الجمع الدالّة على أنّها أكثر من اثنين، وأنّ توراته تذكر أنّها لوحان.

٢. إنّ القرآن يدلّ على أنّ موسى لم يكسر الألواح بل إنّه لمّا سكت عنه الغضب أخذها بعينها وهي صحيحة. وتوراته تقول: «إنّ موسى كسر اللوحين، ثمّ بعد مدّة أعطاه الله لوحين آخرين».

٣. إنّ موسى لم يجرّ أخاه من رأسه، كما يفعل السفهاء[٣].

قلت: أمّا عدد الألواح، فقد اختلفت فيه التوراة الرائجة. ففي بعض المقامات صرّحت بأنّهما لوحان اثنان، حيث صرّح الأصل العبراني بقوله: «شني لوحت» وفي بعض المقامات قال: «لوحت»[٤]. وهذه في اللغة العبرانيّة كلمة جمع، لا تخرج إلى

١. سفر الملوك الثاني ٢: ١١ و ٦: ١١.

٢. الأعراف (٧): ١٥٠ و ١٥٤.

٣. الهداية ٢: ٥٦ ـ ٥٧.

٤. سفر الخروج ٢٤: ١٢.

التثنية إلّا بالتقييد بلفظة «شني» أي اثنين.

فالقرآن الكريم ـ بوحيه الإلهي الصادق ـ أبان لنا أنّ التوراة الرائجة أصابت في قولها: «لوحت» ولكنّها بعد ذلك حوّلها قلم كذب الكَتَبة ـ كما قال إرميا ـ إلى «شني لوحت».

كما شوّه صورتها بالتناقض والتقلّب، والغلط في عدد الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم، ثمّ توجّهوا إلى سدوم وجاؤوا إلى لوط، حيث ذكرت أنّهم ثلاثة، ثمّ قالت: «إنّهم اثنان، ثمّ جعلتهما واحداً»[١].

ثمّ اعلم أنّ القرآن الكريم بوحيه الإلهي الصادق ومعارفه الحقّة، لَيُنَزِّه أنبياء الله ورسله الكرام عن السفاهة والهتك لحرمات الله، والاستخفاف بأماناته وعهوده، والنكول بالغضب والتهوّر عن وظائف النبوّة، فلا يصحّ في التعاليم الحقّة أن يكون موسى رسول الله وكليمه يفعل مثل ذلك.

أتقول: إنّ موسى رسول الله يعطيه الله لوحي العهد المكتوبين بإصبع الله، ويأمره بأن يصنع لهما صندوقاً مصفّحاً بالذهب ليضعهما فيه، ويضعه في أشرف الأماكن المقدّسة، وبهذه العناية يكونان كواسطة العقد لنبوّة موسى، ولواء الديانة لبني إسرائيل، وأعزّ ودائع النبوّة، وأشدّ شعائر الله حرمةً، ومع ذلك كلّه يلقيهما موسى من يده ويكسرهما عند الغضب، مع أنّه لا يجدي كسرهما شيئاً لا في العقوبة، ولا في العتاب، ولا في الحثّ على التوبة، إلّا العبث والحماقة، والاستخفاف بعهد الله وأمره، والخيانة لأمانته، والهتك لحرمته؟

قل: إذاً فماذا يتوقّى النبيّ عند غضبه؟ وأيّ حرمة لله يحتشم هتكها؟ حاشا لله ورسوله موسى، الله أعلم حيث يجعل رسالتَه.

ومن العجب أنّ المتكلّف يستر هذا بذيل أمانته، ويعترض على قول القرآن الكريم: «إنّ موسى أخذ برأس أخيه يجرّه» ويقول: «إنّ هذا من فعل السفهاء».

---

١. سفر التكوين ١٨: ٢ و ١٩: ١ و ٢١.

وقد بيّنّا لك[١] ما يمكن أن يكون وجهاً له، ولكنّا نقول هاهنا: إنّ وجهه ما هو المعروف من ملاومة الأرحام وتَشاكيهم عند النوائب العظيمة، فيكون جرّ موسى لرأس أخيه ـ المعاضد له في مهمّاته ونوائبه ـ من باب الشكاية والتلهّف، كما يجرّ رأس نفسه ويضرب وجهه، وإذا كان هذا من فعل السفهاء، فكسر الألواح من فعل من يكون؟

[قوم بني إسرائيل من بعد موسى وبعث طالوت لهم ملكاً]

وقال الله تعالى في سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَـٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

والمتكلّف قد اعترض على قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ فقال: «الصواب من بعد القضاة»[٣].

قلت: إنّ القرآن الكريم لم يكن من مقصوده بيان التأريخ السنوي وتشخيص الزمان، بل إنّ الذي يدخل في مقصوده هو الظرف الذي بيّنه؛ لأنّ المقصود هو الموعظة والتوبيخ لبني إسرائيل على ملازمتهم في أجيالهم للتلوّن والتقلّب، ببيان أنّهم كانوا مع موسى رسول الله المظفّر المنصور بالمعجزات والسيف، وقد شاهدوا منه آيات النصر وخرجوا ببركته من الذلّ إلى العزّة، ومن الضعف إلى الشوكة، ومع ذلك كانوا يتمرّدون على أوامره، وينكصون عن دعوته، حتّى بدّلوا دينه وتقلّبوا في طغيانهم، فأبدلهم الله

---

١. تقدّم في ج ١، ص ١٢١.

٢. البقرة (٢): ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٣. الهداية ٢: ٢٦.

بالعزّ ذلّاً وبالأمن خوفاً، فجاء هؤلاء ـ وهم أبناء أُولئك القوم وعلى وتيرتهم ـ يطلبون ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، مع أنّ القوم أبناء القوم في التقلّب والتمرّد. ولذا حذّرهم نبيّهم من أن يكونوا كآبائهم؛ إذ كتب عليهم القتال فلم يقاتلوا.

ولكنّ المتكلّف لا يدعه فهمه وسجيّته إلّا أنْ يقول:

فقول القرآن: إنّ بني إسرائيل طلبوا من نبيّهم بعد موسى ـ أي بعد وفاته ـ هو غلط. والصواب أنّه من بعد صموئيل آخر قضاة بني إسرائيل.

لكن يقال له أوّلاً: إنّ القرآن قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾[1] ولم يقل: قالوا من بعد موسى. فإن أردت أن تتلاعب بالتراكيب حسب فهمك وأغراضك، فاقصد بذلك كتابك لتكون كواحد من قومك. وأمّا القرآن الكريم فإنّه مرصود بالعناية الإلهيّة، وينتهرك في تبديلك أُلوف عديدة من حفّاظ أطفال المسلمين.

وثانياً: إنّ كتابك يقول:

إنّ الذي طلب منه بنو إسرائيل أن يجعل لهم ملكاً هو نفس صموئيل. وإنّ طالوت «شاول» مَلَك في حياة صموئيل[2].

وتواريخكم تقول: إنّ مدّة ملكه في حياة صموئيل كانت خمساً وثلاثين سنة، ولم يلبث بعد موت صموئيل إلّا نحو أربع سنين مع ملك متضعضع، وافتراق داود وجملة من بني إسرائيل عنه. فكيف تقول: «والصواب أنّه من بعد صموئيل آخر قضاة بني إسرائيل»؟ فأَفِقْ ثمّ تكلّم في مثل هذه المقامات بعد أن تعرف ما في كتابك أقلّاً.

واعترض أيضاً على حكاية القرآن الكريم لقول بني إسرائيل: ﴿أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾[3] فقال:

إنّه لم يكن أحد سبى بني إسرائيل ولا أخرجهم من ديارهم، بل إنّهم طلبوا الملك ليقضي لهم، ويحارب حروبهم، ويخرج أمامهم.

---

١. البقرة (٢): ٢٤٦.

٢. انظر سفر صموئيل الأوّل ١٠: ١ ـ ٢٠.

٣. البقرة (٢): ٢٤٦.

قلت: إنّ العهد القديم ـ مع تفريطه في الحقائق التأريخيّة ـ ليُكَذِّب المتكلّف في دعواه. أفلم ينظر مدّة عمره في سفر القضاة، ليرى تسلّط الأُمم على بني إسرائيل من بعد يوشع؟ «وأنّ الله غضب عليهم فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم»[١]. «وباعهم بيد كوشان ملك آرام النهرين. وضرب ملك عمّون بني إسرائيل ومَلك مدينة النخل»[٢]. «وباعهم الربّ بيد يابِين ملك كنعان»[٣].

ودفعهم ليد مديان حتّى أنّهم عملوا لأنفسهم الكهوف والمغائر، بسبب تسلّط المِديانيّين. وإذا زرعوا تنهبه الأُمم ولا يتركون لهم قوتاً ولا بقراً ولا غنماً ولا حميراً[٤].

«وأنّ الله دفعهم ليد الفلسطينيّين أربعين سنة»[٥]. فلم يزل بنو إسرائيل عرضة لاضطهاد الملوك، تعمّهم النوائب أو تتناوب على قبائلهم.

أفلا يكفي المتكلّف هذه الأحوال في صدق قولهم: أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟ وهل قال القرآن الكريم: إنّهم قالوا: سبينا بأجمعنا إلى أشّور أو إلى بابل؟

واعترض أيضاً على تسمية القرآن الكريم لهذا الملك: «طالوت» فقال: وصوابه «شاول».

قلت: سمّاه القرآن الكريم بوصفه الذي امتازبه عن جميع بني إسرائيل، وهو طول القامة وبسطة الجسم. والعهد القديم يقول: «إنّه وقف بين الشعب فكان أطول من كلّ الشعب من كتفه فما فوق. وإنّه ليس مثله في جميع الشعب»[٦]. فسمّاه القرآن طالوت تنويهاً بامتيازه، كما يقال: كهنوت، وجيروت، وملكوت.

واعترض أيضاً على قول القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[٧].

---

١. سفر القضاة ٢: ١٤.

٢. سفر القضاة ٣: ٨ و ١٣.

٣. سفر القضاة ٤: ٢.

٤. سفر القضاة ٦: ٢ ـ ٦.

٥. سفر القضاة ١٣: ١.

٦. سفر صموئيل الأوّل ١٠: ٢٣ ـ ٢٤.

٧. البقرة (٢): ٢٤٧.

قلت: إنّ الذي جاء إلى صموئيل لينصب لهم ملكاً، لابدّ أن يكونوا رؤساء بني إسرائيل وشيوخهم. وبحكم العادة والاعتبار بأحوال البشر ـ وخصوص بني إسرائيل ـ في مثل هذه الواقعة أن يكون كلّ واحد من هؤلاء الرؤساء يرجو أن يكون هو الملك، ويجد في نفسه أنّه هو الأولى بذلك لرئاسته وكبر سنّه.

والعادة المطّردة تقتضي أنّ الشيوخ والزعماء وأهل الثروة لا يذعنون إذا وقع الاختيار على من هو دونهم في السنّ والشرف والرئاسة والثروة. بل لا بدّ أن يقولوا: إنّ الاختيار الذي هو لصلاح المملكة ينبغي أن يقع على ذي شرف ورئاسة تنقاد له النفوس، وذي ثروة تعينه على مهمّات الملك، وذي سنّ قد بصّرته التجارب وممارسة حوادث الأيّام، وذي قبيلة عظيمة تفي بِمَنَعَتِه، فلا بدّ بحكم العادة للشيوخ الذين طلبوا الملك أن يَنكروا تملّك شاول دونهم، مع أنّه شابٌ من أصغر العشائر في أسباط بنيامين. وكتاب المتكلّف يقول: «إنّ قبيلة بنيامين قد قاربت أن تنقرض في أيّام القضاة»[1]. ويقول: «إنّ بني بَلِيَّعال[2] قالوا في حقّ شاول: كيف يخلّصنا هذا؟ واحتقروه فلم يقدّموا له هديّة»[3].

ومعنى قولهم هذا، هو معنى ما حكاه القرآن من قولهم ومن المعلوم أنّ الذي يقدّم هديّة للملك، إنّما هم الأشراف والرؤساء الذين يدبّرون أمر العامّة في طلب الملك وتبريكه.

وأمّا هتاف الشعب بقولهم: «لِيَحْيَ الملك»[4]، فيجوز أن يكون بعد اعتراض الملأ والرؤساء على تمليك طالوت، وبعد أن غلبتهم آراء الجمهور انقياداً لصموئيل، فتمّ القرار على تمليكه. ويجوز أن يكون من عامّة الشعب ما عدا الرؤساء، فالعهد

---

١. سفر القضاة ٢٠ ـ ٢١.
٢. كلمة شتم، شتم بها الكهنة أولاد عالي الكاهن كما في سفر صموئيل الأوّل ٢: ١٢؛ داود، كما في سفر صموئيل الثاني ١٦: ١٧.
٣. سفر صموئيل الأوّل ١٠: ٢٧.
٤. سفر صموئيل الأوّل ١٠: ٢٤.

القديم ـ على ما به من الخلل ـ لا يعارض القرآن الكريم في هذا المقام، كما تـوهّمه المتكلّف، بل هو ـ مع انحلال نظامه ـ يحاول المعنى الذي ذكره القرآن الكريم، ولكنّه لم يحسن بيانه.

وقال تعالى في سورة البقرة في تتمّة المقام المتقدّم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فاعترض المتكلّف على قول القرآن: إنّ التابوت تحمله الملائكة، فقال:

لم يرد في كتاب الله أنّ الملائكة حملت التابوت، وأدخلته إلى بيت شاول علامة على الملك[2].

قلت: وقد ذكرنا لك في التصدير[3] حال العهد القديم، على وجه لا يبقى لذي اللبّ أدنى ركون إليه، فكيف بالاعتراض به على القرآن الكريم! ولماذا لا يقال: إنّ كلمة «تحمله الملائكة» قد سقطت منه كالكلمات التي تذكر الحواشي أنّها تقرأ، وهي غير مكتوبة في المتن، وجرت التراجم على تنبيه الحواشي.

وأيضاً إنّ العهد القديم يذكر أنّ الفلسطينيّين لمّا ردّوا التابوت من عندهم إلى بني إسرائيل، فعلوا فعلاً لا يمضي معه التابوت إلى بني إسرائيل إلّا بنحو خارق العادة، يذعنون بأنّه من آيات الله، كما أشار عليهم بذلك كهنتهم وعرّافوهم[4]. وذلك أنّهم وضعوه على عجلة ربطوا بها بقرتين مرضعتين لم يعلهما نير، وأرجعوا عنهما ولديهما، فاستقامت البقرتان في الطريق إلى طريق بيتشمس، وكانتا تسيران في سكّة واحدة وتجأران، ولم تميلا يميناً ولا شمالاً وأقطاب الفلسطينيّين يسيرون وراءهما إلى تخم بيتشمس، حتّى أتت العجلة تسير بها البقرتان على هذا الحال إلى حقل يهوشع

---

١. البقرة (٢): ٢٤٨.
٢. الهداية ٢: ٢٨.
٣. تقدّم في ص ٤٧٢.
٤. سفر صموئيل الأوّل ٦: ٦ ـ ١٠.

البيتشمسي ووقفت هناك. فأنزل اللاويّون تابوت الربّ[١].

ومن المعلوم في العادة أنّ مثل هاتين البقرتين لا ينبغي أن تتحرّكا خطوةً واحدة، ولو كان لهما عدّة من السائقين والقائدين؛ لأجل أنّهما لم تعلما على وضع نير على أعناقهما وعلى جرّ الثقيل خلفهما، بل يلزمهما في العادة في كلّ آن أن تَشمَصا[٢] وترجعا إلى ولديهما اللذين أرجعا عنهما. فكيف تسيران عدّة أميال على الاستقامة في الطريق إلى حقل يهوشع بلا قائد ولا دليل؟!

وهل هذا التسخير إلّا من الآيات وخوارق العادة وتصرّف الملائكة؟ فهو راجع في الحقيقة إلى قول القرآن الكريم: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣] ولم يقل القرآن: إنّ الملائكة حملت التابوت وأدخلته بيت شاول، بل إنّما قال ذلك المتكلّف من تحريك ذلك الروح الذي أخبر عنه ميخا[٤]. وإنّما قال القرآن لبني إسرائيل: ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾[٥] فيكون صدق النبيّ بمجيء التابوت من حيث لا يحتسبون، على نحو معجز هو آية ودليل على صدقه بقوله: «إنّ الله جعل طالوت ملكاً» والعهد القديم يخبر بمجيء التابوت على هذا الوجه، بنحو لا يكون إلّا من تصرّف الأرواح السماويّة، وهم الملائكة.

واعترض المتكلّف أيضاً على قوله تعالى في وصف التابوت: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾، فقال: «وصوابه: شخينا، وهي كلمة عبريّة معناها الروح، أو مأخوذ من شاخونة، ومعنى سكن». وقد سبقه المتعرّب إلى هذا الاعتراض[٦].

قلت: السكينة مأخوذة من السكون بمعنى الطمأنينة، أي روح تقتضي سكون بني إسرائيل وطمأنينتهم بها. وكُنِّيَ عنها في الأحاديث بالريح[٧]، باعتبار سريان رَوْحِها

---

١. سفر صموئيل الأوّل ٦: ٧ ـ ١٦.

٢. شمص: نفر. لسان العرب ٧: ٤٩، «ش م ص».

٣. البقرة (٢): ٢٤٨.

٤. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٢٢.

٥. البقرة (٢): ٢٤٨.

٦. ذيل مقالة في الإسلام: ٨٦.

٧. راجع مجمع البيان ١: ٣٥٣، ذيل الآية ٢٤٨ من البقرة.

وبركتها إلى بني إسرائيل، كما تُرَوِّح الريح الطيّبة وتنعش بسريانها. ووُصِفت مجازاً بأنّ لها وجهاً كوجه إنسان، باعتبار أنّ روحانيّتها وبركتها، لها وجهة واحدة تراعي بها بني إسرائيل دون غيرهم من محاربيهم، الذين يقذفهم إدبارها عنهم بالرعب والوبال.

وأمّا دعوى المتكلّف والمتعرّب بأنّ السكينة في القرآن مأخوذة من «شخينا وشاخونة» فمنشؤها أُمور:

١. تحاملهما على القرآن كلام الله.

٢. جهلهما أو تغافلهما عن وجود مادّة سكن ويسكن وسكون في اللغة العربيّة.

٣. بخلهما على اللفظة العربيّة أن توافق العبريّة بالنون التي في سكينة وشخينا.

٤. بخلهما بأن يعرب القرآن لفظ شخينا بلفظ سكينة.

٥. بخلهما بأن يذكر القرآن أُمور بني إسرائيل بألفاظ عربيّة أو معرّبة.

٦. عدم مبالاتهما بما يقولون، فوا أسفاه على الأدب وحرّيّة الضمير!

واعترض المتكلّف أيضاً على القرآن الكريم في قوله في التابوت أنّه: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾[1].

فقال: «والحقيقة أنّه لم يكن فيه سوى لوحي العهد».

قلت: إنّ توراة حلقيا أو غيره ـ والتي عرفت حالها من التصدير وغيره ـ وإن لم تنصّ على ما وضع في التابوت إلّا على لوحي العهد، ولكنّ العهد الجديد ـ كتاب المتكلّف ـ ممّا ينبّه على خللها في هذا المقام، وأنّها أهملت ماهو لازم الذكر؛ فإنّه يقول:

> وتابوت العهد مصفّحاً من كلّ جهة بالذهب الذي فيه قسط ـ أي كوز، أو حقّة ـ من ذهب، فيه المنّ، وعصا هارون التي أفرخت، ولوحا العهد[2].

فالعهد الجديد يقول أيضاً: إنّ التابوت فيه بقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون. بل إنّ التوراة الرائجة ربما يظهر منها هذا، وإن لم تنصّ على وضع المنّ والعصا في التابوت،

---

١. البقرة (٢): ٢٤٨.

٢. الرسالة إلى العبرانيّين ٩: ٤.

بل ذكرت أنّ موسى أمر هارون بأن يجعلهما أمام الشهادة للحفظ في أجيال بني إسرائيل[١].

ولكنّ المتكلّف تبعثه بواعثه على الاعتراض على القرآن كلام الله، وهو لا يدري بما في كتبه، أو يستره بذيل أمانته.

واعترض المتكلّف أيضاً على قول القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾[٢]. فقال: «إنّ هذا لعدم معرفته باسم النبيّ الذي مسح شاول، ولا يخفى أنّه صموئيل».

قلت: لم يكن المقام لبيان دعوة ذلك النبيّ واجتهاده في إعلان الحقّ ليمجّده القرآن بذكر اسمه، بل إنّ وصفه بالنبوّة أحسن دخلاً في توبيخ بني إسرائيل على فارطهم[٣]؛ إذ طلبوا ـ مع وجوده ـ ملكاً، وردّوا عليه في تعيين الملك عن أمر الله، ولكنّ العهدين ـ اللذين ينصّان على الأسماء بلا داع ـ خصوصاً في الفضائح ـ فإنّهما قد أهملا ذكر كثير من أسماء الأنبياء وغيرهم، مع اقتضاء وضع الكتاب أو المقام لذكرها.

ففيه: «وكان لمّا صرخ بنو إسرائيل إلى الربّ بسبب المديانيّين. أنّ الربّ أرسل رجلاً نبيّاً إلى بني إسرائيل وقال لهم ...»[٤] إلى آخر موعظته وتوبيخه لهم ودعوتهم إلى الإيمان. «وجاء رجل الله إلى عالي»[٥].

وإذاً بنبيّ تقدّم إلى أخآب ... فتقدّم النبيّ ... فتقدّم رجل الله ... وإنّ رجلاً من بني الأنبياء قال لصاحبه عن أمر الربّ ... فذهب النبيّ ... فعرفه ملك إسرائيل أنّه من الأنبياء[٦].

«ودعا اليشع النبيّ واحداً من بني الأنبياء ... فانطلق الغلامُ، الغلامُ النبيّ»[٧]. «وإذاً

---

١. سفر الخروج ١٦: ٣٢ـ ٣٥؛ سفر العدد ١٧: ١٠.
٢. البقرة (٢): ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
٣. فارطهم: أي ما قصّروا فيه وضيّعوه حتّى فات. الصحاح ٣: ١١٤٨، «ف ر ط».
٤. سفر القضاة ٦: ٧ ـ ١١.
٥. سفر صموئيل الأوّل ٢: ٢٧.
٦. سفر الملوك الأوّل ٢٠: ١٣ ـ ٤٢.
٧. سفر الملوك الثاني ٩: ١ و ٤.

واحد من الذين مع يسوع مدّيده واستلّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أُذنه»[١].

وإنجيل يوحنّا يذكر أنّ الضارب هو سمعان بطرس. واسم العبد المضروب ملحس[٢].

وهذا قليل من كثير.

وقال الله تعالى في سورة البقرة في تتمّة قصّة طالوت: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اَللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ اَغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾[٣].

والعهد القديم لم يذكر هذه القصّة في تأريخ طالوت «شاول» وذكر ما هو قريب منها في تأريخ جدعون[٤]. فخيّل للمتكلّف وهمه أن يعترض على القرآن الكريم[٥]، بأنّه نسب قصّة جدعون إلى شاول، ولم يجرِ على ما هو المذكور في قصّة جدعون. وجرى المتكلّف على هذا الوهم أيضاً[٦].

قلت أوّلاً: ما المانع من أن يكون لطالوت قصّة تشابه قصّة جدعون، ولم يذكرها العهد القديم في أحوال طالوت، أي شاول؟ كما أنّ التوراة الرائجة ذكرت حنوك ـ أي أخنوخ ـ وهو السابع من ولد آدم، وأهملت أولى أحواله بالذكر، وهي نبوّته التي ذكرها العهد الجديد[٧]. وذكرت إبراهيم وأهملت أولى أحواله بالذكر، وهو بدء دعوته وظهور الله له، وهو فيما بين النهرين من أرض الكلدانيّين، حينما أمره بالهجرة منها، كما ذكره العهد الجديد[٨].

وأهملت كتب العهدين أمراً مهمّاً في البيان والموعظة، وهو مخاصمة ميخائيل

---

١. إنجيل متّى ٢٦: ٥١؛ إنجيل مرقس ١٤: ٤٧؛ إنجيل لوقا ٢٢: ٥٠.

٢. إنجيل يوحنّا ١٨: ١٠.

٣. البقرة (٢): ٢٤٩.

٤. سفر القضاة ٧: ٤ ـ ٧.

٥. الهداية ٢: ٢٩.

٦. المصدر ١: ١١٠ ـ ١١١.

٧. رسالة يهوذا: ١٤ ـ ١٧.

٨. أعمال الرسل ٧: ٢ ـ ٣.

رئيس الملائكة مع إبليس محاجّاً عن جسد موسى، ومادار بينهما من القول والاحتجاج، كما أشار إليه العهد الجديد بالإيجاز المخلّ[1].

وأغفل الحادي والعشرون من سفر يشوع ذكر أربع مدن ممّا يرجع إلى اللاويّين ـ وهي: باصر، ويهصه، وميفعه، وقديموت ـ ومسارحها. فذكرتها الحواشي والتراجم بين العدد ٣٥ والعدد ٣٦ من الأصل العبراني أخذاً من سفر الأيّام الأوّل ٦: ٦٣ و ٦٤ من الأصل العبراني. وأهملت ثلاثة من الأناجيل ما ذكره لوقا من إحياء المسيح لابن الأرملة في نايين[2]. كما أهملت ثلاثة منها أيضاً ما ذكره حادي عشر يوحنّا من إحياء لِعازر.

ودع عنك أمثال ذلك ممّا هو كثير.

وثانياً: يجوز أن يكون كاتب سفر القضاة في أحد أدواره قد خبط، فحرّف قصّة طالوت ونسبها إلى جدعون. كما خبط إنجيل متّى فحرّف كلاماً في كتاب زكريّا[3]، ونسبه إلى كتاب إرميا، مع أنّه لا يوجد لذلك فيه عين ولا أثر. وقد ذكرنا ذلك في التصدير[4]، وذكرنا أوهام المتكلّف فيه.

سفر القضاة

وثالثاً: أنّ سفر القضاة الذي نسب الواقعة إلى جدعون، قد اختلفوا فيمن ينسبونه له، كما نقله إظهار الحقّ في الفصل الثاني من الباب الأوّل[5] ونقله المتكلّف[6] عن هورن، حيث قال:

> ذهب البعض إلى أنّ هذا السفر نزل على فِينْحاس، وذهب البعض الآخر إلى أنّه نزل على حَزَقيا أو إرميا أو حَزَقيال أو عِزرا. انتهى.

---

١. رسالة يهوذا: ٩.

٢. إنجيل لوقا ٧: ١١ـ١٦.

٣. سفر زكريّا ١١: ١٢ و ١٣.

٤. تقدّم في ص ٤٧٢ وما بعدها.

٥. إظهار الحقّ ١: ١٣٤.

٦. الهداية ١: ١٠٩.

ومثل هذا الكتاب لولم تعبث به صروف الأيّام، لما كان له اعتبار واحد من كتب التواريخ، مع هذا الاختلاف في مصنّفه.

وقولهم: «نزل على فينحاس ونزل على حزقيا» إنّما هو غلط وخيانة في الكلام. فإنّ فينحاس وحزقيا لم يقل أحد يعرف قدره بأنّهما كانا نبيّين. وإنّ بين فينحاس وعزرا نحو ثمانمائة سنة.

فما ظنّك بكتاب يتردّد أمره بين كونه تصنيف نبيّ أو غير نبيّ، وبين أُناس تكون المدّة بين طرفيهم نحو ثمانمائة سنة؟! ودع عنك الكلام في أنّ هذا الموجود هو المولود بهذه الولادة المبحوث عنها، أو أنّه تعدّدت فيه المواليد وتعاقبت على اسم الأوّل. وهل يجديه نفعاً دعوى هورن بأنّه أجمع علماء اليهود والمسيحيّين ـ بعد التحقيق ـ على أنّه نزل على صموئيل، وهو آخر قضاة بني إسرائيل؟

أفلا تدري أنّ أمر الكتب ومعلوميّة نسبتها إلى مصنّفها هو شيء لا ربط له بدعوى إجماع العلماء بعد التحقيق؟ وإنّما يؤخذ العلم به من النقل المتواتر بين العلماء والعوامّ من الملّة، بدون شبهة تحتاج إلى التحقيق. بل متى أحوج الوقت إلى القيل والقال، عاد أمر الكتاب إلى الوهن الدائم.

وأيضاً فإنّك تعلم قد مضت عليهم دهور في ديانتهم وجلائهم كانوا فيها بحكم العدم، ثمّ انتعشت جمعيّتهم بعد سبي بابل كالطفل المولود جديداً، وليس لهم من يذكر لهم شيئاً من كتب أسلافهم إلّا عزرا. فصارت جمعيّتهم بعد ذلك تتطلّب آثار أسلافها فتحتفل بما يخادعها به الوقت احتفالها بالحقائق، حيث تموّه عليها الأماني والحرص على آثار السلف أنّه هو ضالّتها المطلوبة. وأنّى وقد عصفت عليها عواصف البلى فتداركوا التفريط بالإفراط. فلا عذر لأحد عند الله في الاعتماد على اتّفاقهم، مع ما لله علينا من الحجج، وأيسرها ما نشاهده من تعبّد اليهود في جميع نسخ العالم لكتاب العهد القديم العبراني بالوضع المملوء بالغلط الفاحش بجميع أنواع الغلط، كما يعرف ذلك من متنه والتراجم والحواشي والقرائن القطعيّة. فتعلم من ذلك بالعلم اليقين أنّهم أخذوا جميع ما عندهم من نسخة واحدة مشوّهة بما يملؤها من الغلط،

فاحتفلوا بها بالتعبّد بصورتها، كما ذكرنا.

فإن قلت: إنّ تعبّدهم بأجمعهم بصورة النسخة المغلوطة التي تـذكرها، لا ينافي وجود نسخ صحيحة كثيرة في وقتها.

قلت: إذا جوّزت عليهم هذا الفرض كان البلاء أعظم. فإنّ كلّ سبب تفرضه لصرفهم عن النسخ الصحيحة، إلى التعبّد بهذه النسخة المغلوطة بهذا الغلط الفاحش، هو كافٍ في سخافة الاعتماد على نقلهم واتّفاقهم. فَتَحَرَّ رشدَك وافتكر في هذا الشأن.

وأمّا المسيحيّون فلا تغترَّ بحرّيّة أفكارهم، وانتشار كتبهم في هذه الأدوار، ولا تتوهّم أنّ قديمهم كحديثهم في حرّيّة الفكر وانتشار الكتب، وتداول البحث بين عموم جامعتهم، لكي تتوهّم من اتّفاقهم شيئاً. بل إنّ أفكارهم في أمر الديانة والكتب في القديم كانت مستعبدة لأحكام المجامع، المؤلّفة من بعض الأساقفة، بحكم الأُمراء والسلاطين، لقطع النزاع وسدّ باب البحث في مبادئ الديانة واعتبار الكتب.

ولا يلزم أن نقول: إنّ هؤلاء كانت تلجئهم الدواعي إلى التواطؤ على تسليم أمر مشكوك أو ممنوع.

بل يكفي أن نقول: إنّ الشواهد وكلمات كتابهم تكشف لنا عن أنّ مبادئ آرائهم المتّفقة في أمر الكتب، هي أُمور اعتباريّة، أقواها اتّفاق اليهود على الكتاب الفلاني من العهد القديم، وقد عرفت حال كتبهم وحال اتّفاقهم فيها. أو مشابهة بعض ألفاظ الكتاب لكلمات الأُسقف الكبير الفلاني والعالم الكبير الفلاني، في القرن الثاني أو الثالث أو الرابع. أو استشهاد الأُسقف الفلاني ببعض فقرات الكتاب. أو اشتمال التأريخ على مضامين الكتاب. كما أنّ هذه الأُمور غاية ما أمكن المتكلّف أن يأتي به لتصحيح كتبه، كما تعرفه من كتابه[1].

وهب أنّا وثّقنا وعلمنا بصحّة نقل الاستشهاد عن الأساقفة القدماء، واعتمدنا على استشهادهم، ولكنّ ذلك بعد اللتيّا والتي لا يفيد إلّا الظنّ التقليدي بصحّة خصوص ما

---

١. الهداية ١: ٧٩ ـ ١٥٧، و ج ٣ و ٤: ٢ ـ ١٥٥.

استشهدوا به من الفقرات. وأمّا سائر الكتاب فهو في رهن الشكّ والريب، إن لم يمنع من صدقه مانع داخلي أو خارجي، بل وكذا لو أشار ذلك الأُسقف إلى اسم الكتاب، فمن أين يحصل الاطمئنان بأنّه هو هو وقد مضت قرون كثيرة وأمر الكتب والنظر فيها ممنوع على عموم الملّة، مختصّ بأُناس مخصوصين؟ وقد وجدناالتحريف البديهي في التراجم والمطابع، حينما تحرّرت الأفكار وانتشرت الكتب بيد العامّة وصارت منظورة للعموم، تتراصد عليها فرق الروم والكاثوليك والبروتستنت. فواغوثاه لها إذ كان أمرها مختصّاً بأُناس معدودين ممنوعاً عن نظر العموم!

وقد توفّق المتكلّف والمتعرّب لأن يكون من فعليهما في كتابيهما شاهد صدق على وباء التحريف.

وكذا الكلام في التأريخ، فإنّا لو فرضنا أنّ التأريخ القطعي قد وافق السفر الفلاني في طرف من منقولاته، فكيف تتمّ الشهادة على أنّ ذلك السفر كلّه صحيح لا ريب فيه؟! ومن ذا يرضى لنا أن نقول بأنّ عيد الثعالب في شهر أبريل عند سكّان رومة، هو مأخوذ من قصّة شمشون في سفر القضاة[1]، فكلّ سفر القضاة إذاً حقّ لاريب فيه؟ كلّا لايرضى أحد منّا بذلك. بل يقال لنا: إنّ هذا التقدّم في المعرفة قد أخذ امتيازه المتكلّف[2].

وأيضاً لو كان سفر القضاة تصنيف صموئيل، لكان ينبغي أن يتمّ فيه تأريخ بنيإسرائيل إلى زمان التصنيف، ولا يقطعه في أثناء المدّة الفاصلة بينه وبين تأريخ سفر يوشع، فيقطعه على حرب بني إسرائيل لقبيلة بنيامين، مع أنّ بين هذا الحرب وبين موت صموئيل ـ بمقتضى تقويم أهل الكتاب ـ نحو ثلاثمائة وستّ وأربعين سنة. ولا أقلّ من أن يكمل التأريخ إلى حين تمليك شاول، ولا يقطعه قبل ذلك بنحو ثلاثمائة وعشرين سنة. وهذا كافٍ في نفي نسبته إلى صموئيل، فضلاً عمّا ذكرناه.

---

١. سفر القضاة ١٥: ٣ـ٦.

٢. الهداية ١: ١١١.

سفرا صموئيل

ورابعاً: لو أعرضنا عن جميع ماذكرناه في أسفار العهد القديم، لقلنا: يكفي كون المصنّف لكتاب صموئيل الأوّل مجهولاً؛ فيجوز أن يكون ممّن يجوز عليه أن يكون جاهلاً بقصّة طالوت وجيشه في ابتلائهم بالنهر. ولا تغترّ بتسمية الكتاب باسم صموئيل، فتقول: إنّه تصنيف صموئيل النبيّ، كما زعم المتكلّف جازماً به، قائلاً: «إنّ سفري صموئيل النبيّ نزلا عليه وهما معنونان باسمه»[١].

فإنّ هذا من الغلط الفاحش، وذلك لأنّ أوّل الأصحاح الخامس والعشرين من صموئيل الأوّل يذكر موت صموئيل النبيّ، واستمرّ بعد ذلك في سبعة أصحاحات يذكر الحوادث التي وقعت بعد موته إلى حين موت شاول. فكيف يكون الكتاب تصنيف صموئيل النبيّ؟!

وزد على ذلك أنّ سفر صموئيل الثاني كلّه في تأريخ ما وقع بعد وفاة صموئيل النبيّ بعدّة سنين. فاعتبر بهذا وتفطّن إلى أنّ بعض الناس لا يتحاشون عن الجزم بنسبة الكتاب إلى النبيّ، وإن خالف المعقول. ولله عليك بهذا حجّة.

[آيات في شأن داود النبيّ]

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[٢].

فذكر المتكلّف رواية بأنّ داود قضى بقضاء وخالفه سليمان، فعدل داود إلى قضاء سليمان. فاعترض المتكلّف على ذلك وقال:

> لا يعقل ولا يتصوّر أنّ سليمان كان يتعقّب أحكام والده، وكيف يرضى داود بتغيير الحكم أمام رعيّته؟![٣]

---

١. المصدر ٤: ١١٧.

٢. الأنبياء (٢١): ٧٨ ـ ٧٩.

٣. الهداية ٢: ٩١.

قلت: جاء في تفسير عليّ بن إبراهيم بسند صحيح معتمد، عن أبي عبدالله الصادق، وهو الإمام السادس من أهل البيت أحد الثقلين اللذين لن يفترقا، أنّ المتحاكمين في هذه الواقعة جاءا إلى داود فقال: «اذهبا إلى سليمان ليحكم بينكما». وأراد بذلك أن يعرف بنو إسرائيل أنّ سليمان وصيّه من بعده. فذهبا إلى سليمان فحكم بينهما، فكان حكم داود كذلك، ولم يختلفا، ولو اختلفا لقال الله تعالى: وكنّا لحكميهما شاهدين[1]، بتثنية الحكمين. فدلّ توحيد الحكم على أنّ ذلك الحكم الواحد هو حكمهما معاً.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾[2] فليس المراد منه تخصيص فهم الحكومة بسليمان دون داود، بل المراد بيان النعمة على سليمان بتفهيمه تلك الحكومة، حين لم يكن قد جاءته ـ كأبيه داود ـ نوبة النبوّة والسفارة الإلهيّة، وتسديد الإلهام في لوازم الرئاسة الدينيّة وفصل القضاء، بل كانت هذه النوبة لداود. وكلّ منهما قد حباه الله بهذه النوبة في وقته، وآتاه حكماً وعلماً مؤيّداً له في نوبته.

ثمّ نقول للمتكلّف الذي يقول: «إنّ كتب العهدين كلام الله السميع العليم»: كيف يقول: «لا يُعقَل ولا يتصوَّر أنّ سليمان كان يتعقّب أحكام والده»؟!

أيقول ذلك لأجل ورع سليمان وديانته؟ نعم وهو الورع الذي علم الله أهليّته للنبوّة، ولكنّ كتاب وحي المتكلّف يقول: «إنّ سليمان كان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة سرّيّة»[3]. وهذا محرّم في التوراة على الملك في إسرائيل[4]. ويقول: «إنّه ـ وحاشاه ـ ذهب وراء الأصنام وبنى لها المرتفعات وآثار العبادة»[5].

فمن كان يصدر منه هذا، فكيف لا يُعقَل ولا يُتَصوَّر أن يتعقّب أحكام والده؟!

---

١. تفسير القمّي ٢: ٤٨، ذيل الآيتين ٧٨ ـ ٧٩ من الأنبياء.

٢. الأنبياء (٢١): ٧٩.

٣. سفر الملوك الأوّل ١١: ٣.

٤. سفر التثنية ١٧: ١٤ ـ ١٨.

٥. سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ١١.

أم يقول المتكلّف: إنّ هيبة داود وسطوته كانت تمنع من ذلك، بحيث يكون ممّا لا يُعقَل ولا يُتَصوّر؟

قلنا: فإنّ كتاب الهامك يقول: «إنّ أبشالوم بن داود أيضاً فعل ما هو من هذا النحو وأعظم وأشنع»[١].

وأمّا قول المتكلّف: «وكيف يرضى داود بتغيير الحكم أمام رعيّته؟» فليس له أن يفصل القضيّة فيه بالإنكار ويقول: «كيف يرضى» بل عليه أن يردّد في كلامه ويقول: يبعد من داود عليه السلام أن يخطّئ نفسه ويعدل إلى حكم العدل، إن صحّ ما يذكره العهد القديم من فعله مع أُورِيّا وامرأته[٢]، وإغضائه عن ابنه أمنون وَما فعله بأُخته[٣]. وإغضائه عن أبشالوم ابنه وبكائه وجزعه عليه[٤].

مع ما أشرنا إليه من فعل أبشالوم. وينبغي لداود أن يعدل إلى حكم العدل ولا يبالي بتخطئة نفسه، إذا صحّ عنه ما ذكره العهد القديم عن قوله الإلهامي: «لأنّي حفظت طرق الربّ ولم أعصِ إلهي»[٥].

تسبيح الجبال والطير مع داود

واعترض المتكلّف أيضاً على قوله تعالى في الآية المتقدّمة: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[٦]. فقال:

إنّ الذي خصّ بالعقل والبيان والإعراب عمّا في الجنان، هو الإنسان فقط لا الجماد ولا الحيوان.

---

١. سفر صموئيل الثاني ١٥ ـ ١٨، و انظر من ذلك ١٦: ٢٠ ـ ٢٣.
٢. سفر صموئيل الثاني: ١١.
٣. سفر صموئيل الثاني: ١٣.
٤. سفر صموئيل الثاني ٨: ٢٩ ـ ٣٣.
٥. سفر صموئيل الثاني ٢٢: ٢٢؛ سفر المزامير ١٨: ٢١.
٦. الأنبياء (٢١): ٧٩.

وقال أيضاً:

إنّ الجبال والطير لم تسبّح ولن تسبّح، وإنّما لسان حالها ناطق بحكمة الله وقدرته وجودته[١].

قلت: قد جاء في الزبور الرائج: «تسبّحه السماوات والأرض والبحار وكلّ ما يدبّ فيها»[٢]. «يمجّدني حيوان الصحراء الذئاب وبنات النعام»[٣].

وفي المزمور المائة والثامن والأربعين ما ملخّصه:

سبّحيه أيّتها الشمس والقمر... والكواكب... وسماء السماوات والمياه التي فوق السماوات... والتنانين وكلّ اللجج. والنار والبرد والثلج والضباب... والجبال والآكام... والوحوش وكلّ البهائم والطيور... وملوك الأرض وكلّ الشعوب... والأحداث والعذارى والفتيان[٤].

وفي تاسع عشر لوقا: لمّا كان التلاميذ يسبّحون الله قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الربّ. فقال بعض الفرّيسيّين للمسيح: انتهر تلاميذك فقال لهم: أقول لكم: إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ[٥].

وإنّ مثل هذه الأُمور ليست بجميع أنحائها ممّا كانت المقدّمات البديهيّة تستلزم الحكم بامتناعها، ولا سبيل في ذلك حتّى للطبيعي؛ فإنّها يمكن أن تكون لها حقائق غيبيّة لا يمسّ الجحود الأعمى شرف إمكانها وحقيقتها، فإنّ من أودع في الأشياء قوّة ينشأ منها مثل التلغراف والفونغراف وسائر الآثار العجيبة، وأودع في الحيوان والإنسان ما نجده من القوى، لا يمتنع عليه ـ سواءً كان إله حقّ قادراً، أو طبيعة عمياء ـ أن يودع في الأشياء قوّة ينشأ عنها التسبيح وشبهه على نحو ممكن. ولكنّه لا يمكن اكتشاف

---

١. الهداية ٢: ١٠٥.

٢. سفر المزامير ٦٩: ٣٤.

٣. سفر إشَعْياء ٤٣: ٢٠.

٤. سفر المزامير ١٤٨: ٣ ـ ١٢.

٥. إنجيل لوقا ١٩: ٣٨ ـ ٤٠.

غيبه بقوى البشر العاديّة، إلّا برصد النبوّة وإعلان الوحي، كما لا تنكشف القوى الكهربائيّة والكيماويّة، إلّا بالخوض في حكمتها بالبحث ومزاولة التجربة.

وقد أخبرت كتب الوحي بهذه الحقيقة الغيبيّة، فليس لمن يقبل تلك الكتب أن يجحدها. بل إنّ الطبيعي الجاحد لكتب الوحي لا يصحّ في أُصوله فيما يشبه هذه الأُمور إلّا أن يقول: لم تثبت ولم يدلّ عليها دليل، أو لا سبيل إلى إثباتها وإن أمكن ثبوتها.

وقال الله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلاً يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فقال المتكلّف: «لم يُسمَع أنّ داود كان حدّاداً، وأنّ الله ألان له الحديد»[2].

قلت: لم يكن داود بهذه الكرامة حدّاداً، بل كان ملكاً نبيّاً حباه الله بهذه الكرامة: وإنّ بعض السلاطين العظام في هذا القرن من جملة كمالاته أنّه ممتاز في عمل النجارة، وربما يشرف أُمراءه من عناياته بصناديق صغار بديعة الصنعة للمحابر ونحوها، حيث تشرّفت بعنايته، فلا يقال لهذ الشخص الكبير: إنّه نجّار، فكذا لا يقول أحد: إنّ داود كان حدّاداً.

وأمّا أنّ الله ألان له الحديد فلا يسمع به سماعاً شافياً من أوقر التعصّب على القرآن أُذنيه. فمن أين يسمع المتكلّف ويذعن بذلك، والحال أنّ القرآن كلام الله عدوّه في تثليثه وطريقة تبشيره، وأنّ منقولات اليهود طالما يقول: إنّها خرافة؟ وأمّا منقولات العرب فهو يتصامم عنها. فلم يبق إلّا العهد القديم، وتأريخ الوثنيّين القدماء من الغربيّين.

أمّا العهد القديم فقد ذكرنا[3] لك قريباً أنّ سفري صموئيل الأوّل والثاني لا يمكن أن يكونا من كتابة صموئيل النبيّ؛ لأنّ أكثر ما ذكر في تأريخ شاول وداود في السفر الأوّل، وجميع تأريخ داود في السفر الثاني، إنّما كان بعد موت صموئيل النبيّ. فهما إذاً

---

١. سبأ (٣٤): ١٠ ـ ١١.

٢. الهداية ٢: ١٠٥.

٣. تقدّم في ص ٦٥٨.

كتابان نكرتان من أصلهما، فضلاً عن تلاعب الأيّام بهما وتعدُّد مواليدهما. فمن هـو كاتبهما حتّى يقال: كتب أو لم يكتب؟! ومع ذلك فهو مشغول بحكاية أمنون مع أُخته ثامار، وداود مع أُورِيّا وامرأته، وأبشالوم مع سراري أبيه. فالأنسب بـحال هـذين أن لا يذكرا مثل هذه الكرامة لداود.

وأمّا الغربيّون، فزيادة على وحشيّتهم العامّة في ذلك الزمان، لم تكن لهم علاقة مع الشرق ولا تردّد يذكر. وإنّما حدث التردّد والارتباط بعد ذلك لليونان والرومانيّين بعد قرون متطاولة تزيد على الستّمائة سنة. وزيادة على ذلك أنّ هذه الكرامة ممّا تنفر منه أُصول الوثنيّة، فلا يمكن أن تدخل في تأريخ الوثنيّين ولا تناسبه، بل لو وقفوا عليها لتصامموا عنها.

فهل تجد ذكراً في تأريخ الوثنيّين من المصريّين والغربيّين لمعجزات موسى الظاهرة بين أُلوف من الناس؟ فهل تجد ذكراً لشقّ البحر، وعبور بني إسرائيل من وسطه، والماء عن يمينهم ويسارهم، كما ذكرته التوراة؟

أم هل تجد ذكراً لحديث تعيّشهم من المنّ أربعين سنة في البرّ، ولم تبلُ في هذه المدّة ثيابهم ونعالهم؟[١]

وهل تجد ذكراً لحديث انفجار الماء من الصخرة معجزة لموسى بسبب ضربه لها بالعصا عن أمر الله، حتّى شرب بنو إسرائـيل وسـقوا إبـلهم وأنـعامهم، وهـم مـئات من الأُلوف؟

أم هل تجد في تأريخ الوثنيّين ذكراً لأعمال المسيح كما تذكره الأناجيل من إحياء الموتى وشفاء العمي والخرس والمرضى؟

كلّا، لا تجد شيئاً من ذلك. فإنّ الناس لا يكتبون شيئاً يناقض أُصولهم. بل إنّ كثيراً ممّن يقول بنبوّة موسى ووحي التوراة، قد خالف التوراة وأخرج حادثة شقّ البحر عن موضوعها الأصلي وكونها آية لموسى، بل جعلها من حادثة المدّ والجزر.

---

١. سفر التثنية ٢٩: ٥.

والمتكلّف أيضاً اعترض على القرآن في قوله: إنّ موسى ضرب الحجر فانفجرت منه المياه. وقال: «والصواب أنّ الصخرة انفجرت ماءً»[١].

[آيات في شأن سليمان]

وقال الله ـ جلّ اسمه ـ في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ❁ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾[٢].

فقال المتكلّف:

> لم يسمع أحد أنّ سليمان كان يطير عَلَى الرياح، وأنّه كان ينتقل من مكان إلى آخر في طرفة عين. ولم يسمع تليين النحاس له، أو أنّه كان بأرض اليمن، فإنّ سليمان كان في أُورشليم. وإنّ الذين بنوا الهيكل هم العملة لا الجنّ، فإنّ الجنّ اسم بلا مسمّى[٣].

قلت: إنّ غرض القرآن الكريم هو بيان النعمة على سليمان، والتكريم له بتسخير الريح لأمره، بحيث يكون غدوّها شهراً ورواحها شهراً. ومع عظيم هذه النعمة والكرامة، فلا مداخلة في هذا الغرض لبيان كيفيّة تسخير الريح، وكيف يتصرّف بها؟ ومن أين تغدو؟ وإلى أين تروح؟ وبأيّ شيء تجيء؟ وبأيّ شي ء تذهب؟ فإنّه لا مداخلة لذكر هذه الخصوصيّات إلّا في التأريخ المحض، الذي ليس من وظيفة القرآن الكريم.

وأمّا الأحاديث الآحاديّة المختلفة، فلا تكون حجّة قاطعة في تعيين مراد القرآن حتّى يقال فيه: كيف؟ ولماذا؟ ولا يلزم أن يكون تسخير الريح لسليمان من الحوادث التي يلزم أن يعلم بها كلّ أحد وتُسطَر في كلّ تأريخ، بل يجوز أن تكون تجري في

---

١. الهداية ٢: ١٦.

٢. سبأ (٣٤): ١٢ـ١٣.

٣. الهداية ٢: ١٠٥.

مقاصد سليمان حسب أمره، على نحو يحسب عامّة الناس أنّها تجري بهبوبها الطبيعي.

فإن قلت: لو كان لذلك أصل أو أثر، لذكرته كتب الوحي المتعرّضة لأحوال سليمان وتأريخه، من كتب العهد القديم، كسفر الملوك الأوّل وسفر الأيّام الثاني؛ فإنّ مثل ذلك بجميع أنحائه لا يخفى على الأنبياء، ولا ينبغي أن يهملوا ذكره.

قلت: إنّا نجاريك في أوّل الكلام على غِرّتك[١]، فنقول لك: إنّ سفر الملوك الأوّل صريح في أنّه لم يستوفِ تأريخ سليمان؛ لأنّه يقول في آخر تأريخه ما نصّه: وبقيّة أُمور سليمان وكلّ الذي صنعه وحكمته إمّا هي مكتوبة في سفر أُمور سليمان[٢]. ولا تقل: إنّ سفر أُمور سليمان المشار إليه، هو سفر الأيّام الثاني، وذلك لأنّ سفر الأيّام الثاني غير مختصّ بأُمور سليمان حتّى يسمّى بها، بل يذكر ملوك يهوذا من سليمان إلى سبي بابل. وأيضاً فإنّه لم يستوفِ ما ذكره سفر الملوك الأوّل في أُمور سليمان ولم يزد عليه بشيء[٣]. نعم قد يختلفان في شيء يُعدّ غلطاً على أحدهما أو كليهما في النقل، كما تخالفا في نقلهما لصلاة سليمان[٤].

والذي يزعم أنّ سفر الملوك الأوّل من كتب الوحي، فإنّه يتّجه عليه الاحتجاج من نفس السفر المذكور على أُمور. وهي أنّ النبيّ وكتاب الوحي قد لا يستوفي التأريخ. وأنّ سفر الملوك الأوّل لم يستوف تأريخ سليمان. وأنّ هناك كتاباً اسمه سفر أُمور سليمان فيه بقيّة أُمور سليمان وكلّ الذي صنعه. ولا شكّ أنّ هذا الكتاب غير موجود في كتب العهد القديم لا باسمه ولا بوصفه. فإذاً إنّ بقيّة أُمور سليمان وكلّ الذي صنعه غير مذكورة في كتب العهد القديم.

وأيضاً كيف يُدَّعى أنّ سفر الملوك الأوّل هو كتابة نبيّ عن الوحي. إذاً فليقل مدّعي ذلك أنّه كتابة أيّ نبيّ من الأنبياء؟ وإلى أيّ الأنبياء يوصله النقل المتواتر؟ أفلا ترى أنّه

---

١. الغِرّة: عدم التجربة، والغفلة. الصحاح ٢: ٧٦٨، «غ ر ر».

٢. سفر الملوك الأوّل ١١: ٤١.

٣. فانظر سفر الملوك الأوّل ٢: ١٢ و ١١: ٤١؛ سفر الأيّام الثاني: ١ ـ ٩.

٤. انظر سفر الملوك الأوّل ٨: ٥٠ ـ ٥٤؛ سفر الأيّام الثاني ٦: ٣٩ ـ ٤٢.

لم يجسر على تعيين كاتبه حتّى خبط العشواء. وغاية ما في مكابرات المتكلّف دعواه بأنّ سفري الملوك وسفري أخبار الأيّام كتابات جملة من الأنبياء[١]. ولعلّه يقول: والبرهان الشافي الكافي على ذلك هو اتّفاق الملوك الأوّل[٢] والأيّام الثاني[٣] على نسبة الحيرة إلى الله ـ جلّ شأنه ـ فيمن يغوي أخآب، حتّى اهتدى روح الكذب للرأي، فاستعان بقدرته وصواب رأيه. تعالى الله عمّا يقولون.

فلهفي على كتاب التأريخ إذا كان كذلك، فضلاً عن الكتاب الذي ينسب إلى الوحي. وقد ذكرنا لك في التصدير حال العهد القديم. ولأجل ذلك قد اشتغل سفر الملوك عن ذكر تسخير الريح لسليمان وأمثال ذلك من الكرامات بذكر شِركه ـ وحاشاه ـ في آخر عمره، وذهابه وراء آلهة أُخرى، وبنائه السواري والمرتفعات وشعائر العبادة للأوثان[٤].

فمن أين يسمع المتكلّف بتسخير الريح لسليمان؟ ومن أين يعلم بإسالة عين القطر؟ وكيف يهتدي لمراد القرآن الكريم من ذلك؟!

وأمّا تسخير الجنّ في عملهم لسليمان، فقد ذكرنا لك فيما تقدّم صراحة العهدين كثيراً بوجود ما يسمّيه القرآن جنّاً وجانّاً[٥]، على وجه تعرف أنّ الكتابي إذا أنكر ذلك فقد جحد كتابه واقتفى أثر دارون.

وإذا عرفت ذلك عرفت شَطَط المتكلّف في قوله: «إنّ الذين بنوا الهيكل هم العملة لا الجنّ» فإنّ القرآن الكريم لم يقل: إنّ الجنّ الذين بنوا الهيكل لم يكونوا عملة، بل قال: إنّ الجنّ كانوا عملة. ولم يقل: كان لكلّ واحد منهم سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان، لكي يعرف الناس أنّه من الجنّ لا من الإنس، بل كانوا على صور بني آدم، كما يقول العهد القديم: إنّ الملائكة جاؤوا إلى إبراهيم على صورة ثلاثة

---

١. فانظر الهداية ٤: ١١٧.
٢. الأصحاح ٢٢؛ العدد ٩ ـ ٢٣.
٣. الأصحاح ١٨؛ العدد ١٨ ـ ٢٢.
٤. فانظر سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ٩.
٥. تقدّم في ص ٥٢٩ ومابعدها.

رجال، فدعاهم لأن يستريحوا ويغسلوا أرجلهم ويسندوا قلوبهم بكسرة خبز، وعَمل لهم ضيافة وجلسوا تحت الشجرة وأكلوا[١].

وجاؤوا إلى لوط على صورة رجلين، فدعاهما إلى ضيافته وأكلا عنده، ولم يكن يعرف في أوّل الأمر أنّهما ملكان ولم يعرفهما قومه، بل استداروا بالبيت ليفعلوا معهما الفاحشة حسب عادتهم مع الناس، فساء ذلك لوطاً وصار يعمل التدابير في صرفهم عن ضيفه[٢]. وإنّ الملك جاء إلى منوح وامرأته بصورة رجل[٣]. فلا يعرف أنّ عملة سليمان كانوا من الجنّ إلّا من ناحية النبوّة والوحي.

وقال الله تعالى في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[٤].

فقال المتكلّف:

فالقرآن ناطق صراحةً بأنّ الطيور تَعقِل وتُدرِك وتتكلّم وتنطِق بِحِكَم يعجز عن الإتيان بمثلها العلماء من بني آدم، وهو غلط جسيم، فإنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ خصّ الإنسان فقط بالنطق والعقل والبيان.

وعليه فيكون سليمان كذب على النّاس والطيور، أو يكون ما نُسب إليه هو الكذب وهو الصواب.

وثانياً: هل كانت الطيور والحشرات في عصره تعقل وتدرك، ثمّ جرّدها الله من العقل الآن؟ قلنا: إنّها لا تزال واحدة كما كانت. فمن نسب إليها الإدراك هو الذي غلط.

وثالثاً: لم يكن لسليمان جنود من الجنّ، بل كانت جنوده من الأُمّة الإسرائيليّة

---

١. سفر التكوين ١٨: ١ ـ ٩.

٢. انظر سفر التكوين ١٩: ١ ـ ١٠.

٣. سفر القضاة ١٣: ١ ـ ١٧.

٤. النمل (٢٧): ١٦ ـ ١٧.

فقط. وتقدّم أنّه لا يوجد شيء يقال له: جنّ. وما نُسب إلى سليمان من معرفة لغة الطير هو من خرافات اليهود، فتوسّع فيها القرآن وخالَها حقائق واقعيّة، وهي خرافات وهميّة لا أصل لها [١].

قلنا: إنّا نشاهد أنّ الحيوانات تُصَوِّت عند مقاصدها وأحوالها بأنحاء مختلفة، تتفنّن فيها كمّاً وكيفاً ووضعاً. وإن كنّا في أغلبها لا نميّز لها حروفاً من حروفنا المألوفة. ولكن الوجدان والتتبّع شاهدان بأنّ كلّ من لا يعرف لغة، فأنّه لا يميّز حروفها إذا سمع من يتكلّم بها، بل يشذّ عن سمعه كثير من حروفها فيحسبها صوتاً مشتملاً على حرفين أو ثلاثة، وإن كانت في الحقيقة مشتملة على جميع أنواع الحروف؛ فإنّ العربي إذا سمع الزنجي - أو الهندي أو التركي أو الإنكليزي مثلاً - يتكلّم، لم يميّز من حروفه إلّا قليلاً، ويخفى بل يشتبه على سمعه أغلب منطوقها، مع أنّها الحروف الموجودة في اللغة العربيّة. ولكنّ اللهجة وغرابة اللغة، وجهل المعنى، تحول بين السمع وبين تمييز جميع الحروف بحدودها.

ولأجل ما ذكرناه اختلج في أذهان بعض الحكماء أن يرصدوا أصوات بعض الحيوانات، في مختلفات أحوالها ومقاصدها؛ لكي يعرفوا وضع لغاتها وحروفها. وأظنّ الذي صدّهم عن ذلك، أنّهم لم يتصوّروا لهذا العناء العظيم في المدّة الطويلة نتيجة تخرجه عن حدود العبث وتضييع الوقت.

والحاصل: أنّ الجزم بأنّ الحيوانات ليس لها في تفنّنها بأصواتها أوضاع تنطبق على مقاصدها، كما ينطبق كلام البشر على مقاصدهم، إنّما هو جزم لا يساعد عليه دليل ولا برهان.

ولا مشاحّة بأن يُدَّعى أنّ لغات الحيوانات أبسط من لغات البشر، كبساطة لغة الطفل في مبادئ نطقه مثلاً. وقد شاهدنا من الأطيار الببّغاء الأخضر والأسود، وهو يتكلّم بكلام البشر في موارد كثيرة تمرّن عليها، ووجدناه يستعملها معهم في بيان مقاصده.

هذا، وأمّا كون الحيوانات تدرك، فهو ممّا لا ينبغي أن يرتاب فيه ذو إدراك وإنّما

---

١. الهداية ٢: ٩٩ - ١٠٠.

الكلام في أنّ إدراكها هل هو محض شعور بالموارد الجزئيّة، وإن صدرت منها الأفعال العجيبة والأحوال الباهرة، من حيث الصناعات والحيل والذاكرة، أو أنّ هذه الإدراكات الجزئيّة ناشئة عن تعقّل للكلّيّات وتطبيقها على الموارد الجزئيّة؟ ولا سبيل إلى البرهان القاطع على أنّها لا تعقل الكلّيّات.

نعم، لا مشاحّة في دعوى كونها مهما بلغت أبسط من نوع البشر في أنحاء المعقول. وإن كان من البشر من لو حاكمته بعض الحيوانات وقالت له: بأيّ حقّ وبأيّ إنصاف أنّك تدّعي أنّك تعقل وأنّ الحيوانات لا تعقل؟ لضاق على العدل مجال الحكومة. أو حكم لها إذا شرحت له من أحواله وأقواله ما يزيد في السخافة على عبثيّات الجحش. وإنّك لترى في البرابرة المتوحّشين كثيراً من ذلك.

وإذا نظرت إلى حيل ابن آوى في كيفيّات صيده، وتخلّصه من أذى الناس وسائر الأذى، وإلى الهرّة في صيدها وتعليم أولادها، وإلى النحل في صناعة بيته وانتظام أمره، وإلى الأطيار في صناعة أعشاشها العجيبة، ومعرفتها بأوكارها القديمة، وإلى القرد في أفعاله وحيله في مقاصده، وتتبّعت في أحوال الحيوانات، فإنّك تقف قهراً عن الحكم بأنّها لا تعقل. وكيف تحكم وإنّ من منحك العاقليّة لا يمتنع عليه أن يمنحها إيّاها أيضاً كما منحها الشعور. فإن كان لك عقل فلا بدّ أن تقول: إنّ عاقليّتها في حيّز الإمكان، ولو لم يدلّ عليها دليل.

دع هذا فإنّا لو اقتصرنا فيها على الإدراك الشعوري، لجاز أن تكون متكلّمة بشعورها، وكاشفة عن مقاصدها وأحوالها بأصواتها، على أنحاء متمايزة مبنيّة على اصطلاحات خاصّة ودلالات كاشفة.

وإذا أوضح الوحي ذلك فلا مساغ لإنكاره. وإنّ من حرّمه سوء الحظّ بالإيمان بذلك الوحي، فليس له أن يطعن عليه في إخباره بهذا الأمر الممكن. ولم يقل القرآن الكريم: إنّ الطيور كانت تكلّم سليمان باللغة العربيّة أو الچيناويّة[1] فعلّمه الله لغتها، لكي يعترض

١. يريد اللغة الصينيّة.

المتكلّف ويقول: «إنّها الآن ليست كذلك، ولا تزال واحدة كما كانت».

وإن كان المعترض على قول القرآن كتابيّاً، فقد نزع نفسه من الإيمان بكتبه، فإنّ توراته تقول:

إنّ الحيّة كانت أحيل جميع الحيوانات البرّيّة... وكلّمت حوّاء بخداع المغالطة حتّى أغوتها وحملتها على الأكل من الشجرة. فقال الله للحيّة: لأنّك فعلت هذا ملعونة أنت... على بطنك تَسْعَين، وتراباً تأكلين كلّ أيّام حياتك... وإنّ نسل حوّاء يسحق رأسها وهي تسحق عقبه[1].

وفي عاشر متّى: «فكونوا حكماء كالحيّات»[2]. وفي الخامس والثلاثين من أيّوب: «الذي يعلّمنا أكثر من وحوش الأرض ويجعلنا أحكم من طيور السماء»[3]. وفي السابع عشر من الملوك الأوّل: «وكانت الغربان تأتي إيليّا بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساءً»[4].

فالعهدان يقولان: إنّ في الحيوان ماهو ذو حيل ومخادعة وتعقّل وكلام وكذب وحكمة، فأين المتكلّف عن هذا عند اعتراضه؟

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم واقعة الهدهد وملكة سبأ وعرشها ومجيئها إلى سليمان[5].

فقال المتكلّف:

وهذه الخرافة من الخرافات اليهوديّة ذكرت في كتبهم، ومن أُوتي ذرّة من التمييز لا يقبلها ولم يرسل سليمان عفريتاً من الجنّ وسرق عرشها، ولم يأت بأخبارها هدهد، ولا غير ذلك من الخرافات الفاحشة الدالّة على أنّ الهدهد أعلم من سليمان[6].

---

١. انظر سفر التكوين ٣: ١ ـ ١٦.
٢. العدد ١٦.
٣. العدد ١١.
٤. العدد ٦.
٥. راجع سورة النمل (٢٧): ٢٠ ـ ٤٥.
٦. الهداية ١: ١٠٠ و ١٠١.

قلت: ليس لمن يعرف قدره أن يحكم على الشيء بأنّه خرافة، حتّى يقيم البرهان على امتناعه عقلاً، كامتناع اجتماع النقيضين. وليس له أن يتشبّث بامتناعه العادي، إذا كانت واقعته مرتبطة بقدرة الله، وكرامته الخاصّة لأنبيائه وأوليائه، كما لا ينبغي أن يُعترض بمجرّد الاستبعاد والامتناع العادي، على ما يذكره العهدان في كرامات موسى وهارون ويوشع وإيليّا واليشع والمسيح وبطرس وبولس.

وإنّما للمعترض في المقام أن يطالب بمستنده، فإن كان كتاب الوحي فليطالب بسنده وحجّته، إن لم يسعده التوفيق على الطلب لذلك بنفسه؛ ليفوز بنعمة الإيمان وينجو من هلكة الجحود الأعمى. وليس له في قانون الأدب وشرف الإنسانيّة أن يجعل جهله الأعمى حجّة على الإنكار على كتاب الوحي.

وليس ممّا ذكره القرآن في هذا المقام شيء ممتنع عقلاً، ولا يلزم منه أن يكون الهدهد أعلم من سليمان مطلقاً، بل إنّ سليمان إنسان يجوز أن لا يعلم من البلاد مثل مَن شاهدها.

وإن أراد المتكلّف الخرافة التي تبطل بها دعوى كون الكتاب إلهاميّاً، فلينظر أقلّاً إلى ما تذكره التوراة الرائجة إذ تقول:

إنّ الله ـ جلّ شأنه وتعالى ـ صارع يعقوب إلى طلوع السحر. ولمّا رأى أنّه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حقّ فخذ يعقوب في مصارعته فقال له: أطلقني؛ لأنّه قد طلع السحر فقال يعقوب: لا أُطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يُدعَى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ـ أي يجاهد الله ـ لأنّك جاهدت مع الله ومع الناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني: باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ـ أي وجه الله ـ لأنّي نظرت الله وجهاً لوجه ونجّيت نفسي. وأشرقت له الشمس وهو يَخْمَعُ على فخذه[١]. وبقوّته جاهد الله[٢].

---

١. سفر التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣١.

٢. سفر هوشع ١٢: ٤.

فلسان حال التوراة الرائجة في منقولاتها يقول: لا تليق البركة ولا تهنأ إلّا ليعقوب، إذ لم يتحمّل فيها منّة وذلّة. فمرّةً أخذها من أبيه بغلبة المخادعة والكذب[١]. ومرّةً أخذها من الله ـ تعالى شأنه ـ بغلبة القوّة. ولعلّه لذا لا يسمح الكتابيّون بمثل هذه البركة لغير ذرّيّة يعقوب.

ولينظر المتكلّف إلى ما يذكره الملوك الأوّل[٢] والأيّام الثاني[٣] من:

أنّ الله ـ ع يهوه ـ جلّ اسمه جلس على كرسيّه وكلّ جند السماء وقوف عن يمينه ويساره فقال: من يغوي أخآب. فقال جند السماء: هذا هكذا وذاك هكذا ـ ولكن المقدّسون من جند السماء لم يهتدوا إلى الرأي ـ وخرج الروح ووقف أمام الله وقال: أنا أُغويه، فقال: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه، فقال: إنّك تغويه وتقدر فاخرج وافعل هكذا.

فماذا يقول المتكلّف في هذا؟ ولماذا لا يقول أقلّاً: إنّه يلزم من ذلك أن يكون روح الكذب أعرف بصواب الرأي وأقدر على رفع الحيرة؟

ولينظر المتكلّف إلى ما تذكره أناجيله[٤]. من أنّ المسيح بعد نزول الروح القدس عليه وامتلائه منه وصومه أربعين يوماً، جاءه إبليس ليغويه فأخذه من البرّيّة إلى أُورشليم، وأوقفه على جناح الهيكل. ثمّ أخذه أيضاً إلى جبل عال جدّاً وأراه جميع ممالك المسكونة ومجدها في لحظة من الزمان، وقال له: أُعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي.

ولماذا لا يقول المتكلّف: يلزم من ذلك أن يكون إبليس قادراً على التصرّف والتنقّل بأُقنوم الإله، والإله الذي توشّح الطبيعة البشريّة وهو أقدر منه على إراءته ممالك المسكونة بلحظة من الزمان؟

---

١. سفر التكوين ٢٧: ١ ـ ٣٧.
٢. الأصحاح ٢٢: ١٩ ـ ٢٣.
٣. الأصحاح ١٨: ١٨ ـ ٢٢.
٤. إنجيل متّى ٤: ١ ـ ١٠؛ إنجيل لوقا ٤: ١ ـ ١٠.

فإنّا نقول: إنّ إبليس يقلّ ويقصر عن أن يفعل مثل ذلك مع النبيّ الرسول.

وقد عرفت من جميع ما قدّمناه أنّ المتكلّف طالما تغريه طواياه باللجاج في الاعتراض على القرآن كلام الله، وهو لا يدري بما في كتبه. فمن ذلك اعتراضه على نقل القرآن الكريم لتسخير الشياطين لسليمان فقال:

إنّ الشياطين أرواح شرّيرة، لا شغل لها سوى الإفساد، ولا يُتَصوّر أنّ من كان دأبه هكذا يخترع الاختراعات التي تنفع[1].

قلت: إنّها وإن كانت من حيث طبعها كما ذكر، ولكنّها كانت في عملها لسليمان مسخّرة من الله له مقهورة على طاعته. كما تذكره الأناجيل أنّها كانت تطيع المسيح وتخاف منه كما ذكرنا بعضه فيما تقدّم في خلق الجنّ[2]. ويذكر العهد الجديد أنّها كانت تطيع التلاميذ وبولس[3].

ومن ذلك اعتراضه على ذكر القرآن الكريم تسخير الريح لسليمان؛ حيث قال ما حاصله: «لا يليق هذا بحكمة الله وقدرته، كأنّ الله أشرك سليمان في ملكه».

قلت: وهذا كلام من لا يعرف للشرك والتوحيد معنى؛ حيث جعل تأليه المسيح وتثليث الأقانيم توحيداً. وجعل نعمة الله على أوليائه بالكرامة شركاً مع الله في ملكه. وليت شعري ألم يسمع أقلّاً من أناجيله أنّ المسيح قال لتلاميذه:

لو كان لكم من الإيمان مثل حبّة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم[4].

«وكلّ شيء مستطاع للمؤمن»[5]، فلماذا يكون تسخير الريح لسليمان مشاركة لله في ملكه، ولا يكون هذا كذلك؟

---

١. الهداية ٢: ٩٧.

٢. تقدّم في ص ٥٢٩.

٣. إنجيل لوقا ١٠: ١٧؛ أعمال الرسل ٥: ١٦ و ٨: ٧ و ١٩: ١٢.

٤. إنجيل متّى ١٧: ٢٠؛ إنجيل مرقس ١١: ٢٣؛ إنجيل لوقا ١٧: ٦.

٥. إنجيل مرقس ٩: ٢٣.

[آية السحر وما أُنزل على هاروت وماروت]

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[١] الآية.

فاعترض المتكلّف[٢] على ذلك بوجوه:

أحدها: أنّه لم يكن في عهد سليمان شياطين يعلّمون الناس السحر.

قلت: لا ينبغي للكتابي المتّبع لكتبه أن ينكر وجود الشياطين، ولا ينبغي أن ينكر تصدّيهم لإضلال الناس وتعليمهم الضلال بكلّ نحو. أفلا ينظر المتكلّف أقلّاً إلى ما في العهد الجديد وقوله في الدجّال: «الذي مجيئه بعمل الشيطان بكلّ قوّة وبآيات وعجائب كاذبة»[٣].

على أنّه يجوز أن يراد من الشياطين شياطين الإنس، كما حكي عن المسيح أنّه قال لبطرس: «اذهب عنّي ياشيطان»[٤]. وسمّى يهوذا الاسطخريوطي شيطاناً[٥].

ثانيها: ادّعى أنّ مراد القرآن أنّ الله أنزل السحر على الملكين، فأخذ يقول: «حاشا للمولى أن يصنع عثرة لبني آدم بأن يقيم معلّمين خصوصيين لتعليم الناس الضلال».

قلت: لا يدلّ القرآن الكريم على أنّ المنزل على هاروت وماروت هو السحر الممحّض للضلال، بل إنّ سوق القرآن، وخصوص عطفه على السحر، ظاهرٌ في أنّه شيء مقابل للسحر، فيكون من الأسماء الفعّالة في الخير والشرّ. ولذا كان الملكان يحذّران من يعلّمانه ويقولان له: إنّما نحن بما عندنا فتنة وامتحان، فلا تكفر باستعمال

---

١. البقرة (٢): ١٠٢.

٢. الهداية ٢: ٢٠ـ٢٣.

٣. رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٩.

٤. إنجيل متّى ١٦: ٢٣.

٥. إنجيل يوحنّا ٦: ٧٠ـ ٧١.

ما نعلّمك في الشرّ، كما تفعل بالسكّين المعمولة لمنافع البيت فتستعملها في قتل النفوس المحترمة، وكالسموم المخلوقة للمنافع تستعملها في إهلاك النفوس. فيتعلّمون منهما ما يستعملونه بضلالهم في التفرقة بين المرء وزوجه، ولا يستعملونه في منافعهم. بل يتعلّمون ما يعقبهم الضرر بغوايتهم ولا ينفعهم، حيث رغبوا عن منافعه إلى اقتراح أهوائهم وضلالاتهم.

هذا هو مقتضى دلالة القرآن الكريم، ومقتضاه أنّ هاروت وماروت لم يكونا ضالّين ولا مضِلَّين. بل لا يعلّمان أحداً حتّى ينبّهانه على وجه الامتحان، ويحذّرانه عن الضلال والكفر، كما يحذّر بائع السموم لا ستعمالها في الأعمال الطبّيّة والكيماويّة ونحوها، عن استعمالها في إهلاك النفوس. وهذا ليس كصراحة كتب وحي المتكلّف بأنّ الله يمكّن النبيّ الكاذب والدجّال الداعين إلى الشرك، من المعجزات والأعاجيب والآيات، ليمتحن عباده[1].

وثالثها: زعمه أنّ عبارة القرآن تفيد أنّ الملائكة غير معصومين. وقال:

إنّ الملائكة هم معصومون عن الخطيئة؛ لأنّهم خدّام الله القائمون بطاعته وإنفاذ أمره.

قلت: قد قدّمنا أنّه لا دلالة في القرآن الكريم على الطعن في هاروت وماروت، بل ذكر أنّهما يؤدّبان الناس وينبّهانهم على مواقع الامتحان، ويحذّرانهم من الضلال والكفر. ولو عوّلنا على أخبار الآحاد، لما كان فيما ذكرته في شأنهما منافاة لعصمة الملائكة، فإنّها تذكر أنّهما خرجا عن عنوان الملائكة المعصومين، حيث رُكِّبت فيهما الشهوة الحيوانيّة.

ورابعها: أنّه لم يرد بأنّ اليهود نسبوا إلى سليمان الكفر.

قلت: إن لم ينسبوا له الكفر، فقد نسبته إليه الكتب التي يزعمون أنّها كتب الوحي[2]. والقرآن الكريم تعرّض لهذا الافتراء الباطل.

---

١. سفر التثنية ١٣: ١؛ إنجيل متّى ٢٤: ٢٤؛ إنجيل مرقس ١٣: ٢٢؛ رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٨ـ١٢.

٢. فانظر سفر الملوك الأوّل ١١: ٤ ـ ١١؛ سفر الملوك الثاني ٢٣: ١٣.

وخامسها: أنّ الملكين ظهرا ببابل، وسليمان في أُورشليم، فكأنّه ظنّ أنّ بابل هي أُورشليم.

قلنا: إذا قلت أنت: إنّ المتكلّف يعلّم في مصر بالتعاليم التي قرّرها المجمع النيقاوي، فهل تريد أنّ زمان المجمع وزمان المتكلّف واحد، وأنّ نيقية هي مصر؟ وهل لأحد أن يعترض عليك ويقول لك: لماذا تظنّ أن نيقية هي مصر؟ وماذا تقول لمن يعترض عليك بهذا الاعتراض؟

والمتكلّف لم يأت ببدع في إنكاره لما ذكره وحي القرآن الكريم في أحوال داود وسليمان، بل لو أنّ العهدين ذكراها مفصّلة، وأنّ سفر الملوك الأوّل لم يُحِلْ في بقيّة أُمور سليمان وكلّ الذي صنعه على سفر أُمور سليمان، وأنّ سفر سليمان كان موجوداً وهو يشرح هذه الأحوال، لكان للمتكلّف أُسوة واقتداء في إنكار ذلك بكثير من قومه الذين أنكروا كثيراً ممّا صرّح به العهدان كتب وحيهم.

وقد ذكرنا لك جملة من ذلك[1]، وأشرنا إلى الطوايا الباعثة على إنكار ذلك. ونزيد على ذلك في هذا المورد الأسباب المقتضية للمجاهرة بالتحامل والتعصّب على القرآن الكريم. فلا حاجة إلى تكرار حال العهدين في سندهما وكتبتهما، وابتلائهما بالتقلّب، وما شحنتهما به الأهواء، لكي تعلم أنّ عدم ذكرهما للحقائق لا يمسّ شرفها بمقدار ما يقذي العين، ولو فرضناهما كتب تواريخ معتبرة. كيف وهذه الحقائق ممّا لا يصل إليه ولا ينبئ عنه إلّا الوحي الذي لم يضعه الضلال، ولم تُبْلِه الحوادث، ولم يُشَوِّه كتابه التحريف والتبديل.

[آية يوم السبت]

وقال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ

١. تقدّم في ج ١، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾[١].

فقال المتكلّف ما ملخّصه:

أنّه حاشا لله أن يجرّب عباده على اقتراف المنكر، ويجعل الحيتان تأتي يوم السبت و لاتظهر في باقي الأيّام. قال يعقوب الرسول: إنّ الله لا يجرّب أحداً بالشرور ولكن كلّ واحد إذا يجرّب انجذب وانخدع من شهوته. وأنّ عقاب المولى لهم بمسخهم قردة وخنازير من الخرافات، ولا يوجد لذلك أثر في التوراة. والقرآن جرى في ذلك حسب مذهب الوثنيّين القائلين بالتناسخ[٢].

قلت: جاء في التوراة الرائجة: إذا قام في وسطك نبيّ أو حالِمٌ حلماً وأعطاك آية أو أُعجوبة. ولو حدثت الآية أو الأُعجوبة التي كلّمك عنها قائلاً لنذهب وراء آلهة أُخرى لم تعرفها وتعبدها. فلا تسمع لكلام ذلك النبيّ أو الحالم ذلك الحُلمَ لأنّ الربّ إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبّون الربّ إلهكم من كلّ قلوبكم وكلّ أنفسكم[٣].

وهذا الكلام يعطي أنّ امتحان الله وتجربته لعباده، قد يقع بإظهار الآية والأُعجوبة على يد الكاذب الداعي إلى الشرك، ويعطيه حجّة على ضلاله، كما يعطيها للنبيّ الصادق الداعي إلى الحقّ.

وفي العهد الجديد في حديث الدجّال:

الذي مجيئه بعمل الشيطان بكلّ قوّة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكلّ خديعة الإثم في الهالكين؛ لأنّهم لم يقبلوا محبّة الحقّ حتّى يخلصوا. ولأجل ذلك سَيُرسِل إليهم الله عمل الضلال حتّى يصدّقوا الكذب. لكي يُدانَ جميع الذين لم يصدّقوا الحقّ بل سُرُّوا بالإثم[٤].

---

١. الأعراف (٧): ١٦٣ و١٦٦.

٢. الهداية ٢: ١٧ و ٥٩.

٣. سفر التثنية ١٣: ١ ـ ٣.

٤. رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٩ ـ ١١.

ولا يخفى عليك أنّ مثل هذا لا يجوز على جلال الله ولطفه وعدله، فإنّه إذا جاز أن يُمَكِّن الله الدجّالَ أن يعمل بكلّ قوّة ويأتي بآيات وعجائب، فماذا تكون إذاً حجّة النبي الصادق المرسل من الله بدعوة الحقّ؟

وكيف يعذّب الله من يصدّق الدجّال؟

وبماذا يعلم أنّ هذا الذي أرسله الله هو عمل الضلال؟

أفلا يصحّ حينئذٍ ممّن صدّقه أن يقول: إنّ الدجّال قد جاء بمثل ما يجيء به الرسل من الحجّة الباهرة أو أكبر، فإن كان أُولئك صادقين، فالدجّال مثلهم أو أولى منهم بالصدق؛ لأنّ قوّاته وآياته وعجائبه إن لم تكن أكبر فهي مثل حججهم. وإن لم يكن هذا النحو حجّة فبماذا أعرف الصدق لكي يصحّ عقابي على عدم الإيمان به؟

وهكذا الكلام في الأنبياء الكذبة الذين ذكرت الأناجيل أنّهم يعطون آيات عظيمة وعجائب[1].

وهذا بخلاف تكثير السمك يوم السبت، فإنّه ليس فيه تمويه الضلال ببرهان الحقّ وحجّته، ولا فيه إغراء بالضلال. ألا ترى أنّ تكثير الزانيات في البلد وتكثير الخمر ليسا إغراءً بالزنى وشرب الخمر؟ وإنّما هو امتحان لصاحب الإيمان المستودع والتقوى الادّعائيّة، لكي يظهر غشّه ويبرز كامن فسقه وضلال ريائه. كما أنّه امتحان أيضاً لثابت الإيمان وصادق التقوى، ليظهر كماله في طاعته وتقواه، فيضاعَف أجره ويرتفع مقامه، كما امتحن الله إبراهيم بذبح ولده[2]. ولا شكّ أنّ كثرة الحيتان يوم السبت لا تميل بالنفس عن التقوى والطاعة، كالأمر بذبح الولد.

وأمّا تشبّث المتكلّف بما حكاه عن رسالة يعقوب، فهو واه من وجوه:

أحدها: أنّه كتابه، فليحتجّ به على نفسه وليفرح بذلك.

ثانيها: أنّه لو كان معناه كما يحاول لكان مناقضاً لما ذكرنا من كتبه؛ فإنّه إن كان تكثير السمك في السبت تجربةً بالشرّ، فالأمر بذبح الولد تجربة بشرٍّ

---

١. إنجيل متّى ٢٤: ٢٤؛ إنجيل مرقس ١٣: ٢٢.

٢. انظر سفر التكوين ٢٢: ١ ـ ١٩.

منه. وإعطاء القوّات والآيات والعجائب للمتنبّي والحالم والدجّال يكون تجربة بشرّ الشرور.

ثالثها: أنّ الذي في رسالة يعقوب لا يؤاتيه على مزاعمه؛ فإنّ معناه أنّ الذي صار غاوياً لا ينسب الإغواء إلى الله؛ لأنّ الله لا يُغْوِي أحداً، بل الخاطئ يَغْوَى إذا انجذب وانخدع من جهة شهوته ونفسه الأمّارة؛ فإنّ الشهوة إذا حبلت ولدت خطيئة[١]. انظر [رسالة يعقوب] فإنّ المتكلّف قد بتر منقوله وشوّشه.

وأمّا صيرورتهم قردة، فهو عبارة عن تحوّل صور أجسامهم إلى صور أجسام القردة، ومادّة الصورتين واحدة، وهو المسمّى في الاصطلاح بالمسخ. وهو مباين للتناسخ؛ فإنّ التناسخ عبارة عن تحوّل النفس وحدها، من جسم إلى جسم آخر مباين له في المادّة والصورة، وإنّ المسخ ممكن في قدرة الله، وقد ذكر العهدان وقوعه.

فقد ذكرت التوراة أنّ امرأة لوط صارت في آن واحد عمود ملح[٢]. وجاء في إنجيل لوقا عن قول المسيح في علامات القيامة ووقوع الهلاك كما في أيّام نوح ولوط:

> في ذلك اليوم من كان على السطح وأمتعته في البيت فلا ينزل ليأخذها، والذي في الحقل كذلك لا يرجع إلى الوراء. اذكروا امرأة لوط[٣].

إذا عرفت ذلك، فقد أخبر الوحي بوقوع هذا الأمر الممكن، فليس إنكاره إلّا الجحود. ولم يذكر القرآن الكريم أنّ هذه الحادثة وقعت في أيّام موسى، حتّى يعترض المتكلّف بكون التوراة الرائجة لم تذكرها. فإن أراد من التوراة مجموع العهد القديم، فقد عرفت ـ وتزداد يقيناً إن شاء الله ـ بأنّه لا بأس على الحقائق إذا خلا منها العهد القديم، فإنّ عذره في ذلك مقبول، كما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

---

١. انظر رسالة يعقوب ١: ١٣ ـ ١٦.
٢. سفر التكوين ١٩: ٢٦.
٣. إنجيل لوقا ١٧: ٣١ ـ ٣٢.

[رَجل أماته الله مائة عام ثمّ بعثه]

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

وللمتكلّف[٢] في مقام الاعتراض هاهنا عدّة أوهام:

الأوّل: روى عن مجاهد أنّ الرجل المذكور في الآية كان كافراً شكّ في البعث[٣]. فاعترض عليه بأنّ الله خاطب هذا الرجل بقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ والله تعالى لا يخاطب الكافر.

قلت: لماذا لا يخاطب الله الكافر في مقام الحجّة والموعظة والتوبيخ؟ وإنّ كتب المتكلّف تذكر أنّ الله تعالى خاطب الحيّة التي أغوت حوّاء[٤]. وخاطب أبي مالك ملك جرار[٥]. وخاطب الشيطان[٦].

الثاني: اعترض أيضاً بقوله تعالى: ﴿آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فقال: «وهذا اللفظ لا يستعمل في حقّ الكافر، وإنّما يستعمل في حقّ الأنبياء».

قلت: إنّ الله لم يقل له: قد أرسلتك رسولاً للناس، وجعلت لك هذه الآية حجّة مصدّقة لك على دعوى الرسالة. بل قال الله جلّ اسمه: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[٧]

---

١. البقرة (٢): ٢٥٩.

٢. الهداية ٢: ٣١ ـ ٣٢.

٣. البحر المحيط ٢: ٦٣٢، ذيل الآية، ونسبه للحسن.

٤. سفر التكوين ٣: ١٤ و ١٥.

٥. سفر التكوين ٢٠: ٣ ـ ٨.

٦. سفر أيّوب ١: ٧ ـ ٢: ٧.

٧. البقرة (٢): ٢٥٩.

وحجّة عليهم في أمر المعاد في القيامة. وإنّما سبيله في ذلك كسبيل ما يحكيه الإنجيل الرائج في قصّة انقلاب الماء خمراً، إذ قال فيه: «وهذه بدأة الآيات فعلها يسوع»[١].

أفيقول المتكلّف: إنّ الخمر المنقلب عن الماء كان نبيّاً لأنّه قيل فيه: آية، وإنّما يستعمل ذلك في حقّ الأنبياء؟ نعم لا يبعد فيه أن يقول.

الثالث: قوله: «لو كان لهذه القصّة أصل في كتب الوحي الإلهي لذكر اسم هذا الشخص».

قلت: وهذا الوهم ينحلّ إلى أوهام:

أحدها: يعرفه كلّ من مارس القرآن الكريم، وعرف منه أنّه لم يكن متّبعاً في مواعظ قصصه وحججها أحاديث العهدين ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢] كما اختلفت كتب العهد القديم في قصصها والأناجيل في منقولاتها.

وثانيها: أنّ من عرف من القرآن أنّه كتاب هدى وموعظة وحجّة وتمجيد للأنبياء والصالحين، لَيَعْرِف أنّه لم يتعلّق غرضه في قصصه إلّا بهذه الفوائد، فيقتصر في قصصه على ما يؤدّي هذه الأغراض الحميدة من دون فضول. وكلّ من له رشد يعلم أنّه ليس لذكر اسم الشخص هاهنا مداخلة في التذكير بالحجّة على المعاد، ولم يكن القرآن مجلّة تأريخيّة تنصّ على الأسماء حتّى على أسماء النساء، وحتّى في مقام الوقيعة والهتك لأعراض الأنبياء والأولياء.

ومع ذلك فإنّ العهدين مع طريقتهما، قد أهملا ذكر كثير من الأسماء في مقام التاريخ، الذي يكون بإهمالها مشوّهاً أبتر. فقد قالت في تاريخ ولادة موسى:

> وجاء رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي فحبلت المرأة وولدت ابناً ـ ووضعت الولد ـ ووقفت أُخته[٣].

---

١. إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١٢.

٢. النساء (٤): ٨٢.

٣. سفر الخروج ٢: ١ ـ ٥.

مع أنّ التاريخ والامتنان وبيان العناية والألطاف بموسى، ونفوذ المشيئة الإلهية، يوجب كلّ واحد منها النصّ على الأسماء ولكن لو كان وقيعة وهتكاً للأعراض لنصّ على الأسماء على العادة الجارية في العهدين.

وفي العهدين أيضاً في تاريخ يربعام: «وجاء رجل الله». «وقال رجل الله». وهكذا ١٥ مرة. وكان نبيّ شيخ. النبيّ الذي أرجعه النبيّ الشيخ[1]. وفي سيرة إيليّا: أمرت هناك امرأة رملة تعولك. وإذاً بامرأة أرملة. مرض ابن الأرملة. فرجعت نفس الولد[2].

وفي العهد الجديد:

أمّا يوحنّا فلمّا سمع في السجن بأعمال المسيح، أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر[3].

وإذاً ميّت محمول ابن وحيد لأُمّه وهي أرملة ـ فجلس الميّت وابتدأ يتكلّم فدفعه إلى أُمّه[4].

وقد ذكرنا عن العهدين في قصّة طالوت شطراً من هذا النحو. ومثله في العهدين كثير يطول بذكره الكلام.

وثالثها: أنّ كلّ فاهم وغبيّ يعلم أنّه لا بأس على كتاب الوحي إذا ذكر أمراً لم يذكر فيما قبله من الكتب المنسوبة إلى الوحي وإن كانت معافاة من الابتلاء، ولو تنبّه المتكلّف من نوم غفلته أو تعصّبه، لوافق على ذلك ولم يعترض. كيف لا، وقد ذكر في رسالة يهوذا مخاصمة ميخائيل رئيس الملائكة مع إبليس في جسد موسى عليه السلام[5]. مع أنّها لا يوجد لها أثر فيما تقدّم من كتب العهدين على رسالة يهوذا،

---

١. انظر سفر الملوك الأوّل ١٢.

٢. سفر الملوك الأوّل ١٧.

٣. إنجيل متّى ١١: ٢ و ٣؛ إنجيل لوقا ٧: ١٨ و ١٩.

٤. إنجيل لوقا ٧: ١٢ ـ ١٧.

٥. رسالة يهوذا ٩.

مع أنّ هذه المخاصمة أولى بالموعظة والإرشاد في الذكر، وأنسب بكتاب الوحي من ذكر ملاعب شمشون[١]، وحالات راعوث وفضائح الأنبياء وعائلاتهم. وأيضاً ذكر في رسالة يهوذا تنبّؤ أخنوخ[٢] ـ أي إدريس ـ وهو السابع من ولد آدم، مع أنّه لا يوجد له في الكتب قبل يهوذا عين ولا أثر. وهو أولى بالذكر من أكثر ما ذكر فيها.

والحاصل لا يخفى أنّه لا بأس على كتاب الوحي إذا ذكر شيئاً قد أهملته كتب الوحي الصحيحة، فضلاً عمّا كان دعيّاً في النسبة إلى الوحي، بل البأس كلّ البأس على الكتاب المنسوب إلى الوحي إذا ابتلي بما ذكرناه أو أشرنا إليه في الصدر والتمهيد، فراجع ذلك[٣]، وما ذكره إظهار الحقّ من بعض ابتلاءات كتب العهدين[٤].

ثمّ قال المتكلّف: «ومن تأمّل كتب الوحي الإلهي ـ أي التوراة والإنجيل والزبور ـ لا يجد فيها شيئاً من ذلك» وهي حكاية أبيمنيدس، وهو كاهن يوناني.

قلت: سنبدي لك إن شاء الله عذر العهدين في تركهما لمثل هذا، ونُعَرّفك مشغوليّتَهما بما هو أهمّ من ذلك في أغراض كَتَبَتِهما المتأخّرين. ولكنّ المتكلّف اشتهى أن يزيد في حجم كتابه بشيء من تأريخ اليونان وأبيمنيدس، فادّعى على القرآن الكريم بأنّ قصّته تتعلّق بحكاية أبيمنيدس[٥]. ثمّ لجّ في الانقياد إلى بواعثه، فادّعى أنّ رسول الله ﷺ جعل أبيمنيدس من الأنبياء[٦]. فيالهفاه على الصدق والأمانة والأدب!

---

١. سفر القضاة ١٤ ـ ١٧.
٢. رسالة يهوذا ١٤ و ١٥.
٣. تقدّم في ص ٤٧٢ ـ ٤٩٠.
٤. إظهار الحقّ ٣: ٦٤٥ فما بعد.
٥. الهداية ٢: ٣٢ و ٣٣.
٦. انظر المصدر: ١٠٢ و ١١٠.

[إحياء الله قوماً بعد أماتتهم]

وقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّـهَ لَـذُو فَـضْلٍ عَـلَى ٱلنَّـاسِ وَلَـٰكِـنَّ أَكْـثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

وإنّ طوايا المتكلّف وعوائده لتقتضي أن يقول في هذا المقام: «إنّ هذا من الخرافات التي لا تُعْقَل ولا تُتَصَوَّر»، ولكنّه أسكته عن ذلك امتلاء كتبه بكثرة إحياء الموتى في دار الدنيا. ولا تحسب أنّه يتضايق بما ذكر في العهد القديم، ولكنّه يراعي أغراضه فيما ذكره العهد الجديد.

أمّا ما في العهد القديم، فهو ما حصل على يد إيليا في إحياء ابن الأرملة[2]. ومع اليسع[3]. ومع حزقيال حيث تنبّأ على العظام المائلة للبقعة، فتقاربت وكُسِيت العصب واللحم والجلد، ودخلت فيهم الأرواح، فحيّوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدّاً جدّاً[4]. والأمر في ذلك عند المتكلّف سهل.

وأمّا ما ذكره العهد الجديد، فهو ما ذكرت الأناجيل حصوله على يد المسيح، ومن جملته حياة لعازر بعد دفنه بأربعة أيّام[5]. وأنّه عند حادثة الصليب تفتّحت القبور، وقام كثير من أجساد القدّيسين الراقدين وخرجوا من القبور، بعد قيامة المسيح ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا الكثيرين[6]. وأنّه حصلت الحياة للميتة على يد بطرس[7]. وحياة للميّت على يد بولس[8].

---

١. البقرة (٢): ٢٤٣.

٢. سفر الملوك الأوّل ١٧: ١٧ ـ ٢٤.

٣. سفر الملوك الثاني ٤: ١٩ ـ ٣٧.

٤. سفر حزقيال ٣٧: ١ ـ ١١.

٥. إنجيل يوحنّا ١١: ٣٩ ـ ٤٥.

٦. إنجيل متّى ٢٧: ٥٢ و ٥٣.

٧. أعمال الرسل ٩: ٣٦ ـ ٤٢.

٨. أعمال الرسل ٢٠: ٩ و ١٠.

فالمتكلّف لم يعترض على ما ذكره القرآن الكريم بما اعتاده من قوله: «خرافة. ولم يذكره أحد. ولا يُعقل. ولا يُتَصَوَّر». فلم يقل ذلك، لا ورعاً بل محافظة على ما ذكره العهد الجديد في الأناجيل وأعمال الرسل، كما أشرنا إليه.

ومع ذلك فقد أبت سجيّته إلّا أن يعترض. فذكر قول المفسّرين بأنّ هؤلاء هربوا من الطاعون، فأماتهم الله ثمّ أحياهم على يد حزقيل بن بوذي[١]. فكان أدب المتكلّف أن يقول في اعتراضه:

> ففي زمان حزقيال النبيّ لم يهرب عشرة آلاف من بني إسرائيل من الطاعون ـ كما قال القرآن ـ و أنّ الله أماتهم، وأنّ النبيّ حزقيال بعثهم من الموت[٢].

قلت: ولم يقل القرآن الكريم بأنّهم هربوا من الطاعون، ولكنّه قال: ﴿حَذَرَ ٱلمَوْتِ﴾[٣]. ولم يقل القرآن و المفسّرون: إنّهم من بني إسرائيل. ولم يقل القرآن والمفسّرون: إنّ حزقيال بعثهم من الموت. بل قاله المتكلّف بإلهام ذاك الروح المذكور[٤].

وهب أنّ القرآن أشار إلى قصّة حزقيال، فإنّ كتاب حزقيال ـ على ما في العهد القديم من أسباب الخلل ـ لم يقل: إنّ العظام المالئة للبقعة كانت عظام أموات، مات كلّ واحد في وقت منفرد. بل لو كانوا كذلك لتدافنوا، بل إنّ امتلاء البقعة بعظامهم يدلّ على أنّهم ماتوا دفعة واحدة فلم يتدافنوا. وفي كتاب حزقيال عن قول الله: «هلمّ يا روح من الرياح الأربع وهبّ على هؤلاء القتلى ليحيوا»[٥].

والمتكلّف حذف تسميتهم بالقتلى من منقوله، وذلك لأجل دلالة وصفهم بالقتلى على أنّهم ماتوا دفعة واحدة بسبب واحد. وأنّ الموت بالوباء والطاعون ونحوهما من البلايا ـ والعياذ بالله ـ يسمّى قتلاً[٦]. فينطبق ما في حزقيال على قول المفسّرين أحسن

---

١. البحر المحيط ٢: ٥٦١، ذيل الآية ٢٤٣ من البقرة.

٢. الهداية ٢: ٢٤ و ٢٥.

٣. البقرة (٢): ٢٤٣.

٤. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ٢٢؛ سفر الأيّام الثاني ١٨: ٢١.

٥. سفر حزقيال ٣٧: ٩.

٦. انظر سفر الخروج ٤: ٢٣.

انطباق. ولكنّ المتكلّف لمّا أراد أن يعترض على المفسّرين حذف لفظ «القتلى» ولعلّه قال في نفسه: ومن ذا يلتفت إليها؟

ثمّ إنّ المتكلّف بدّل ما ذكره حزقيال من إحياء العظام وقيام القتلى جيشاً عظيماً جدّاً جدّاً، وجعله «رؤيا»[1] والغاية منها إنعاش قلوب بني إسرائيل وإحياء آمالهم، وأنّ الإحياء الذي ذكره القرآن الكريم لا فائدة فيه ولا مصلحة.

قلت: لعلّ تعصّب المتكلّف على القرآن الكريم حمله على أن يتأوّل ما ذكر في حزقيال، ويجعله رؤيا مناميّة؛ لكي يقول: إنّ القرآن ذكرها على سبيل الحقيقة وهي غير ممكنة ولا معقولة، ولا بأس بها إذا كانت رؤيا خياليّة. فإن كان كذلك، فما عساه يقول بما ذكرناه عن متّى من تفتّح القبور وقيام كثير من أجساد القدّيسين، وخروجهم من القبور ودخولهم المدينة المقدّسة، وظهورهم لكثيرين؟ وكذا ما ذكرناه عن يوحنّا من حياة لعازر بعد أربعة أيّام من دفنه؟

ولعلّ المتكلّف تبعثه بعض الطوايا على إنكار حقيقة الجميع، ودعوى أنّ المعقول منه ما كان رؤيا خياليّة. فيقتفي بذلك أثر بعض المفسّرين المدقّقين حيث أنكروا حقيقة تكليم الأتان لبلعام، وجعلوها رؤيا خياليّة توهّم منها بلعام أنّ الأتان قد كلّمته، فراغموا بذلك صراحة التوراة ورسالة بطرس؟ كما ذكرناه في الجزء الأوّل[2].

أم تقول: إنّ المتكلّف سمّى واقعة حزقيال رؤيا، ولم يدر ما قال؟

وأمّا زعم المتكلّف أنّ الإحياء الذي ذكره حزقيال، فائدته إنعاش أفئدة بني إسرائيل، والإحياء الذي ذكره القرآن، لا فائدة منه ولا مصلحة فيه، فهو زعم من استولت الغفلة على مشاعره، فإنّه إذا جاز أن يحيي الله جيشاً عظيماً جدّاً جدّاً لأجل أن يسمع بنو إسرائيل بذلك من حزقيال فتنتعش أفئدتهم، فلماذا لا يجوز أن يحيي الله أُولئك الجيش لأجل التفضّل عليهم بالحياة، وإنعاشهم من البلاء؟ أفليسوا عباد الله؟ أفلا يدعوهم ذلك إلى الاطمئنان واليقين في الإيمان بالمعاد، ولا يحتاجون في أمر المعاد

---

١. الهداية ٢: ٢٥.

٢. تقدّم في الجزء الثاني ـ حسب تجزئتنا ـ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

إلى مثل الاحتجاج الذي تذكره الأناجيل؟[١] أفلا يؤدّي بهم ذلك إلى الاعتبار والارتداع والتوبة؟ أفلا يؤدّي بهم ذلك إلى شكر النعمة؟

أفلا تحسن نعمة الله على عباده إلّا لإنعاش أفئدة بني إسرائيل؟ وإنّ إنعاش أفئدة بني إسرائيل يحصل بإحياء رجل واحد نَصْبَ أعينهم، فيذكر لهم حزقيال البشارة عن الله. وأمّا في غيبتهم فلا يفيدهم إحياء أهل الدنيا، خصوصاً إذا كان المشاهد له حزقيال وحده؛ فإنّ بني إسرائيل مَن عرفتَ أحوالهم من العهد القديم، والمخبر لهم بالأمرين واحد وهو حزقيال، فإن لم يصدّقوه بالبشارة لم يصدّقوه بالإحياء، ولا يكون انفرادهُ بهذا الخبر إلّا كقول القائل: أنا الشاهد لنفسي.

ولكنّ المتكلّف كأنّه سمع من كتبه شواهد التبليغ في أحوال إشَعْياء وإرميا وحزقيال وهوشع، كما ذكرناه في الجزء الأوّل[٢]، فجعل المتكلّف هذا من ذاك، ولم يدر أنّ ذاك على ما به أهون من هذا.

[لقمان، شأنه وحكمته ووعظه]

وقال الله جلّ اسمه في سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

ثمّ وعظه بإقامة الصلاة ومكارم الأخلاق، كما ذكره الله جلّ شأنه[٤].

فقال المتكلّف:

> من تتبّع القرآن رأى محمّداً ﷺ لم يقتصر على جعل بعض فلاسفة اليونان الذين لم يعرفوا الإله الحقيقي من الأنبياء، كما في أبيمنيدس وتقدّم الكلام عليه، بل

١. انظر إلى الجزء الأوّل.

٢. تقدّم في ج ١، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

٣. لقمان (٣١): ١٢ ـ ١٣.

٤. من الآية ١٥ ـ ١٩.

سمّى بعض السور باسم بعض الفلاسفة، كما في سورة لقمان، ففي هذه السورة ادّعى أنّ الله آتى لقمان الحكمة، وأنّ لقمان حضّ ابنه على أن لا يشرك بالله. وهو من الغرائب، فإنّه لم يرد في كتب الوحي أنّ الله أوحى إلى لقمان، ولا إلى غيره من فلاسفة اليونان، بل الكتاب المقدّس قال: إنّهم لا يعرفون الإله الحقيقي، وإنّهم كانوا يستبيحون المنكرات، وكانت أذهانهم مظلمة، والقرآن جعله نبيّاً ورجلاً تقيّاً وواعظاً لابنه[1].

وقد قدّمنا لك أنّ دعوى المتكلّف في أبيمنيدس، إنّما هي ممّا غلب به الهوى على شرف الأمانة والأدب.

وأمّا تسمية السورة باسم لقمان، فلا دلالة لها على نبوّته ولا ربط لها بذلك؛ بل سُمِّيت باسمه للتسجيل على عنوان شأنه في توحيده وحكْمتِه وأخلاقه وموعظته، كما سمّيت بعض السور لأجل تسجيل العنوان والتذكير به، بسورة الكَهف والفيل، ونحو ذلك.

وأمّا أنّ الله آتى لقمان الحكْمة، وأنّ لقمان حضّ ابنه على أن لا يشرك بالله، فلا ألوم المتكلّف إذا ثقل ذلك على هواه، فإنّ من أوّليّات الحكمة الحقيقيّة وبديهيّاتها، هتافها بأنّ الواحد الحقيقي لا يكون ثلاثة مختلفة في الآثار والمشخّصات، وهذه الثلاثة لا تكون واحداً حقيقيّاً.

ومن أساسيّات الحكمة أنّها لا تقبل ما تحكم بداهة العقل بامتناعِه واستحالته.

ومن أساسيّاتها أيضاً أنّ الإله الغنيّ العادل القدّوس الرحيم الحكيم العليم اللطيف الخبير، لا يترك عباده هملاً فوضى من دون أن يجعل لهم من عنده قوانين تنتظم بها مدنيّتهم، وسياسات يستوسق بها اجتماعهم، ونواميس عمليّة ترقى بهم إلى معارج النواميس الروحيّة، وتحكم الرابطة بينهم وبين إلههم، فتكون لهم قياداً إلى الطاعة ورادعاً عن التمرّد، وطريقاً إلى الانقياد الروحي.

---

١. الهداية ٢: ١٠٢.

ومن أساسيّات الحكمة أيضاً أنّ الله تبارك اسمه لا يترك عباده هملاً، بدون أن يقيّدهم بزاجر الوعيد ويقين القصاص، ولا يدعهم يتردّدون في غيّهم آمنين. وأشدّ شيء تضادّه الحكمة وتقاومه بأوّليّاتها وأساسيّاتها، هو أماني الهوى، ومغالطة الشيطان بأنّ الله الواحد هو ثلاثة، تجسّد أحدهم على الأرض، وبعد ثلاثين سنة نزل عليه الآخر بشكل حمامة جسميّة، وبقي الثالث في السماء ليمهّد عمله في الفداء الذي بمغالطته يطلق سراح المتمرّدين، ويخرّب الشريعة المدنيّة السياسيّة المكمّلة المهذّبة ويلاشيها من مملكته. وذلك بأن يفدي الناس من لعنة الناموس، وقصاص خطاياهم بالموت في جهنّم النار.

ومرجع ذلك إلى إغراء الغواة بغرورهم وتأمينهم من وبال غيّهم.

فجعل الإله المتجسّدَ عرضة للإهانة والاضطهاد، بحيث كان يتّقي الضالّين في اليسير من تعليمه. ثمّ نبّأ قيافا رئيس الكهنة بأن يسعى في قتل ذلك الإله المتجسّد واضطهاده الشنيع مُلَقِّناً لقيافا في النبوّة بأنّه خير لهم أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأُمّة كلّها.

فجرى التصميم على قتل الإله المتجسّد، وإن استعفى واستقال من معاملة الفداء، وحزن واكتأب وصلّى وطلب أن تعبر عنه كأسه، ولكن لم يفده ذلك، بل قتل ومات يوماً وبعضي يومين. فتمّ العمل في قرار الفداء من قصاص الخطايا ولعنة الناموس.

وبعد ذلك أُرسلت الرسل ليعلنوا بتمام قرار الفداء، فهتف واحد منهم بإلهامه: المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار ـ وحاشاه ـ لعنةً من أجلنا [١]. ولسنا بعد تحت مؤدّب [٢]. وقد تقدّم هذا متفرّقاً في الجزء الأوّل.

وإذا كانت الحكمة تقاوم هذا كلّه وتضادّه، قالت الكتب المنسوبة إلى الوحي:

لِأُبشِّر. لا بحكمة كلام لئلّا يتعطّل صليب المسيح... لأنّه إذ كان العالم في حكمة

---

١. الرسالة إلى أهل غلاطية ٣: ١٣.

٢. الرسالة إلى أهل غلاطية ٣: ٢٥.

[الله] لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكـرازة... لأن جهالة الله أحكم من حكمة الناس، وضعف الله أقوى من الناس[١].

وزاد المتكلّف في تلمّذه على هذا التعليم، فبشّر بالتناقض وقال: «نعم لا ننكر أنّ تجسّد الكلمة الأزليّة هو فوق عقولنا، ولكنّه موافق للعقل»[٢].

ثمّ عقد فصلاً لعجز العقل عن إدراك صفات الله، وأسرار حكمته، وحقيقة الروح[٣]. فتوهّم أنّ هذا يُروِّج عند الناس عزلَ العقل عن بديهيّات أحكامه، وأساسيّات قوانينه في الممكن والممتنع. لكي يتمّ للمتكلّف الأمر في كلّ وساوس أهوائه.

وسوف نتعرّض لذلك إن شاء الله تفصيلاً.

وأنّ كلّ من منحه الله شيئاً من العقل، ليعرف أنّ العقل هو الدليل على الله ورسـله وكتبه، وهو النور الذي يستضاء به في معرفة الممكن والممتنع، وأنّه وإن حُجِب عـن أشياء قد استأثر الله بعلمها، ولكنّه لا يعشو عن مشارق نورانـيّته إلّا مـن ران الهـوى على بصيرته.

وليت شعري إنّ إنجيله يقول: إنّ من يزعمه أُقنوم الابن والإله المتجسّد والكـلمة التي هي الله لا يعلم من أمر الساعة ما يعلمه أُقنوم الأب[٤].

فلماذا لا يقول المتكلّف: لا أعتني بأحكام أُقنوم الابن وعلومه، لأنّه لا يـعلم مـا يعلمه أُقنوم الأب، كما لم يعتن ببديهيّات العقل وأساسيّات أحكامه، مـتشبّثاً بـأنّ الله حجبه عن بعض المعلومات مثل الوصول إلى حقيقة الروح؟

وليت شعري لماذا يستغرب المتكلّف وينكر أن يكون في اليونانيّين من يوحّد الله، وينهى عن الشرك به، ويعلّم بمكارم الأخلاق؟ أفيدّعي أنّ كلّ اليونانيّين في أجيالهم يقولون في بعض البشر: إنّهم آلهة وأولاد الإله قد تجسّدوا واتّحد لاهوتهم بناسوتهم.

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١: ١٧ ـ ٢٤.

٢. الهداية ٤: ١٥٩.

٣. المصدر: ٢٥٨ ـ ٢٦٦.

٤. إنجيل مرقس ١٣: ٣٢.

فالواحد منهم إله وإنسان حقيقيّان. وربّما ولد بعضهم من عذراء؟

أفلم يكن توحيد الإله وتنزيهه عن مثل هذه الخرافات الباطلة موجوداً في العالم؟ كيف وتوراته تقول: «إنّه من زمان شيث: ابتُدِئ أن يدعى باسم الربّ»[١]؟ وتقويم توراته العبرانيّة يحتمل أن يكون إبراهيم قد أدرك سنين عديدة من حياة نوح، كما زعمه المتكلّف[٢]. وعليه فتكون دعوة التوحيد من الأنبياء مستمرّة أو قريبة من الاستمرار أفلا يمكن أن تسري روحها في أرجاء الأرض، ويشرق نورها على من له عقل يعرف به سخافة القول بتجسّد الإله؟ إذاً فمن أين كان ملكي صادوق ـ وهو في فلسطين دار الشرك ـ كاهناً لله العليّ؟[٣]

فهل يقول المتكلّف: إنّ العقل لا يمكن له أن يغلب الهوى، فيهدي إلى توحيد الله ويرشد إلى الصلاح ومكارم الأخلاق؟ وإنّ الأنبياء الكرام لم ينشروا الدعوة إلى ذلك؟

وحقيقة الأمر أنّ العقل الحاكم بعدل الله وغناه وحكمته وقدسه ورحمته ولطفه، ليحكم بأنّ الله تبارك اسمه لا يخلي الأرض من داع إلى توحيده وتقديسه، وهادٍ إلى وسائل القرب من حضرته، ومرشد إلى نواميس الصلاح وقوانين الشريعة المتكفّلة بصلاح البشر وإصلاح أمرهم لآخرتهم ودنياهم.

ولكنّ المتكلّف لابدّ أن يجعل هذا من الخرافات، ويقول: إنّ الله جلّ اسمه لم يلطف ويرحم بالشريعة إلّا بني إسرائيل، ولم يبيّن حقيقة التثليث إلّا للنصارى، ولكن حينما أطلقهم من قيود الشريعة، وفداهم من لعنة الناموس.

وكيف قال: فإنّا نجد في هذا القرن كثيراً من عرفاء النصارى من أشرق نور التوحيد الحقيقي على عقولهم، فتجنّبوا أغاليط التثليث ومخادعات الفداء. ومنهم من بقي في الظاهر على النصرانيّة كالكونت تولستوي وأتباعه المحتفلين بتعليمه في أشتات البلاد،

١. سفر التكوين ٤: ٢٦.
٢. الهداية ٢: ٢١٧.
٣. سفر التكوين ١٤: ١٩.

ومنهم من حظي بهدى الإسلام وعَبَدَ الله به، ومنهم من يعترف بحقيقة التوحيد وحقّ الإسلام، ولكنّه تمرّد على نواميسه بأُلفة الراحة واعتياد الهوى على الاستراحة من النواميس الإلهيّة.

ولئن استغرب المتكلّف من القرآن الكريم ذكره لما لم تذكره كتب العهدين، كذكره لما أكرم الله به داود و سليمان، وذكره لموت رجل مائة عام ثمّ أحياه الله، وكذكره للقمان وحكمته وتوحيده ووعظه؛ فإنّ ذلك لا يعود بالسؤال على القرآن الكريم، ولا على الحقائق الثابتة، بل يعود بالسؤال على كتب العهدين، إلّا أن تعتذر بلسان حالها وتقول: إنّها صنفان: صنف لا تعرف النبوّة اسمه ولا مسمّاه، وصنف لم تبق له دواهي الأيّام، إلّا بقايا أسماء، تستعار للمسمّيات التي اختلفت عليها الموارد والمصادر، وتقلّبت بها الأحوال والنشآت.

وهي بصنفيها قد صرفت وجهها عواصف الأهواء، ووجّهت عنايتها إلى ما شحنت به أرجاءها من عظائم المصائب.

فتارةً تنادي بتعدّد الآلهة والأرباب، وتارة تؤلّه البشر.

وتارةً تصف الله جلّ شأنه بالعجز والحيرة والمشاورة مع جند السماء في بعض التدابير، حتّى كان روح الكذب هو الموفّق لإصابة الرأي.

وتارةً تصف الأنبياء بالشكّ في قدرة الله، وسوء الأدب في خطابه، والاستعفاء من رسالته، ونسبته إلى الظلم والجور، وكونه ـ جلّ شأنه ـ خدّاعاً. تعالى الله عن ذلك.

وتارةً تصف الأنبياء بالفسق والفجور والشرك وشرب الخمر.

وتارةً تبسط قولها وتطيل شرحها في نسبتها إلى الأنبياء وعائلاتهم أقبح الفواحش والدنس في العرض.

وتارةً تنسب إلى الأنبياء المخادَعة بالكذب، وخلاعة الجنون في التبليغ. وتنسب تلك السخافات إلى أمر الله جلّ شأنه .

وتارةً تصف المسيح بكونه ـ وحاشاه ـ شِرّيب خمر، وترميه بالقول بتعدّد الآلهة والأرباب، وبالكذب، وبالعقوق لوالدته والقدح بإيمانها. وترميه أيضاً بمنافيات العفّة

والقداسة. وتنسب له الاحتجاجات الواهية، والتناقض بين الأقوال، وبين الأقوال والأفعال. وترمي تلاميذه بالشيطنة وغلظ القلوب، وعدم الإيمان، والشكّ في المسيح، وخذلانهم له وهربهم عنه.

وتارةً تقضي شطراً منها في ملاشاة الشريعة والذمّ لها وعيبها.

وتارةً تقضي شطراً كبيراً في صنعة خيمة الاجتماع، وثياب هارون، وصيدلة البرص، وملاعب شمشون وشؤونه مع الكنعانيّات.

وإن أردت أن تدقّق أعملت تدقيقها في نسب فارص بن يهوذا المنتهي إلى داود ثمّ إلى المسيح، وفي نسب يفتاح. ونصّت في نسب المسيح على ذكر بعض الأُمّهات، إشارة إلى أحوالها المذكورة فيما سلف، مع أنّها أهملت ذكر جملة من الآباء.

ثمّ جاء بعض المتّبعين لهذه الكتب من المفسّرين المدقّقين، فأنكروا قصّة بلعام المذكورة بثلاث فصول طويلة من التوراة، وجعلوها دخيلةً لا أصل لها. وجعلوا تكلّم أتان بلعام وَهماً من طائف الأحلام. وعمد جملة أيضاً إلى شطر كبير من الأناجيل وباقي العهد الجديد، ممّا فيها من معجزات المسيح وتلاميذه في شؤون الأرواح النجسة، فجعلوها من الكذب مداهنةً ومجاراةً لغلط الأوهام.

ويسري هذا أيضاً إلى شطر كبير من العهد القديم.

ومع ذلك فقد جعلها التلاعب تتكافح في مكرّرات قصصها بالتناقض والاختلاف، بل صارت نسخها العبرانيّة والسامريّة والسبعينيّة تتكافح بالاختلاف في الأسماء والأجيال والتأريخ، وبالزيادة والنقصان.

وجاء كَتَبَتُها فانتقدوا عليها بزيادة الكلمات والحروف ونقصهما غلطاً، وتبديل الحروف والخبط فيها.

وجاءت المجامع فتحكّمت فيها بالردّ والقبول.

وجاء مفسّروها فوصموها بالنقصان والإلحاق.

وجاء الطابعون لها فاضطربوا فيها بالتبديل والنفي والإلصاق.

أفلا تجد من ذلك كلّه عذراً لها فيما أغفلته من الحقائق؟

[ذو القرنين]

وقال الله جلّ اسمه في سورة الكهف في قصّة ذي القرنين: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[١].

فاعترض المتكلّف على ذلك بما حاصله أنّ القرآن قد جعل إسكندر نبيّاً؛ لأنّ الله لا يخاطب إلّا نبيّاً، مع أنّه كان ملكاً سفّاكاً للدماء[٢].

قلنا: أوّلاً: ليس في القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ ذا القرنين هو الإسكندر الرومي المكدوني. ومن أين للمتكلّف هذا التحكّم؟ فإن أخذه من أقوال بعض الناس، فإنّ كثيراً من الناس من قال بخلافه؛ فإنّ أبا الفداء والبيروني وغيرهما قالوا: إنّه الصعب بن الرائش[٣]. وقال بعض: إنّ اسمه عيّاش. وقال بعض: عبدالله بن الضحّاك[٤]. وهب أنّ الجميع لاحجّة فيه. ولكنّه يكشف عن سوء تحكّم المتكلّف وتقوّله على القرآن الكريم.

وثانياً: يمكن أن يراد من القول الإلقاء في الفكر والتأمّل في النظر، أو القول له بواسطة نبيّ يبلغه. وقد جاء في العهد القديم: وكلّم الله مَنَسَّى وشعبه فلم يصغوا[٥].

وثالثاً: قد ذكرنا عن كتب وحي المتكلّف صراحتها بأنّ الله خاطب الحيّة التي أغوت حوّاء. وخاطب قايين وأبي مالك والشيطان. وتذكر أيضاً أنّه جلّ اسمه خاطب حوّاء[٦]. فإن كان المتكلّف يسمح لهؤلاء بالنبوّة، فلماذا يبخل بها على الإسكندر المكدوني؟ وحتّى متّى يعترض وهو لايدري بما في كتبه، أو يدري ويتغافل؟ فهل هو عدوّ نفسه!

ورابعاً: إنّ سفك الدماء لا يمنع من النبوّة إذا كان لأجل إحقاق الحقّ وقطع

---

١. الكهف (١٨): ٨٦.

٢. الهداية ٢: ٩١.

٣. المختصر في أخبار البشر ١: ٤٥؛ الآثار الباقية عن القرون الخالية: ٤٠.

٤. ذكر القولين أبو الريحان البيروني في الآثار الباقية: ٤٠.

٥. سفر الأيّام الثاني ٣٣: ١٠.

٦. سفر التكوين ٣: ١٣ و ١٦.

فساد الشرك والجور، بل وكتب وحي المتكلّف تفصح أنّه لا يمنع من النبوّة حتّى إذا كان لأجل امتلاك الأرض واستلابها وسلطة الملك؛ فإنّ مقتضاها أنّ من أعظم السفّاكين للدماء ـ حتّى دماء النساء والأطفال والبهائم ـ جماعة من الأنبياء المقدّسين، وهم موسى ويشوع وداودﷺ. فانظر أقلّاً [سفر العدد و...][1] وقل للمتكلّف:

فإن كنتَ لا تدري فتلكَ مصيبةٌ		وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ[2]

ثمّ اعترض المتكلّف على ذكر السدّ في سورة الكهف[3] وجعله من خرافات الوثنيّين الوهميّة[4].

وقال المتعرّب:

إنّ الإسكندر لم يبلغ تلك البلاد قطّ، وإنّ سور الصين متأخّر عن زمان الإسكندر بزهاء مائة سنة. فإن قالوا: إنّ القرآن أراد بذي القرنين الصعب بن الرائش ـ كما ذكره أبو الفداء والبيروني ـ قلنا: إنّ الصعب المذكور متأخّر عن بناء السور بأكثر من مائة وعشرين سنة، وذلك بحسب أصحّ تقاويمهم[5].

قلنا: هب أنّ بعض التواريخ المختلفة قد خالف نصّ القرآن الكريم، ولكن لا يصحّ لمن يعرف قدره أن يعترض على القرآن الكريم بما يخالفه من التواريخ المختلفة المضطربة، ولو لم يوافقه بعضها. فقد بيّنّا ذلك وأوضحناه في تتمّة الصدر والتمهيد من هذا الجزء[6]. وبيّنّا فيه وجه العيب التأريخي في الكتاب المنسوب إلى الوحي، وأشرنا إلى الكتب التي ابتليت بذلك[7].

---

١. فانظر سفر العدد ٣١: ٧ـ ١٩؛ سفر يشوع ٦ ـ ١٢؛ سفر الأيّام الأوّل ٢٢: ٨.
٢. لم أجد البيت على كثرة تفتيشي في المصادر التي بين يدي.
٣. في الآية ٩٢ ـ ٩٧.
٤. الهداية ٢: ٩٢.
٥. ذيل مقالة في الإسلام: ٥١.
٦. تقدّم في ص ٤٩٠.
٧. تقدّم في ص ٤٩٩.

[شأن زكريّا]

وقال الله تعالى في سورة مريم حكاية عن زكريّا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[1].

فاعترض المتكلّف وقال:

وكتاب الله يعلّمنا أنّ زكريّا وامرأته كانا بارّين، وسلّما الأمر لله، ولم يخشيا من وارث ولا غيره[2].

قلت: إنّ إنجيل لوقا المتعرّض لذكر زكريّا، يدلّ بأوضح دلالة على أنّ زكريّا طلب من الله الولد، حيث يذكر أنّ الملاك قال لزكريّا: «لا تخف يا زكريّا لأنّ طلبتك قد سُمِعَت وامرأتُك ألِيصابات ستلد لك ابناً وتسمّيه يوحنّا»[3]. وقول الملاك: «لا تخف لأنّ طلبتك قد سمعت» إلى آخره، صريح ـ أو كالصريح ـ في أنّ زكريّا كان خائفاً من أمر يرتفع الخوف منه بإجابة طلبته وإعطائه الولد، وإلّا فلا معنى للتعليل.

وهذا من نحو المعنى الذي ذكره القرآن الكريم إن لم يكن هو بعينه. ولكنّ المتكلّف إن كان ينظر في كتبه اتّفاقاً، فإنّ تحامله على القرآن الكريم يحول بينه وبين واضحاتها، ولا يضرّ بذلك إلّا نفسه.

وإنّ القرآن الكريم لم يقل: إنّ زكريّا وامرأته لم يكونا بارّين. بل وصف زكريّا بصفات الأبرار، ولم يذكر في حقّه أنّه قال لله: لماذا أسأت؟ أرسل بيد من ترسل وإلّا فامحني من كتابك. أو أنّه صنع العجل إلهاً يعبده بنو إسرائيل وبنى مذبحاً أمامه. أو أنّه زنى بالمحصنة من نساء أصحابه، وحاول أن يلصق حملها منه بزوجها المسكين، ثمّ

---

١. مريم (١٩): ٥ ـ ٦.

٢. الهداية ٢: ٩٢.

٣. إنجيل لوقا ١: ١٣.

سعى في قتل زوجها و تزوّجها. أو أنّه ذهب وراء آلهةٍ أُخرى، و بنى المرتفعات والسواري للأوثان. أو أنّه قال لله: حقّاً إنّك خدّاعاً. أو ... .

بل حكى القرآن عن زكريّا قوله: إنّي خفت الموالي فهب لي من لدنك وليّاً يرثني.

ولعلّه كانت له مداخلات ماليّة، يخاف من مواليه أن لا ينجزوها على حقّها إذا اغتنموا ميراثه، فطلب الولد ليكون هو وليّه الذي ينجزها على حقّها؛ فإنّ الاعتبار والتجربة شاهدان على أنّ الولد أقرب لتنجيز مهمّات والده في وجوه أمواله، وقد طلب زكريّا من الله أن يجعل ولده رضيّاً.

أو لأنّ مواليه كانوا من الكهنة الذين طالما ذمّهم العهد الجديد. وكان زكريّا يأمرهم بالمعروف وأداء حقّ الكهنوت وحفظ الشريعة واحترام بيت الله، فخافهم أن ينقلبوا من ورائه ويعودوا إلى سجاياهم، فطلب من الله وليّاً وولداً رضيّاً يرثه في هداه ووعظه لقومه وأداء وظيفة الهدى.

وهب أنّ القرآن الكريم قال: إنّ زكريّا طلب الولد لمجرّد المحافظة على أن لا يرث مواليه أمواله، فليس للكتابي أن يتفوّه بالاعتراض على ذلك، ويجعله خطيئة ينزّه منها زكريّا؛ فإنّ زكريّا مهما كان، لا يكون أكملَ ولا أبرّ ولا أعرف من إبراهيم خليل الله. وهذه توراتهم تفصح عن أنّه جرى من إبراهيم في الحرص على الإرث ما هو أشدّ من هذا، حيث ذكرت أنّ الله جلّ اسمه قال لإبراهيم:

> لا تخف يا أبرام أنا تُرسٌ لك أجرك كثيرٌ جدّاً. فقال أبرام: أيّها السيّد الربّ ماذا تعطيني وابن ملك بيتي هو أليعازر الدمشقي. وقال أبرام: إنّك لم تعطني نسلاً وهو ذا ابنُ بيتي وارثٌ لي[1].

ودع عنك ما في الكلام من الردّ على الله، واحتقار عطاياه وأجره الكثير الموعود به، ممّا عدا الولد الوارث للمال، حتّى العطاء والأجر الكثير جدّاً في الآخرة.

---

١. سفر التكوين ١٥: ١ ـ ٣.

[شأن مريم أُمّ المسيح عليها السلام]

وقال الله تعالى في سورة آل عمران في شأن مريم أُمّ المسيح عليها السلام: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فأنكر المتكلّف أنّ زكريّا كان يكفل مريم، متشبّثاً لإنكاره ذلك بأنّها كانت بنت هالي أو عالي من نسل داود. وأنكر على القرآن الكريم لأجل قول المفسّرين بأنّ الله تبارك شأنه كان يأتيها بفاكهة الجنّة، متشبّثاً بدعوى أنّ الجنّة ليست محلّ أكل و شرب، بل هي محلّ التسبيح والتقديس، وكلّ تنعّماتها روحيّة. واستند في ذلك إلى دعوى قول المسيح إجمالاً، ولم يذكره ولم يُشِر إلى محلّه. ثمّ قال: «إنّ هذه الأقوال مأخوذة من خرافات المسيحيّين»[2].

قلت: إنّ إنجيل المتكلّف يصرّح بأنّ امرأة زكريّا كانت من بنات هارون، وأنّها نسيبة مريم، أي شريكتها في النسب[3]. ومقتضاه أنّ مريم هي من بنات هارون أيضاً؛ لأنّ أنساب بني إسرائيل كانت ـ على ما يقال ـ محفوظة متمايزة بحسب أسباطهم. ولم يذكر الإنجيل أنّ مريم كانت بنت عالي أو هالي.

وإنّما ذكر لوقا في نسب يوسف أنّه ابن هالي[4]. ولكنّ بعضهم حاول أن يرفع التناقض الكثير بين متّى ولوقا، في نسب المسيح من جهة نسب يوسف، فقالوا: «إنّ لوقا نسب يوسف إلى هالي أبي مريم». وقد قدّمنا في الجزء الأوّل[5] ما تعرف منه أنّ هذه الدعوى من تلفيقات الأوهام، وتسويلات الخيال عند ضيق الخناق.

---

١. آل عمران (٣): ٣٧.

٢. الهداية ٢: ٣٦.

٣. إنجيل لوقا ١: ٥ و ٣٦.

٤. إنجيل لوقا ٣: ٢٣.

٥. تقدّم في ج ١، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

دع هذا، ولكنّ الباب الأوّل من لوقا يؤكّد أنّه كانت بين مريم وأليصابات قرابة و علاقة اتّصال وعواطف، فلماذا لا يكفي هذا في كفالة زكريّا لمريم؟

دع هذا، وقل: ما المانع لزكريّا المؤمن البارّ أن يتقرّب إلى الله بكفالة امرأة عذراء مؤمنة برّة من بني إسرائيل، ولا يلزم في الكفالة أن تكون مضطرّة يتصدّق عليها بالقوت، بل يكفي في ذلك قيامه بأمرها ورعايتها وحمايتها؟ فهل تمتنع هذه الكفالة بوجوهها في الدين والمروءات عند من تقدّمت الدنيا بمعارفهم؟

وأمّا الرزق الذي قالت فيه مريم لزكريّا: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1] فلماذا لا يحمل المتكلّف قول القرآن الكريم فيه على أنّه رزق يبعثه الله إلى مريم الصدّيقة البرّة برحمته وقدرته، كما يقول العهد القديم: «إنّ الله سخّر الغربان لإيليّا فكانت تأتيه بخبز ولحم صباحاً ومساءً»[2]. وكما هيّأ له الكعكة ـ نوع من الخبز ـ وكوز الماء فنبّهه الملاك للأكل والشرب حتّى سار بقوّة تلك الأكلة أربعين يوماً[3].

وماذا ينكر المتكلّف على المفسّرين في قولهم: إنّ ذلك الرزق لمريم كان من فاكهة الجنّة؟ فلماذا لا تكون من جنّة آدم المذكورة في التوراة؟ فهل يقول المتكلّف: إنّ تلك الجنّة قد يبست أشجارها و نابها الخراب، فلم يساعد الوقت على غرسها و عمارتها؟ ولماذا لا تكون من الكرمة التي يشرب المسيح جديداً من نتاجها مع تلاميذه في ملكوت الله[4]؟ أو ممّا يأكل منه التلاميذ على مائدة المسيح في ملكوته[5]؟

وأمّا قول المتكلّف: «إنّ الجنّة ليست محلّ أكل وشرب، بل كلّ تنعّماتها روحيّة، كما قال السيّد المسيح» فليس فيما تنقله الأناجيل عن أقوال المسيح ما يمكن التشبّث

---

١. آل عمران ٣: ٣٧.

٢. سفر الملوك الأوّل ١٧: ٤ و ٦.

٣. سفر الملوك الأوّل ١٧: ٥ ـ ٨.

٤. إنجيل متّى ٢٦: ٢٩؛ إنجيل مرقس ١٤: ٢٥؛ إنجيل لوقا ٢٢: ١٨.

٥. إنجيل لوقا ٢٢: ٣٠.

به لهذه الدعوى، إلّا نقلها عن قوله: «إنّ أبناء القيامة لا يـزوّجون و لا يـتزوّجون بـل يكونون كملائكة الله في السماء»[١]؛ إذ لا يسـتطيعون أن يـموتوا أيـضاً، لأنّـهم مـثل الملائكة. وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة[٢].

فإن كان المستند هو هذا، فقد بيّنّا لك في الجزء الأوّل[٣] سقوط هذه الحجّة وَوَهْنَها من جميع أطرافها، على حدّ ينبغي أن يُنَزَّه عن مـثله آحـاد أهـل الأدب والمـعرفة، فضلاً عن المسيح رسول الله. على أنّها لو تمّت لما أمكـن أن يـراد أنّـهم لا يأكـلون ولا يشربون من حيث إنّهم كالملائكة، وذلك لأنّ التوراة تنافي هذه الدعـوى، حـيث ذكرت مكرّراً أنّ الملائكة أكلوا من ضيافة إبراهيم ومن ضيافة لوط[٤]. وصدّقت على ذلك رسالة العبرانيّين[٥]. وسيأتي التعرّض إن شاء الله لذكر الجنّة فـي الأجـزاء الآتـية بحول الله وقوّته.

[طلب زكريّا للآية وصمته]

وقال الله تعالى في سورة آل عمران في شأن زكريّا وبشارته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[٦].

فاعترض المتكلّف بأنّه لم يفهم من الإنجيل أنّ زكريّا طلب آية، وبأنّ مدّة صمته كانت تسعة أشهر لا ثلاثة أيّام[٧].

قلنا: أوّلاً: إنّ إنجيل لوقا يذكر أنّ زكريّا قال للملك الذي بشّره:

كيف أعلم هذا لأنّي أنا شيخ وامرأتي متقدّمة في أيّامها؟ فقال له الملاك... وها

١. إنجيل متّى ٢٢: ٣٠؛ إنجيل مرقس ١٢: ٢٥.
٢. إنجيل لوقا ٢٠: ٣٥ و ٣٦.
٣. تقدّم في ج ١، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
٤. سفر التكوين ١٨: ٨ و ١٩: ٣.
٥. الأصحاح ١٣؛ العدد ٢.
٦. آل عمران (٣): ٤١.
٧. الهداية ٢: ٣٧.

أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلّم... لأنّك لم تصدّق كلامي[١].

فقوله: «كيف أعلم» هو طلب لما يحصل به العلم. ولكنّ القرآن الكريم كلام الله ذكر الواقعة على الحقيقة المناسبة لبرّ زكريّا وإيمانه، حيث إنّه طلب من الله الآية ليزداد إيماناً ويطمئنّ قلبه باستجابة دعائه؛ فإنّ زكريّا أجلّ من أن يقول لله أو للملك: «كيف أعلم هذا» ولا يصدّق الملك في بشارته.

وثانياً: إنّ القرآن الكريم كلام الله، لم يكن متّبعاً في وحيه مضطربات العهدين في منقولها، ولا معتنياً بإنجيل لوقا. كيف ولو كان كذلك لمجّد المسيح بما يذكره لوقا من وقوف الخاطئة عند قدميه وهي باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها، وتقبّل قدميه وتدهنهما بالطيب. فشكر لها صنيعها وكثرة حبّها حتّى باهى به الفرّيسي[٢].

وثالثاً: إنّ كتب العهدين قد اضطربت واختلفت كثيراً فيما يرجع إلى العدد، فلم يقدح ذلك عند المتكلّف في زعمه أنّها كتب وحي صادقة. فمن الظلم الفاحش اعتراضه على القرآن الكريم إذا خالف أحدها؛ فإنّا نذكّرك بما ذكرناه في هذا الكتاب من اختلاف العهدين واضطرابهما في العدد:

فمن ذلك حكاية الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم وذهبوا إلى سدوم فجاؤوا إلى لوط، حيث جعلتهم التوراة ثلاثة، ثمّ اثنين، ثمّ واحداً[٣].

ومن ذلك إقامة بني إسرائيل وتغرّبهم في مصر، حيث جعلته التوراة أربعمائة سنة[٤]. وكذا العهد الجديد[٥]. ثمّ جعلته أربعمائة وثلاثين سنة[٦]، وجعلها العهد الجديد أقلّ من ذلك بكثير[٧].

---

١. إنجيل لوقا ١: ١٨ و ٢٠.
٢. إنجيل لوقا ٧: ٣٦ـ٤٨.
٣. فانظر سفر التكوين ١٨ و ١٩.
٤. سفر التكوين ١٥: ١٣.
٥. أعمال الرسل ٧: ٦.
٦. سفر الخروج ١٢: ٤٠.
٧. الرسالة إلى أهل غلاطية ٣: ١٧.

ومن ذلك اختلاف النسخة العبرانيّة والنسخة السبعينيّة في أعمار آباء السلسلة من آدم إلى إبراهيم، كما ذكرنا في تتمّة الصدر من هذا الجزء[١].

ومن ذلك حكاية الأعمى والأعميين. والمجنون والمجنونين. ومكث المسيح في بطن الأرض ثلاثة أيّام وثلاث ليال، ويوم وليلتين. انظر الجزء الأوّل[٢].

ودع عنك سائر ما ذكره إظهار الحقّ[٣].

[شأن حمل مريم الطاهر بالمسيح وولادتها المقدّسة]

وقال الله تبارك اسمه في سورة مريم، في شأن حملها الطاهر بالمسيح وولادتها المقدّسة: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾[٤].

فأنكر المتكلّف ذلك وزعم أنّ القرآن نسب إلى مريم قصّة هاجر أُمّ إسماعيل، وأنّ مريم ولدت المسيح في بيت لحم اليهوديّة، ولم تكن في البرّيّة، ولم تهزّ جذع النخلة، ولم يضرب ملاك ولا غيره الأرض برجله، ولم تنذر لله السكوت، وأنّ هذه الأُمور من خرافات المسيحيّين، وأنّ كلام المسيح وهو طفل مأخوذ من خرافات المسيحيّين[٥].

---

١. تقدّم في ص ٤٩٠.

٢. تقدّم في ج ١، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٣.

٣. إظهار الحقّ ١: ١٧٠ فما بعد.

٤. مريم (١٩): ٢٢ ـ ٣٠.

٥. الهداية ٢: ٩٢ و ٩٣.

قلنا: لا يلزم أن نقول: إنّ جزم المتكلّف في إنكاره هاهنا لا يليق إلّا من نبيّ مؤيّد مصدّق، أو ممّن يعتمد فيه على برهان قاطع. بل نقول: ينبغي أقلّاً أن يكون من معروف بالأمانة وصدق اللهجة، والمعرفة بمواقع الكلام، وكتب ديانته، سالم من داء التعصّب والبواعث الرديّة والتحريف، والتغافل أو الغفلة عمّا في كتب ديانته، غير معروف بأضداد ذلك. ولا نقول أكثر من ذلك، بل نجعل الحكم لمن ينظر في مباحثات كتابنا هذا.

ولا تقل: إنّ المتكلّف اغترّ واعتمد في إنكاره على أناجيله؛ لأنّا نخبرك بأنّه لم يتعرّض من أناجيله لهذا الحال إلّا إنجيل لوقا، وهو لا ينفي شيئاً ممّا ذكره القرآن الكريم[1].

ولا تقل أيضاً: إنّ المتكلّف اعتمد في ذلك على أحكام المجامع، وإصلاحه الديني من ناشئة البروتستنت؛ فإنّه لا يخفى عليك أنّه ليس من ولاية المجامع والإصلاح إنكار وقوع الحوادث الممكنة في قدرة الله كرامةً لأوليائه، بل غاية ما يسع المجامع أن تنكركون الكتاب المشتمل عليها كتاباً قانونيّاً، فيكون بذلك كتاب تأريخ، أو مجموع تقاليد.

نعم، إنّ سياسة البروتستنت اقتضت أن يطرحوا التقاليد المسيحيّة، ويطووا غثّها على سمينها. ولكن ذلك كلّه لو استقام، لما كان فيه جزم بنفي ما أنكروه، بل غايته الإعراض عنه لشكّهم فيه خصوصاً أو في ضمن العموم؛ فإنّ الجزم بنفي وقوع الشيء لا يسوّغه الأدب والعقل إلّا بإقامة البرهان على عدمه أو امتناعه.

ولا أظنّني أُخطئ إذا قلت: إنّ هذا الإنكار الجزمي من المتكلّف، وقوله: «إنّ هذه الأُمور من خرافات المسيحيّين»، إنّما جاءه من عدوى داء الطبيعة، فاستحكم فيه وسخّر أفكاره بتعليمه، وإلّا فلماذا تكون منقولات المسيحيّين في شأن كرامات مريم والمسيح من الخرافات؟ أو ليس المسيحيّون أسلاف المتكلّف وحملة ديانته؟

---

١. فانظر إنجيل لوقا ٢: ١ ـ ٨.

ثمّ نقول: إنّ قصص الأناجيل في شأن ولادة المسيح، تجد فيها في هذا الخصوص خللاً من وجوه:

الأوّل: أنّ متّى ولوقا المتعرّضين لذلك، قد أهمل كلّ واحد منهما شطراً ممّا ذكره الآخر.

فمتّى أهمل ما ذكره لوقا في شأن مجيء الملاك جبرئيل في الناصرة إلى مريم، وبشارته لها بالمسيح، ومكالمته معها وجوابها له، وذهابها إلى جبال يهوذا إلى أليصابات ومكالماتهما[1]. وكذا ذهاب يوسف و مريم من الجليل إلى بيت لحم لأجل الاكتتاب، وبشارة الملاك للرعاة وشأن مجيئهم إلى المسيح. ورجوع يوسف ومريم بالمسيح إلى الجليل إلى الناصرة، بعد ما أكملوا أحكام الولادة في أُورشليم فرجعوا منها إلى الناصرة[2].

ولوقا أهمل ما ذكره متّى في شأن المجوس مع هيرودس و مع المسيح، والوحيَ ليوسف بعد انصراف المجوس بأن يهرب بالمسيح إلى مصر، فهرب به ليلاً سرّاً، وقَتْلَ هيرودس للأطفال في بيت لحم، ورجوع يوسف بالمسيح من مصر بعد ماموت هيرودس إلى أرض إسرائيل، وخوفَه من أرخيلاوس أن يذهب به إلى اليهوديّة، فانصرف إلى الجليل إلى الناصرة[3].

الثاني: تناقض متّى ولوقا في شأن المسيح بعد ولادته، فمتّى يذكر أنّ يوسف بعد انصراف المجوس من زيارة المسيح في بيت لحم، هرب به إلى مصر، وبقي هناك إلى أن مات هيرودس، فرجع به إلى أرض إسرائيل[4]، ولوقا يذكر أنّ يوسف ومريم والمسيح بقوا في بيت لحم إلى أن تمّت أيّام تطهير مريم ـ وهي ثلاثة و ثلاثون يوماً ـ[5] فصعدوا به إلى أُورشليم ليقدّموا ذبيحة ـ كما قيل في التوراة ـ ولمّا أكملوا شريعة ولادة

---

١. إنجيل لوقا ١: ٢٦ ـ ٥٧.

٢. إنجيل لوقا ٢: ١ ـ ٤١.

٣. إنجيل متّى ٢: ١ ـ ٢٣.

٤. إنجيل متّى ٢: ٧ ـ ٢٢.

٥. سفر اللاويّين ١٢: ١ ـ ٤.

البكر بمقتضى التوراة رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة[١].

فمقتضى متّى أنّه بعد انصراف المجوس من بيت لحم، كان لا يمكن أن يُؤتَى بالمسيح إلى أُورشليم؛ لأنّ هيرودس بسبب إخبار المجوس كان يطلبه ليهلكه. بل هربوا به بمقتضى الوحي من هناك سرّاً إلى مصر إلى أن مات هيرودس. وعلى ذلك كيف يمكن أن يؤتى به إلى أُورشليم، ويتنبّأ عنه سمعان وحنّة، كما ذكره لوقا؟ ولوقا يذكر أنّهم جاؤوا بالمسيح من بيت لحم إلى أُورشليم؛ لكي يجروا شريعة ولادة البكر، ثمّ رجعوا من أُورشليم إلى مدينتهم الناصرة.

الثالث: يذكر متّى أنّ يوسف لمّا رجع من مصر أراد الرجوع بالمسيح إلى بلاد اليهوديّة، ولكنّه خاف من أرخيلاوس أن يذهب إلى هناك، فأُوحي إليه أن يذهب إلى نواحي الجليل. وأتى وسكن في مدينة يقال لها: ناصرة، لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء أنّه سَيُدعى ناصريّاً: ومقتضاه أنّ الناصرة لم تكن وطن يوسف ومريم ومسكناً لهما قبل ذلك، بل بعد الرجوع من مصر صارت لهم دار هجرة وفرار بالمسيح، لكي يتمّ ما في الأنبياء.

ولوقا يذكر أنّ الناصرة كانت قبل ذلك وطن مريم ويوسف، وفيها حبلت مريم، ومنها صعدا إلى بيت لحم لأجل الاكتتاب، وإليها ـ لكونها مدينتهم ـ رجعوا من أُورشليم.

ثمّ نقول للمتكلّف: أبمثل هذه الكتب تعترض على القرآن الكريم كلام الله؟ أفلم يكن عليك في ناموس الأدب والإنصاف أن تقول أو تظنّ أو تحتمل أنّ مخالفة كتبك للقرآن الكريم كمخالفة بعضها لبعض، وأنّ غفلتها عمّا فيه كغفلة بعضها عمّا في البعض الآخر؟

أفتقول: إنّ المسيح افتداك حتّى من لعنة هذا الناموس؟ فبأيّ نبوّة وبأيّ إلهام تنكر ما يذكره القرآن الكريم؟

---

١. إنجيل لوقا ٢: ٢١ ـ ٣٩.

ثمّ نقول مجاراة لك في إعجابك بأناجيلك المضطربة المختلفة: إنّ القرآن الكريم قال: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1] وهذا لا يأبى الانطباق على هجرتها إلى بيت لحم، كما يذكره لوقا. ولم يقل القرآن: إنّها تاهت في البرّيّة. وقال: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[2] وهذا يقرّبه ما يذكره لوقا من أنّ مريم لم يكن لها موضع في المنزل حتّى أنّهم التجؤوا إلى وضع المسيح في المذود ـ أي الآخور[3] ـ ومن كانت هكذا وهي من ذوات العفّة والحياء، فلا تسعها الولادة في هذا المنزل الضيّق بكثرة أهله، لا بدّ لها من أن تفرّ بولادتها إلى موضع خال من الأجانب.

فإن زعم المتكلّف أنّه لا يوجد في تلك النواحي نخل.

قلنا: إنّ إنجيل يوحنّا يقول: إنّ الكثيرين في أُورشليم أخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاء المسيح[4]، وإنّ بيت لحم يعدّ من ضواحي أُورشليم.

وأمّا كرامة الله لمريم بإحياء النخلة وإثمارها؛ لتأكل منها وتقرّ عينها، فالمتكلّف جدير بإنكاره، فإنّه لا نفع له فيه.

نعم، لو ذكر القرآن الكريم: أنّ مريم جاعت فانفتحت السماء ونزل عليها إناء فيه كلّ دوابّ الأرض والزحّافات والطيور، وقيل لها: اذبحي وكلي، فقالت: كلّا يا ربّ، إنّي لم آكل قطّ شيئاً دنساً أو نجساً، فقيل لها: ما طهّره الله فلا تدنّسيه أنت[5].

وراغم بذلك شريعة التوراة، وأشار به إلى بطلانها، لقال المتكلّف: نعم هذا هو الحقّ؛ لكي ينتفع بها في التمسّك بعوائد الوثنيّة، وإبطال شريعة التوراة، وعيبها والردّ عليها في نهيها عن لحوم كثير من الحيوانات وتنجيسها.

---

١. مريم (١٩): ٢٢.

٢. مريم (١٩): ٢٣.

٣. المذود: معلف الدابّة. لسان العرب ٣: ١٦٨، «ذ و د»، والآخور أظنّها غير عربية ولم أجدها في المعرب للجواليقي ولا في شفاء الغليل للخفاجي.

٤. إنجيل يوحنّا ١٢: ١٢ و ١٣.

٥. أعمال الرسل ١٠: ١٠ـ١٦.

فإن قال المتكلّف: إنّ اخضرار الجذع وإثماره ونضج ثمرته في زمان قليل، هو من الخرافات الخارجة عن حدّ المعقول.

قلنا: لا نبهظه بذكر العقل والمعقول، ولكنّ توراتكم تقول:

> إنّ عصا هارون وضعها موسى في خيمة الشهادة وفي الغد وجدها قد أفرخت فروخاً ـ أي أغصاناً ـ وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً[١].

وصدّق على ذلك العهد الجديد[٢].

فإن قال المتكلّف: إنّ حديث العصا في العهدين أيضاً خرافة خارجة عن حدّ المعقول.

قلنا: إذاً قرّت عيناه بالعهدين، وقرّت عيون العهدين به وببشارته وقس على ذلك إنكاره لتكلّم المسيح في المهد وكيف لا يصرّ على ذلك؟ والقرآن يذكر أنّ المسيح ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[٣].

وأمّا نذر مريم للصوم وأنّها لا تكلّم أحداً، فأيّ برهان قائم على عدم وقوعه؟ وهل هناك إلّا أنّ إنجيل متّى ولوقا لم يذكراه؟ فلماذا لا يقال: إنّهما غفلا عنه، كما أهمل كلّ منهما كثيراً ممّا ذكره الآخر؟

واعترض المتعرّب أيضاً وقال:

> جاء في القرآن أنّ الله أمر مريم أن تقول كذباً إنّها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلّم اليوم إنسيّاً وهي لم تكن صائمة، بدليل أمره إيّاها في العبارة نفسها أن تهزّ إليها بجذع النخلة تساقط عليها رطباً جنيّاً، فتأكل وتشرب وتقرّ عيناً. وبعد فإنّ أمره إيّاها أن تقول: إنّها صائمة لا تتكلّم، كلام متناقض؛ لأنّ الصائم لا يتكلّم، فإن قالت: ما أمرها بقوله فقد تكلّمت[٤].

قلنا: إنّ للكلام مجاري ودلالاتٍ عرفيّة التزاميّة، لا يجحدها غير المعاند أو الغبيّ.

---

١. سفر العدد ١٧: ٧ـ٨.

٢. الرسالة إلى العبرانيّين ٩: ٤.

٣. مريم (١٩): ٣٠.

٤. ذيل مقالة في الإسلام: ٥٧.

فلا يخفى أنّ المولى إذا قال لعبده: إذا جاءك فلان وأراد منك شيئاً فقل له: إنّي ملتزم لمولاي بأن لا أُعطيك؛ فإنّ كلّ من يفهم الكلام يفهم من هذا أنّ المولى قد أمره في مضمون كلامه بأن يلتزم، فكلام الله دالّ بمضمونه على أمر مريم بأن تنذر السكوت.

وأيضاً إذا قال المولى لعبده: إذا جاءك أحد فقل له بالقول اللفظي: إنّي ملتزم بأن لا أُكلّمك، فمعناه الأمر بأن يلتزم أن لا يكلّم أحداً بغير هذا القول المتكفّل بالبيان. فيكون هذا القول غير داخل من أوّل الأمر في الكلام المأمور بتركه، بل المأمور بتركه هو ما بعد هذا القول و ما عداه من الكلام، فقول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾[1] إلى آخره، غير داخل من أوّل الأمر في الكلام المأمور بنذر تركه.

هذا إذا كان المراد من القول في الآية الكريمة هو القول اللفظي. وأمّا إذا أُريد منه الإشارة إلى معاني هذه الألفاظ، وعبّر عنها بالقول مجازاً لأجل إفادة الإشارة فائدته، فلا حاجة إذاً إلى الاستثناء، فدعوى التناقض في هذا المقام إنّما هي من تناقض السجيّة والبواعث مع دعوى الأدب وحرّيّة الضمير.

وأيضاً إنّ وقت الصوم المنذور لم يكن هو وقت أكلها من الرطب، بل كان وقته حينما ترى الناس وترجع إليهم ويسألونها عن شأنها فهو غير الوقت الذي أكلت فيه الرطب. بل حينما وضعت المسيح في المهد، وسألها الناس عن شأنه، فأشارت إليه.

مائدة المسيح

وقد ذكر القرآن الكريم قصّة إنزالها من السماء بطلب التلاميذ كما في سورة المائدة[2].
فاعترض المتكلّف على ذلك، وأنكر حقيقة هذه المائدة[3].

وما السبب في ذلك إلّا خلوّ أناجيله من ذكرها على الوجه الذي بيّنه القرآن الكريم.

---

١. مريم(١٩): ٢٦.

٢. الآية ١١٢ـ ١١٥.

٣. انظر الهداية ٢: ٤٤.

ولو تحرّى المتكلّف رشداً، لما اغترّ بخلوّ أناجيله؛ فإنّا لو أغمضنا النظر عن أحوالها، وتغافلنا عن مشغوليّتها عن الاستقصاء في تمجيد المسيح، بذكرها لما ينافي قدسه كما مرّ في أشتات الكتاب، لقلنا: إنّ اختلافها في منقولاتها، يشهد على أنّ كلّ واحد منها قد فاته ذكر كثير من المهمّات من أحوال المسيح، وآياته وتعاليمه ودلالاته.

فإنّ متّى ومرقس ولوقا قد فاتها ما ذكر يوحنّا من حكاية قلب الماء خمراً في قانا الجليل، وقد ذكر أنّها بدء الآيات[١]، فهي إذاً بشارة الدعوى وطليعة المعجزات وهلال الحجّة.

وفاتها أيضاً ما ذكره من إحياء لِعازر من الموت[٢]، وهي واقعة ينبغي أن يكون لها دويّ في جميع الأناجيل، لامتيازها عن سائر ما ذكرته.

وفاتها أيضاً ما ذكره من البشارة بمجيئ المعزّي[٣]، مع أنّها ناموس البشائر وأساس التعليم.

وإنّ متّى ومرقس ويوحنّا قد فاتها ما ذكره لوقا من إحياء المسيح لابن الأرملة في نايين[٤]، وحكاية لِعازر والغنيّ وإبراهيم في عالم الأموات، الذي يسمّيه المسلمون بالبرزخ[٥]. مع أنّ مثل هذا أهمّ ما يكون في البيان لأجل الموعظة والترهيب، وكشف الحقائق، والتثبيت على الإيمان، والترغيب في الصبر والزهد والورع.

وإنّ مرقس ولوقا ويوحنّا قد فاتها ما ذكره متّى من حديث المجوس ومجيئهم في طلب المسيح، والنجم الذي كان يتقدّمهم في السير حتّى وقف حيث كان المسيح[٦]، مع أنّ ذلك من أكبر البشارات والدلالات والإرهاصات.

---

١. إنجيل يوحنّا ٢: ١ ـ ١٢.
٢. إنجيل يوحنّا ١١: ١ ـ ٤٥.
٣. إنجيل يوحنّا ١٤ ـ ١٦.
٤. إنجيل لوقا ٧: ١١ ـ ١٧.
٥. إنجيل لوقا ١٦: ١٩ ـ ٣١.
٦. إنجيل متّى ٢: ١ ـ ١٢.

وفاتها أيضاً ما ذكره من حديث تفتّح القبور عند حادثة الصليب، وقيام كثير من أجساد القدّيسين الموتى، ودخولهم المدينة المقدّسة، وظهورهم لكثيرين[١].

وإنّ متّى ولوقا ويوحنّا قد فاتها ما ذكره مرقس عن المسيح، من بيان الآيات التي تتبع المؤمنين وهي أنّهم يخرجون الشياطين ويتكلّمون بألسنة جديدة. يحملون حيّاتٍ وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرّهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون[٢]. وهذه علامات بآيات تُبَصِّر المرتاب وتُقيم الحجّة وتقطع المعاذير، لو صحّت الأحلام.

فنقول: إنّ القرآن الكريم ذكر بوحيه من حقيقة المائدة ما فات الأناجيل الأربعة، لو أنّ مضامينها كانت وحياً، فما بال القلوب التي في الصدور؟

ومن الظرائف أنّ المتكلّف لجّ في إنكار مائدة المسيح وقال:

بل المائدة التي نزلت من السماء نزلت على بطرس ـ أحد الحواريّين ـ فإنّه كان جائعاً ونزلت مائدة فيها من كلّ دوابّ الأرض والزحّافات وطيور السماء، وكانت الغاية منها أن يعلّمه الله أنّ دعوة الإنجيل عامّة، كما في سفر الأعمال[٣].

ولكنّ المتكلّف لم يذكر تتمّة الحديث في المائدة التي ينسبها كتابه لبطرس، فكأنّه شعر بما فيها من البشاعة والسخافة، من حيث العيب لشريعة موسى، والاعتراض عليها في تنجيسها للحوم بعض الحيوانات؛ فإنّ تتمّة ما ذكره في مائدتهم المنسوبة لبطرس هكذا:

وصار إليه صوت قم يا بطرس اذبح وكل. فقال بطرس: كلّا يا ربّ لأنّي لم آكل قطّ شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية ماطهّره الله لا تدنّسه أنت. وكان هذا على ثلاث مرّات[٤].

---

١. إنجيل متّى ٢٧: ٥٢ و ٥٣.

٢. إنجيل مرقس ١٦: ١٧ و ١٨.

٣. الهداية ٢: ٤٤.

٤. أعمال الرسل ١٠: ١٣ ـ ١٦ و ١١: ٥ ـ ١١.

أفلا تعلم من هذا الكلام أنّ هذا الوحي الكذائي الذي ذكره فلان الأُمّي ـ لا بطرس الإسرائيلي ـ يقول: إنّ هذه الحيوانات قد طهّرها الله فتدنيسها إنّما هو بشري على خلاف ما عند الله. وعلى ذلك جرى قول العهد الجديد:

لا يصغون إلى خرافات يهوديّة، ووصايا أُناس مرتدّين عن الحقّ. كلّ شيء طاهر للطاهرين وأمّا للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً بل قد تنجّس ذهنهم أيضاً وضميرهم[١].

ليس شيء نجساً بذاته إلّا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس[٢].

تُفرَض عليكم فرائض لا تَمسّ ولا تَذُقْ ولا تَجُسَّ التي هي جميعها للفناء في الاستعمال حسب وصايا وتعليم الناس[٣].

أصحاب الكهف

وقد ذكر الله جلّ شأنه قصّتهم في سورة الكهف[٤].

والمتكلّف جعل قصّتهم من خرافات المسيحيّين المذكورة في كتب اليونان. وادّعى أنّ حقيقة هذه الحادثة التأريخيّة هي قصّة أنبابولا من أهل الإسكندريّة[٥].

ومرجع كلام المتكلّف هذا إلى أنّ الله جلّ اسمه محجور على إعمال قدرته وألطافه مع أوليائه، حتّى يخرج له الإذن ممّن تأخّر من مؤرّخي ناشئة البروتستنت، وإلّا فما يكتبه القدماء هو من خرافات المسيحيّين، خصوصاً إذا كتبوه في تأريخ الكنيسة، وخصوصاً إذا كتبه الكاتبون من كبار المسيحيّين، وخصوصاً إذا ذكره القرآن الكريم.

---

١. رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٤ و ١٥.

٢. رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤: ١٤.

٣. رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢: ٢٠ ـ ٢٢.

٤. الكهف (١٨): ٩ ـ ٢٢.

٥. الهداية ٢: ٨٩.

وليت شعري لماذا صار نقل المسيحيّين لواقعة أصحاب الكهف خرافة؟ أو ليس المسيحيّون هم أسلاف المتكلّف الذين عنهم أخذ وعليهم اعتمد؟ حتّى أنّه صار يتشبّث لصحّة كتاب برمّته باستشهاد واحد منهم بفقرة من ذلك الكتاب، أو تجيء في كلام واحد منهم فقرة مشابهة لفقرة من ذلك الكتاب[١].

والحاصل أنّ كثيراً من الناس لم يجروا في المنقول على طريقة مستقيمة:

فتارةً تراهم يقبلون الخرافات الكفريّة، ويقطعون بنسبتها إلى الوحي، ويغضّون الطرف عمّا في سند كتابها من التمزيق والهرج والمرج، خصوصاً في تلك الخرافة، بل تراهم يتشبّثون لها بقول فلان واستشهاد فلان. وإن كانت كتبهم قد قالتها مراراً عديدة، ثمّ يُوجرها[٢] العناد في حَلقِها، ورفضها مصلحوهم فراغمهم أتباعهم بالاحتفال بها[٣].

وتارةً يقطعون بنسبة الكتاب إلى الوحي ويحامون عنه، ومع ذلك يقطعون بأنّ جملة وافرة منه ليست من الوحي. وما هو صريح بالعيان والوقوع يجعلونه من الرؤيا والتوهّم فانظر الجزء الأوّل[٤].

أو يقطعون بأنّ الشطر الكثير من كتبهم في الآيات والدلائل إنّما كان كذباً ومداهنةً للرأي العامّ الغلط، كما امتلأ العهد الجديد بهذا النحو في آيات المسيح والرسل بحديث الأرواح النجسة. فانظر في هذا الجزء إلى الكلام على خلق الجانّ[٥].

وخلاصة الكلام لو أنّ أحداً كتب تصوير أصحاب الكهف وخيال كهفهم على حجر، ورسم إلى جنبه صليباً أو بعض صور القدّيسين، وأودع ذلك الحجر في بعض الآثار العتيقة، فوجده بعض الأُوربّاويّين، لكانت قصّة أصحاب الكهف من الحقائق التي

---

١. فانظر الهداية ١: ١٤٣ ـ ١٥٧.

٢. أوجرت الدواء في فم الصبيّ: صببته في فمه. انظر الصحاح ٢: ٨٤٤، «و ج ر».

٣. الهداية ٣: ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

٤. تقدّم في ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

٥. تقدّم في ص ٥٢٩ ـ ٥٣٢.

لا ريب فيها، وخصوصاً إذا أعطيت الأُجرة الوافرة فكتب ذلك في صدر الجرائد والمجلّات الشهيرة. نعم وتحتمل مع ذلك أنّ داء المضادّة والمحادّة[١] للقرآن يقتضي عدم التجاهر بتصديقها. وهذا هو الداء الذي ألجأ المتكلّف وأمثاله إلى تكذيب أسلافه المسيحيّين لهذه الواقعة حتّى سمّاها خرافة.

[معراج رسول الله إلى السماء]

وقال الله تعالى شأنه في أوّل سورة الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[٢].

والمتكلّف يريد أن يعترض على معراج رسول الله ﷺ إلى السماء، فاعترض على هذه الآية الكريمة وقال: وقصّة المعراج هذه أُخذت من كتب الفرس، ومن خرافات اليهود القديمة، فإنّها مذكورة في كتبهم ٤٠٠ سنة قبل الهجرة[٣].

قلنا: إنّ هاهنا حقيقتين:

إحداهما: الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وثانيتهما: عروجه صلوات الله عليه إلى السماء.

والآية المذكورة إنّما تعرّض لفظها للحقيقة الأُولى. فالاعتراض عليها من حيث الحقيقة الثانية إنّما هو من سوء الفهم.

أمّا الإسراء إلى بيت المقدس، فلا ينبغي أن يختلج الشكّ في إمكانه في قدرة الله، إلّا أن تأتينا دواهي الأيّام بمن يطرح عقله ودينه و أدبه ويقول ـ وأستغفر الله ـ: إنّ هذه القدرة مختصّة بإبليس حيث تنقّل بالمسيح من البرّيّة مرّة إلى جبل عال وأراه جميع

١. المحادّة: المخالفة. الصحاح ٢: ٤٦٢، «ح د د».
٢. الإسراء (١٧): ١.
٣. الهداية ٢: ٨٥.

ممالك المسكونة في طرفة عين. ومرّة أُخرى إلى جناح الهيكل[١]. وقد أعطى رسول الله لقريش علائم شاهدها حال الإسراء به، كنفار[٢] بعض إبلهم في طريق الشام، وأسمائها وأوصافها و كلام أصحابها. فلمّا وردت القافلة بعد أيّام تحقّق المشركون من ذلك ما أرغم آنافهم و ألقمهم حجراً.

وأمّا الحقيقة الثانية فإنّه وإن شكّك فيها بعض بواسطة سفاسف قد قيلت في الطبيعيّات والهيئة القديمة، ممّا لا يختصّ شططه بالجحود لحقيقة المعراج، بل أوّل ما يعود إلى الإلحاد والجحود لقدرة الله وإرادته واختياره. والكلام على هذه إنّما يلزم في مقابلة الطبيعي الملحد، وسيجيء إن شاء الله في المقاصد.

وأمّا من يتظاهر باليهوديّة والنصرانيّة، فيكفينا أن نحتجّ عليه في إمكان الصعود إلى السماء ووقوعه بكتبه التي ينسبها إلى الوحي، حيث تذكر صعود البشر إلى السماء مكرّراً. فلا يبقى في أمر المعراج إلّا المطالبة بالحجّة على وقوعه. ومرجع ذلك إلى الحجّة على صدق النبيّ الذي أخبر به في دعوى النبوّة.

أمّا ما جاء في العهدين من أمر الصعود إلى السماء، فقد جاء في صراحة الملوك الثاني أنّ إيليّا صعد إلى السماء[٣]. وجاء في الأناجيل أنّ المسيح صعد بجسمه إلى السماء[٤]. وعن كورنثوس الثانية عن بولس في مقام افتخاره:

أعرف إنساناً في المسيح قبل أربع عشرة سنة أفي الجسد لست أعلم أم خارج الجسد لست أعلم الله يعلم اختُطِف هذا إلى السماءِ الثالثة. وأعرف هذا الإنسان أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم الله يعلم أنّه اختُطِف إلى الفِرْدَوْس وسمع كلمات لا يُنطَق بها ولا يَسُوغ للإنسان أن يتكلّم بها[٥].

١. إنجيل متّى ٤: ٥ ـ ٩؛ إنجيل لوقا ٤: ٥ ـ ١٠.
٢. النفار: الشرود.
٣. سفر الملوك الثاني ٢: ١ و ١١.
٤. إنجيل مرقس ١٦: ١٩؛ إنجيل لوقا ٢٤: ٥١.
٥. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢: ٢ ـ ٤.

وهذا الشكّ منه لا يصحّ إلّا مع تجويزه لصعوده بجسده إلى السماء الثالثة وإلى الفردوس. وأيضاً في شأن حنوك، أي إدريس ـ المسمّى في العهد الجديد أخنوخ ـ جاء في التوراة أنّ الله أخذه[١].

وفي العهد الجديد أنّ الله نقله لكي لا يرى الموت[٢]. والمعروف أنّ المراد من هذا الكلام إصعاده إلى السماء.

هذا، وإنّ المعلوم من دين الإسلام أنّ رسول الله ﷺ أخبر بعروجه بجسده الشريف إلى السماء، فالحجّة على نبوّته حجّة على وقوع ما أخبر به، كما أنّ صعود حنوك وإيليّا والمسيح يتوقّف التصديق به على العلم بإخبار النبوّة به، وكذا الصعود الجسماني أو الروحاني الذي نسبت دعواه إلى بولس.

فإن قلت: إذا كان الصعود إلى السماء مذكوراً في العهدين بهذا التكرار، فلماذا يقول المتكلّف: إنّ المعراج مأخوذ من خرافات اليهود القديمة؟

قلت: إن شئت أن تقول: إنّه لا يدري بما في كتبه. وإن شئت أن تقول: إنّه يريد أن يموّه على البسطاء ومن لم يطّلع على العهدين، ويغشّهم بأنّ دعوى الصعود إلى السماء دعوى ابتدائيّة لم يتّفق لها حقيقة، فيتيسّر له بزعمه أن يقول لهم: إنّها خارجة عن حدّ المعقول.

فإن قلت: لعلّ المتكلّف يدّعي انحصار الصعود إلى السماء بصعود المسيح، ويحتجّ لدعواه بقول إنجيله نقلاً عن قول المسيح: «ليس أحد صعد إلى السماء إلّا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء»[٣].

قلت: لا نحتاج إلى أن ننبّهك على حال الأناجيل، ونذكّرك بما ذكرناه من تناقضها واختلافها، ونسبتها إلى المسيح ما لا يرضاه له من يحبّه ويعتقد بإيمانه وكماله

١. سفر التكوين ٥: ٢٤.
٢. الرسالة إلى العبرانيّين ١١: ٥.
٣. إنجيل يوحنّا ٣: ١٣.

وصلاحه. على أنّ هذا ـ بل بعضه ـ يكفي في بطلان هذا التشبّث الواهي.

بل نقول: إنّ هذا المنقول كذب على المسيح؛ لأنّ هذا الكلام يكذّبه العهدان.

فإنّه إن أُريد منه الزمان الماضي بالنسبة إلى حال التكلّم كما يقتضيه لفظ «صَعَدَ» فإنّه يكذّبه العهد القديم بما يذكره من صعود إيليّا. وهو كاذب أيضاً بنسبة الصعود إلى المسيح؛ لأنّه حينئذٍ لم يكن قد صعد إلى السماء. وهو مع كذبه من هاتين الجهتين لا يمسّ معراج رسول الله بشيء، من أوهام النفي.

وإن أُريد منه ما يعمّ الماضي والمستقبل رغماً على اللفظ، فإنّه يكذّبه أيضاً صعود إيليّا و كلام بولس في صعوده إلى السماء الثالثة؛ فإنّه لو كان هذا الكلام صادقاً لما صحّ لبولس أن يتردّد في صعوده بين كونه في الجسد أو خارج الجسد.

وأيضاً ما معنى قوله: ابن الإنسان الذي هو في السماء؟ فهل في السماء إنسان يكون المسيح ابنه؟

[الحلف في القرآن والعهدين]

وقد أقسم الله جلّ شأنه في جملة من فواتح السور بأشياء من بدائع صنعه، إذ كانت مظاهر قدرته و آثار رحمته ووسائل نعمه. فأقسم بها تنويهاً بآثار القدرة في خلقها، وتنبيهاً إلى أسرار النعمة فيها، وإعلاماً بتشرّفها بشرف الآثار وجلالة أسرار الآلاء، فقال جلّ اسمه مخاطباً لرسولهﷺ: ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وقال جلّ اسمه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ ـ وهما أظهر ثمار الأرض المقدّسة ـ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3].

ونحو ذلك من الأقسام.

---

١. يس (٣٦): ١ ـ ٣.
٢. الضحى (٩٣): ١ ـ ٣.
٣. التين (٩٥): ١ ـ ٤.

فاعترض المتكلّف بقوله:

والمسيح يعلّمنا ما نصّه:

لاتحلفوا ألبتّة لا بالسماء؛ لأنّها كرسيّ الله، ولا بالأرض؛ لأنّها موطئ قدميه، ولا بأُورشليم؛ لأنّها مدينة الملك العظيم. ولاتحلف برأسك؛ لأنّك لاتقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرّير[١].

يعني أنّ الحلف هو من عمل الشيطان، والقرآن يحلف بكلّ شيء[٢].

قلنا: إنّ الذي أقسم بهذه الأقسام في القرآن هو الله جلّ جلاله. فهل يقول المتكلّف:إنّ الله ـ جلّ شأنه ـ محكوم لإنجيل متّى؟ مع أنّ العهدين يذكران أنّ الله جلّ اسمه أقسم بذاته لإبراهيم[٣] وبقدسه لداود[٤]. وباسمه العظيم ليهوذا[٥]. وبيمينه وذراع عزّته لصهيون[٦]. وبغضبه لبني إسرائيل[٧]. وبفخر يعقوب[٨]. وذكر أيضاً لله أقساماً كثيرة[٩].

وإنّ القسم هو توسيط العظيم في تثبيت الكلام وتأكيد مضمونه. و قد يُقصَد به مع ذلك معنى آخر، وهو التنبيه على عظمة المحلوف به والتنويه بشأنه، كما تقول المزامير: إنّ الله أقسم بغضبه؛ فإنّ المراد من غضبه جلّ شأنه هو انتقامه وتنكيله بمن يعصيه؛ لأنّه جلّ جلاله منزّه عن عروض صفة الغضب كما تعرض للبشر. فأراد الله بقسمه بغضبه أن ينبّه إلى عظمة نقمته، وشرف شأنها في التأديب والتوبيخ، وقطع دابر المفسدين. ونحو

---

١. إنجيل متّى ٥: ٣٤ـ٣٧.

٢. الهداية ٢: ١٠٨.

٣. سفر التكوين ٢٢: ١٦.

٤. سفر المزامير ٨٩: ٣٥.

٥. سفر إرميا ٤٤: ١٦.

٦. سفر إشَعْياء ٦٢: ٨.

٧. سفر المزامير ٩٥: ١١.

٨. سفر عاموس ٨: ٧.

ذلك ما ذكرناه عن إشَعْياء من أنّ الله أقسم بيمينه وذراع عزّته، فإنّ المراد من ذلك آثار قدرته في نعمته ونقمته جلّت عظمته.

وبهذا الاعتبار أقسم الله في القرآن الكريم بالقرآن الحكيم، والأماكن المقدّسة مظاهر البركة والرحمة، كما نبّهنا عليه في أوّل العنوان.

ولا بأس أنّ نتعرّض لنهي إنجيل متّى عن حلف البشر، فنقول: إنّ العهد القديم جعل الحلف بالله نحواً من العبادة والاعتراف بإله الحقّ وتوحيده. فقد جاء فيه: «الربّ إيّاه تعبد وباسمه تحلف»[١]. يفتخر كلّ من يحلف به[٢]. والذي يحلف في الأرض يحلف بإله الحقّ[٣] كيف أصفح لك عن هذه بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة[٤]. ويكون إذا تعلّموا علماً طُرُقَ شعبي أن يحلفوا باسمي حيٌّ هو الربّ[٥]. وكثير من نحو ذلك.

وجاء أيضاً:

إذا نذر رجل نذراً للربّ أو أقسم قسماً أن يلزم نفسه بلازم فلا ينقض كلامه بكلّ ما خرج من فمه يعمل[٦].

وجاء في متّى:

أيضاً قد سمعتم أنّه قيل للقدماء: لا تحنث بل أوف للربّ أقسامك. وأمّا أنا فأقول لكم: لا تحلفوا ألبتّة لا بالسماء؛ لأنّها كرسيّ الله، ولا بالأرض؛ لأنّها موطئ قدميه، ولا بأورشليم؛ لأنّها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك؛ لأنّك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء، بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا، وما زاد عن ذلك فهو من الشرّير[٧].

---

١. سفر التثنية ٦: ١٣ و ١٠: ٢٠.

٢. سفر المزامير ٦٣: ١١.

٣. سفر إشَعْياء ٦٥: ١٦.

٤. سفر إرميا ٥: ٧.

٥. سفر إرميا ١٢: ١٦.

٦. سفر العدد ٣٠: ٢.

٧. إنجيل متّى ٥: ٣٣ـ ٣٧.

وهذا الكلام إن كان المراد منه تحريم القسم مطلقاً صادقاً كان أم كاذباً، فهذا الاحتجاج فيه لا يستقيم، وذلك لوجهين:

أحدهما: أنّ القسم إنّما يكون بما له شأن وجهة عظيمة، وأنّ كون السماء كرسيّ الله هي المصحّحة للقسم بها، لامانعة منه. وكذا كون الأرض موطئ قدميه، أي محلّ نفوذ مشيئته. وكذا كون أُورشليم مدينة الملك العظيم؛ فإنّ هذه الثلاثة قد اكتسبت بنسبتها إلى الله جلّ جلاله شرفاً وكرامةً فيحقّ القسم بها، وإلّا فبماذا يحقّ القسم؟ أتراه يحقّ بالأوثان وهيا كلها ومرتفعاتها وسواريها؟

وأيضاً إنّ صورة هذا الاحتجاج تعطي أنّ المانع من القسم بالأُمور العظيمة هو أمر عقلي لا يختلف بحسب الأزمان والشرائع، وفي ذلك اعتراض على التوراة بتسويغها القسم، وتغليطٌ لشريعتها في ذلك. أجل فأين يكون القول المنسوب في هذا الأصحاح للمسيح:

> لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس والأنبياء ـ بل لأُكمل ـ... إلى أن تزول السماوات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس ـ فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات[١].

فإنّ هذا الكلام يناقض مخالفة التوراة ولو بنحو النسخ فضلاً عمّا يعود عليها بالاعتراض والتغليط لشريعتها. نعم الذي يناسب هذا الاحتجاج هو قول القائل: «لو كان الأوّل بلا عيب لما طُلِب موضعٌ لثانٍ»[٢].

ولولا تشويش الكلام المتقدّم، لأمكن حمله على التعليم بالاجتناب من إكثار القسم، حذراً من الوقوع في الحنث الكثير. وأن لا يستهان بالحلف بالسماء والأرض وأُورشليم و الرأس الذي هو من عجائب صنع الله، وذلك لكرامة هذه المذكورات بانتسابها إلى الله بالوجوه المذكورة، فتكون الاستهانة بها جرأة على

---

١. إنجيل متّى ٥: ١٧ ـ ١٩.

٢. الرسالة إلى العبرانيّين ٨: ٧.

الله، فطريق الاحتياط هو اجتناب القسم، لئلّا يعتاد اللسان على إكثاره فيقع في الحنث كثيراً؛ فإنّ إكثاره واستسهال أمره من الشرّير.

ويؤيّد هذا الحمل ما جاء في الرسالة المنسوبة إلى يعقوب: «لا تحلفوا بالسماء ولا بالأرض ولا بقسم آخر بل لتكن نعمكم نعم، ولا كم لا؛ لئلّا تقعوا في دينونة»[١]، أي لئلّا توقعكم كثرة الحلف في دينونة الحنث وعقابه.

وقال الله جلّ شأنه في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾[٢]. وفي سورة القلم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[٣].

تنبيه: لا يوجد في التوراة ما ذكر في متّى من قوله: «قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للربّ أقسامك»، بل الموجود فيها من هذا النحو ماذكرناه[٤].

[آية الكفر بعد الإيمان]

وقال الله تعالى في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِالْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥].

فقال المتكلّف:

نزلت في عمّار بن ياسر، وذلك فإنّ المشركين أخذوه و أباه وأُمّه وغيرهم، فعذّبوهم وقتلوا أباه و أُمّه. وأمّا عمّار فوافقهم وكفر بمحمّد وقلبه كاره، فأتى عمّار محمّداً وهو يبكي، فقال له محمّد: ماوراك؟ قال: شرّ، يارسول الله، نلت منك وذكرتُ. فقال: كيف وجدت قلبك؟ قال: مطمئنّاً بالإيمان فجعل محمّد يمسح عينيه، وقال: إن عادوا فَعُدْ لهم بما قلت.

---

١. رسالة يعقوب ٥: ١٢.

٢. البقرة (٢): ٢٢٤.

٣. القلم (٦٨): ١٠.

٤. سفر العدد ٣٠: ٢٠.

٥. النحل (١٦): ١٠٦.

يعني يجوز الكفر باللسان إذا كان في القلب الإيمان. وهو تعليم فاسد، وهل يرضى الله بالشرك به باللسان؟ انظر قول المسيح: من ينكرني قدّام الناس أُنكره قدّام ملائكة أبي في السماوات وقوله: لاتخافوا ممّن يقتل الجسد بل خافوا ممّن يقتل الجسد ويعذّب النفس معاً. فالمبدأ الذي وضعه محمّد يساعد المنافق على نفاقه[١].

قلنا: أمّا الآية الكريمة، فلا تعرّض فيها لتسويغ الكفر باللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان، وغاية ما تعرّضته هو استثناء هذا المُكرَه المطمئنّ القلب بالإيمان، وأخرجته من الوعيد بغضب الله و العذاب العظيم اللذين يستحقّهما الكافر الذي شرح بالكفر صدراً. وهذا الاستثناء حقيقة لازمة لا يمكن لذي شعور إنكارها، ولا يسوغ لذي عقل ومعرفة أن يدّعي أنّ المكرَه على كلمة يقولها، والمرتدّ الحقيقي يكون عذابهما واحداً.

وأمّا تشبّث المتكلّف فإنّما هو ببعض وجوه الرواية الآحاديّة، المختلفة الألفاظ المضطربة النقل، المقطوعة السند. وزاد المتكلّف على ذلك فخبط ولفّق ما ذكره من روايات مختلفة.

ويكفي في اضطراب الرواية أنّ المذكور من طريق أبي عبيدة «فإن عادوا فعد». وعن محمّد بن سيرين «فإن عادوا فقل ذلك لهم»[٢]. وفي مرسلة الكشّاف «مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[٣]. وفيما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس[٤] لم يذكر من ذلك شيء، بل مقتضى الرواية المذكورة أنّه لا محلّ لشيء من هذا القول، فإنّها تذكر أنّ عمّاراً أخبر رسول الله بما جرى له حينما لحقه في هجرته إلى المدينة، دار المنعة والأمن من عود المشركين إلى تعذيب عمّار وإكراهه.

---

١. الهداية ٢: ٨٥.

٢. الروايتان في الدرّ المنثور ٥: ١٧٠، ذيل الآية.

٣. الكشّاف ٢: ٦٣٦، ذيل الآية ١٠٦ من النحل.

٤. الدرّ المنثور ٥: ١٦٩، ذيل الآية.

وأمّا النقل لما قاله عمّار للمشركين، فهو مضطرب أيضاً. ففي رواية ابن عبّاس أنّ عمّاراً قال للمشركين كلمة أعجبتهم تقيّةً. وفيما روي من طريق أبي عبيدة سبّ النبيّ ﷺ وذكر آلهة قريش بخير. وفيما عن السدّي أنّ عمّاراً وخبّاباً أخذهما قريش وعذّبوهما حتّى كفرا. وفيما عن قتادة أنّ بني المغيرة غطّوا عمّاراً في بئر وقالوا: اكفر بمحمّد ﷺ فاتّبعهم على ذلك وقلبه كاره. وفي مرسلة الكشّاف: أنّ عمّاراً أعطى قريشاً ما أرادوا بلسانه[١].

وغاية ما يتّفق عليه هذا النقل المضطرب هو أنّ عمّاراً نال من رسول الله بلسانه وهو مكره ملجأ.

وعلى فرض صحّة ذلك، لنا أن نقول: إنّ فلسفة الإيمان ونشر كلمة الحقّ وإعلاء كلمة الدين، تقتضي أحوالاً مختلفة بحسب اختلاف الوقت ومصلحته و مناسباته، فربّ وقت لايسع فيه إلّا الملاينة والإبقاء على أنفس المؤمنين الداعين إلى الحقّ، ليتلطّفوا في نشر الدعوة بالرفق والمطايبة، إلى أن تسنح له الفرصة إلى نشرها بالحزم والجدّ. وذلك حيث يأمنون بحسب العادة من استئصالهم، الموجب لانعدام أنصار الدعوة؛ فإنّ الغرض في مثل هذه الأُمور ليس مجرّد تسليم النفوس للهلاك، وإنّما هو النهضة لإعلاء دين الحقّ ببثّ الدعوة وكسر شوكة الضلال، بتعاضد الأنصار، فربّما لا يمنع العقل ولا الشرع من بعض أنحاء الملاينة و المداراة من بعض الأشخاص في بعض الأحوال، إذا كان الحزم والشدّة فيها هادمين لبنيان الدعوة، مضعضعين لأساسها.

نعم، لا يجوز للنبيّ معلّم الدعوة أن ينكل عنها وينكرها، أو يبدل في تعليمها، بحال من الأحوال. وإنّما له في فلسفتها أن يتمهّل في الجدّ في تكرارها، ويتلطّف في أمرها، إلى أن تسنح له الفرصة في إجرائها بالحزم والشوكة.

فنقول بناء على الرواية والسيرة المعلومة: إنّ عمّاراً قد أخذ في أمر الإيمان ونصرة

---

١. الكشّاف ٢: ٦٣٦، ذيل الآية ١٠٦ من النحل؛ الدرّ المنثور ٥: ١٦٩ ـ ١٧٠، ذيل الآية ١٠٦ من النحل.

الحقّ بمجامع الحكمة، وأعطى كلّ مقام حقّه بحسب حاله؛ فإنّه رجّح الملاينة مع المشركين بكلمة يُورِّي[1] بها في شأن رسول الله، وذلك حيث كان محتقراً بين المشركين، يعلم أنّ قتله لا يجدي في قوّة الدعوة، ولا يهيّئ لها ثأراً تعتزّ بطلبه. بل إنّما يُنقِص قتله من عديدها. ومع ذلك فقد رهقه الوجل ممّا قال، وجاء إلى رسول الله باكياً. ولعلّ هذا الحال أحسن أثراً في نُصرة الدعوة من قتله في تلك الحال. ولكنّ لمّا قويت شوكة الحقّ وكثرت دعاته، وعلم أنّ قتله إن لم يُشيّد كلمة الحقّ لا يضعضعها، أخذ حينئذٍ بالحزم والشدّة بحَدّي سيفه ولسانه.

هذا، ولو صحّ من الرواية أنّ رسول الله ﷺ قال لعمّار: «إن عادوا فعد لهم بما قلت» لكان ناظراً إلى مثل الحال في إكراه عمّار، وأن يقول مثل ما قال ممّا تُصلِح التورِيَةُ فاسدَه. وقد بيّنّا أنّ حكمة الدين قد تقتضيه و يرضاه الله لأجل إعلاء دينه، ولم يكن ذلك تجويزاً للكفر باللسان مطلقاً ولا تعليماً به. ولكن جاء في إنجيل المتكلّف عن قول المسيح:

كلّ خطيئة وتجديف يُغفَر للناس. وأمّاالتجديف على الروح، فلن يغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان، يُغفَر له. وأمّا من قال على الروح القدس، فلن يغفر له[2].

ولا تلتفت إلى تشبّث المتكلّف للمنع من ذلك مطلقاً بما نقله عن قول المسيح: «من ينكرني قدّام الناس أُنكره قدّام ملائكة أبي في السماوات» فإنّه لا بدّ أن يحمل الإنكار على إنكار المسيح حقيقة، كمن شرح بالكفر صدراً، ولا يمكن عمومه للكفر بالمسيح وإنكاره باللسان، وإلّا كان هذا الكلام المنقول عن المسيح كاذباً بمقتضى العهد الجديد؛ فإنّ الأناجيل اتّفقت على أنّ بطرس أنكر المسيح وصار يحلف ويلعن. مع أنّ المسيح أنذره بذلك وهو قد عاهد المسيح على أن لا ينكره. ومع ذلك فالعهد الجديد يقول: «إنّ

---

١. ورّيت الخبر: إذا سترته و أظهرت غيره. الصحاح ٦: ٢٥٢٣، «و ر ى».
٢. إنجيل متّى ١٢: ٣١ و ٣٢.

المسيح بعد ذلك بأيّام قلائل سلّم إليه رعاية الكنيسة»[١].

ومن الظرائف أنّ المتكلّف لم يكتفِ باختلاف متّى ولوقا في نقلهما لكلام المسيح، حتّى ثلّثهما بالاختلاف والتحريف ليكمل له التثليث. ففي متّى: «من ينكرني قدّام الناس أُنكره أنا أيضاً قدّام أبي الذي في السماوات»[٢]. وفي لوقا: «ومن أنكرني قدّام الناس يُنكَر قدّام ملائكة الله»[٣]. والمتكلّف ينقله بتحريفه هكذا: «من ينكرني قدّام الناس أُنكره قدّام ملائكة أبي في السماوات». وكذا ثلّث بالاختلاف والتحريف في نقله عن قول المسيح: «لا تخافوا ممّن يقتل الجسد بل خافوا ممّن يقتل الجسد ويعذّب النفس معاً»[٤].

ويكفي في بطلان التشبّث بهذا الكلام أنّه يفتح باب الاعتراض على المسيح، حيث تذكر الأناجيل أنّه سئل عن إعطاء الجزية لقيصر، فصار يُعَمِّي في الجواب ويُوَرِّي به على وجه يوهم ما يخالف حكم الله[٥]. ولم يتردّد في اليهوديّة؛ لأنّ اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه[٦]. ولأجل ذلك لم يكن يمشي بينهم علانية[٧]. وهذا يقتضي أنّ الخوف من الناس قد صدّه عن دعوته وتعليمه.

هذا كلّه ولم يكن في دعوة التلاميذ إلّا الوعظ بأنّه قد اقترب ملكوت السماوات وملكوت الله[٨]. وليس في هذا مظنّة خوف؛ لأنّه ليس فيه مصادمة لنحلة المدعوّين، لا في عبادتهم ولا في شريعتهم. بل هي بشارة مجملة تمتدّ إليها الأعناق، وتنشرح لها الصدور؛ فإنّ اليهود كانوا ينتظرونها.

---

١. إنجيل يوحنّا ٢١: ١٥ ـ ١٨.

٢. إنجيل متّى ١٠: ٣٣.

٣. إنجيل لوقا ١٢: ٩.

٤. فطابقه مع إنجيل متّى ١٠: ٢٨؛ إنجيل لوقا ١٢: ٤ و ٥.

٥. فانظر إنجيل متّى ٢٢؛ إنجيل مرقس ١٢؛ إنجيل لوقا ٢٠.

٦. إنجيل يوحنّا ٧: ١.

٧. إنجيل يوحنّا ١١: ٥٣ و ٥٤.

٨. إنجيل متّى ١٠: ٧؛ إنجيل لوقا ١٠: ٩.

[جعل الشفاء في عسل النحل]

وقال الله تعالى في سورة النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[١].

فقال المتكلّف: «ادّعى القرآن أنّ عسل النحل شفاء من كلّ داء»[٢].

قلنا: لا يخفى على من اطّلع على الطبّ أنّ العسل فيه شفاء من أدواء كثيرة، وأيسر ذلك أنّه الجزء المقوّم في المعاجين والترياقات الكبار الفعّالة. وقد قال القرآن الكريم: فيه شفاء. ولم يقل: فيه شفاء من كلّ داء. وإنّما قال ذلك روح الكذب والتعصّب.

[عرض الأمانة على السماوات و...]

وقال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٣].

فقال المتكلّف:

> ولم يكتف القرآن بأن جعل البهائم والدبّابات من العقلاء، بل جعل الجمادات أيضاً، ثمّ قال: إنّ الإنسان وحده المختصّ بالعقل[٤].

قلنا: ممّا جاء في كتاب العهدين من هذا النحو قوله: «أبصرتك ففزعت الجبال»[٥]. رأت الأرض وارتعدت[٦]. لماذا أيّتها الجبال المُسَنَّمة ترصدن جبل الله؟[٧] ترنّمي أيّتها السماوات اهتِفي يا أسافل الأرض أشِيدِي يا جبال تَرنُّماً الوعر وكلّ

---

١. النحل (١٦): ٦٩.
٢. الهداية ٢: ٨٤.
٣. الأحزاب (٣٣): ٧٢.
٤. الهداية ٢: ١٠٤.
٥. سفر حيقوق ٣: ١٠.
٦. سفر المزامير ٩٧: ٣.
٧. سفر المزامير ٦٨: ١٦.

شجرة فيه[١] إن سكت هؤلاء فإنّ الحجارة تصرخ[٢].

فإن قال المتكلّف: إنّ هذه حقائق غيبيّة قد كشف عنها الوحي، وأعلمنا منها بما قصرنا عن إدراكه، فلماذا لا يقول بمثل ذلك في القرآن الكريم؟

وإن قال: إنّها استعارات وكنايات، فلماذا لا يقول بمثل ذلك في القرآن الكريم؟ أم أنّه لا يدري بما ذكرناه من كتابه؟ أو يدري ولكن روحه لا تدعه حتّى ينفث بما عنده؟

[تفسير دابّة الأرض]

وقال الله تعالى في سورة النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[٣].

فزعم المتكلّف نقلاً عن بعض المفسّرين أنّ الدابّة المذكورة هي الجسّاسة، الواردة في أخبار الآحاد المضطربة، والأقوال المشوّشة المختلفة[٤]. فجعلها من الخرافات[٥].

وذكرها سايل وذكر اضطراب الأقوال فيها ثمّ قال: «وكلّ هذا الهذيان إنّما هو نتيجة خواطر مختبلة أصلها الوحش المذكور في سفر الجليان»[٦].

قلنا: لم يدلّ دليل قاطع على أنّ المراد بدابّة الأرض غير الإنسان، بل دلّت بعض الأدلّة المعتبرة أنّ المراد بها إنسان خاصّ[٧]، وأنّ الإنسان ممّا يدبّ على الأرض.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[٨].

---

١. سفر إشَعْياء ٤٤: ٢٣.

٢. إنجيل لوقا ١٩: ٤٠.

٣. النمل (٢٧): ٨٢.

٤. ذكر جملة من هذه الطبري في تفسيره ٢٠: ٩ ـ ١١، ذيل الآية ٨٢ من النمل.

٥. الهداية ٢: ١٠١.

٦. مقالة في الإسلام: ١٥٧.

٧. تفسير القمّي ٢: ١٠٧، ذيل الآية ٨٢، من النمل.

٨. هود (١١): ٥٦.

وانظر إلى التوراة الرائجة[١]. وشتّانَ ما بين حسن هـذا الإبـهام المـناسب لمـقتضى الحال، وبين سماجة الكناية عن المسيح بالخروف الذي له سبعة قرون[٢]. وعن جسده بالهيكل، أي بيت المقدس[٣].

ولئن قبلنا أخبار الآحاد في هذا الشأن، فليكن مـا روي فـيها مـن تـأثير الدابّـة على الجباه، مثل ما جاء مـن السِـمَة والكـتابة عـلى الجـباه[٤]. وإنّ مـقتضى أخـبار الآحاد أنّ الدابّة المذكورة أشـبه شـيء بـالخروف المـذكور[٥]. أو أحـد الحـيوانـات الأربعة المذكورة[٦].

ولئن كانت أقوال بعض المسلمين وروايات آحادهم في الجسّـاسة مـن الهـذيان الناشئ عن خواطر مختبلة، فما ظنّك بسفر الجليان ـ أي رؤيا يوحنّا ـ الذي يمثّل لك سَوْرَة البرسام و هذيانه.

وإنّ أخبار الجسّاسة والأقوال فيها، ليست من أُصول الإسلام و لا كـتب وحـيه، ولا يقطع المسلمون على صدورها من مأخذ الدين الإسلامي. ولكـنّ النـصارى فـي قرون كثيرة قد اتّفقوا على أنّ سفر الرؤيا ليوحنّا الرسول، ولا يشكّون في أنّه كـتاب وحي وإلهام.

[أبواب جهنّم]

وقال الله تعالى في سورة الحجر في شأن الغاوين أتباع إبليس: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٧].

---

١. سفر التكوين ٧: ٢١ و ٢٢.
٢. رؤيا يوحنّا ٥: ٦ و ٨.
٣. إنجيل يوحنّا ٢: ٢٠ و ٢١.
٤. سفر الخروج ٩: ٤؛ رؤيا يوحنّا ٧: ٣ و ١٣: ١٦ و ١٤: ١.
٥. رؤيا يوحنّا ٥: ٦.
٦. رؤيا يوحنّا ٤: ٦.
٧. الحجر (١٥): ٤٣ ـ ٤٤.

فقال المتكلّف:

وكتاب الله يعلّمنا أنّه لا يوجد سوى محلَّين، وهما الجنّة والنار، فمحلّ المؤمنين الحقيقيّين هو النعيم، ومحلّ غير المؤمنين هو الجحيم. فالاعتقاد بوجود سبع دركات وسبع أبواب لجهنّم، من الاعتقادات الوثنيّة ومن خرافات اليهود[١].

قلنا: لا يخفى اختلاف الغاوين في غوايتهم، والمجرمين في عظائم جرمهم، فلا بدّ لمن يؤمن بالآخرة والعقاب وجهنّم أن يذعن باختلاف العقاب فيها، بحسب أنحاء الإلحاد والكفر، والفساد والظلم، واضطهاد الداعين إلى الله. ولا بدّ أن تختلف دار العقاب في معاقل سجونها في شديد العقاب وأشدّه. وهذه حقيقة لا ينكرها غير الملحد، ولا طريق لتفصيل مجملها إلّا الوحي الإلهي. وقد بيّن الله العظيم في كتابه الكريم نحواً من ذلك، حسبما يقتضيه حال الموعظة.

وأمّا الكتب الرائجة التي اغترّ المتكلّف بها، فلم تصرّح بخلاف هذه الحقيقة. ولم تقل: إنّ جهنّم لها باب واحد أو طبقة واحدة. وإنّ اقتصارها على ذكر جهنّم، لا يقتضي دلالتها على أنّها عرصة بسيطة فيها نار واحدة، بكيفيّة واحدة وعقاب واحد. وإنّها لينبغي التَشَكُّر لبعضها إذ سمح بذكر جهنّم، فإنّ التوراة الرائجة ـ وحاشا الحقيقة ـ لم تُطْرِ لجهنّم ذكراً. وإنّما شدّدت وعيدها بالقحط والأمراض وأن يتزوّج الخاطئ امرأةً ورجل آخر يواقعها[٢].

وقد عرفت من أشتات كتابنا حالَ كتب المتكلّف الرائجة في نسبتها إلى الوحي، واشتغالها بالتناقض والفضول الفارغة، والحجج الواهية، والتفصيل القبيح في مثالب الأنبياء والأولياء، ونسبة الكفر والفضائح إلى قدسهم وإلى عائلاتهم.

ولعلّ المتكلّف يغترّ ويقول: إنّ الكتب التي لا يفوتها مثل الإكثار من ذلك، لا يفوتها تفصيل الحقيقة لجهنّم لو كان لها أصل. فقل له: مهلاً، ولا تبشّر أوهامك؛ فإنّ الكتاب الذي تستودعه تقلّب الأحوال والنشآت وتلاعب الأيّام و الأهواء مثل ما ذكرناه، لا بدّ

---

١. الهداية ٢: ٨٣.

٢. سفر التثنية ٢٨: ٣٠.

من أن تَستَلِب منه كثيراً من الحقائق وكفى بحال التوراة الرائجة حجّة عـليك؛ فـإنّها أكثرت في سفاسفها في شأن الأنبياء والأولياء، وتفصيل ثياب هارون، وصيدلة البرص. ولم تسنح لها الفرصة بذكر جهنّم أصلاً ورأساً. وإنّك في اعتراضك على القرآن، بغفلة كتبك، قد فتحت للطبيعي باب الاعتراض على العهد الجـديد إذ قـال لك: إنّ جـهنّم المذكورة في العهد الجديد هي من الخرافات، فإنّ التـوراة التـي هـي أسـاس تـعليم العهدين لم تذكر جهنّم أصلاً. على أنّ اعتراضك عـلى القـرآن الكـريم بـغفلة كـتبك المعروف حالها، إنّما هو شطط واهٍ. واعتراض الطبيعي على كتبك بتوراتك جدل لازم، فحتّى متّى؟

المقدّمة الرابعة عشرة

فيما تضمّنه العهدان الرائجان من حيث اللاهوت والنبوّات والشريعة والآداب

وفيها فصول:

الفصل الأوّل في الإلهيّات

لا يخفى أنّ عنوان العهدين هو التعليم بوجود الإله الصانع القادر العليم الحكيم الحيّ الأزلي الدائم، وبجلال قدسه وكمال ذاته، وبتوحيده، وأنّه جلّ جلالهُ لا إله غيره، ولا شبيه له ولا مثل، غير منظور ولا يُرَى،والتعليم بالتنزّه من ضلالة الشرك وعبادة الأوثان.

ولكنّ دواهي الأيّام ودواعي الأهواء قلّما تدع حقيقة لا تكدّر صفوها، ولا تدخل عليها أضدادها في ديوان بيانها و كتاب تعليمها، حتّى تتركها وأضدادها في معترك التناقض ومثابرة[1] التنافر. وإن أوهمت كثيرين بتلبيس المختلس على الغافل، وخدعة الماذق للغرّ[2]، أنّها قد نظمت فرائدها في سمط البيان، وجمعت فوائدها في ديوان الوحي، وهيهات فقد سبق السيف العذل[3]، واتسع الخرقُ على الراقع، ولن يصلح العطّار ما أفسد الدهر.

---

١. المثابرة على الشيء: المواظبة عليه. الصحاح ٢: ٦٠٤، «ث ب ر».

٢. الماذق: الكاذب. الغرّ: الغافل، غير المجرّب. الصحاح ٢: ٧٦٨، «غ ر ر».

٣. مجمع الأمثال ٢: ٩٧.

ولذا جاء في العهدين في الأُمور الإلهيّة والشؤون النبويّة ما لا يقف في صفّ الحقيقة، ولا يستقيم على قاعدة الإيمان، ولا يدور على مِحْوَر العرفان. فقد ذكرت التوراة الرائجة عن وحي الله لموسى باللغة العبرانيّة أنّ اسمه المقدّس جلّ اسمه «يَهْوَه»[١] ويَهْوَه هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من تحت ليس سواه[٢]. وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب[٣]. وهو الإله الذي خلق السماوات والأرض وجبل آدم تراباً من الأرض[٤].

ومقتضى هذا أنّ «يَهْوَهْ» اسم عَلَم لله جلّت أسماؤه. ولكنّ التوراة الرائجة تقول:

وأخذ يهوه الإله آدمَ ووضعه في جنّة عدنٍ ليعمَلَها ويحفظها. وأوصى يهوه الإله آدمَ قائلاً من كلّ شجر الجنّة أكلاً تأكل. ومن شجرة معرفة الخير والشرّ ـ أو معرفة الحسن و القبيح ـ فلا تأكل منها. لأنّك بيوم أكلك منها موتاً تموت[٥]. وقالت الحيّة للمرأة ـ حوّاء ـ: أحقّاً قال الله: لا تأكلا من كلّ شجر الجنّة. فقالت المرأة للحيّة: من ثمر شجر الجنّة نأكل ومن ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة قال الله لا تأكلا منه ولا تَمَسّاه لئلّا تموتا. وقالت الحيّة للمرأة: لا تموتا موتاً. بل يعلم الله أنّه بيوم أكلكما منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارِفَي الخير والشرّ ـ فلمّا أكل آدم وحوّاء ـ ... انفتحت أعينهما وعلما أنّهما عريانان[٦].

فالتوراة الرائجة تقول بسخافة مضمونها ـ وأستغفر الله ـ: إنّه قد كذبَ القولَ لآدم بأنّه بيوم أكله من شجرة الخير والشرّ يموت موتاً، بل كانت الحيّة هي الصادقة في قولها؛ فإنّهما لمّا أكلا من الشجرة انفتحت أعينهما و علما أنّهما عريانان وصارا عارِفَي الخير والشرّ، كما سيأتي.

---

١. سفر الخروج ٣: ١٥ و ٦: ٣؛ كذا جاء في سفر المزامير ٨٣: ١٨؛ سفر عاموس ٥: ١٣ و ٤: ٨ و ٩: ٦.

٢. سفر التثنية ٤: ٣٩.

٣. سفر الخروج ٣: ١٥ و ١٦.

٤. سفر التكوين ٢: ٤ و ٧.

٥ و ٦. سفر التكوين ٢: ١٥ ـ ١٨ و ٣: ١ ـ ٧.

والمتكلّف[١] جمع في الاعتذار عن ذلك بين أمرين متباينين، تتكفّل ذات التوراة ببيان غلطهما:

أحدهما: أنّ المراد من الموت هو الموت الروحي؛ لأنّ آدم لمّا تعدّى الوصيّة استوجب سخط خالقه. وتوراة المتكلّف تغلّطه في هذا الاعتذار، فإنّها تقول: إنّ آدم قبل أكله من الشجرة لم يكن عارِفَ الخير والشرّ، حتّى أنّه لا يميّز أنّه عريان، ولا يخجل من ذلك. وهذا الحال هو الهمجيّة والموت الروحي. وإنّ من كان على مثل هذا الحال لا يدرك قبح المخالفة ولا يصحّ السخط عليه، وكيف يصحّ السخط على من لا يعرف الخير والحسن لكي يعرف حسن الطاعة؛ ولا يعرف الشرّ والقبيح لكي يعرف قبح المخالفة وتعدّي الوصيّة؟ بل مقتضى التوراة أنّ أكله من الشجرة أوجب له الحياة الروحيّة، إذ صار عارِفَ الخير والشرّ كالإله، وصار قابلاً بمعرفته أن يشرق في قلبه نور العرفان والإيمان والرغبة في الطاعة.

وثانيهما: أنّه يوم أكله من الشجرة دبّت فيه أسباب الموت وغرست في جسمه بذور الفناء. والتوراة توضح أنّ هذا وهم فاحش؛ لأنّ مقتضاها أنّ آدم لم يخلق للبقاء، بل قد وقعت المحاذرة والتدابير لأن لا يأكل من شجرة الحياة فيعيش إلى الأبد ـ كما ستسمعه ـ فهو من يوم خُلِق قد غرس التقدير في جسمه بَذْرَ الفناء. فهذا الموت التقديري لازم له قبل أكله من الشجرة.

ثمّ اعلم أنّ كاتب التوراة الرائجة ـ وحاشا الحقيقيّة ـ قد أودع مضمونها السخيف أكثر ممّا قالته الحيّة في المنشأ لنهي آدم عن الأكل من الشجرة، غفرانك اللهمّ، وأنت المستعان على عبث الأهواء.

وتقول التوراة الرائجة أيضاً: إنّ يَهْوَهْ تبارك اسمه و جلّ شأنه، سمع آدم و حوّاء صوته و هو مُتَمَشٍّ في الجنّة عند ريح النهار، فاختبأ آدم من وجهه في وسط شجر الجنّة. فنادى يَهْوَهْ الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنّة فخشيت

١. الهداية ٢: ١٣١.

لأنّي عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟[١]

أفلاترى أنّ هذا الكلام يقول بسخيف مضمونه: إنّ الله جلّ شأنه جسم يتمشّى في الجنّة، وله في تمشّيه صوت. وإنّ آدم بعد ما صار عارفاً للخير والشرّ عرف أنّ الاختباء في شجر الجنّة يخفيه على الله تعالى شأنه. وكأنّه لأجل ذلك سأله: أين أنت؟

وتقول لمّا أكل آدم من الشجرة وصار عارفاً للخير والشرّ، قال يَهْوَه:

هو ذا الإنسان صار كواحد منّا عارفاً الخير والشرّ والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه يَهْوَه الإله من جنّة عدن... وأقام شرقيّ جنّة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة[٢].

أفلاترى أنّ هذا الكلام يقول مضمونه: إنّ الله ـ جلّت عظمته وعظمت قدرته ـ قد خاف من عاقبة آدم، وصار يحاذر منه على استقلال مملكته واستبداده في أمره، حتّى أعمل التدابير والاحتياطات اللازمة.

وتقول أيضاً لمّا عزم بنو آدم بعد الطوفان أن يبنوا في بابل مدينة وبرجاً حصيناً لئلّا يتبدّدوا على وجه كلّ الأرض:

نزل يَهْوَه لينظر المدينةَ والبُرْجَ اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال يهوه: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض[٣].

أفلا تقول: ما حاجة علم الله جلّ جلاله إلى النزول لأجل الاطّلاع؟ وما حاجة قدرته العظيمة إلى الاستعانة والنزول؟ وما أقبح هذه التعبيرات حتّى لو سمح أُسلوب التوراة الرائجة بحملها على المجاز، ولكنّه لا يسمح!

---

١. سفر التكوين ٣: ٨ـ ١٢.

٢. سفر التكوين ٣: ٢٢ ـ ٢٤.

٣. سفر التكوين ١١: ٥ ـ ٧.

أو لاترى أنّ مضمون هذا الكلام يقول بسخافته: إنّ الله جلّ شأنه خاف على مملكته من تمرّد الرعيّة وخروجهم عن نفوذ سلطانه، فاستغاث بمن يعينه على النزول معه لإعمال التدابير والاحتياطات في حفظ المملكة عن الانحلال.

وتقول أيضاً:

> وقال يَهْوَه صرخةُ صدُوم وعَمُّورة قد كثرت و خطيئتهم قد عظمت جدّاً. أنـزِل وأرى كصرختها الآتية إليّ عملوا كلّها وإلّا أعلمها [١].

وقل: ما حاجة علم الله جلّ اسمه إلى النزول لأجل الاطّلاع وتحقيق الحال، والكشف على مطابقة الصرخة والشكاية لحقيقة العمل أم لا، لكي يحصل له العلم بحقيقة الحال في هذا النزول للاكتشاف؟

وتقول أيضاً: ما حاصله أن يَهْوَه جلّ اسمه وعد موسى بأن يُصعِد بني إسرائيل من مصر إلى أرض الكَنْعاني والأموري والحِوّي واليَبُوسي، ولكنّه جلّ شأنه قال لموسى: تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون: يَهْوَه إله العبرانيّين استقبلنا فالآن نمضي طريق ثلاثة أيّام في البرّيّة ونذبح ليَهْوه إلهنا.

مع أنّها تصرّح بأنّ الله لم يستقبل بني إسرائيل، بل أرسل إليهم موسى، ولم يكن المقصود هو الذهاب طريق ثلاثة أيّام للذبح، بل المضيّ إلى أرض الموعد المذكورة وحاشا لله أن يعلّم بالكذب، ويفتتح رسالته بهذا العمل الفاسد !

وتقول أيضاً لمّا رجع موسى برسالة الله من مديان إلى مصر حسب الأمر والموعد:

> صار في الطريق في المنزل والتقاه يَهْوَه وطلب أن يقتله. فأخذت صَفُّورة امرأة موسى صَوّانةً فقطعت غُرْلةَ ابنها ومَسّت رجليه وقالت: إنّك عرّيس دم، لي فانفكّ عنه [٢].

أفلاترى أنّ هذا الكلام يقول بسخافة مضمونه: إنّ الله جلّ شأنه أخلف وعده لبني إسرائيل وموسى وطلب أن يقتله ولكنّه انفكّ عنه بمخادعة صفّورة.

---

١. سفر التكوين ١٨: ٢٠ و ٢١.

٢. سفر الخروج ٤: ٢٤ ـ ٢٦.

وتقول أيضاً:

إنّ يَهوَه كلّم موسى وهارون أن يأمرا بني إسرائيل في مصر بذبح الفصح... وأن يجعلوا من دمه على أبوابهم. ويعبر يَهْوَه ويضرب كلّ بكر في أرض مصر من الناس والبهائم... ويكون الدم الذي على الأبواب علامة على بيوت إسرائيل فيرى يَهْوَه الدم ويعبر عنهم فلا تكون عليهم ضربة للهلاك حينما يضرب مصر[١].

وياللعجب العجيب ما حاجة الله إلى العلامة؟ أفلم يكن من الممكن في علمه جلّ شأنه أن يعرف بيوت إسرائيل بدون العلامة؟

وتقول أيضاً:

إنّ موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعين من شيوخ إسرائيل رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف وكذات السماء في النقاوة... فرأوا الله وأكلوا وشربوا[٢].

وكيف يكون التجسيم إذاً؟ بل لو قيل: إنّ الله جلّ شأنه جسمٌ متحيّز في مكان، لاحتمل من المجاز ما لا يحتمله هذا الكلام.

وتقول أيضاً:

فنزل يَهْوَه في السحاب ووقف ـ أي موسى ـ عنده هناك ونادى باسم الربّ وعبر يَهْوَه قُدّامه[٣]. فنزل يَهْوَه في عمود سحاب ووقف بباب الخيمة[٤].

ويقول العهد القديم:

إنّ يَهْوَه كان جالساً على كرسيّه وكلّ جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره. فقال يَهْوَه: من يغوي أخآب فيصعد ويسقط في راموت جلعَاد. فقال هذا هكذا وقال ذاك هكذا. ثمّ خرج الروح ووقف أمام يَهْوَه فقال: أنا أُغويه فقال له يَهْوَه: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال:

---

١. سفر الخروج ١٢: ٦ ـ ١٤ و ٢١ ـ ٢٤.

٢. سفر الخروج ٢٤: ٩ ـ ١١.

٣. سفر الخروج ٣٤: ٥ و ٦.

٤. سفر العدد ١٢: ٥.

إنّك تغويه وتقدر فاخرج وافعل هكذا[١].

ولا تخفى سخافة هذا الكلام في تضمّنه للتجسيم والعجز والحيرة، وعدم الاهتداء إلى الرأي حتّى اهتدى إليه روح الكذب. وأنّ القدرة تقصر عن نفوذها حتّى تتوصّل بالكذب.

ويقول العهد القديم عن وحي إرميا:

فقلت: آه يا سيّدي يَهْوَه حقّاً خدّاعاً خادعت الشعب هذا وأُورشليم قائلاً: سلام يكون لكم، وقد بلغ السيف إلى النفس.

وسخافة هذا الكلام لا تحتاج إلى البيان.

وجاء في العهد الجديد أنّ المسيح لمّا صعد إلى السماء جلس عن يمين الله[٢].

وهذا يقتضي التجسيم، وأنّ الله جلّ جلاله يحويه المكان، ويكون له جهة يمين. كما جاء في التوراة أنّ الله جلّ شأنه له جهة وراء[٣].

ويقول العهد الجديد أيضاً: «إنّ الله جلّ شأنه محبّة»[٤].

ولا يخفى أنّ المحبّة ميل شيء إلى شيء، فهي عرض لا تأصُّلَ له في الوجود.

ويقول العهد الجديد أيضاً: «والكلمة كان عند الله والكلمة كان الله»[٥].

فكيف يكون الكلمة الله؟ والذي هو الله كيف يكون عند الله؟

وجاء في العهد الجديد أيضاً: «لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه»[٦].

وهذه من الدواهي التي تُوقِفُ العقلَ والعرفان موقفَ الحسرة والعجب.

هذا، ودع عنك ما تضمّنه العهدان ممّا يمكن حمله على المجازات الواهية المستهجنة، كوصفه جلّ شأنه بطويل الروح[٧]. وأنّه حزن وتأسّف في قلبه لأنّه عمل

١. سفر الملوك الأوّل ٢٢: ١٩ ـ ٢٣؛ سفر الأيّام الثاني ١٨: ١٨ ـ ٢٢.

٢. إنجيل مرقس ١٦: ١٩؛ الرسالة إلى العبرانيّين ١٠: ١٢؛ انظر أعمال الرسل ٧: ٥٦.

٣. سفر الخروج ٣٣: ٢٣.

٤. رسالة يوحنّا الأُولى ٤: ٨ و ١٦.

٥. إنجيل يوحنّا ١: ١.

٦. أعمال الرسل ٢٠: ٢٨.

٧. سفر العدد ١٤: ١٨.

الإنسان والحيوانات[١]. وأنّه ندم على جعله شاول ملكاً[٢]. وأنّه رجل الحرب[٣]. وكنسبة الرأس له جلّ شأنه[٤]. وحدقة العين[٥]. والأجفان[٦]. والأنف[٧]. والفم[٨]. والجناحين والأجنحة والخوافي، وهي الريش الصغار من الأجنحة[٩]. والحضن[١٠]. وباطن القدمين[١١]. وموطىء القدمين[١٢]. وكنسبة المشي له جلّ شأنه[١٣]. والجلوس[١٤]. وأنّه جلّ شأنه ركب على كروب وطار[١٥]. وجالس على الكروبيم[١٦]. والركوب على سحابة سريعة والقدوم إلى مصر[١٧]. والابتلاع[١٨]. والالتحاف بالسحاب[١٩]. والتحيّر[٢٠]. والفرح[٢١]. والضحك[٢٢].

❊ ❊ ❊

١. سفر التكوين ٦: ٦ و ٧.
٢. سفر صموئيل الأوّل ١٥: ١١.
٣. سفر الخروج ١٥: ٣.
٤. سفر إشَعْياء ١٩: ١٧.
٥. سفر التثنية ٣٢: ١٠.
٦. سفر المزامير ١١: ٤.
٧. سفر الخروج ١٥: ١٠.
٨. سفر التثنية ٨: ٣.
٩. سفر المزامير ١٩: ٨و ٩١: ٤.
١٠. إنجيل يوحنّا ١: ١٨.
١١. سفر الخروج ٤٣: ٧.
١٢. سفر الأيّام الأوّل ٢٨: ٨.
١٣. سفر المزامير ١٠٤: ٣.
١٤. سفرالمزامير ٩: ٤.
١٥. سفر المزامير ١٨: ١٠.
١٦. سفر المزامير ٨٠: ١.
١٧. سفر إشَعْياء ١٩: ١.
١٨. مراثي إرميا ٢: ٢.
١٩. مراثي إرميا ٣: ٤٤.
٢٠. سفر إشَعْياء ٥٩: ١٦.
٢١. سفر المزامير ١٠٤: ٣١.
٢٢. سفر المزامير ٣٧: ١٣.

ولا يخفى أنّ الملائكة مخلوقون لله يسبّحونه ويقدّسونه ويعملون بأمره، كما جاء في العهد القديم[١]. وجاء أيضاً أنّ الله ينسب إليهم حماقة[٢]. وفيهم ملائكة أشرار[٣].

هذا والتوراة الرائجة كثيراً ما تنسب إلى الملاك ما تختصّ نسبته بالله جلّ شأنه، وتسمّي الملاك «يَهْوَه» أو «الإله» وهما اسمان مختصّان بذات الجلالة: فمن ذلك قولها:

إنّ ملاك يَهْوَه وجد هاجر ـ وذكرت مكالمته معها ثمّ قالت: ـ ... وقال لها ملاك يَهْوَه تكثيراً أُكثّر نسلك فلا يعدّ من الكثرة ـ ثمّ قالت التوراة ـ فدعت (أي هاجر) اسم يَهْوَه الذي تكلّم معها أنت إيلُ رُئي، أي إله رؤية[٤].

فالتوراة الرائجة سمّت الذي كلّم هاجر أوّلاً: ملاك يَهْوَه، ثمّ نسبت له أن يكثّر نسلها حتّى لا يعدّ من الكثرة. وهذه النسبة لا تصحّ إلّا لله تبارك الله اسمه. ثمّ سمّت الملاك الذي كلّم هاجر: يَهْوَه.

وقالت التوراة أيضاً: «ونادى ملاك الربّ هاجر من السماء... قومي احملي الغلام لأنّي سأجعله أُمّة عظمية»[٥].

وقد كثر خبط التوراة الرائجة بين الله جلّ اسمه، و بين الملاك الذي هو المَلك: فقد جاء فيها ما ملخّصه:

أنّ يَهْوَه ـ وهو الله جلّ اسمه، كما قدّمنا ـ ظهر لإبراهيم، فرفع عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون، فنظر وركض لاستقبالهم وسجد إلى الأرض وقال: يا سيّد إن كنت وجدت نعمة في عينك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتّكؤوا تحت الشجرة، وأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثمّ تجتازون. فعمل لهم طعاماً وأكلوا فقالوا: أين سارة؟ ... وقال: رجوعاً أرجع كوقت الحياة وهوذا لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة... فضحكت... فقال يَهْوَه: لِمَ ضحكت

---

١. سفر المزامير ١٠٣: ٢٠ و ١٠٤: ٤ و ١٤٨: ٢.
٢. سفر أيّوب ٤: ١٨.
٣. سفر المزامير ٧٨: ١٤٩؛ انظر إلى العهد الجديد رسالة بطرس الثانية ٢: ٤؛ رسالة يهوذا ٦.
٤. سفر التكوين ١٦: ٧ ـ ١٤.
٥. سفر التكوين ٢١: ١٧ و ١٨.

سارة؟ ... هل يستحيل على يَهْوَه شيء للميعاد أرجع إليك ولسارة ابن... ثمّ قام الرجال و تطلّعوا نحو سدوم[١].

ويا للعجب كيف يكون الله جلّ شأنه ثلاثة رجال يمشون ويأكلون؟ وكيف يخاطبهم إبراهيم تارةً بخطاب الواحد فيقول: يا سيّد عينك عبدك، وتارةً بخطاب الجمع فيقول: اغسلوا أرجلكم، واتّكئوا فتسندون قلوبكم؟

وكيف تعبّر عنهم التوراة مرّةً بضمير الجمع فتقول: أكلوا، وقالوا. ومرّةً بضمير الواحد فتقول: وقال. وقال يهوه: أرجع.

وليت شعري، هل تقول التوراة: إنّ الله يَهْوَه جلّت أسماؤه هو جمع الرجال الثلاثة الذين أكلوا، أم هو واحد منهم؟

نعم، إنّ الرسالة المنسوبة لعبد المسيح تقول: إنّ الرجال الثلاثة هم أقانيم الإله الواحد ولعلّه يحتجّ لخرافتها هذه بأنّهم أكلوا تحت الشجرة، فترغم بحجّتها أُنوف الوثنيّين، و تمثّل مجد الإله وقدسه للملحدين.

سبحانك اللّهمّ!!

ولعلّ المتكلّف يحتجّ على أنّ الرجال الثلاثة هم الله جلّ شأنه، بقول التوراة: إنّ إبراهيم ركض لاستقبالهم و سجد إلى الأرض؛ فإنّ المتكلّف يدّعي في مثل هذا المقام أنّ سجود إبراهيم دليل على أنّ الذي سجد له هو الله[٢]. ولم يشعر المتكلّف أنّ التوراة تبيّن من سخافة هذه الحجّة أنّ إبراهيم سجد مرّتين لبني حثّ[٣].

واعلم أنّ النصارى يتشبّثون لدعوى الثالوث وأُلوهيّة المسيح بأوهام كلمات في كتبهم الرائجة، فحاول إظهار الحقّ أن يجادلهم بما في كتبهم، لكي يوضّح أنّها لم يدعها قلم كَذِب الكَتَبة لأن تقف على حدّ المعقول وصواب المحاورة. بل إنّ أمرها دائر بين المقالات الكفريّة، أو التمادي على سخافة المجاز وممقوت التعبير، وإن أبى الكثير منها

١. سفر التكوين ١٨: ١ ـ ١٧.

٢. الهداية ٤: ٢٠٥ و ٢٠٦.

٣. سفر التكوين ٢٣: ٧ و ١٢.

إلّا مناقضة الحقائق المعقولة في اسم الله والإله وَيَهْوَه، وما تختصّ نسبته بالله جلّ اسمه كما سمعت بعضه[١]. ولكنّ المتكلّف نكص إلى تلفيقات لم يتدبّر بها ما في كتبه، فكأنّه لم يفهم مراد إظهار الحقّ، أو لم يجد ما يتعب به القلم و يسوّد به وجه الصحف إلّا هذه التلفيقات، حتّى حاول أن يلوّث إظهار الحقّ بما جادلهم به من كتبهم بل عابه به[٢].

ثمّ قالت التوراة في هذا الموضوع على الأثر ما ملخّصه:

وجاء الملاكان إلى سدوم... فاستقبلهما لوط وسجد بوجهه إلى الأرض، ودعاهما إلى ضيافته فأكلا، فقال الرجلان للوط: ... اخرج من لك في هذا المكان؛ لأنّ يَهْوَه أرسلنا لنهلكه... و كان الملاكان يعجّلان لوطاً... وكان لمّا أخرجاهم قال: أهرب لحياتك... فقال لهما: لا يا سيّد هو ذا عبدك وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك... هو ذا المدينة قريبة أهرب إليها فقال: رفعت وجهك في هذا الأمر... لأنّي لا أقدر أن أفعل شيئاً حتّى تجيء إلى هناك[٣].

وليت شعري إنّ الرجال الثلاثة الذين جاؤوا إلى إبراهيم وذهبوا إلى سدوم، كيف صاروا ملاكين اثنين؟ أيقول المتكلّف: إنّ ثالثهم هو يَهْوَه الإله الذي كلّم إبراهيم وذهب، وإنّه رجع عن صحبة الملاكين بعد ما أكل من ضيافة إبراهيم؟ ولماذا صار الملاكان واحداً يقول لهما لوط: لا يا سيّد، هو ذا عبدك؟ ومن هو الذي يقول: أنا لا أقدر أن أفعل شيئاً حتّى تجيء إلى هناك؟

وإنّ الرسالة المنسوبة لعبد المسيح وأمثالها تقول: إنّ العهد القديم يرمز إلى الثالوث. أتراهم يريدون بذلك هذا الخبط في العدد؟

وإنّ يعقوب صارعه إنسان حتّى طلوع الفجر ولمّا رأى ـ أي ذلك الإنسان ـ أنّه لا يقدر عليه ضرب حقّ فخذه ـ فخذ يعقوب في مصارعته معه ـ وقال ـ أي ذلك الإنسان ـ: أطلقني لأنّه قد طلع الفجر فقال ـ أي يعقوب ـ: لا أُطلقك

---

١. الباب الرابع كلّه في هذا المطلب؛ انظر إظهار الحقّ ٣: ٦٨١ فما بعد.

٢. انظر الهداية ٤: ٢٠٢ ـ ٢١٠.

٣. سفر التكوين ١٩: ١ ـ ٢٣.

إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك بعد يعقوب بل يسرائيل ـ أي يجاهد الله ـ لأنّك جاهدت مع الله ومع الناس وقدرت... فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل ـ أي وجه الله ـ لأنّه رأيت الإله وجهاً لوجه ونجّيت نفسي[1].

والعهد القديم يقول أيضاً: «إنّ يعقوب بقوّته جاهد الله جاهد الملاك وغلب»[2].

فانظر إلى سخافة هذا الكلام، كيف جعل الموضوع الواحد إنساناً وملاكاً؟! وسمّاه الإله ووصفه بالجسميّة، والمصارعة ليعقوب، والمغلوبيّة؟

وتقول التوراة الرائجة في بدء خطاب الله لموسى: «إنّ ملاك يَـهْوَه ظهر لموسى بلهيب نار من وسط عُلَّيقة. وناداه الله: اخلع نعليك. وقال له: أنا إله أبيك إبراهيم». إلى آخر كلام الله معه.

وهذا وإن أمكن حمله على أنّ الذي ظهر في لهيب النار لموسى هو الملك، والذي كلّم موسى هو الله. ولكنّ التوراة الرائجة تأبى هذا التأويل حيث تقول: «وغطّى موسى وجهه لأنّه خاف أن ينظر إلى الله»[3]. وهذا يعطي أنّها تقول: «إنّ الله هو الملاك الذي ظهر في لهيب النار. ويؤكّدهُ قول العهد الجديد: إنّ الذي كلّم موسى هو الملاك»[4].

ثمّ إنّ التوراة الرائجة:

تارةً يصرّح مضمونها بأنّ الله جلّ اسمه ـ وهو يَهْوَه ـ سار أمام بني إسرائيل بعمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً. وذلك من سكوت و هو المنزل الثاني لهم من مصر إلى عربات مُوآب حيث توفّي موسى عليه السلام، وذلك في مدّة أربعين سنة، كقولها عند ذكر ارتحالهم من سكوت: «ويَهْوَه يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم الطريق،

---

١. سفر التكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣١.

٢. سفر هوشع ١٢: ٣ و ٤.

٣. سفر الخروج ٣: ٦.

٤. أعمال الرسل ٧: ٣٨.

وليلاً في عمود نار ليضيء لهم ليمشوا نهاراً وليلاً»[١]، وقولها عن خطاب موسى لله يَهْوَه في بريّة فاران: «وبعمود سحاب أنت سائر أمامهم نهاراً وبعمود نار ليلاً»[٢]، وقولها عن قول موسى في خطاب بني إسرائيل في عربات مُوآب: «يَهْوَه إلهكم السائر أمامكم في الطريق، في نارٍ ليلاً، وفي سحاب نهاراً»[٣].

وتارةً تنقض ذلك وتذكر أنّ السائر أمام بني إسرائيل هو ملاك الإله يَهْوَه الذي يرسله يَهْوَه. فقد قَالت في شأنهم في فم الحيروث، وهو المنزل الثالث لهم من مصر، عند ما أدركهم فرعون وجنوده: «فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم»[٤]. وذكرت عن قول الله لموسى في طور سيناء في خطاب بني إسرائيل:

> ها أنا مرسل ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق ويجيء بك إلى المكان الذي أعددته؛ فإنّ ملاكي يسير أمامك[٥].

وذكرت عن قول موسى في ذكر مراحم الله: «أرسل ملاكاً وأخرجنا من مصر»[٦]. وجاهرت بالصراحة في ذلك إذ ذكرت عن قول الله لموسى في طور سيناء في خطاب الشعب:

> أرسل أو أرسلت أمامك ملاكاً... فإنّي لا أصعد في قربك لأنّك شعب صلب الرقبة... وقال يَهْوَه لموسى: قل لبني إسرائيل: أنتم شعب صلب الرقبة لحظة واحدة إن صعدت في قربك أفنيتك[٧].

وهذا صريح في أنّ الله جلّ اسمه لم يسر أمام بني إسرائيل، ولم يصعد بقربهم، بأيّ

---

١. سفر الخروج ١٣: ٢١.
٢. سفر العدد ١٤: ١٤.
٣. سفر التثنية ١: ٣٢ و ٣٣.
٤. سفر الخروج ١٤: ١٩.
٥. سفر الخروج ٢٣: ٢٠ و ٢٣.
٦. سفر العدد ٢٠: ١٦.
٧. سفر الخروج ٣٣: ٢ ـ ٥.

نحو أوّلتَ صعود الله معهم وسيره أمامهم. بل إنّ السائر أمامهم والذي أخرجهم من مصر، هو الملاك الذي أرسله الله ويؤكّد ذلك قول العهد الجديد في شأن موسى: «هذا هو الذي كان في الكنيسة في البرّيّة مع الملاك الذي كان يكلّمه في جبل سيناء»[١].

وهذا كلّه مناقض لقول التوراة: إنّ السائر أمام بني إسرائيل في عمد السحاب هو الله، بأيّ نحو أوّلتَه.

وقد كثر في التوراة والعهد القديم قولها: «فنزل الله» «فصعد الله» «فتراءى الله». وهو في مقام يمتنع من أُسلوبها التأويل. فهو لا يخلو من أحد وجوه ثلاثة:

إمّا القول بالتجسيم، وأنّ الله تعالى شأنه يحويه المكان فيصحّ عليه الصعود والنزول وتقع عليه الرؤية تعالى الله عن ذلك.

وإمّا الخبط في تسمية الملك بالأسماء الخاصّة بذات الجلالة.

وإمّا الضلال بالبناء على أنّ الملك هو الله جلّ شأنه.

وإذا نظرت إلى التوراة الرائجة وجدتها كأنّها كتابة أُناس متعدّدين، مختلفين في المعرفة وصحّة الاعتقاد، لا يدري كلّ واحد بما كتبه الآخر. أو لأنّه كتاب جدّد اسمه في بقايا ديانة توحيديّة، سرت فيها روح الوثنيّة، فتقاسمت مخايله[٢] مشابهة هذين الأبوين.

ولذا جاء في العهدين ـ وخصوص التوراة ـ صراحة التعليم بوحدة الإله، وأنّ الله يَهْوَه هو الإله وليس آخر سواه، وهو الإله في السماء وعلى الأرض وليس سواه، ولا إله معه ولا إله غيره. وذكرت عن قول الله جلّ اسمه: «لا تذكروا اسم آلهة أُخرى ولا يسمع من فمك». ولا يكن لك آلهة أُخرى أمامي.

وجاء في العهدين أيضاً عن قول الله: «إنّ موسى إله لهارون ولفرعون. وإنّ الذين صارت إليهم كلمة الله آلهة». انظر الجزء الأوّل[٣].

---

١. أعمال الرسل ٧: ٣٨.

٢. مخايل: جمع مخيلة، وهي الشَبَه والمثل والصفة.

٣. تقدّم في ج ١، ص ٢٢٦.

وجاء في العهد القديم أيضاً: «لأنّه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلها قديراً أبديّاً رئيس السلام»[١].

ولا يخفى أنّ هذه المقالة لا تناسب الديانة المؤسّسة على توحيد الإله وتقديسه وتنزيهه عن النقائص البشريّة، بل إنّما تناسب أن تدرج في كتب الهنود والصينيّين والآشوريّين واليونان والمكسيكيّين من الوثنيّين، الذين يقال: إنّهم يعتقدون بتولّد الإله بالولادة البشريّة. ومن هذه التعاليم جاء قول العهد الجديد: «ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكلّ إلهاً مباركاً إلى الأبد»[٢].

ومن أجل هذا الداء صدر ما تضمّنه العهدان من نسبة صفات النقص البشري إلى الله جلّ جلاله وعلا شأنه، كما نسبت له الدم وصفات الجسم في أساليب لا تحتمل المجاز، كما نسبت له لوازم الضعف والمغلوبيّة والحاجة والحيرة والكذب وعدم العلم، كما تعرفه ممّا سبق تعالى الله عمّا يقولون.

وكما نسبت إليه جلّ شأنه أنّه يُمكِّن الكاذب في دعوى النبوّة، والداعي إلى الشرك، والدجّال المضلّ الأثيم، ويتركهم تجري على أيديهم الآيات والقوّات والعجائب. وأنّ الله جلّ شأنه يرسل إلى الناس عمل الضلال حتّى يُصَدِّقوا الكذب[٣].

وفي هذا نسبة جملة من القبائح إلى الله جلّ شأنه، بحدّ لا يرضاه لنفسه آحاد البشر:

أحدها: إغراء الناس بالضلال؛ فإنّ الركون في التصديق إلى ظهور الآيات والقوّات والعجائب العظيمة، إنّما هو من مرتكزات الفطرة وأوّليّات البديهة، بحيث لا يتطرّقه الشكّ كما يتطرّق سائر البديهيّات من المعارف. ولذا ترى كثيراً من الناس قد كابروا البداهة، وجانبوا عقولهم في المعارف، لشبهة المعجزة ومنقولها الموهون. وقلّ من يكون له العقل ونور الحقيقة هما الهاديان إليها والشاهدان عليها، كما هو

---

١. سفر إشَعْياء ٩: ٦.

٢. الرسالة إلى أهل رومية ٩: ٥.

٣. فانظر سفر التثنية ١٣: ١ ـ ٤؛ إنجيل متّى ٢٤: ٢٢٤؛ رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢: ٩ ـ ١٢.

روح العرفان وثابت الإيمان، وقليلٌ ما هم.

وثانيها: سدّ باب الحجّة على النبوّة الصادقة، وتضييع فائدتها، لأجل التباس الأمر على غالب الناس؛ فإنّه إذا جاز ظهور الآيات والقوّات والعجائب العظيمة من الكاذب والداعي إلى الشرك ـ كما تزعمه الكتب التي تعزّ بصورة نسبتها إلى الوحي ـ فحينئذٍ لا حجّة عند عامّة الناس بظهور هذه الأُمور من النبيّ الصادق، حيث يكون أمرها مشتركاً بين الصادق والكاذب.

وثالثها: لزوم العبث بإظهارها على يد الصادق، سواء كان للحجّة على رسالته أو لبيان كرامته؛ حيث إنّها لا تفيد شيئاً من ذلك مع اشتراكها بين الصادق والكاذب.

ورابعها: أنّ إظهارها على يد الكاذب، نقض للغرض من إظهارها على يد الصادق، وهو كونها حجّة على صدقه.

وخامسها: إذا كان إظهارها على يد الصادق لأجل الحجّة على صدقه، مع إظهارها على يد الكاذب، لزم من ذلك أمران:

أحدهما: قبح العقاب والملامة والتوبيخ لمن صدّق الكاذب وآمن به؛ لأنّه قد جاء بما هو حجّة على صدق الصادق.

وثانيهما: قبح العقاب والملامة والتوبيخ لمن لم يؤمن بالصادق ولم يصدّقه؛ وذلك لأنّه لم يجئ إلّا بما يجيء به الكاذب.

ولا يخفى أنّ كلّ واحد من البشر لا يرضى بأن ينسب إليه واحد من هذه الأُمور.

خلق السماوات والأرض وما فيها

وقد قدّمنا في هذا الجزء في آيات خلقها من القرآن الكريم ما تعرف به شيئاً من تنافي كلمات التوراة واضطرابها في هذا الشأن[1].

---

١. تقدّم في ص ٥٢٣ ـ ٥٢٩.

[الفصل الثاني في] النبوّة والأنبياء

أمّا النبوّة، فللعهدين مقالات غريبة، وإن شئت قلت: ظريفة:

منها: أنّها تذكر أن المتنبّئ يقوم بخلع الثياب والتعرّي والانطراح عرياناً[١]، ويقوم بالرباب والدفّ والناي والعود[٢]، وأنّ ضرب العود يوجب حلول يد الله على النبيّ وإعلان الوحي له، فيطلب النبيّ عوداً وعوّاداً عند ما يُسأل عن الوحي[٣]. بل إنّ العهد القديم سمّى الجنون تنبّؤاً حيث قال الأصل العبراني في أحوال شاول مع داود: «ويهي ممّا حارات وتصلح روح الهيم راعاه آل شاول ويتنبّأ بتوك هبيت»[٤]. وتعريبه: وكان من الغد واقتحم روح الإله الردي على شاول فتنبّأ في وسط البيت. والتراجم أصابت حيث ترجمت قوله: «ويتنبّأ» بقولها: «وجُنَّ».

وقد ذكر العهدان أحوال الأنبياء عند الوحي إليهم، وأحوالاً ظريفة في تبليغهم ذكرناها في الجزء الأوّل[٥].

ولم يذكر العهد القديم أنّ الله أرسل نبيّاً إلى عامّة البشر، ليدعوهم إلى هدى التوحيد وحقيقة الإيمان وأدب الشريعة وإصلاحها وغاية ما ذكر في أحوال الأنبياء قبل موسى بعض الأحوال الخصوصيّة، ولكنّ كثيراً منها يرجع إلى القدح بقدسهم، أو التسجيل بالفضائح على عائلاتهم، أو الجرأة على جلال الله وعظمته وقد ذكرناها أو أشرنا إليها متفرّقة في هذا الكتاب، فلا نؤثر إعادتها هنا مجموعة.

نعم، تذكر التوراة الرائجة أنّ نوحاً لمّا نجا من الطوفان بنى مذبحاً لله، وقرّب فيه مُحرَقات من كلّ الحيوانات والطيور الطاهرة. وهذا يقتضي أنّه قد أُعطي شريعة

---

١. انظر سفر صموئيل الأوّل ١٩: ٢٣ و ٢٤.

٢. سفر صموئيل الأوّل ١٠: ٥ و ٦.

٣. سفر الملوك الثاني ٣: ١٥.

٤. سفر صموئيل الأوّل ١٨: ١٠.

٥. تقدّم في ج ١، ص ٢٩ ـ ٣٥.

القرابين، وطهارة بعض البهائم والطيور، ونجاسة بعضها الآخر[١].

بل ومقتضى التوراة أنّ شريعة القرابين من الأبكار وغيرها، ثابتة من عهد آدم وهابيل وقابيل إذ عملا بها[٢]، وأنّ إبراهيم حينما بلغ عمره تسعاً وتسعين سنة، وعمر إسماعيل ثلاث عشرة سنة، أُعطي شريعة الختان له ولنسله وعبده الغريب المبتاع بالفضّة، علامةً للعهد بينهم وبين الله، فيختتن المولود وهو ابن ثمانية أيّام[٣].

ولم تذكر لنوح ولا لإبراهيم ولا لغيرهما دعوة إلى التوحيد والصلاح، ولا نهياً عن عبادة الأوثان. نعم تذكر أنّ موسى علّم بني إسرائيل بالتوحيد، ولم تذكر أنّه دعا إليه غيرهم حتّى فرعون وقومه. بل يكاد مضمونها أن يصرّح بأنّه لم يعلّم بالتوحيد ولم يدع إليه إلّا بني إسرائيل. وذكرت أنّ موسى جاء من الله بالشريعة، ولكنّ كثيراً من كلماتها يصرّح باختصاص الشريعة ببني إسرائيل والجار الذي في وسطهم.

وأمّا العهد الجديد، فإنّه يذكر عن قول المسيح إنّه لم يرسل إلّا إلى خراف إسرائيل الضالّة[٤]، وإنّه أرسل دعاته وتلاميذه للدعوة، وأوصاهم أن لا يذهبوا في طريق أُمم ولا يدخلوا مدينة للسامريين، بل يذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة[٥]. ولكنّ العهد الجديد يذكر عن المسيح بعد حادثة الصليب أنّه قال لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم[٦].

[أحوال الأنبياء]

وأمّا ما ذكره العهدان في أحوال الأنبياء، ونسبة المعاصي والكفر والكذب إلى قدسهم، فإنّك تعرفه من متفرّقات الكتاب وخصوص الفصول المتقدّمة من الباب الثاني من المقدّمة الثامنة في الجزء الأوّل[٧].

١. سفر التكوين ٨: ٢٠.
٢. سفر التكوين ٤: ٣ و ٤.
٣. سفر التكوين ١٧: ١٠ ـ ١٤.
٤ ـ ٦. إنجيل متّى ١٥: ٢٤، و ١٠: ٥ و ٦، و ٢٨: ١٩.
٧. تقدّم في ج ١، ص ٨٣ ـ ٢٠٣.

وإنّ العهد الجديد يعتبر التلاميذ وبولس أنبياء ورسلاً، وقد ذكر في أحوالهم ما تجلّ عنه مرتبة سائر الصالحين فضلاً عن الأنبياء فانظر إلى الجزء الأوّل[1]. وقد أحلناك على متفرّقاته استقباحاً لجمعه في مقام واحد.

وذكرت التوراة الرائجة في أمر النبوّة أشياء لا تناسب الوحي وكتبه، بل تناسب خرافات الأهواء:

منها: أنّ الله كلّم موسى بأنّ الكاهن الذي يعمل ذبيحة الخطيئة يأكلها في مكان مقدّس[2]. ثمّ ذكرت:

> أنّ موسى طلب تيس الخطيئة، فإذا هو قد احترق فسخط على ألعازر وإيثامار ابني هارون وقال: مالكما لم تأكلا ذبيحة الخطيئة في المكان المقدّس فإنّ الله أعطاكما إيّاها لتحملا إثم الجماعة تكفيراً عنهم... أكلاً تأكلانها كما أمرت؟ فقال هارون: إنّهما اليوم قد قدّما ذبيحة خطيئتهما ومحرقتهما أمام الربّ وقد أصابني اليوم مثل هذه ـ يعني احتراق ناداب وأبيهو ابنيه ـ فلو أكلت ذبيحة الخطيئة اليوم هل كان يحسن في عيني الربّ. فلمّا سمع موسى حسن في عينيه[3].

فيا عجباً أنّ الله يأمرهم بأكل ذبيحة الخطيئة، وموسى يبلّغ ذلك عن الله، وهارون يعترض على هذه الشريعة وشريعة المحرقة ويتشاءم بهما ويقول: إنّ ذلك هل يحسن في عيني الربّ؟ فماذاترى في هذا الكلام؟ أيقال: إنّ هارون كان مكذّباً لموسى في تبليغه عن الله؟ أم يرى أنّ له أن يعارض الوحي بالرأي؟

والأعجب من ذلك قول التوراة: إنّ موسى استحسن رأي هارون مع معارضته لما أوحاه الله من الشريعة المذكورة أيقال: إنّ موسى كان شاكّاً في أمره فيستحسن الرأي المعارض للوحي؟ حاشا لله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[4].

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٣٢١ـ ٣٢٢.

٢. سفر اللاويّين ٦: ٢٤ـ ٢٧.

٣. سفر اللاويّين ١٠: ١٦ ـ ٢٠.

٤. الأنعام (٦): ١٢٤.

ومنها: أنّ الإله أتى بلعام ليلاً وقال له: إن أتى الرجال إليك فانطلق معهم، وتعمل الكلام الذي أُكلّمك به فقط. فقام بلعام صباحاً وانطلق معهم فحمي غضب الإله لكونه منطلقاً، ووقف ملاك الربّ في الطريق ليقاومه[١].

ويا عجباً كيف يأمر الله بلعام بالانطلاق معهم، ثمّ يحمي غضبه عليه لأنّه انطلق ويرسل ملاكه ليقاومه، مع أنّ بلعام حسب نقل التوراة لم يتكلّم في ذهابه معهم إلّا بما كلّمه الله به[٢]، ثمّ بعد هذا أيضاً أمرهُ بالذهاب معهم[٣]؟!

أم تقول التوراة الرائجة: كلام الليل يمحوه النهار؟

واعلم أنّ العهدين لم ينصّا على نبوّة آدم، وغاية ما ذكرت التوراة خطاب الله معه في شأن الشجرة في النهي عن الأكل منها وبعد الأكل، ولكنّ ذلك بمقتضى التوراة لا يدلّ على النبوّة، حيث تذكر أنّ الله خاطب الحيّة وحوّاء بنحو هذا الخطاب.

ثمّ ذكرت أنّه عند ما ولد أنوش ابتدئ أن يدعى باسم الربّ. وهذا يشعر بوجود نبوّة ودعوة إلى الله في ذلك الوقت. ولكنّها لم تبيّن أنّ تلك الدعوة باسم الربّ كانت من آدم أو من شيث، فإنّ ذلك الوقت كان بمقتضى التوراة قبل موت آدم بنحو ستّمائة وخمس وتسعين سنة، وبعد ولادة شيث بنحو مائة وخمس سنين.

ثمّ ذكرت نوحاً وذكرت خطاب الله معه بنحو يشعر بنبوّته، وصرّح العهد الجديد بالوحي إليه[٤].

وذكرت حنوك ـ أي إدريس ـ ولم تذكر إلّا أنّه سار مع الله والله أخذه. وصرّح العهد الجديد بنبوّته[٥].

وذكرت إبراهيم ونصّت على خطاب الله معه وعلى نبوّته.

---

١. سفر العدد ٢٢: ٢٠ ـ ٢٣.

٢. سفر العدد ٢٣ و ٢٤.

٣. سفر العدد ٢٢: ٣٥.

٤. الرسالة إلى العبرانيّين ١١: ٧.

٥. رسالة يهوذا ١٤.

وذكرت إسحاق ويعقوب وخطاب الله معهما، ولم تنصّ عليهما بعنوان النبوّة.

ولم تذكر لهؤلاء دعوة إلى التوحيد، ولا موعظة ولا إرشاداً إلى الهدى، كمالم تذكر لهم شريعة عامّة ولا كتاباً، ولكنّها لا تنفي ذلك.

وذكرت مع نبوّة موسى نبوّة هارون أخيه ومريم أُختهما، وسبعين من شيوخ إسرائيل ورجلين آخرين معهما. ولم تصرّح بنبوّة يشوع ـ أي يوشع ـ بل ذكرت أنّه امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه. لكن سفر يشوع قد تكرّر فيه قوله: إنّ الله كلّم يوشع.

ثمّ لم ينصّ سفر القضاة فيما بين يوشع وصموئيل على نبوّة أحد إلّا على نبوّة دَبُورَة امرأة لفيدوت، ورجل آخر لم يذكر اسمه، بل إنّ الله أرسله فوبّخ بني إسرائيل. نعم ذكر أنّ جدعون ظهر له ملاك يَهْوَه وكلّمه يَهْوَه مراراً.

ثمّ من صموئيل صار العهد القديم يتعرّض لكثرة الأنبياء، فذكر أنّه كان مع صموئيل في الرامة جماعة من الأنبياء، ولكنّهم يتعاطون الرباب والناي والدفّ والعود، حتّى أنّ رسل شاول في دفعات ثلاث لمّا ذهبوا إلى الرامة ووجدوا الأنبياء يتنبّؤون، كان عليهم روح الله فتنبّؤوا. وكذا شاول لمّا ذهب أيضاً خلع ثيابه هو أيضاً وتنبّأ أمام صموئيل، وانطرح عرياناً ذلك النهار كلّه وكلّ الليل.

ولم تتّضح حقيقة هذه النبوّة والتنبّؤ الذي يقوم بالدفّ والرباب والناي والعود، والتعرّي، والانطراح كلّ النهار وكلّ الليل.

وكان النبيّ في زمان صموئيل ونحوه يسمّى الرائي[1]، ويسمّى أيضاً في العهد القديم رجل الله.

والعهد القديم ذكر أنّ الله كلّم داود وخاطبه، وكذا سليمان. ونصّ العهد الجديد على نبوّة داود. وذكر العهد القديم في زمان داود: ناثان النبيّ، وجاد النبيّ، ويدوثون رائي داود. وذكر من بعد ذلك أخيّا الشيلوني، ورجل الله من يهوذا، والنبيّ الساكن في بيت

١. سفر صموئيل الأوّل ٩: ٩.

إيل، وحنَّاني، وشمعيا، وعدوّ، وعوديد، ويعدو، وعزرياهو، وياهو بن حنَّاني، وإيـليّا. وجماعة في زمانه من الأنبياء الذين قتلت منهم إيزابل. من قَتَلت، وأخفى عوبديا منهم مائة. وأليشع، ونبيّاً لم يسمّه، وآخر من الأنبياء لم يسمّه أيضاً، وغـلام نـبيّ لم يسـمّه أيضاً، وميخا بن يملة، وعدّة من الأنبياء في زمـان مَـنَسَّي. والنـبيّة خـلدة، وحـننيا والأنبياء الذين تنسب إليهم كتب من العهد القديم وهم: إشَـعْياء، وإرمـيا، وحـزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان بن اِمِتّاي ـ أي يونس بن متّى ـ وميخا المورشتي، وناحوم، وحبقوق، وصفينا، وحجّي، وزكريّا، وملاخي. ويـقال: إنّ ملاخي آخر أنبياء العهد القديم.

[المسيح في العهد الجديد]

وأمّا الأنبياء الذين يذكرهم العهد الجديد فهم: زكريّا [١]، والنبيّة حنّة [٢]، ويوحنّا المعمدان ـ أي يحيى بن زكريّا ـ والمسيح عليه السلام رسول الله. وقد ذكره العهد الجديد بسمات وصفات:

منها: تسميته بالمسيح. وهذه تسمية سبقت في العهد القديم لشاول سمّاه داود مراراً مسيح الربّ. وسبقت أيضاً عن وحي الله لإشعياء: هكذا يقول الربّ لمسيحه ـ كورش ـ وهو من ملوك فارس [٣].

ومنها: أنّه عليه السلام كان إذا أراد أن يعبّر عن نفسه المقدّسة يسمّي نفسه: ابـن الإنسان، أفلا تقول: إنّ الالتزام بهذا التعبير، إنّما هو للمحافظة والاحتياط مـن وقـوع الشبهة التي علقت بها الأوهام، وسرى داؤها من المجاورة.

ومنها: أنّه نبيٌّ [٤]. وأنّه هو النبيّ الذي قال عنه موسى لبني إسرائيل: إنّ الله يقيم لهم نبيّاً مثل موسى [٥].

---

١. إنجيل لوقا ١: ٦٧.

٢. إنجيل لوقا ٢: ٣٦.

٣. سفر إشَعْياء ٤٥: ١.

٤. أعمال الرسل ٣: ٢٠ ـ ٢٥.

٥. سفر التثنية ١٨: ١٥.

ومنها: أنّه رسول الله، كما كثر ذلك في الأناجيل، وخصوص يوحنّا.

ومنها: تسميته ابن الله، والابن، والابن الوحيد. وهذا اصطلاح جرى عليه العهدان في أنّ المؤمنين أو الصالحين يسمّون ابن الله البكر، وأبناء الله، أولاد الله، ومولودين من الله، والله ولدهم، والله أبوهم ولا يسهل أن يحصى ذلك من العهدين لكثرته[1].

وجاء في الأناجيل المترجمة بالعربيّة أنّ المسيح عبّر عن نفسه بالربّ[2]. وكثر التعبير بذلك في التراجم العربيّة لرسائل العهد الجديد. ونصّ عبارة الأناجيل: الربّ محتاج إليه. وفي الترجمة العبرانيّة «هادون» أي السيّد أو المولى. وفي التراجم الفارسيّة: «خداوند».

ولكن لا يخفى عليك أنّ نفس الإنجيل يقول: إنّ لفظ الربّ تفسيره المعلّم[3]. وذكرت حواشي العهد الجديد أنّ المذكور في إنجيل متّى[4] في العربيّة: سيّدي سيّدي، وفي الفارسيّة: آقا آقا، إنّما هو في العبرانيّة: ربّي ربّي، والمراد بالعبرانيّة هي نسخة إنجيل متّى الأصليّة. ويشهد لذلك قوله: لأنّ معلّمكم ـ أو مدبّركم أو مرشدكم ـ واحد وهذه شهادة كافية من ذات الإنجيل على أنّ اللغة العبرانيّة التي هي لغة المسيح، وخصوصاً في خطابه للتلاميذ واليهود، يدعى فيها الرئيس والمعلّم والمرشد: «لربّ وربّي» والمذكور في إنجيل يوحنّا[5] في العربيّة: يا معلّم، هو في اليونانيّة: «ربّي».

وإنّ نفس قول الأناجيل: الربّ محتاج إليه. يكفي في إبطال أوهام الغلوّ، ويبيّن أنّ المراد منه وصف مخلوق محتاج. ويكفي في ذلك أنّ الأناجيل تشهد أنّ المسيح لم يكن يمكنه أن يبيّن لبني إسرائيل مراتبه من النبوّة والكمال البشري، فكيف يدّعي الأُلوهيّة؟!

---

١. فانظر أقلاً سفر التكوين ٦: ٢ و ٤؛ سفر الخروج ٤: ٢٢ و ٢٣؛ سفر التثنية ١٤: ٢١؛ سفر الأيّام الأوّل ٢٢: ١٠؛ سفر هوشع ١: ١٠؛ إنجيل متّى ٦: ٦ ـ ٣٢؛ إنجيل يوحنّا ١٢ و ١٣؛ رسالة يوحنّا الأُولى ٣: ١ و ٢ و ٩ و ١٠، و ٥: ١ و ٢ و ٤.

٢. إنجيل متّى ٢١: ٣؛ إنجيل مرقس ١١: ٣؛ إنجيل لوقا ١٩: ٣١.

٣. الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ٤: ٤.

٤. إنجيل متّى ٢٣: ٧.

٥. إنجيل يوحنّا ٣: ٣.

وجاء في المزمور العاشر بعد المائة ما نصّه: «نأوم يهوه لادناي». أي أوحى الله لسيّدي. فترجموه في المزامير العربيّة: «قال الربّ لربّي». والفارسيّة: «يهوه بخداوند من گفت». و «خداوند بخداوند من فرمود».

وذكرت الأناجيل أنّ المسيح استشهد بهذا الكلام من المزامير، فترجمته بالعربيّة: قال الربّ ربّي. وبالفارسيّة: «خداوند بخداوند گفت».

واعلم أنّ الأناجيل تذكر عن قول المسيح أنّه أنكر على الكتبة والفرّيسيّين قولهم: إنّ المسيح يكون ابن داود. واحتجّ لإنكاره بأنّ داود قال بالروح القدس في المزامير: قال الربّ لربّي. فإذا كان داود يدعو رَبّاً فكيف يكون ابنه؟! ومن أين هو ابنه؟[1]

فاتّفقت تراجم العهد الجديد، وتراجم أصحابه المزامير، على تغيير معنى سيّدي، الذي هو في الأصل العبرانيّ إلى معنى: ربّي. وذلك لئلّا تبطل صورة المغالط في الاحتجاج المذكور، حيث إنّ كلّ أحد يعلم أن لامنافاة بين أن يكون المسيح ابن داود، و بين أن يدعوه داود سيّدي، فإنّ كثيراً من الأبناء يكونون بشأنهم الجليل ورتبتهم العظيمة سادات لآبائهم، كما يكون الأنبياء بالنسبة إلى آبائهم الذين ليسو بأنبياء. وإنّ مقام المسيح في النبوّة والرسالة العامّة ليقتضي لداود ـ وإن كان نبيّاً ـ أن يدعوه سيّداً.

فلذلك بدّل المترجمون معنى سيّدي بمعنى ربّي؛ لأنّ كلّ موحّد يعلم أنّ ابن البشر لا يكون ربّاً ولا إلهاً. ولكن ماذا يصنعون وعهدهم الجديد يصرّح بأنّ المسيح هو ابن داود. وقد قدّمنا في الجزء الأوّل شيئاً من هذا؛ فراجعه[2].

وجاء في العهد الجديد: أنّه هو صورة الله[3].

ومن تتبّع العهدين لم يجد من أمثال هذا الكلام دلالة إلّا على تقحّمهما في سماجة التعبير، حتّى أنّهما لم يقفا فيه على حدّ ولامجاز مناسب. فقد جاء في التوراة الرائجة: أنّ الله جلّ شأنه خلق آدم على صورته. ولم ترض بهذا المقدار بل كرّرت وقالت: على

---

١. إنجيل متّى ٢٢: ٤١ـ ٤٦؛ إنجيل مرقس ١٢: ٣٥ـ ٣٨؛ إنجيل لوقا ٢٠: ٤١ـ ٤٥.

٢. تقدّم في ج ١، ص ٢٤٢.

٣. الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ٤: ٤.

صورة الله خلقه[١]. وذكر العهد الجديد: أنّ الرجل صورة الله[٢].

فلماذا يكون الرجل والمسيح صورة الله؟ وكيف يكون ذلك؟!

وجاء في العهد الجديد أنّ المسيح بِكر كلّ خليقة[٣]. وبداية خليقة الله[٤].

ولا يمتنع أن يكون المسيح باعتبار نورانيّته بكر خليقة الله وبداية خليقته، إذ لا يمتنع أن يكون الأنبياء والمرسلون قد خلقوا بنورانيّتهم قبل خلق أجسامهم. وأمّا خلق أجسامهم، فلا يشكّ عاقل في أنّ وجودها إنّما هو بأزمانها وأوقاتها المحدودة المترتّبة.

وكيف كان، فهذا الكلام من العهد الجديد جرى على ما ينبغي في بيان الحقيقة، والتصريح بأنّ المسيح مخلوق لله. ولكن ماذا ترى في قول العهد الجديد: المسيح يسوع الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله ـ أو لم يحسب المساواة بالله غنيمة ـ لكنّه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان وَضع نفسه وأطاع حتّى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كلّ اسم.

أترى أنّ هذا القائل يريد في كلامه هذا أنّ هناك إلهين متعادلين في مجد الأُلوهيّة وصفاتها، وأنّ المسيح هو أحدهما، فهو يستحقّ بمقامه الإلهي أن يكون معادلاً لله، ولكنّه ترك الشقاق والنزاع وتنازل عن حقّه من مجد الأُلوهية وصفاتها ـ مراعاة ومحاباة أو صلحاً بجعالة ـ فأخلى نفسه من معادلة الله، وأخذ بنفسه صورة عبد وصار من ذاته في شبه الناس؟

وعلى هذا فلا يكون من خليقة الله، ولا يكون هو الله؛ لأنّ الله على هذا الكلام هو معادله الآخر. تعالى الله عمّا يقولون.

---

١. سفر التكوين ١: ٢٧.

٢. الرسالة الأُولى إلى أهل كورنثوس ١١: ٧.

٣. الرسالة إلى أهل كولوسي ١: ١٥.

٤. رؤيا يوحنّا ٣: ١٤.

ولماذا لم يتمّم هذا الكلام بيانه فيبيّن أنّ هذا التنازل كان بمعاملة يصحّ فيها الفسخ أو لايصحّ، وأنّ المسيح لو أراد فسخ هذه المعاملة، هل يقدر على فسخها أو لا يقدر؟

نعم، يمكن أن يفهم من الأناجيل ـ مع كلام المتكلّف و أمثاله ـ في مسألة الفداء، ويعرف أنّ المسيح على أيّ حال كان لايقدر على فسخ معاملاته مع الله، وإن أراد وطلب وبكى واكتأب وحزن وصلّى بأشدّ لجاجة. فانظر الجزء الأوّل[١].

ثمّ إن كان بهذا التنازل خرج عن حقيقة الأُلوهيّة إلى حقيقة العبوديّة وشبه الناس، فحينئذٍ لا يبقى له شيء من مجد الحقيقة الأُولى وصفاتها العظيمة، بل هو إنسان كسائر البشر، إن فاز بشيء من المجد فبمجد النبوّة والرسالة، الذي يمكن ثبوته لآحاد البشر. وإن كان لم يخرج عن حقيقة الأُولى في الألوهيّة ومعادلة الله، ولم تنقلب حقيقته إلى الإنسانيّة، فحينئذٍ لا بدّ أن تبقى له المعادلة لله وصفات الأُلوهيّة ـ كالعلم والقدرة وسائر الكمالات الإلهيّة ـ على وجه لا يمكن أن يتّصف بضدّها؛ لأنّها لا يمكن أن تنفكّ من حقيقة الأُلوهيّة.

قل إذاً فما حاجة هذا المعادل لله إلى أن يرفعه الله ويعطيه اسماً فوق كلّ اسم؟ أم تقول: إنّ الكلام المتقدّم المنقول عن ثاني فيلبي إنّما هو من محض الغلوّ في التعبير، وتعدّي الحدّ المقبول في المبالغة؟ فإنّ الذي ينسب له هذا الكلام هو الذي ينسب إليه قوله: إنّ المسيح بكر كلّ خليقة. ولذا قال هاهنا: إنّ الله رفعه و أعطاه اسماً فوق كلّ اسم.

وزد على ذلك أنّ الإنجيل ينقل عن قول المسيح: «أبي أعظم منّي»[٢]. وقوله:

> وأمّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلّا الأب[٣].

ومن المعلوم من العهد الجديد أنّ المراد بالابن هو المسيح، فهو لا يعلم بذلك اليوم

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٣.

٢. إنجيل يوحنّا ١٤: ٢٨.

٣. إنجيل مرقس ١٣: ٣٢.

وتلك الساعة. وقوله: أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً[١]. وأنّه لم يقدر أن يصنع في وطنه ولا قوّة واحدة[٢]. وليس له أن يعطي شيئاً إلّا للذين أعدّه الله لهم[٣]. وأنّه يتضرّع إلى الله، ويعبده بالصلاة والصوم، ويطلب منه، ويفزع إليه في حوائجه، وضيقه، ويطلب منه النجاة ويجرب من إبليس، ويطمع فيه إبليس بغوايته بالشرك وينقله من مكان.

ومن كان بهذه الصفات لا يقال فيه: إنّه معادل لله. وكيف والأناجيل تنسب له أنّه قال على الصليب: إلهي إلهي لماذا شبقتني، أي لماذا تركتني؟ وهذا كافٍ في الصراحة بأنّه ليس معادلاً لله وأنّه ليس إلهاً؛ لأنّ الإله لا يكون له إله، ولا هو الله، وإلّا كان هذا الكلام كلّه غلطاً وكذباً. وكذا حكاية الإنجيل أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم[٤]. أفليس في هذا صراحة في كونه مساوياً للبشر في أنّه له إله هو إله البشر؟

ولكنّ المتكلّف يقول:

> لو سوّى بينه ـ أي المسيح ـ وبينهم ـ أي البشر ـ لقال: إلى أبينا وإلهنا، ولكنّه لم يقل ذلك إشارة إلى كونه الكلمة الأزليّة الخالق للعالمين، وأنّه والأب واحد. فأُبوّة الأب للمسيح هي أزليّة؛ لأنّه كلمته وروحه. أمّا أُبوّته لنا نحن فهي أُبوّة الخالق للمخلوقين[٥].

فنقول: **أوّلاً**: إنّ المسيح قال: إلهي وإلهكم ويكفينا من ذلك قوله: إنّ له إلهاً هو إله البشر. ولا يجدي في ذلك اختلاف الجهات لو كان معقولاً؛ فإنّ الإله لا يكون له إله وهذا من أوضح البديهيّات على رغم فلتات الأوهام. والمتكلّف يقول: «المسيح هو الله»[٦]. فليت شعري إذاً من هو الإله للمسيح الذي يكون على ذلك إلهاً لله الذي هو المسيح؟

---

١. إنجيل يوحنّا ٥: ١٩ و ٣٠.
٢. إنجيل مرقس ٦: ٥.
٣. إنجيل متّى ٢٠: ٢٣.
٤. إنجيل يوحنّا ٢٠: ١٧.
٥. الهداية ٤: ٢٨٧.
٦. المصدر: ٢٨٥.

وثانياً: إنّ العهدين ذكرا عن خطاب الله لموسى: «أنا إله أبيك إله إبراهيم إله إسحاق وإله يعقوب»[١]. أفيقول المتكلّف: إنّه قال ذلك لكي يدلّ على أنّ أُلوهيّته لإبراهيم وإسحاق ويعقوب متخالفة في الجهات، ولو سوّى بينهم لقال: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؟

وثالثاً: إنّ العهد الجديد يقول: إنّ المسيح بكر كلّ خليقة. وبداية خليقة الله. فلابدّ حينئذٍ من أن تكون أُبوّة الله له أبوّة الخالق للمخلوقين، وكيف يكون الخالق والمخلوق واحداً؟!

ومن هذا كلّه يتّضح لك الوهن والغلوّ في العبارة ـ أو المراد ـ في قول العهد الجديد في شأن المسيح: الكائن على الكلّ إلهاً.

والمتكلّف يقول:

> فلا عجب إذاً تألّم وتوجّع وحزن وطلب عبور الحزن، واحتمل كلّ هذه الأحزان لأجلنا. فقد مات البارّ من أجل الأئمّة ليبرّرنا. فاللاهوت لم يبتلع الناسوت، بل كان إلهاً تامّاً وإنساناً تامّاً، يجول ويمشي ويجوع ويحزن ويتوجّع. ولكنّه كإله كان قديراً خالقاً حفيظاً[٢].

أفلا تقول للمتكلّف: إذا كان المسيح إلهاً احتمل هذه الأحزان لأجل الأئمّة فلماذا يطلب عبور الحزن وكأس المنيّة؟ وممّن يطلب إذا كان هو الإله وهو الله؟ وإن كان اللاهوت لم يبتلع الناسوت، فلماذا كان الناسوت قد ابتلع اللاهوت وشرب عليه الماء؟

وليت شعري ما معنى قول المتكلّف: «إنّ المسيح كان إلهاً تامّاً ولكنّه كان كإله» فهل كان المسيح يتقلّب حسب هوى المتكلّف، مرّة يكون إلهاً تامّاً، ومرّة يكون كإله؟

وكيف يقول المتكلّف: «كان قديراً حفيظاً» مع أنّ الأناجيل تقول: إنّ المسيح اعترف بعدم القدرة و عدم العلم، وأنّ بعض الأُمور ليس له أن يعطيها؟! وتقول الأناجيل: إنّه

١. سفر الخروج ٣: ٦؛ إنجيل متّى ٢٢: ٢٣.

٢. الهداية ٤: ٢٨٨ و ٢٨٩.

حزن واكتئاب، وسأل من الله بأشدّ لجاجة أن يعبر عنه كأس المنيّة، فلم تعبر، كما ذكرناه في الجزء الأوّل[١]. بل يقول الإنجيل: إنّه قال على الصليب: إلهي إلهي لماذا شبقتني، أي: لماذا تركتني؟ وهذا قول عبد عاجز ضعيف، مستغيث بإله يقدر على تخليصه.

وقد جاء في العهد الجديد في شأن المسيح كلمات لو كانت وحدها لأوهمت شيئاً من الغلوّ، ولكنّها قد جاء مثلها في شأن غيره من البشر. وذلك ممّا يكفي في ردّه لتوهّم الغلوّ منها خاسئاً، فضلاً عن سائر القرائن من ذات العهد الجديد.

فمنها: ما يحكيه عن قول المسيح: أنا والأب واحد[٢]. وقد جاء مثله في شأن التلاميذ عن قول المسيح في الدعاء إلى الله: ليكونوا واحداً كما نحن[٣]. وقوله في شأن التلاميذ وغيرهم: ليكون الجميع واحداً كما أنت أيّها الأب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنّك أرسلتني[٤].

وهذا بنفسه وحده يشهد بأنّ المراد بالوحدة والاتّحاد هو الاتّفاق على الحقّ، وأنّ المراد من قوله: أنت أيّها الأب فيّ. هو عناية الله به في تأييده بالمعجزات، وإجابة الدعاء ونحو ذلك. والمراد من قوله: أنا فيك. هو إيمانه بالله، والدعوة إلى توحيده وطاعته و نحو ذلك. وكذا قوله: ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا. فهو كما يحكى من قوله للتلاميذ: «في ذلك اليوم تعلمون أنّي أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم»[٥]. وكقول العهد الجديد في المؤمنين بصلاح المسيح ورسالته: «فالله يثبت فيه وهو في الله. يثبت في الله والله فيه»[٦]. وكقوله أيضاً: «نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح»[٧]. وقوله: «لأنّ

١. تقدّم في ج ١، ص ٣٥٢.

٢. إنجيل يوحنّا ١٠: ٣٠.

٣. إنجيل يوحنّا ١٧: ١١ و ٢٢.

٤. إنجيل يوحنّا ١٧: ٢١.

٥. إنجيل يوحنّا ١٤: ٢٠.

٦. رسالة يوحنّا الأُولى ٤: ١٥ و ١٦.

٧. الرسالة إلى أهل رومية ١٢: ٥.

أعضاءنا جسمه ـ أي المسيح ـ من لحمه ومن عظامه»[١]. والكنيسة جسده[٢]. وأنّ المؤمنين به جسده[٣].

ومنها: ما يحكى عن قول المسيح: «الكلام الذي أُكلّمكم به لست أتكلّم به من نفسي لكنّ الأب الحالّ فيّ هو يعمل الأعمال»[٤]. وهو كما يحكى عنه من قوله للتلاميذ: لستم أنتم المتكلّمين بل روح أبيكم الذي يتكلّم فيكم[٥]. والمراد من ذلك تأييد الله، فنسب إليه الفعل والحلول فيه وفيهم. وعن قول بولس لأهل كورنثوس: «أما تعلمون أنّكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم؟»[٦].

ولأهل فيلبي: إله وأب واحد للكلّ الذي على الكلّ وبالكلّ وفي كلّكم. أو: وفي كلّنا. أو: وفي الكلّ.

فاستعمال لفظ: الحالّ فيّ وفيكم، وفي كلّكم مجازٌ جرى عليه العهد الجديد. وليس على عهدتي أن يكون مقبولاً.

ومنها: ما يحكى عن قول المسيح: «أنتم من أسفل أمّا أنا فمن فوق أنتم من هذا العالم أمّا أنا فلست من هذا العالم»[٧]. وقد جاء مثله في العهد الجديد في شأن المؤمنين، فوصفهم بالولادة من الله ومن فوق. ففيه: «الذين ولدوا ليس من دم ولا مشيئة جسد ولا مشيئة رجل بل من الله»[٨]. وعن قول المسيح: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. لا تتعجّب أنّي قلت لك: ينبغي أن تولدوا من فوق»[٩]. وعن قوله

١. الرسالة إلى أهل أفسس ٥: ٣٠.

٢. الرسالة إلى أهل أفسس ١: ٢٣.

٣. الرسالة الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٢: ٢٧.

٤. إنجيل يوحنّا ١٤: ١٠.

٥. إنجيل متّى ١٠: ١٠.

٦. الرسالة الأُولى إلى أهل كورنثوس ٣: ١٦.

٧. إنجيل يوحنّا ٨: ٢٣.

٨. إنجيل يوحنّا ١: ١٣.

٩. إنجيل يوحنّا ٣: ٣ و ٧.

في شأن التلاميذ: «لو كنتم من العالم لكان العالم يحبّ خاصّته ولكن لأنّكم لستم من العالم»[١]. وأنّهم ليسوا من العالم كما أنّي لست من العالم[٢].

ومنها: عن قول المسيح: «الذي رآني فقد رأى الأب»[٣]. وذات العهد الجديد يوجب تأويل هذا الكلام، فضلاً عن سائر القرائن، لقوله فيما هو بمقتضى فرض الترتيب بعد زمان المسيح، وبعد الكلام المذكور، ما نصّه: «الله لم يره أحد من الناس ولا يـقدر أن يراه»[٤]. وإنّ الله لم ينظره أحد قطّ[٥]. والله غير منظور[٦]. ولو كان الكلام الأوّل له حقيقة، لكان الله جلّ شأنه مرئيّاً ومنظوراً، ويقدر كلّ أحد على أن يراه.

هذا هو العمدة ممّا يوهم الغلوّ. وقد عرفت من نفس محاورة العهد الجديد سخافة توهّم الغلوّ منه، وإن حكّمت عقلك في ذلك، فقد فزت بالسعادة وأضاء لك صبح اليقين. وقد جاء في الإنجيل عن قول المسيح في خطاب الله: «وهذه هي الحياة الأبديّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»[٧].

وذكرت الأناجيل في عبادة المسيح لله أنّه اعتمد من يوحنّا بمعموديّة التوبة ـ وهو غسل التوبة ـ لكي يكمل كلّ برّ[٨]. وصار مع الوحوش في البرّيّة أربعين يوماً صائماً ليجرّب من إبليس[٩]. ومعنى ذلك أنّه يروّض نفسه الكريمة على الطاعة لله ومـجانبة الهوى. وكان يصعد الجبل ليصلّي منفرداً يقضي بذلك أكثر النهار وأكثر الليل[١٠]. ويقصد

---

١. إنجيل يوحنّا ١٥: ١٩.
٢. إنجيل يوحنّا ١٧: ١٤ و ١٦.
٣. إنجيل يوحنّا ٤: ٩.
٤. رسالة بولس الأُولى إلى تيموثاوس ٦: ١٦.
٥. رسالة يوحنّا الأُولى ٤: ١٢.
٦. الرسالة إلى أهل كولوسي ١: ١٥.
٧. إنجيل يوحنّا ١٧: ٣.
٨. إنجيل متّى ٣: ١٥.
٩. إنجيل متّى ٤؛ إنجيل مرقس ١؛ إنجيل لوقا ٤.
١٠. إنجيل متّى ١٤: ٢٣ ـ ٢٦؛ إنجيل مرقس ٦: ٤٦ ـ ٤٨.

لصلاته المواضع الخالية[١]. والانفراد[٢]. ويبيّن أنّ بعض شفائه للمرضى لاينال إلّا بالصوم والصلاة[٣]. ويصرّح بأنّه لم يجئ لينقض الناموس. ويذمّ على نقض وصاياه حتّى الصغرى[٤]. ويحثّ على اتّباع قول الكَتَبة والفرّيسيّين؛ لأنّهم جلسوا على كرسيّ موسى[٥].

[الفصل الثالث: القيامة والآخرة والثواب والعقاب في العهدين]

وأمّا القيامة والآخرة والثواب والعقاب فيهما، فلم تذكر التوراة الرائجة فيها شيئاً أصلاً، حتّى أنّ إهمال ذلك بالكلّيّة في مقامات الوعد والوعيد، كاد أن يكون تعليماً بأنّه لا حقيقة لشيء من ذلك. فإنّك ترى التوراة الرائجة كثيراً ما تصدّت للترغيب والتخويف والوعد والوعيد، فلم تذكر في الوعد والترغيب إلّا التنعّم الدنيوي الفاني، كالاستعلاء على القبائل، والبركة في المزارع ونتاج البهائم، والسلّة والمعجنة وثمرة البطن، وما أشبه ذلك. ولم تذكر في الوعد والتخويف إلّا نحو اللعنة فيما تقدّم ذكره، والابتلاء بالأمراض الرديئة والقحط والذلّة، وأنّه يخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها، ونحو ذلك[٦].

وعلى ذلك جرى سائر العهد القديم. فلم تذكر فيه القيامة والآخرة إلّا في دانيال[٧]. ولكنّه نسب القيامة لكثير من الموتى الراقدين. وهذا خلاف حقيقتها. وجاء في إشَعْياء[٨] كلام يشبه الكلام على القيامة، ولكنّ سوقه يأباه. وجاء في أيّوب[٩] كلام لا يدلّ إلّا على بقاء الروح في الجملة بعد الموت.

---

١. إنجيل مرقس ١: ٣٥.
٢. إنجيل لوقا ٩: ١٨.
٣. إنجيل متّى ١٧: ٢١؛ إنجيل مرقس ٩: ٢٩.
٤. إنجيل متّى ٥: ١٧ ـ ٢٠.
٥. إنجيل متّى ٢٣: ١ ـ ٤.
٦. انظر سفر التثنية ٢٨.
٧. سفر دانيال ١٢: ١ و ٢.
٨. سفر إشعيا ٢٦: ١٩.
٩. سفر أيّوب ١٩: ٢٦.

ويحتمل أن يكون لأجل ما ذكرناه من تفريط العهد القديم في ذكر القيامة والآخرة، نبغت فرقة من اليهود يسمّون الصدوقيّين فأنكروا القيامة، كما جاء ذكرهم في الأناجيل.

نعم، إنّ العهد الجديد قد جاء فيه التعرّض لذكر ما بعد الموت، فقد جاء في إنجيل لوقا في حال العالم الذي يسمّيه المسلمون عالم البرزخ، وهو عالم الأموات فيما بين الموت والقيامة، ففيه عن موعظة المسيح للفرّيسيّين أنّه:

> مات إنسان فقير مبتلى فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ومات غنيّ فدفن. فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى: يا أبي يا إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبلّ طرف إصبعه بماء ويبرّد لساني لأنّي معذّب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم: يا ابني اذكر أنّك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذا لعازر البلايا، والآن هو يتعزّى وأنت الغنيّ تتعذّب. وفوق هذا كلّه إنّ بيننا وبينكم هوّةٌ عظيمة لا يقدر من يريد العبور أن يجوزها فقال: أسألك إذاً يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي؛ لأنّ لي خمسة إخوة حتّى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. فقال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم، فقال إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون، فقال: إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء فلا يصدّقون وإن قام واحد من الأموات[1].

ويوجد في أثناء هذا البيان خلل ظاهر، يجلّ عنه تعليم المسيح، حيث علّل نعيم لعازر بابتلائه وعذاب الغنيّ بثروته في الدنيا، وهو تعليم فاسد، فإنّ الله العادل الكريم لا يعذّب على نعمه التي وهبها برحمته، وإنّما يعذّب على المعاصي، وقد يجتمع للصالح سعادة الدنيا والآخرة، ولا يكون ثواب الآخرة مربوطاً بمجرّد الابتلاء في الدنيا، بل إنّما هو مربوط بالطاعة والصبر على البلاء والتسليم للقضاء، فربّ مبتلى يكون بمعصيته واعتراضه على الله من الكافرين فيخسر الدنيا والآخرة.

وجاء في رسالة بطرس الأُولى في ذكر المسيح: وأنّه تألّم مماتاً في الجسد، ولكنّه

---

١. إنجيل لوقا ١٦: ٢٢ ـ ٣١.

محياً في الروح، الذي به أيضاً ذهب فكرز للأرواح التي في السجن؛ إذ عصت قديماً[١].

وكأنّ هذا الكلام يشير إلى سجن الأرواح الشقيّة في عالم البرزخ. ولعلّ هذا هو المأخذ لما كتبه البروتستنت في كتاب صلاتهم، من وجوب الاعتقاد بأنّ المسيح نزل إلى الجحيم.

ولكنّ المتكلّف مع ما سمعته عن إنجيل لوقا، يقول في أمر البرزخ: «إنّ الديانة المسيحيّة منزّهة عن هذه الخرافات، فليس عندهم برزخ»[٢].

ولعلّ المتكلّف يقول فيما جاء في لوقا عن المسيح في شأن إبراهيم ولعازر والغنيّ، كما قاله كثير من أصحابه فيما جاء كثيراً في الأناجيل من حديث الأرواح النجسة، بأنّه كلام لا حقيقة له، ولكنّه كان مداهنة لأفكار الناس في غلطهم، وإصلاح رأي الناس في غلط الاعتقادات ليس من وظائف الرسالة، بل من وظيفتها مداهنتهم بالغلط، وإغراؤهم بالجهل.

وقد كثر في العهد الجديد التعرّض لذكر القيامة محتجّاً لها، ولكن باحتجاجٍ واهٍ لا يرضاه لأنفسهم عوامّ الناس وأوباشهم. انظر الجزء الأوّل[٣].

وفي كورنثوس الأُولى يذكر أنّ بولس يحتجّ للقيامة بقيام المسيح من الأموات، وبأنّ بولس تحمّل المتاعب في أفسس، ولو لا القيامة لما فعل ذلك[٤].

ولا يخفى عليك أنّه احتجاج ساقط، لا يثبت شيئاً على من لم يثبت عنده قيام المسيح من الموت. ولا يثبت القيامة بالنحو المطلوب وإن فرض التصديق بموت المسيح وقيامه؛ إذ لا ملازمة بين الأمرين، خصوصاً إذا كانت الشبهة في أمر القيامة من حيث بلاء الأجسام وانعدام صورتها وتفرّق أوصالها.

وأمّا متاعب بولس فالاحتجاج بها واهٍ ولو فرضنا أنّ كلّ من أجهد نفسه لم يقصد

١. رسالة بطرس الأُولى ٣: ١٨ ـ ٢٠.
٢. الهداية ٢: ٢٠٥ س ٦.
٣. تقدّم في ج ١، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩.
٤. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ١٢ ـ ٣٣.

بمتاعبه إلّا وجه الله. كيف والموجود المعروف أنّ سلطان الهوى، وحبّ الجاه، والرئاسة بعد الخمول، يسخّر لأكثر من ذلك؟ فكم من مضرمٍ لنار الثورة القاسية، قاذفٌ بنفسه في مهالكها، معذّب لنفسه في متاعبها، وهو يعلم بإنكار القيامة.

وفي العهد الجديد عن بولس قوله:

> لا نرقد ـ أي لا نموت ـ كلّنا ولكنّا كلّنا نتغيّر في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنّه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغيّر[١]. وإنّ الأموات في المسيح سيقومون. ونحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الربّ وهكذا نكون مع الربّ في كلّ حين[٢].

وقد ذكرنا في الجزء الأوّل ما في هذا الكلام من لزوم الكذب، وبيّنا لك وهن ما تشبّث به المتكلّف لإصلاح هذا الكلام. فراجع[٣].

وعن قول المسيح:

> إنّه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته ـ أي صوت المسيح ـ فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة[٤].

وهكذا يكون في انقضاء العالم يخرج الملائكة، ويفرزون الأشرار من بين الأبرار. ويطرحونهم في أتون النار[٥]. وإنّ الصالحين أصحاب اليمين يرثون الملكوت المعدّ لهم منذ تأسيس العالم. وأصحاب الشمال الملاعين يذهبون إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته[٦].

وهذا ناطق بأنّ الصالحين لهم ملكوت يرثونه لنعيمهم، وهو معدّ لهم.

---

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٥١ و ٥٢.

٢. رسالة بولس الأُولى إلى أهل تسالونيكي ٤: ١٦ و ١٧.

٣. انظر ج ١، ص ٧٩.

٤. إنجيل يوحنّا ٥: ٢٨ و ٢٩.

٥. إنجيل متّى ١٣: ٤٩ و ٥٠.

٦. إنجيل متّى ٢٥: ٣٤ و ٤١.

وعن قوله لتلاميذه: «وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً؛ لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي»[١]. وقوله: «من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت الله»[٢]. وقوله لهم أيضاً:

لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة وإلّا [فإنّي] كنت [قد] قلت لكم: أنا ماض لأُعدّ لكم مكاناً[٣].

وهذا صريح في التعليم بأنّ ملكوت الله الذي يرثه الأبرار في القيامة لنعيمهم، فيه مساكن ومأكل ومشرب، وشرب من نتاج الكرمة.

وجاء أيضاً عن قول المسيح: «إنّ العصاة يمضون ويطرحون في جهنّم النار التي لا تُطفَأ حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ»[٤]. وإنّ جسدهم يلقى في جهنّم أتون النار الأبديّة[٥].

نعم، جاء عن قول المسيح:

إنّ أبناء هذا الدهر يُزَوِّجون ويُزَوَّجون، ولكن الذين حسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يُزوِّجون ولا يُزوَّجون؛ إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنّهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة[٦].

ومقتضى هذا الكلام أنّ القيامة مختصّة بالأبرار الذين حسبوا أهلاً للقيامة، وهم أبناء الله. وهذا مناقض لما تقدّم في بيان قيام الأشرار أيضاً للعذاب ودخول جهنّم. وقد أشرنا إلى ما في هذا الكلام في الجزء الأوّل[٧].

وعن بولس: هكذا أيضاً قيامة الأموات يزرع في فساد ويقام في عدم فساد يزرع

١. إنجيل لوقا ٢٢: ٢٩ و ٣٠.
٢. إنجيل متّى ٢٦: ٢٩؛ إنجيل مرقس ١٤: ٢٥.
٣. إنجيل يوحنّا ١٤: ١ و ٢.
٤. إنجيل مرقس ٩: ٤٣ ـ ٤٩.
٥. إنجيل متّى ٥: ٢٩ و ٣٠، ١٨: ٨.
٦. إنجيل لوقا ٢٠: ٣٤ ـ ٣٦.
٧. تقدّم في ج ١، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

في هوان ويقام في مجد يزرع في ضعف ويقام في قوّة يزرع جسماً حيوانيّاً ويـقام جسماً روحانيّاً[١].

ومقتضى هذا الكلام أيضاً اختصاص القيامة بالأبرار الذين يقومون في مجد وقوّة.

وفي العهد الجديد: إنّ يوم الربّ تزول فيه السماوات وتنحلّ ملتهبة وتنحلّ العناصر وتذوب محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات فيها، ولكنّه وعد بسماوات جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البرّ.

وينبغي أن يكون هذا اليوم هو يوم القيامة.

[العهد الجديد رجعة المسيح وعلاماتها]

وفيه أيضاً:

المسيح باكورة الراقدين ثمّ الذين للمسيح في مجيئه. وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الأب متى أبطل كلّ رئاسة وكلّ سلطان وكلّ قوّة؛ لأنّه يجب أن يملك حتّى يضع جميع الأعداء تحت قدميه، آخر عدوّ يُبطَل هو الموت؛ لأنّه أخضَع كلّ شيء تحت قدميه ولكن حينما يقول: إنّ كلّ شيء قد أُخضِع فواضح أنّه غير الذي أخضَع له الكلّ، ومتى أُخضِع له الكلّ فحينئذٍ الابن نفسه سيَخْضَع للذي أخضَع له الكلّ كي يكون الله الكلّ في الكلّ[٢].

ولم يتيسّر لي فهم المراد والمحصّل من هذا الكلام، ولكنّه يتألّف منه برهان على أنّ المسيح المسمّى بالابن هو غير الله لأنّه يخضع لله، والخاضع غير الذي يخضع له الكلّ.

وفيه أيضاً:

إنّ التلاميذ سألوا المسيح عن علامة مجيئه وانقضاء الدهر، فأعطاهم علامات بضيق وفتن وأضاليل، وحذّرهم، وذكر لهم أنّ مجيئه يكون بغتة، وقال: وللوقت بعد ضيق تلك الأيّام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والنجوم تسقط من

١. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٤٢ ـ ٤٥.

٢. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٢٣ ـ ٢٨.

السماء وقوّات السماء تتزعزع. ويبصرون ابن الإنسان ـ أي المسيح ـ آتياً على سحاب السماء بقوّة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصى السماء إلى أقصاها. الحقّ أقول لكم: لا يمضي هذا الجيل حتّى يكون هذا كلّه. السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول.

وأمّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماء إلّا أبي وحده[١].

وقد اضطرب المتكلّف وأمثاله في المراد من هذا الكلام:

فمرّةً قالوا: إنّ المراد من ذلك مجيء المسيح ورجوعه في آخر الزمان. وقالوا: إنّ المراد بالجيل الذي لا ينقضي حتّى يكون هذا كلّه، هو الأُمّة اليهوديّة والقبيلة الإسرائيليّة، وأنّها لا تزال موجودة إلى مجيء المسيح. ولذا ترى الترجمة الكلدانيّة المطبوعة في نيويورك ذكرت بدل لفظ الجيل لفظ «هوجاج» أي القبيلة.

ومرّة قالوا: إنّ المراد من مجيء المسيح هو انتشار النصرانيّة. والمراد من الجيل هو الطبقة من الناس. ولذا ذكر في التراجم العبرانيّة بلفظ «دور» وفي الفارسيّة بلفظ «طبقه» وفي الإنكليزيّة والفرنساويّة بلفظ «جنراشن» وإنّ هذه الحوادث علامة لخراب بيت المقدس ولفظها كناية عن حادثة انطوخيوس ابيفانس ووقيعته ونكايته في اليهود.

وما وقعوا بهذا الاضطراب والتمحّلات الواهية إلّا من اضطراب الأناجيل، فإنّ متّى ذكر هذه الأُمور جواباً لسؤال التلاميذ من المسيح عن مجيئه وانقضاء الدهر. ولوقا ذكرها جواباً لسؤالهم عن وقت خراب الهيكل ببيت المقدس. ومرقس شوّش الأمر، وقرن الإشارة بأسباب الإبهام والانحلال، فلم يربط أطراف كلامه[٢].

ومن الظرائف أنّ المتكلّف صار يتشبّث لتمحّلاته باستعمالات لفظ الجيل في اللغة العربيّة، بمعنى الصنف من الناس. ولم يشعر أنّ لفظ الجيل ليس من اللغة الأصليّة

---

١. إنجيل متّى ٢٤: ٣ ـ ٣٦؛ انظر إنجيل مرقس ١٣: ٣ ـ ٣٣؛ إنجيل لوقا ٢١: ٧ ـ ٣٤.

٢. فانظر الهداية ٢: ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

للأناجيل، وإنّما هو من لغات التراجم. واشتراكه في اللغة العربيّة، لا يؤاتيه على تأويله لإصلاح ظهور الكذب على أناجيله. ولو تحرّى رشداً ووجد مناصاً، أو كانت له سعة من الاطّلاع، لذكر اللفظ الأصلي من أناجيله باللغة اليونانيّة القديمة، ثمّ بيّن أنّه هل يحتمل التأويل بمعنى الصنف من الناس كلفظ الجيل، لكي يؤوّل بالأُمّة اليهوديّة، أم لا يحتمل ذلك؟

وفي العهد الجديد أيضاً: فإنّ ابن الإنسان ـ أي المسيح ـ سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذٍ يجازي كلّ واحد حسب عمله. الحقّ أقول لكم: إنّ من القيام هاهنا قوماً لا يذوقون الموت حتّى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته.

والمتكلّف لم يجد هاهنا لفظ الجيل لكي يذكر معانيه في اللغة العربيّة، وإنّ جميع القائمين هناك قد ذاقوا الموت منذ قرون عديدة فالتجأ إلى تأويل مجيء المسيح ومجازاته للناس حسب أعمالهم، ورؤية بعض القائمين هناك له آتياً في ملكوته[١].

أترى المتكلّف لا يشعر أنّ هذه التأويلات السخيفة لمثل هذا الكلام، المنسوب إلى مثل المسيح عليه السلام في مقام البيان، والتعليم والإعلام بما يأتي، ليفتح للكذّابين باباً واسعاً تتركهم يتكلّمون بما يجري على لسانهم، ثمّ يطبّقونه بمثل هذا التأويل على أيّ حادثة تقع. فيقول أتباعهم: قد تمّت نبوّاتهم والحمدلله فتأيّدوا بالآيات الباهرة. فلا يبقى محلّ للعلامة التي أعطتها التوراة للدلالة على كذب الكاذب بدعوى النبوّة، وهي عدم الوقوع لما أخبر به[٢]. ولا يبقى لها وظيفة إلّا أن تقف موقف الحيرة والتعطيل. ولعلّها إن قالت كلمة، قيل لها: إنّ أضاليلك كأضاليل إظهار الحقّ... وليت اضطراب الأناجيل الرائجة وخللها قد أعطى قدس المسيح كفافاً لا له ولا عليه.

وقد تركنا في هذا المقام ذكر الهوسات التي جاءت في أمر القيامة في الكتاب المسمّى رؤيا يوحنّا، تكريماً لهذا المقام عن مثلها.

---

١. فانظر الهداية ٢: ٢١٩ ـ ٢٢٣.

٢. انظر سفر التثنية ١٨: ٢١ و ٢٢.

[الفصل الرابع: الشريعة في العهدين]

وأمّا شريعة موسى، فقد ذكرت التوراة الرائجة في ابتدائها شريعة ذبح الفصح في ليلة الرابع عشر من شهر أبيب ـ وهو نيسان ـ بين العشاءين يذبحون لكلّ بيت شاة. والفقراء يكتفي الجماعة من الجيران حسب أكلهم بشاة. ويأكلون الفطير من ليلة الرابع عشر إلى ليلة الحادي والعشرين من نيسان ومن شريعة الفصح أن لايأكل منه إلّا المختون، ولا يخرج من لحمه خارج البيت ولا يكسر عظمه[١].

وذكرت فيما بين المنزل الأوّل لهم من مصر وبين المنزل الثاني أنّ الله أمر موسى أن يقدّس كلّ بكر فاتح رحم من الناس والبهائم فإنّه لله. ومتى قدموا إلى أرض الموعد يقدّمون كلّ بكر ذكر من نتاج البهائم لله، ولكن بكر الحمار يفديه بشاة، وإن لم يفده يكسر عنقه. وكلّ بكر من الأولاد يفديه. ولم يعيّن حينئذٍ فداءه[٢].

وفي برّيّة سين في نحو الخامس عشر من أيار أنزل الله عليهم المنّ وأرسل إليهم السلوى، وشرع لهم في المنّ أن يأخذوا لكلّ واحد عمراً وهو عشر الأيفة، يأخذوه يوماً فيوماً، إلّا يوم الجمعة فإنّهم يأخذون فيه ليوم السبت. والمنّ كبزر الكزبرة، وطعمه كرقاق بعسل[٣].

وفي رفيديم أشار على موسى حموه يثرو ـ وهو شعيب ـ أن يعلّم بني إسرائيل الشرائع، ويقيم عليهم رؤساء أُلوف ومئات وخماسين وعشرات، فيقضون للشعب في الدعاوي الصغيرة، ويرجعون إلى موسى في الدعاوي الكبيرة؛ لكي تخفّ عن موسى المشقّة التي كان يتحمّلها بتصدّيه للقضاء بنفسه في كلّ الدعاوي ففعل موسى كلّ ماقال حموه[٤].

وهذا يقتضي أن يكون حمو موسى نبيّاً، قد بلّغ موسى بهذا الأمر عن الله، وإلّا

---

١. سفر الخروج ١٢.

٢. سفر الخروج ١٣.

٣. سفر الخروج ١٦.

٤. سفر الخروج ١٨.

فحاشا لموسى أن يسلّط الناس على وظيفة القضاء وفصل الخصومات بدون أمر من الله، بل بمجرّد مشورة من رجل من سائر الناس. والتوراة الرائجة تذكر أنّ موسى كان يؤخّر ما يصدر عليه إلى أن يبيّن الله له حكمه، فذكرت أنّه لم يحكم على ابن الإسرائيليّة الذي سبّ الاسم، بل حبسه إلى أن أمره الله بقتله رجماً[١]. وكذا فيمن وجدوه يحتطب في يوم السبت[٢].

وذكرت عن أوّل كلام الله لموسى في طور سيناء، في خطاب بني إسرائيل: لا تكن لك آلهة أُخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ـ و عبارته في العبرانيّة «فسل» ـ ولا صورة ممّا في السماء والأرض والماء. لا تسجدلهنّ ولا تعبدهنّ.

وكثيراً ماكرّرت وأكّدت هذا النهي، وتوعّدت على مخالفته، ونهت عن مخالطة شعوب الأرض، بل أمرت بملاشاتهم احتياطاً لهذه الحقيقة، وحماية لحوزة التوحيد من مهاجمة الأهواء بعادية أضاليلها، وحفظاً لصحّة الاعتقاد من عدوى داء الوثنيّة، وسريان وباء الشرك بالتجاوز عن التوحيد وتأليه البشر وعبادة جند السماء والحيوان والجماد.

ثمّ لنذكر باقي الشريعة في فصول ملخّصة، وربّما نشير في مكرّراتها إلى مورد واحد.

الفصل الأوّل في الأوامر والنواهي الواردة في الآداب وتهذيب الأخلاق

وقد أمرت بني إسرائيل بعبادة الله والحلف باسمه، وإكرام الأبوين، والمساعدة حتّى للعدوّ والمبغض والحكم بالعدل لقريبهم.

ولكنّها ـ وحاشا التوراة الحقيقيّة ـ قد باهضت التعليم الإلهي وشوّهت صورته إذ خصّت أمرها بالحكم بالعدل بالقريب ـ أي من كان إسرائيليّاً ـ. فإنّ التعليم الصحيح ووجدان كلّ البشر، يشمئزّان من حقيقة هذا التخصيص وصورته.

ونهت بني إسرائيل عن القتل والزنى والسرقة والالتفات إلى الجانّ وطلب التوابع، والتفوّل والعيافة، وتدنيس البنت بتعريضها للزنى، وعن أخذ الرشوة، ومتابعة المنافق،

---

١. انظر سفر اللاويّين ٢٠: ١٠ ـ ١٧.

٢. سفر العدد ١٥: ١٧ ـ ٣٢.

واتّباع الكثيرين لفعل الشرّ والتحريف، وعن الحلف باسم الله كذباً، واضطهاد الغريب وظلم الأجير والمسكين، والإساءة إلى الأرملة واليتيم وشتم الأصمّ، وجعل المعثرة قدّام الأعمى؛ وعن الجور في القضاء.

ويا حبّذا هذا التعليم الجاري على حقّه من الإطلاق، ولكنّها لم تتمّ الإحسان به، بل خصّصت جملة من التعاليم ويا أسفاً!

فنهتهم عن الانتقام والحقد على أبناء شعبهم، والسعي بالوشاة بين شعبهم، وشهادة الزور على قريبهم، وأن يغدر أحدهم بصاحبه.

وياليتها لم تقيّد هذه التعاليم بالشعب والقريب، فإنّ الحقد والغدر والوشاية وشهادة الزور رذائل، ينبغي أن تجتنب من أصلها وذاتها مع كلّ أحد ولا يحسن بالتعاليم الصحيحة أن تقيّدها وتخصّها ولو في الصورة. ولكن في المثل: (حنَّ قِدحٌ ليس منها)[١].

نعم، لا يوجد هذا البأس في منعها عن أخذ الربا من الإسرائيلي، وجواز أخذه من الأجنبيّ.

الفصل الثاني في الشعائر والمواسم والعبادات

ومنها: محرقة كلّ يوم، وهي خروف في الصباح، وخروف بين العشاءين، مع التقدمة والسكيب من الخمر.

ومنها: محرقة السبت أيضاً، وهي خروفان مع التقدمة والسكيب من الخمر.

ومنها: محرقة رؤوس الشهور، وهي ثوران وكبش وسبعة خراف حوليّة وتيس، مع تقدمتها وسكيبها من الخمر.

ومثلها: محرقة الفصح في كلّ يوم من خامس عشر نيسان إلى الحادي والعشرين.

ونحوها: محرقة عيد الأسابيع بعد خمسين يوماً من أوائل الحصاد. ومحرقة عيد المظالّ مع التقدمات والسكائب من الخمر، مع تفاوت في المقادير والأيّام.

هذا ماعدا محرقات القرابين. وكيفيّة إحراقها أن توضع الليليّة على الموقدة كلّ

---

١. مجمع الأمثال ١: ٣٤١.

الليل، والنهاريّة كلّ النهار، والنار تتّقد دائماً. ويحرق أيضاً على هذه النار الألية والشحم من ذبائح الخطيئة وذبائح السلامة. على تفصيل طويل في الذبح والإحراق وإلقاء الرماد والأكل من ذبائح الخطيئة والسلامة[١].

ولا يمتنع فرض الحكمة في شريعة المحرقات باعتبار حال الوقت، والعوائد، وبني إسرائيل. فلا تقل: لا يوجد فيها أثر إلّا إتلاف المال وتضييعه من دون نفع الفقير أو غيره. ولكن قل متأسّفاً: ما أسوأ التعبير عن المحرقات بأنّها رائحة سرور لله! ومع ذلك تنسب العبارة إلى قول الله جلّ وعلا: وكذا رائحة سروري.

وقل أيضاً ما معنى سكب المسكر؟ وما أسوأ التعبير بأنّه سكيب مسكر للربّ! وهذا يقتضي أن يعمل مصنع المسكر ويدّخر لأجل هذا الشعار. أفلا يدعو هذا إلى الرغبة في المسكر ودوام وجودهِ، وهو رأس الخبائث ومنبع الشرور. إذاً وأين ذمّ الخمر والمسكر في العهدين، كما ذكرناه في الجزء الأوّل[٢].

ومنها: السبت ولزوم ترك الأعمال فيه.

ومنها: عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظالّ، وأن يحضر في هذه الأعياد جميع الذكور من بني إسرائيل، في المحلّ الذي يختاره الله، كبيت المقدس في أُورشليم.

ولعلّك تشكّ في أنّ هذا من شريعة الله المعطاة لموسى، وتقول: إنّ الله الحكيم الذي شرع في القرآن الكريم صلاة الخوف والتحذّر من العدوّ، لا يناسب حكمته أن يأمر بني إسرائيل بأن يجتمع جميع ذكورهم في الأعياد في بيت المقدس ونحوه، ويتركوا حرمهم ونساءهم بلا ذكر يحميهنّ من سوء الأعداء والفسقة. وهم بين كفّار وثنيّين يطلبون بني إسرائيل بالأحقاد والثارات والذُحول[٣].

وإنّ الله تبارك اسمه ليعلم أنّهم مئات من الأُلوف، سينتشرون في أرض الموعد، بحيث تبلغ مسافة كثير منهم عن بيت المقدس ونحوه مسيرة يوم أو يومين. ويعلم ما

---

١. انظر سفر العدد ٢٨؛ سفر اللاويّين ١ ـ ٩.

٢. تقدّم في ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ و ٢١٨ ـ ٢٢٠.

٣. الذحول: جمع ذَحْل، وهو الحقد والعداوة. الصحاح ٤: ١٧٠١، «ذ ح ل».

تذكره التوراة الرائجة وكتاب يشوع ـ يوشع ـ إن صحّ نقلهما، فيما صنعه بنو إسرائيل بسكّان الأرض من سوء الولاية، وقتل النساء والأطفال وإحراقهم مع البلاد والبهائم. وقولهما: إنّ ذلك عن أمر الله. إذاً فكيف يأمرهم بشريعة تترك نساءهم وبناتهم مطمعاً للثائرين والفسقة.

ومن الشعائر صنعة خيمة الاجتماع، والتابوت، وثياب هارون وبنيه، والذبائح لتقديسهم، وللتكفير، وسائر أحكام الكهنة[1].

ولا تستغرب ما ذكر في وضع ثياب هارون وزينته للكهنوت، فإنّ الأزمان تختلف والزيّ والوقار يتفاوت بحسب الزمان والمكان، وبذلك يمكن أن يكون لذاك المنقول حظّ من الحقيقة.

ومنها: شريعة المنذور لله. وفيها اجتنابه عن الخمر، وما يؤخذ منه كالخلّ والعنب ونحوهما. وعند ما يحلّ من انتذاره يسوغ له شرب الخمر[2].

فأين حماسة المتكلّف في قوله: «فأنت ترى أنّها كانت جائزة، والتوراة والإنجيل ناطقان بأنّها حرام قطعاً»[3]؟

ومنها: شريعة إخراج العشر لله من الحبوب والثمار، وكذا البقر والغنم، ممّا يعبر تحت العصا سنة بسنة[4].

ولكنّ التوراة الرائجة قد اختلفت في هذه الشريعة:

فمرّةً: ذكرت أنّ هذه العشور لله، وأطلقت كما تقدّم.

ومرّةً: ذكرت أنّ الله أعطاها للاويّين ميراثاً ونصيباً وأُجرة، عوض خدمتهم لخيمة الاجتماع، إذ لم يجعل لهم قسمة في أرض الموعد، حتّى أنّ اللاويّين يرفعون عشر العشر ويعطونه رفيعة لهارون، كما يُعشّر الناس أملاكهم[5].

---

١. سفر الخروج ٢٥ ـ ٣١؛ سفر اللاويّين ١٦ و ٢١.

٢. سفر العدد ٦.

٣. الهداية ١: ١٣.

٤. انظر سفر اللاويّين ٢٧: ٣٠ و ٣٢؛ سفر التثنية ١٤: ٢٢ و ٢٣.

٥. انظر سفر العدد ١٨: ٢١ ـ ٣٢.

ومرّةً: ذكرت أنّ العشر يأكله صاحبه، ولكنّها منعته عن أكله في محلّه، بل يحمله إلى المكان الذي يختاره الله ويأكله هناك. وإذا طال عليه الطريق فلم يقدر أن يحمله، فإنّه يبيعه بفضّة ويحملها إلى المكان الذي يختاره الله، وينفقها في كلّ ما تشتهيه نفسه من البقر والغنم والخمر والمسكر وكلّ ما تطلب منه نفسه، فيأكله هناك أمام الربّ إلهه، ولا يترك اللاوي بل يعطيه شيئاً؛ لأنّه ليس له نصيب في الأرض[1].

ثمّ ذكرت أنّ الإسرائيلي في آخر ثلاث سنين، يُخرج كلّ عشر محصوله في تلك السنة سنة العشور، ويضعه في أبوابه فيأتي الغريب واليتيم والأرملة الذين في أبوابه ويأكلون ويشبعون، وكذا اللاوي؛ لأنّه ليس له قسم ولا نصيب في الأرض[2].

وظاهر الكلام يقتضي أنّ هذا العشر غير العشور السنويّة، ولذا خالفها في الأحكام. ويحتمل أن يكون منها، ولكنّ الأحكام اختلفت من حيث النسخ أو تعدّد مواليد التوراة.

ومنها: ما جاء في التوراة الرائجة في خطاب الشعب الإسرائيلي: ستّ سنين تزرع أرضك وتجمع غلّتها. وأمّا في السنة السابعة فتريحها وتتركها ـ أي لا تزرعها ـ ليأكل فقراء شعبك وفَضْلَتهم تأكُلها وحوشُ البرّيّة كذلك تفعل بكَرْمِك وزيتونك[3].

وهذا كلام غير مستقيم يشهد بأنّه لا يعرف موسى عليه السلام، فإنّ الأرض إذا أُريحت ولم تزرع لم يمكن أكل الفقراء منها ولا وحوش البرّيّة. وهل يأكلون ترابها؟ ولو قيل هذا في الكرم والزيتون لكان مناسباً[4].

ومنها: سنة الإبراء، وهي في آخر سبع سنين، يُبرئ فيها كلّ ذي دين من بني إسرائيل صاحبَه وأخاه ممّا عليه من الدَين، إلّا أن يكون غنيّاً، أو يكون المديون أجنبيّاً عن بني إسرائيل[5]. وممّا يناسب ذلك أنّ العبد العبراني يخدم ستّ سنين، وفي السنة

---

١. سفر التثنية ١٢: ١٧ و ١٨ و ١٤: ٢٣ ـ ٢٧.

٢. سفر التثنية ١٤: ٢٨ و ٢٩ و ٢٦: ١٢ و ١٣.

٣. سفر الخروج ٢٣: ١٠ و ١١.

٤. كما جاء في سفر اللاويّين ٢٥: ٥ ـ ٧.

٥. سفر التثية ١٥: ١ ـ ٥.

السابعة يخرج حرّاً، ويزوّده سيّده من غنمه وبيدره ومعصرته، وإن دخلت زوجته معه خرجت معه. وإن تزوّج عند سيّده وصار له أولاد خرج وحده، وإن أحبّ البقاء عند سيّده مع أولاده، يقدّمه سيّده إلى الله ويثقب أُذنه بالمثقب، فيخدمه إلى الأبد ويكون عبداً مؤبّداً[١].

ويا حبّذا هذه الشريعة في إطلاق العبد العبراني لولا قساوة ثقب أُذنه، ووسمه بسمة الذلّة والندامة باستخدامه إلى الأبد. ويا حبّذا لو وسعه كرم الأخلاق بغير هذه العادة القاسية. وحاشا الوحي من ذلك.

ومنها: سنة اليوبيل، وهي سنة الخمسين، لا يزرعون الأرض فيها ولا يقطفون كرمها، وينادون في يوم الكفّارة بالعتق في الأرض لجميع سكّانها. وتفكّ الأراضي المبيعة، وترجع إلى أصحابها على ميزان مخصوص. ويخرج العبد العبراني حرّاً هو وبنوه[٢].

ولم يتّضح من ذلك أنّ العبد العبراني الذي حكم قبلاً بثقب أُذنه وخدمته وعبوديّته إلى الأبد، هل يخرج في سنة اليوبيل حرّاً، فيكون الحكم بالتأبيد منسوخاً أم لا يخرج؟

ومنها: تقديس الأبكار الذكور لله. فعن كلام الله لموسى: قدّس لي كلّ بكر فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم إنّه لي. وذكر فداء الولد البكر مجملاً[٣]. وعن خطاب الله لبني إسرائيل: وأبكار بنيك تعطيني[٤].

ثمّ ذكر فداء البكر من الإنسان والبهائم النجسة، وهو خمسة شواقل فضّة، تكون لهارون؛ لأنّ الله جعل الأبكار لهارون. وأمّا بكر البقر والضأن والمعز فلا يفدى، بل يذبح ويرشّ دمه على المذبح، ويوقد شحمه وقوداً رائحة سرور، ولحمه يكون لهارون[٥]. ثمّ

---

١. سفر الخروج ٢١؛ سفر التثنية ١٥.
٢. سفر اللاويّين ٢٥.
٣. سفر الخروج ١٣: ٢ و ١٢ و ١٣ و ١٥ و ٣٤: ٢٠.
٤. سفر الخروج ٢٢: ٢٩.
٥. سفر العدد ١٨: ١٥ ـ ١٩.

ذكر عن قول الله: وها أنا أخذت اللاويّين من بني إسرائيل بدل كلّ بكر فاتح رحم من بني إسرائيل فيكون اللاويّون لي[١]. وعن قوله جلّ اسمه لموسى: عدّ كلّ بكر ذكر من بني إسرائيل من ابن شهر فصاعداً فتأخذ اللاويّين لي أنا الله بدل كلّ بكر في بني إسرائيل وبهائم اللاويّين بدل كلّ بكر في بهائم بني إسرائيل[٢].

وهذا الاختلاف في حكم الأبكار من الناس والبهائم من حيث التقديس، والفداء وعدمه، والاستبدال عنها باللاويّين وبهائمهم، لا يخلو عن أن يكون من ناحية النسخ، أو من ناحية تشويش التوراة الرائجة لتعدّد مواليدها.

ومنها: انتخاب القهاتيّين من اللاويّين لخدمة خيمة الاجتماع عن أمر الله لموسى وأنّ عمر الموظّف للخدمة يكون من ابن ثلاثين سنة إلى خمسين[٣]. فنصّت التوراة العبرانيّة على هذا العدد في سبعة مواضع، وخالفتها السبعينيّة في هذا المقام، فأبدلت الثلاثين سنة بخمس وعشرين. والعبرانيّة نفسها أيضاً ذكرت أنّ المنتخب يكون من ابن خمس وعشرين سنة إلى خمسين[٤].

وقد ذكرنا هذا الاختلاف وما قيل فيه في الجزء الأوّل[٥]. فراجع.

الفصل الثالث[٦] في الملابس والمطاعم

وقد نهت التوراة بني إسرائيل عن لبس ثوب مصنّف من صنفين، أو مختلطاً صوفاً وكتّاناً. ولا يكون متاع رجل على امرأة، ولا يلبس رجل ثوب امرأة. وأمرتهم بأن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم، ويجعلوا على هدب الذيل عصابةً من أسمانجوني،

---

١. سفر العدد ٣: ١٢.

٢. سفر العدد ٣: ٤٠ و ٤١.

٣. سفر العدد ٤.

٤. سفر العدد ٨: ٢٤ و ٢٥.

٥. تقدّم في ج ١، ص ٣٢٨.

٦. في النسخ المطبوعة: «الفصل الثاني» والصواب ما أثبتناه لمناسبته لأحكام الشريعة.

وأن يصنعوا جدائل على أربعة أطراف الثوب الذي يتغطّون به.

ونهتهم عن أكل الدم والفريسة والميتة، ومن البهائم ما لم يجمع صفتين وهما أن يكون يجترّ وله ظلف ينشقّ إلى ظلفين. ونصّت من ذلك على تحريم لحم الجمل والوبر والأرنب والخنزير. ومن حيوانات الماء ما لم يكن له زعانف وحرشف. ومن الطير النَسر والأنوق والعقاب الحدأة والباشق والشاهين وكلّ غراب والنعامة والظليم والسأف والباز والبوم والغوّاص والكركي والبجع والقوق والرخم واللقلق والببغاء والهدهد والخفّاش. وكلّ دبيب الطير الماشي على أربع، إلّا ما كان له كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض كالجراد والدبا والحرجوان والجندب[1]. وهناك محرّمات أُخر لا يهمّنا استقصاؤها.

الفصل الرابع في الطهارة والنجاسة

وقد حكمت التوراة بنجاسة هذه الحيوانات المحرّمة، وأنّ من مسّ ميتتها يكون نجساً إلى المساء، وبنجاسة أشياء أُخر تُعرَف هي ووجه التطهير منها[2].

وإن شئت أن تتعجّب فتعجّب من العهد الجديد، المبنيّ على أنّ التوراة الرائجة هي التوراة الحقيقيّة، التي هي وحي الله وتكليمه لرسوله موسىﷺ. أفلا تراه حيث أراد أن يُلاشي شريعة التوراة في أحكامها، وخصوص تحريمها لأكل كثير من الحيوانات وتنجيسها وأحكام النجاسات والتنجيس، كيف لم يقدر أن يحبس بواعثه عن الظهور، فلم يملك لسانه عن التنديد بالشريعة، والتلويح أو التصريح بتكذيب كونها من الله؟

ولم يتستّر من مصانعة الأُمم بموافقتهم على عوائدهم استجلاباً لأهوائهم، فنسب إلى بطرس أنّه أُمر في الوحي بأن يذبح ويأكل من الحيوانات التي حرّمتها التوراة ونجّستها، فقال جرياً على شريعة التوراة: كلّا يا ربّ لأنّه لم يدخل فمي قطّ دنس أو

---

١. سفر اللاويّين: ١١.

٢. من سفر اللاويّين ١١ و ١٢ و ١٥ و ٢٢؛ سفر العدد ١٩.

نجس فأجابه صوت من السماء ثانية ما طهّره الله لا تنجّسه أنت[١].

أفلاترى أنّ هذا الكلام يقول مجاهرةً لا مخالسة: إنّ تنجيس الحيوانات وتحريم أكلها إنّما هو بشري، وأمّا عند الله فهي على خلاف ذلك بل هي طاهرة. وما طهّره الله فلا تدنّسه أنت؟

ونسب أيضاً إلى مشورة الرسل في عزمهم على ملاشاة الشريعة أنّ يعقوب قال: أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم، لأنّ موسى منذ أجيال قديمة له في كلّ مدينة من يكرز به إذ يقرأ في المجامع في كلّ سبت. ثمّ زعم أنّ الرسل بعد إمضائهم لهذا الرأي كتبوا إلى الأُمم ما ملخّصه:

> إذ قد سمعنا أنّ أُناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلّبين أنفسكم وقائلين: إن تختتنوا وتحفظوا الناموس الذي لم نأمرهم... لأنّه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عمّا ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى[٢].

أفلا تقول: أيّ مداخلة للرأي في شريعة الله؟ وإذا شاء الله أن يثقل بشريعته على أهواء الناس، لكي ينعم عليهم بأسباب الطهارة والكمال وشرف الطاعة، فمن ذا الذي يعارض الله في شريعته ورحمته، ويشاركه في أحكامه؟

وما هو معنى قول القائل: لأنّ موسى منذ أجيال قديمة له من يكرز به؟ أفتفهم من هذا القول مراداً غير التلويح بأنّ العمل بقيود التوراة إنّما كان محاباة لموسى وتنفيذاً لرئاسته، وكفاه من ذلك هذه المدّة، فإنّ الأيّام دول، والأشياء العتيقة قد مضت[٣]. وما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال؟[٤]. إذاً فأين نقل الإنجيل عن

١. أعمال الرسل ١٠: ١١ ـ ١٧ و ١١: ١١ ـ ١٢.
٢. أعمال الرسل ١٥: ٢٤ ـ ٣٠.
٣. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٥: ١٧.
٤. الرسالة إلى العبرانيّين ٨: ١٣.

قول المسيح في الحثّ على العمل بوصايا الناموس حتّى الصغرى، وأنّه لم يجئ لينقضه بل ليكمله؟[١] وأين حثّه على حفظ ما يقول الكتبة والعمل به لأنّهم على كرسيّ موسى جلسوا؟[٢]

وأيضاً ماذا ترى من المعنى في قوله: «فيما تقدّم قد سمعنا أنّ أُناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلّبين أنفسكم» إلى آخره؟

أفلاترى منه التقبيح لدعوة الداعين إلى حفظ الختان والشريعة، والتنفير منهم ومن دعوتهم وما يدعون إليه، والعمل بالمناقصة للاستئثار بالرئاسة، واستجلاب الأهواء بالمداهنة بإبقاء العوائد المألوفة والراحة المحبوبة؟

ولكنّ الرسائل المنسوبة لبولس زادت في التنقيص والمناقصة فقالت: «لا يصغون إلى خرافات يهوديّة ووصايا أُناس مرتدّين عن الحقّ كلّ شيء طاهر للطاهرين»[٣]. تفرض عليكم فرائض لا تَمَسّ، لا تَذُقْ ولا تَجُسَّ التي هي جميعها للفناء في الاستعمال حسب وصايا وتعليم الناس[٤]. لماذا يحكم في حرّيّتي[٥].

نعم، وقف هذا التنقيص عند قول القائل: ومن يغرس كَرْماً ومن ثمره لا يأكل، أو من يرعى رعيّة ومن لبن الرعيّة لا يأكل ـ إن كنّا نحن زرعنا لكم الروحيّات أفعظيم إن حصدنا منكم الجسديّات ـ هكذا أيضاً أمر الربّ أنّ الذين ينادون بالإنجيل من الإنجيل يعيشون[٦]. ويشارك الذي يتعلّم الكلمة المعلّم في جميع الخيرات[٧].

---

١. إنجيل متّى ٥: ١٧ ـ ٢٠.

٢. إنجيل متّى ٢٠: ١ و٢.

٣. رسالة بولس إلى تيطس ١: ١٤ و ١٥.

٤. الرسالة إلى أهل كولوسي ٢: ٢٠ ـ ٢٣.

٥. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ١٠: ٢٩ و ٣٠.

٦. رسالة بولس الأُولى إلى أهل كورنثوس ٩: ٧ ـ ١٥.

٧. الرسالة إلى أهل غلاطية ٦: ٦؛ انظر الرسالة إلى أهل رومية ١٥: ٢٥ ـ ٢٩.

الفصل الخامس في النكاح

وقد حرّمت التوراة نكاح عدّة من النساء، فحرّمت نكاح الأُمّ وامرأة الأب، والأُخت من الأب أو من الأُمّ أو منهما، وابنة الابن، وابنة البنت، والعمّة، والخالة، وامرأة العمّ، وامرأة الابن، وأُمّ المرأة، وبنتها، وبنت بنتها، وبنت ابنها، والجمع بين الأُختين، ونكاح امرأة الأخ[١].

ولكنّ التوراة الرائجة ذكرت لامرأة الأخ حكماً آخر، وهو أنّه إذا سكن إخوة معاً ومات أحدهم وليس له ابن، فإنّ أخاه يتزوّج بامرأته والبكر الذي تلده يقوم باسم الميّت لئلّا يمحى اسمه، وإن لم يرض الرجل أن يتزوّج امرأة أخيه الميّت فإنّ المرأة تأخذه إلى شيوخ إسرائيل وتشتكي عليه بذلك فإن أصرّ على أن لا يتزوّجها تتقدّم إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ: هكذا يفعل بالذي لا يبني بيت أخيه فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل[٢].

وحاشا للوحي الإلهي وقدس موسى من هذه العادة الوحشيّة الفظّة، الهاتكة لناموس الأدب والحياء والشرف، الواسمة بالعار، مع أنّها لا فائدة فيها إلّا زور لا حقيقة له. وكيف يكون البكر من هذه المرأة يقوم باسم الميّت؟ وإنّ مثل هذا الإبقاء لاسم الميّت ليقوم بزور آخر مثل هذا. فلا ضرورة إلى جعل الرجل بين خطرين: إمّا الشناعة وانهدام شرفه بالجرأة القبيحة من امرأة بذيئة، وإمّا التقيّد بامرأة لا يريدها، بل ربّما كان يتمنّى خلاص بيتهم منها ولو بموت أخيه.

وذكرت من أحكام النكاح أيضاً أنّ الرجل إذا تزوّج فتاةً وأشاع عنها أنّه لم يجد لها عذرة، فإنّ أباها وأُمّها يأخذانها ويخرجان علامة عذرتها على الثوب إلى شيوخ المدينة، ويقول أبوها: إنّ هذا الرجل افترى على ابنتي ويخرج علامة عذرتها ويبسط

---

١. سفر اللاويّين ١٨.

٢. سفر التثنية ٢٥: ٥ ـ ١١.

الثوب. فيؤدّب شيوخ المدينة الزوج، ويغرّمونه مائة من الفضّة لأبي الفتاة، وتكون امرأة لزوجها لا يقدر أن يطلّقها كلّ أيّامه.

وحاشا لله أن يكون هذا من شريعته، وإنّما هو تلفيق من وساوس المغفّلين؛ فإنّ أبا الفتاة إنّما يأتي الشيوخ بثوب عليه شيء من الدم الذي يمكن أن يؤخذ من كلّ دم وكلّ حيوان، فكيف يكون علامة للعذرة؟! وكيف يكون ذلك حجّة يفصل بها القضاء وتجب به المصادرة والنكال على الزوج المحتمَل صدقه؟! بل إنّ الأب في هذه الحال أولى بأن يُتّهم بالكذب؛ لمظنّة كونه يريد بهذه الحيلة رفع العار عنه وعن ابنته، وتخليصها من القتل بحكم الشريعة القاسية الآتية. بل إنّ هذا التشريع الفاسد يدعوه أيضاً إلى أن يجعل على خرقة دماً كذباً فيحتجّ به ليكتسب مائة من الفضّة، ويلقي ابنته كَلّاً على زوجها حتّى لا يطلّقها كلّ أيّامه.

ثمّ قالت التوراة الرائجة في هذا المقام:

ولكن إن كان الأمر صحيحاً لم توجد عذرة للفتاة، يخرجونها ويرجمها رجال المدينة حتّى تموت؛ لأنّها عملت قباحة في إسرائيل.

وهذه أيضاً شريعة قاسية مكذوبة على شريعة الله ممّن لا معرفة له ولا حكمة، فإنّ العذرة غشاء رقيق فيه ثقب يخرج منه الحيض وربّما تخرقه الطفرة، والضواغط والتفحّج العنيف، والحيض الخارج بحدّته عن مقتضى الطبيعة، فلا ينبغي أن يحكم على المرأة بمجرّد ذهاب عذرتها أنّها زنت وفعلت قباحة فترجم، فإنّ هذا ظلم فاحش.

وأيضاً كيف يعرف أن المرأة لم يجد لها زوجها عذرة؟! وماذا الذي يشهد له بأنّه لم يكن هو الذي افتضّ عذرتها؟ فإنّ افتضاضها لا يستلزم قطع أُذنها أو أنفها حتّى يعرف الأمر بحصول هذا الأثر وعدمه. نعم يثبت زنى المرأة بإقرارها أو شهادة الشهود عليها بأنّها زنت قبل ذلك. ولكن سَوق التوراة الرائجة أجنبيّ عن ذلك.

الفصل السادس في الطلاق

وهو ثابت في شريعة التوراة، والأناجيل تذكر عن المسيح أنّه صدّق على مشروعيّته في التوراة، وجعل السبب لشريعته فيها هي قساوة قلوب بني إسرائيل. ثمّ منع منه إلّا ماكان لعلّة الزنى.

وقد ذكرنا لك في الجزء الأوّل[١] ما تذكره الأناجيل في الاحتجاج على المنع المذكور، وبيّنّا ما في الاحتجاج من الوهن الذي يجب أن ينزّه عنه المسيح‌عليه السلام. وإنّ صورة الاحتجاج تعود بالتوهين والتغليط لشريعة موسى‌عليه السلام.

وذكرت التوراة أنّ الزوج لا يقدر على الطلاق في موردين:

أحدهما: إذا ادّعى أنّه لم يجد لامرأته عذرة، وأظهر أبوها علامة عذرتها، كما تقدّم.

وثانيهما: إذا زنى بعذراء غير مخطوبة، فإنّه يتزوّجها ولا يقدر أن يطلّقها كلّ أيّامه[٢].

ومن أحكام الطلاق أنّ الرجل إذا لم تعجبه امرأته لأنّه وجد فيها عَيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق وأخرجها من بيته، فلها أن تتزوّج بآخر فإن طلّقها الثاني أو مات فالأوّل لا يقدر أن يتزوّجها ثانياً بعد أن تنجّست؛ لأنّ ذلك رجس عند الله يجلب خطيئة على الأرض التي لبني إسرائيل[٣].

وليت شعري ما معنى كونها تنجّست؟ وبماذا تنجّست؟

هذا، ولم تذكر التوراة الرائجة عدّة تقعد فيها المطلّقة قبل أن تتزوّج بالثاني، لكي يطمئنّ بعدم حملها من الأوّل فلا يختلط النسل، وهذه حكمة لازمة المراعاة.

الفصل السابع في الحرب والجهاد

ذكرت التوراة الرائجة أنّ من بنى بيتاً ولم يدشّنه أو غرس كَرْماً ولم يبتكره، أو

---

١. تقدّم في ج ١، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦.

٢. سفر التثنية ٢٢: ٢٩.

٣. سفر التثنية ٢٤.

خطب امرأة ولم يأخذها، فإنّه يرجع من الحرب إلى بيته؛ لئلّا يموت فيدشّن بيته أو يبتكر كَرْمه أو يأخذ مخطبوته رجل آخر. والرجل الخائف والضعيف القلب أيضاً يرجع.

وهذه شريعة تهوّن أمر الجهاد في سبيل الله ودعوة الحقّ، وتذمّ شرف الشهادة في نصرة التوحيد وتمهيد العدل والصلاح، وتصرف أنظار الناس وقلوبهم عن الجهاد إلى زخارف الدنيا الفانية، وتعطف قلوبهم إلى الرغبة فيها فتوجب لهم التقاعد والتخاذل عن النهضة الحميدة خصوصاً إذا نودي بذلك في الجيش وهذا مضادّ للحكمة في نهضة الحقّ وجهاد المشركين.

نعم، ما أحسن هذه الشريعة للنجاة ممّا تذكره التوراة الرائجة في شريعة الحرب القاسية، من قتل الأطفال والنساء والبهائم، كما ستسمعه!

فقد ذكرت التوراة الرائجة أنّ مدن الحِثّيّين والأموريّين والكنعانيّين والفرزيّين والحوّيّين واليَبُوسيّين يُحرِّمها بنو إسرائيل تحريماً لا يستبقون منها نسمة ولا يقطع معهم عهداً ولا يشفق عليهم. وأمّا مدن غير هؤلاء من الأُمم فتستدعي إلى الصلح فإن أجابت فكلّ الشعب الذي فيها يستعبد وإن حاربت وفتحت فجميع ذكورها يقتلون وتكون النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما فيها غنيمة[1].

وإنّ ما في هذه الشرائع من الوحشيّة والقساوة، ليدلّك على أنّها ليست من شريعة الله ولا تعرف موسى. ثمّ أيّ وجه وحكمة للتفرقة في سوء الولاية بين الشعوب الستّة المذكورين وبين سائر الأُمم؟ فإن كان هو الخوف من الإغواء بشركهم والعدوى بضلالهم، فهو موجود بالنسبة إلى سائر الأُمم، بل إنّ الخوف من الكبار الذين يبقون في الصلح والحرب ومن سائر الأُمم أشدّ وأشدُّ من الخوف من الطفل الذي لا يعرف ما كان عليه آباؤه فلماذا حُكِم بقتل الأطفال من الشعوب الستّة؟

ومع ذلك فالتوراة الرائجة تذكر أنّ موسى عليه السلام لم يعمل بهذه الشرائع في سبي مديان، بل أمر بقتل جميع الذكور من الأطفال وجميع النساء اللاتي قاربهنّ رجل واستبقى

---

١. سفر التثنية ٢٠.

البنات اللاتي لم يقربهنّ رجل، وهنّ اثنتان وثلاثون ألفاً. فقل: كم قتل من الأطفال الذكور والنساء الثيّبات؟ ولماذا أبقى البنات العذارى إن كنّ من الشعوب الستّة؟ ولماذا قتل الأطفال الذكور والنساء الثيّبات إن كانوا من غيرهم؟ حاشالله ولرسوله موسى من تشريع هذه العوائد الجائرة القاسية.

أفترى أنّ الله يرسل رسله ليصبغوا الأرض من دماء الأطفال؟ مع أنّ التوراة الرائجة لم تذكر من غايات هذه الحروب القاسية دعوة الأُمم إلى التوحيد والعدل والصلاح، وإنّما ذكرت أنّ الغاية هو استلاب بني إسرائيل للأرض. مع أنّ مقتضى العهد القديم أنّ بني إسرائيل لم يخلوا في جيل من أجيالهم من عبادة وثنيّة، كما ذكرنا في الجزء الأوّل[1].

ويالهفاه على الحضارة والمدنيّة ممّا جنته عليها هذه العوائد الفظّة القاسية؟ ويالهفاه للشريعة الإلهيّة إذ تلصق بها هذه القساوة والفظاظة الفاسدة؟ وكيف تعجب إذاً من حوادث الوقت إذا انبعثت من ثوراتها أمثال هذه المصائب، ناتجة فيها من مجاهرة التوثّب ودعوى الحياد؟

سهمٌ أصاب وراميهِ بذي سَلَمٍ مَن بالعراقِ لقد أبْعَدْت مَرماك[2]

الفصل الثامن في السياسة الشرعيّة

وقد ذكرت أحكاماً كثيرة في القصاص والتغريمات والحدود والتعزيرات، يُعرف أغلبها من الحادي والعشرين والثاني والعشرين من الخروج، والخامس والثلاثين من العدد، وغير ذلك من متفرّقات التوراة.

ولا يخفى على كلّ عاقل أنّه لا تستقيم المدنيّة، ولا يطمئنّ الاجتماع، ولا تسكن الثورات، ولا يقلّ الظلم، ولا تعرف الحقوق قرارها، إلّا بسيادة السياسة وسلطة التأديب وتدارك التغريم، فإنّ ذلك روح المدنيّة وحياة النفوس والحقوق. ولم تنتظم بدون ذلك

١. تقدّم في ص ٤٧٩ ـ ٤٩٦.

٢. لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يدي.

ملّة ولا دولة، بل لا تنتظم بدونها عائلة بيت. وإن اختلفت مصادرها وتفاوتت مبانيها.

ولكنّ العهد الجديد يقول: قد سمعتم أنّه قيل ـ أي في التوراة ـ: عين بعين وسنّ بسنّ. وأمّا أنا فأقول: لا تقاوموا الشرّ، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً[١].

وإنّ من يحمل الكلام على أحسن وجوهه وأصحّها، ينبغي أن لا يحمل هذا الكلام على المعارضة والمقاومة لسيادة السياسة الشرعيّة الشريعة الإلهيّة، ليترك العباد هملاً ويكون شريكاً للفاسقين والظالمين والكافرين. بل ينبغي أن يحمل على التعليم لصاحب الحقّ بالملاينة وفضيلة العفو والتصدّق بالمسامحة، كما ندب القرآن الكريم إلى التصدّق بالقصاص، وفضيلة العفو الذي هو أقرب للتقوى.

الفصل التاسع في المواريث

جعلت التوراة الرائجة من ميراث الرجل للابن البكر مع إخوته نصيب اثنين[٢]. وليس للبنات مع وجود الابن أو الأبناء شيء، نعم جعلت الإرث للبنت إذا لم يكن للرجل الميّت ابن. وإن لم يكن بنت فميراثه لإخوته. وإن لم يكن له إخوة فلإخوة أبيه. وإن لم يكن لأبيه إخوة فلنسيبه الأقرب[٣].

هذا ما تعرّضت له من المواريث، ولم تتعرّض للميراث من المرأة إذا ماتت. ولم تجعل للأبوين شيئاً من إرث ولدهما.

ولا يخفى أنّ حرمان البنات مع وجود الابن لا يخلو من القساوة والوحشيّة التي وبّخ عليها القرآن الكريم جاهليّة العرب. وحاشا للشريعة الإلهيّة أن تتركهنّ صفرات اليد مَتْعُوسات الحظّ، بعد ما مات أبوهنّ وكافلهنّ بالشفقة والرحمة وهنّ الضعيفات. هذا ما اقتضى الحال والاختصار ذكره من شريعة التوراة الرائجة.

---

١. إنجيل متّى ٥: ٣٨ ـ ٤٠.

٢. سفر التثنية ١: ١٧.

٣. سفر العدد ٢٧: ٨ ـ ١٢.

وأمّا شريعة العهد الجديد

فقد ذكرنا لك منها ما تذكره الأناجيل عن قول المسيح من أنّه لم يجئ لينقض الناموس، وأنّه يحثّ على العمل بوصاياه حتّى الصغرى. وذكرنا أيضاً معارضة الأناجيل لحكم الطلاق والحلف والسياسة، ومعارضة باقي العهد الجديد بإباحة ما حرّمته التوراة وتطهير ما نجّسته ونسخ حكم الختان وسائر القيود. ثمّ لنذكر لك شيئاً ممّا اختصّ به عن التوراة الرائجة، فاعلم أنّه قد أكثر في الحثّ على التقوى ومكارم الأخلاق والزجر عن رذائلها، بنحو يفوق على التوراة في حسن بيانه وروحانيّة تعليمه، ولكنّه متى تعدّى عن مأخذه شذّت به الشواذّ وتقلّبت به الأحوال.

واعلم أنّ المسيح ويوحنّا المعمدان عليهما السلام ـ أي يحيى بن زكريّا ـ قد أشرقا على العالم بنور الموعظة والتعليم الروحي، ونشرا لواء الدعوة إلى الكمال الحقيقي، ووقفا نفسيهما الكريمتين في سبيل تهذيب النفوس والأخلاق، ونبّها على ظاهر أدواء النفوس وباطنها، ومثار أوبئة الأخلاق وفساد الأهواء، فحذّرا من عدواها، وعلّما علاجها، ودلّا على دوائها. ففتحا بيمارستان التعليم، وطافا لعموم العلاج، ولَطّفا للناس الدواء، وروّقاه بعذب البيان ولطف الدعوة ومزاج الحكمة واستشعرا الزهد والتقشّف والوعظ والإرشاد، والعبادة والاجتهاد، رغبةً فيما عند الله، وليقتدي الناس بهما ويهتدون بهداهما فمهّدا سبيل الوعظ والتعليم، وسهّلا للناس تعاطيه والتفنّن في بيانه. فسلكه بعدهما تابعوهما والملتصقون بتابعيّتهما، واختلفوا فيه بالقول والعمل بين صادق وماذق، وعارف وقاصر، وناصح ومخادع.

خَلِيلي قُطّاعُ الطَرِيقِ إلى الحِمَى ... كَثيرٌ وإنَّ الواصلين قَلِيلُ[١]

فلا عجب إذاً إذا تحرّى العهد الجديد منهج الوعظ والتعليم تمثّلاً بشبه الانتساب. ولكنّه ويا للأسف كم وكم شذّت به الشواذّ، فجمع بين الأضداد، وألقى مضامينه في

١. لم أجد هذا البيت في المصادر التي بين يدي.

معترك التناقض، فضح التطبّع شيمة المطبوع.

وجاء في الإنجيل الرائج عن قول المسيح: «لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأنّ أباكم واحد الذي في السماوات».

يا أسفاه فإنّا نرى كلّ من يتصدّر من النصارى للرئاسة الدينيّة، والسيطرة في تعليم الإنجيل، لا يرضى من الناس إلّا أن يدعوه «الأب فلان» فيدعوه الناس بذلك بلا نكير، بل هو أيضاً يسمّي نفسه «الأب فلان» وليس هذا في عصر واحد وقرن واحد. وما أكثر ما تسمع وترى في الصحف قول النصارى في رؤساء ديانتهم «الآباء اليسوعيّين».

عجباً فأين نقل الإنجيل عن تعليم المسيح؟ أتراهم يرون الإنجيل مكذوباً على المسيح، أم ألهمهم روح القدس أن يجعلوا هذا التعليم وهذا النهي تحت أقدامهم؟

وممّا كرّره العهد الجديد وأكّده في تعليمه حثّ العبيد على طاعة ساداتهم، وأن يحسبوهم مستحقّين كلّ الإكرام، وإن كانوا غير مؤمنين[١]. ويرضوهم في كلّ شيء[٢] ولم يتعرّض في هذين المقامين لشيء من تعليم السادة بالرأفة بعبيدهم، ولكنّه أكّد وشدّد على العبيد بأن يخدموهم بخوف ورعد في بساطة قلب[٣]. ويطيعوهم في كلّ شيء من القلب كما للربّ[٤]. نعم في هذين المقامين أوصى السادة بمعاملة العبيد بالعدل والمساواة، وأن يتركوا التهديد.

وهذان التعليمان لم يجريا على ناموس الحكمة، بل جريا على المحاباة ومصانعة الوجوه؛ فإنّ العبيد المساكين تكفيهم عصا السادات في التعليم وعنف التسخير، خصوصاً إذا كان ساداتهم غير مؤمنين.

---

١. الرسالة الأُولى إلى ثيموثاوس ٦: ١ و ٢.

٢. الرسالة إلى تيطس ٢: ٥٩.

٣. الرسالة إلى أهل أفسس ٦: ٥.

٤. الرسالة إلى أهل كولوسي ٣: ٢٢ و ٢٣.

وإنّ الذي تقتضيه الحكمة هو التأكيد على السادات بمعاملة العبيد بالرأفة والرحمة والتخفيف، وترغيبهم إلى فكّ عبيدهم من أسر الرقّ وعنائه وذلّته، كما احتاط القرآن الكريم على هذه المكارم من جميع وجوهها، حتّى جعل العتق باباً من العبادات والقُرُبات، ونحواً من خصال الكفّارات. وجعل سهماً من الزكاة لفكّ العبيد من عناء الرقّ، وسيأتي بيان ذلك مفصّلاً مشروحاً في محلّه إن شاء الله.

وشدّد أيضاً بالتعليم بالخضوع للسلاطين القائمة، معلّلاً بأنّها من الله ومرتبة منه، وأنّ من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله؛ لأنّه خادم الله للصلاح يلزم أن يخضع له بالضمير، ويوفى الجزية لأنّه خادم الله. وأن تعطى الجزية لمن له الجزية، والجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، يعطى الجميع حقوقهم هذه[١].

وهذا التعليم لأهل روميّة الذين هم تحت سلطان قيصر، وإنّ القياصرة في الوقت المجعول له هذا التعليم قد كانوا وثنيّين وأعداء للملّة النصرانيّة، مضطهدين لمن ينتسب إلى المسيحيّة. وكلّ من يعتبر تلك الحال يعلم أنّ هذا التعليم قد تعدّى إلى الإفراط الفاسد. نعم لو كان بغير هذا الأُسلوب، لأمكن أن يجري على وجه صحيح.

ومضمون نقل الأناجيل عن المسيح هو أنّ الجزية ليست حقّاً للقياصرة، ولا يجوز إعطاؤها لهم. وذلك أنّ اليهود نصبوا له شبكة في سؤالهم عن إعطاء الجزية لقيصر، لعلمهم بأنّه لا يجوز ذلك، فأرادوا أن يجاهر بذلك فيجعلونه ذنباً عليه عند قيصر والوالي. فعلم بمكرهم وخبثهم فلجأ إلى التقيّة والحياد عن الجواب بالمنع، ولكنّه مع ذلك سلك مسلك التعمية والإيهام في الجواب، فأخذ ديناراً فقال: لمن هذه الصورة؟ فقالوا: لقيصر فقال: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله[٢]. فجمع بين التقيّة والتخلّص من مكرهم، وبين عدم المجاهرة بمخالفة حكم الله. فتلطّف وعمّى في الجواب. ولكنّه لمّا

---

١. الرسالة إلى أهل رومية ١٣: ١ ـ ٨.

٢. إنجيل متّى ٢٢؛ إنجيل مرقس ١٢؛ إنجيل لوقا ٣٠.

أمر بطرس بإعطاء الجزية عنهما، بيّن له أنّ إعطاءها لهم لئلّا يكدّرهم ويحملهم على العَثَرة به[١].

وأين هذا من التعليم المتقدّم الذي يجعل الجزية حقّاً لقيصر؟ أفلاترى محاباة السلطان وخدمة أفكاره لائحة أو ظاهرة على تطرّفه ومغالاته، أم تقول: إنّه تعليم سلطاني؟

وقد حثّ العهدان على السلام، ففيهما: «أحبّوا الحقّ والسلام»[٢] طوبى لصانعي السلام لأنّهم أبناء الله يدعون[٣]، وإنّ ملكوت الله برّ وسلام[٤]. وهو من ثمار الروح[٥]. ومن اهتمامها[٦]. وثمر البرّ يزرع بالسلام من الذين يفعلون السلام[٧]. اتّبعوا السلام مع الجميع[٨]. إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس[٩]. حتّى أنّ الإنجيل يذكر عن قول المسيح نهي المظلوم عن الانتصار والانتصاف بل والدفاع. كما في قوله: لاتقاوموا الشرّ من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً[١٠].

وإنّ أولى من يتّبع هذه التعاليم ويعلم بها، هم الذين يدّعون الروحانيّة والرئاسة الدينيّة ولكنّك لو استنطقت التأريخ المتعجّب عمّا جنته دوائر الكاثوليك على البروتستنت، ودوائر البروتستنت على الكاثوليك، لأنبأك بغرائب المصائب ومنكرات

---

١. إنجيل متّى ١٧: ٢٧.

٢. كتاب زكريّا ٨: ١٩.

٣. إنجيل متّى ٥: ٩.

٤. الرسالة إلى أهل روميّة ١٤: ١٧.

٥. الرسالة إلى أهل غلاطية ٥: ٢٢.

٦. الرسالة إلى أهل روميّة ٨: ٦.

٧. رسالة يعقوب ٣: ١٨.

٨. الرسالة إلى العبرانيّين ١٢: ١٤.

٩. الرسالة إلى أهل روميّة ١٢: ١٨.

١٠. إنجيل متّى ٥: ٣٩ و ٤٠.

الأحوال، وإن باح لك ببعض سرّه لا بكلّه أوجلّه.

أفترى ذلك كان لأجل سياسة ملكيّة؟ كـلّا، ولكـنّها قسـاوة مـزاعـم الروحـانيّة، وعواصف تلك الأهواء الوبيئة.

ولو سألت الزمان المتحسّر والتأريخ المتأسّف وقلت: من هـو الذي قـاوم الديـن والصلاح، والإنسانية والسلام، واضرم نـار الحـروب الصـليبيّة، وقـاد ظـلمها وسـاق قسوتها، وأثكل الإنسانيّة وألبسـها ثـوب الحـزن والعـار والشـنار؟ لقـالا لك بـعين عَبْرى[1] وقـلـبٍ شـجٍ[2]: لا نـعلم مـثيراً لغـبارها، ونـاشراً للـوائـها، ومـورياً لنـارها، ومُلْقِحاً لها، ومستنتجاً مـنها ذاك النـتاج المشـوم، إلّا الأُسـقفيّة والمـطرنة ومـزاعـم الروحانيّة والرهبنة.

لماذا؟ أهي لأجل الدعوة إلى التوحيد؟

لا، بل للدعوة إلى التثليث وتأليه البشر.

أم هي لأجل ترك الأوثان؟

لا، بل لأجل تمثيل الصور والأيقونات.

أم لأجل العمل بالشريعة؟

لا، بل لأجل الاستراحة من نواميسها المكمّلة ورياضاتها المؤدّبة.

أم لأجل تقديس المسيح وتنزيهه عن قول الباطل فيه ؟

لا، بل لأجل أن يُتلَى في شأنهﷺ [ما في إنجيل متّى وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنّا][3] وسائر ما ذكرناه في الجزء الأوّل[4].

ودع عنك نهباً صِيح في حجراته[5].

---

١. استعبر: بكى، والعين العبرى: العين الباكية. انظر الصحاح ٢: ٧٣٣، «ع ب ر».

٢. الشجي: الحزن، وقلب شجٍ: حزين. انظر الصحاح ٦: ٢٣٨٩، «ش ج أ».

٣. إنجيل متّى ١١: ١٨ و ١٩ و ١٢: ٤٦ ـ ٥٠؛ إنجيل لوقا ٧: ٣٦ ـ ٥٠؛ إنجيل يوحنّا ٧: ٨ و ١٠ و ١٣: ٢٣ ـ ٢٦.

٤. تقدّم في ج ١، ص ٢٣٠ ـ ٢٤٣ و ٢٦١ ـ ٢٦٥.

٥. ديوان امرئ القيس: ٩٤. وتمام البيت: ولكن حديث ما حديث الرواهل.

أفلا ترى وتسمع في يومك وأمسك ضوضاءَ الهمجيّة الفاحشة، وتفاحش القول البذيء في الجرأة القبيحة على قدس رسول الله المصطفى ﷺ، ممّا يُوقر[١] صَدَى ضلاله أُذنيك وتُقذِي[٢] به صُحُف السوء عَينيك.

وهل تجد تلك النفثات الشيطانيّة والضلالات الدجّاليّة إلّا من مزاعم الروحانيّة، التي اعتمدت بالماء، ثمّ ارتبكت بالضلال والخطايا؟

فيا للتوحيد والإيمان! ويا للدين والتقوى! ويا للعدل والصلاح! ويا للأدب والشرف! أليس رسول الله ﷺ هو الذي نهض بنفسه الكريمة، في معترَك الضلال، ومحتشَد الشرك، وغمرات الظلم، وظلمات الوحشيّة، فأقام منار التوحيد وأعلام الإيمان ومحا ضلال الشرك، واستأصل الوثنيّة، ولاشى العوائد الوحشيّة، وأحيا نظام العدل، وأوضح نهج الصلاح، ومهّد سبيل التقوى وسهّل معارج السعادة، لا تأخذه في الله لومة لائم؟! كلّ ذلك بأصدق دعوة، وأحسن موعظة، وأجمل دفاع، أعدّ عدّته بعواطف الرحمة، وكريم الصفح، وحسن الولاية، وجميل الأثر.

وهل تراهم نقموا منه إلّا تبليغه عن الله ـ تقدّست أسماؤه ـ قوله جلّت آلاؤه في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟[٣] فهل وجدوا في ذلك دعوةً إلى الشرك، أو اختلاساً في التوحيد، أو غِشّاً في النصيحة، أو شدّة في التوبيخ، أو عنفاً في الزجر، أو فحشاً في القول، أو غلظةً في الموعظة، أو بذاءةً في الكلام.

ولئن ساءهم هدى هذه الدعوة، وحسن هذه الموعظة والنصيحة، فإنّه يسوء أوّلاً سابقيهم في دعوة التثليث والأقانيم. وها هم البراهمة والبوذيّون، لا تنفلت منهم هذه البوادر، ولا تبدر منهم هذه الفحشاء.

---

١. الوقر: ثقل السمع.
٢. القذى: ما يقع في العين من فتات ورق الشجر والرمل وغيره فيؤذيها. انظر الصحاح ٦: ٢٤٦٠، «ق ذ ي».
٣. النساء (٤): ١٧١.

وقد اقتضى لي الاستعجال في نشر هذا المكتوب، أن أختم الجزء الثاني من كتاب الهدى حامداً لله، شاكراً لفضله، مصلّياً على أنبيائه ورسله وأوليائه، سائلاً منه بحرمتهم أن يسدّدني بالتوفيق، ويفتح لي باب الهدى والصواب، إنّه وليّ التوفيق وهو أرحم الراحمين.

شكر واعتذار[١]

حيث كان في خطّي غموض، وبلادي شاسعة عن المطبعة، فلا جرم أن وقعت في الطبع أغلاط لا تزيد على المعتاد بكثير. ولولا عناية الفاضل صاحب العرفان دام توفيقه لزاد الغلط، فإنّي أشكر فضله كما يجب، وعلى الله جزاؤه، إنّ الله يجزي المحسنين.

وسنشير إلى خفيّات الأغلاط وصحيحها في ضمن جداول.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف، الترجمة المطابقة مأذون في طبعها.

١. من المصنّف العلّامة في نهاية الجزء الأوّل من الطبعة الأُولى.

فهرس الموضوعات

دليل الموسوعة ٣٨٩

المقدّمة الثالثة عشرة

في دفع الاعتراضات على قدس القرآن الكريم

الفصل الأوّل: في الاعتراضات عليه من حيث العربيّة ٣٩٣

عدم الفهم لما يلزم تفهّمه ٤٠٣

اشتباهات بعض اللغويّين والمفسّرين ٤٠٤

الأوّل: الخلط في معنيي «اللمس والمسّ» ٤٠٤

الثاني: الاشتباه في تفسير قوله تعالى ﴿فكان قاب قوسين...﴾ ٤٠٥

الثالث: الاشتباه في تفسير قوله تعالى ﴿وكان وراء هم مَلِكٌ...﴾ ٤٠٦

بيانٌ وتفسيرٌ للآية ١٧٧ من سورة البقرة: ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم...﴾ .. ٤٠٩

تتمّة: بيان سبب نزول الكريمتين ﴿يأيّها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك...﴾ . ٤١٧

عود إلى دفع الاعتراضات من حيث العربية ٤١٩

الفصل الثاني: في أوهام الاعتراضات على القرآن الكريم من حيث وضع الأرض.. ٤٥٩

الفصل الثالث: في دفع الاعتراض على القرآن الكريم من حيث خلق السماوات..... ٤٦٧

الفصل الرابع: في دفع أوهام الاعتراض على قصص القرآن الكريم وتأريخه ٤٧٢

صدر وتمهيد: ٤٧٢
التنبيه المقصود هاهنا: اعتراف المحشّين والمترجمين بوقوع التحريف في العهدين . ٤٧٤
تتمّة الصدر والتمهيد: وقوع التناقض في التأريخ في العهدين ٤٩٠
القسم الأوّل: وقوع التناقض في كتاب واحد ٤٩٢
القسم الثاني: اختلاف نُسَخ التوراة في التأريخ ٤٩٩
القسم الثالث: اختلاف كتب العهدين في التأريخ ٥٠٦
المقام الأوّل: اختلاف العهدين في طرد النسب ٥٠٦
المقام الثاني: اختلاف العهدين في تأريخ بني إسرائيل ٥٠٨
المقام الثالث: اختلاف العهدين في مفردات الكلام ٥١٢
المقام الرابع: اختلاف العهدين في الحروف ٥١٥
المقام الخامس: اختلاف ذات الأناجيل فيما بينها في التأريخ ٥١٦
المقام السادس: اختلاف كتب العهد القديم فيما بينها في التأريخ ٥١٦
المقام السابع: اختلاف كتب العهدين فيما بينها في التأريخ ٥١٩
المقام الثامن: اختلاف الكتاب الواحد من العهد القديم ٥٢٢
آيات خلق السماوات والأرض ٥٢٣
آيات خلق الجانّ ٥٢٩
بيلي والمتكلّف والأرواح النجسة ٥٣٢
آيات خلق آدم وشأن الملائكة ٥٣٥
حديث آدم وحوّاء وأكلهما من الشجرة ٥٤٥
آيات خلق الناس من نفسٍ واحدة ٥٤٧
آيات نبأ ابني آدم هابيل وقابيل ٥٤٧
قصّة نوح وقومه ٥٤٩
غرق ابن نوح في الطوفان ٥٥١
الاختلاف في عمر نوح ٥٥٣

آيات القرآن في شأن إبراهيم ٥٥٤
شأن إبراهيم والكواكب ومحاجّته مع النمرود ٥٥٤
إيمان إبراهيم ٥٥٨
إبراهيم وأبوه آزر ٥٦١
بشرى الملائكة لإبراهيم وقصّة قوم لوط ٥٦٣
شأن إبراهيم وابنه إسماعيل وبناء الكعبة ٥٦٥
رسالة هود إلى عاد، وصالح إلى ثمود، وشعيب إلى مدين، وشؤون هؤلاء ٥٧٩
سورة يوسف في القرآن الكريم وقصّته فيها ٥٩٠
اعتراض المتكلّف على الكريمة في إخوة يوسف ٥٩٥
قصّة يوسف مع امرأة عزيز مصر ٥٩٧
موسى ﷺ وما نزلت في شأنه وقوم بني إسرائيل ٦٠٣
استطراد ومناسبة في الذكر: ﴿شجرة تخرج من طور سينا﴾ ٦٠٥
بعث موسى وهارون إلى فرعون وملإيه ٦٠٨
القرآن وإيمان فرعون حين الغرق ٦٢٨
استسقاء موسى لقومه ٦٣٥
القرآن والسامري والعجل ٦٣٩
قوم بني إسرائيل من بعد موسى وبعث طالوت لهم ملكاً ٦٤٥
سفر القضاة والاختلاف فيمن ينسبونه له ٦٥٤
سفرا صموئيل ٦٥٨
آيات في شأن داود النبيّ ٦٥٨
تسبيح الجبال والطير مع داود ٦٦٠
آيات في شأن سليمان ٦٦٤
آية السحر وما أُنزل على هاروت وماروت ٦٧٤
آية يوم السبت ٦٧٦

رَجل أماته الله مائة عام ثمّ بعثه ٦٨٠
إحياء الله قوماً بعد أماتتهم ٦٨٤
لقمان، شأنه وحكمته ووعظه ٦٨٧
ذوالقرنين ٦٩٤
شأن زكريّا ٦٩٦
شأن مريم أُمّ المسيح عليه السلام ٦٩٨
طلب زكريّا للآية وصمته ٧٠٠
شأن حمل مريم الطاهر بالمسيح وولادتها المقدّسة ٧٠٢
مائدة المسيح ٧٠٨
أصحاب الكهف ٧١١
معراج رسول الله إلى السماء ٧١٣
الحلف في القرآن والعهدين ٧١٦
آية الكفر بعد الإيمان ٧٢٠
جعل الشفاء في عسل النحل ٧٢٥
عرض الأمانة على السماوات و... .... ٧٢٥
تفسير دابّة الأرض ٧٢٦
أبواب جهنّم ٧٢٧

المقدّمة الرابعة عشرة

فيما تضمّنه العهدان الرائجان من حيث اللاهوت والنبوّات والشريعة والآداب

الفصل الأوّل في الإلهيّات ٧٣١
الفصل الثاني في النبوّة والأنبياء ٧٤٧
أحوال الأنبياء ٧٤٨
المسيح في العهد الجديد ٧٥٢

الفصل الثالث: القيامة والآخرة والثواب والعقاب في العهدين ٧٦٢
العهد الجديد رجعة المسيح وعلاماتها ٧٦٧
الفصل الرابع: الشريعة في العهدين ٧٧٠
الفصل الأوّل في الأوامر والنواهي الواردة في الآداب وتهذيب الأخلاق ٧٧١
الفصل الثاني في الشعائر والمواسم والعبادات ٧٧٢
الفصل الثالث في الملابس والمطاعم ٧٧٧
الفصل الرابع في الطهارة والنجاسة ٧٧٨
الفصل الخامس في النكاح ٧٨١
الفصل السادس في الطلاق ٧٨٣
الفصل السابع في الحرب والجهاد ٧٨٣
الفصل الثامن في السياسة الشرعيّة ٧٨٥
الفصل التاسع في المواريث ٧٨٦
شريعة العهد الجديد ٧٨٧